الفرقان

٩ - ١٠

سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي

الفرقان

في تفسير القرآن بالقرآن والسنة

الجزء التاسع والعاشر

سورة الأعراف مكية وآياتها ٢٠٦

تتمة سورة الأعراف

سورة الأعراف

مكيّة وآياتها ٢٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) وَإِذْ
نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ (١٧١) وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ
أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا
إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنا

بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ
الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ
بِها وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ
يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) ساءَ
مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَأَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ
يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (١٧٨) وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا
يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ

بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ﴾(١٧٩)

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾(١٧٠).

هنا «الكتاب» هو كتاب الشرعة الربانية أيا كان وأيان ، وكلما كان الكتاب أعلى محتدا وأغلى قدوة ، كان التمسيك به أوجب وأحرى.

والتمسيك الطليق هنا بطليق الكتاب يحلّق على كل تمسيك لواجب الحق الحقيق بالاتباع علميا وعقيديا وأخلاقيا وعمليا وما أشبه.

كما ويحلق على التمسيك به باجتهاد طليق ، أو تقليدا اجتهادي سليم ، أم عوان بينهما لفيق.

إذا ف «الذين» يشمل كافة المكلفين بكتاب الشرعة أن تكون لهم منه حظوة ممسّكة لكل محبور في شرعة الله ، وعن كل محظور فيها.

أجل ، وعلى الورثة المجتهدين أن يجدوا السير في ذلك التمسيك لأنفسهم ولسائر المكلفين ، كما وعلى الورثة التقليدين أن يجيدوا تقليدهم تبنيا للكتاب كأصل أصيل ، سائلين أهل الذكر بالبينات والزبر دون تقليد أعمى وكما يقول الله تعالى : ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ﴾ (١٦ : ٤٤) سؤالا بالبينات والزبر المعصومة الخالصة وحيا ، وكما أن أهل الذكر لا أهلية لهم في تلك المسؤولية إلا بالبينات والزبر.

وهنا ﴿أَقامُوا الصَّلاةَ﴾ بعد ﴿يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ﴾ ، إشارة إلى أن الصلاة وجه الدين حينما الدين هو الكتاب وكما يروى عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) قوله : «لكل شيء وجه ووجه دينكم الصلاة فلا يشينن

أحدكم وجه دينه» [١].

فكما أن الوجه يعرف به جملة الإنسان كذلك الصلاة يعرف بها جملة الدين المستفادة من الكتاب، لأنها أظهر العبادات وأشهر المفروضات.

فورثة الكتاب، الدارسون ما فيه، المسّكون به كأصل أصيل بين كل الفروع والأصول، إنهم هم المصلحون، وكلما كان الكتاب الرباني أعلى محتدا، كان التمسيك به أغلى، وتركه أنحى وأنكى، فإذا كان ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً﴾ (٦٢ : ٥) فما ذا يكون ـ إذا ـ مثل الذين حمّلوا القرآن ثم لم يحملوه، أليس أشد وأمثل من مثل الحمار الحامل للأسفار؟!.

وهنا «يمسّكون» تفعيلا دون «يمسكون» فعلا، يدلنا على أن واجب ورثة الكتاب أن يمسكوا أنفسهم وسائر الأمة ـ في حقل الإيمان بمواده الصادقة الأصيلة الصافية ـ يمسكون كل ذلك بالكتاب في كل حقول المعرفة والعقيدة دون إبقاء، تمسيكا مسيكا بوفرة وكثرة وتلاحق، دون ترك له أو إهمال إياه ولا لفترة قصيرة.

أجل، وبالكتاب يمسّك أهلوه في الحق من كل زلة وضلّة، ومن أية تخلّفة وعلة واختلاف، إلى كل تألّف وصحة وائتلاف.

وهنا يندد الإمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) بالذين اختلفوا عن القرآن وفي القرآن، وتركوه وراءهم ظهريا، ممسكين بكل ممسك إلّا الكتاب، إلّا إذا فسر كما يهوون قائلا : «وإنه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق، ولا أظهر من الباطل، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله ـ وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق

---

(١) المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي (١٣٢).

تلاوته ، ولا أنفق منه إذا حرف عن مواضعه ، ولا في البلاد شيء أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر .

فقد نبذ الكتاب حملته ، وتناساه حفظته ، فالكتاب يومئذ وأهله طريدان منفيان ، وصاحبان مصطحبان في طريق واحد لا يؤويهما مؤو .

فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس وليسا فيهم ، ومعهم وليسا معهم ، لأن الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعا .

فاجتمع القوم على الفرقة ، وافترقوا عن الجماعة ، كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب إمامهم ، فلم يبق عندهم منه إلا اسمه ، ولا يعرفون إلا خطه وزبره ، ومن قبل ما مثلوا بالصالحين كل مثلة ، وسموا صدقهم على الله فرية ، وجعلوا في الحسنة عقوبة السيئة ، وإنما هلك من كان قبلكم بطول آمالهم ، وتغيب آجالهم ، حتى نزل بهم الموعود الذي ترد عنه المعذرة ، وترفع عنه التوبة ، وتحل معه القارعة والنقمة» (الخطبة ١٤٧).

ذلك والقرآن هو الخليفة الوحيدة للرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) أم هو الكبرى اعتبارا بالسنة وهي لا تعرف إلا بموافقته ، فقد «قبضه (صلى الله عليه وآله وسلم) إليه كريما ، وخلف فيكم ما خلفت الأنبياء في أممها ، إذ لم يتركوهم هملا ، بغير طريق واضح ، ولا علم قائم . كتاب ربكم ، مبينا حلاله وحرامه ، وفرائضه وفضائله ، وناسخه ومنسوخه ، ورخصه وعزائمه ، وخاصه وعامه ، وعبره وأمثاله ، ومرسله ومحدوده ، ومحكمه ومتشابهه ، مفسرا جمله ، ومبينا غوامضه ، بين مأخوذ ميثاق علمه ، وموسع على العباد في جهله ، وبين مثبت في الكتاب فرضه ، ومعلوم في السنة نسخه . وهو نسخ العموم أو الإطلاق . وواجب في السنة أخذه ، ومرخص في الكتاب تركه . وهو بين منسوخ بأصله أم في عمومه وإطلاقه . وبين واجب بوقته ، وزائل في مستقبله ، ومباين بين

محارمه ، من كبير أوعد عليه نيرانه ، أو صغير أرصد له غفرانه ، وبين مقبول في أدناه ، وموسع في أقصاه» (الخطبة ١).

ذلك ، فالممسّك بالكتاب ليس ليقبل ما يخالفه ، فانه تمسيك بغير الكتاب لرفضه ، ﴿وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾ (١٨ : ٢٧) و ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٣ : ٤٣) و ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ﴾ (١٠ : ١٥) ﴿وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ﴾ (١٠ : ١٠٩) و ﴿إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللهُ وَلا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً﴾ (٤ : ١٠٥) وما أشبه ، هذه من عساكر البراهين القرآنية الدالة على أصالة القرآن ، وانه لا ينسخ أو يخالف بأية مخالفة بالحديث مهما كان متواترا.

فلا يقبل من أي حديث أن ينسخ الكتاب بتباين كلي أو جزئي مثل التعميم والتخصيص ، والتطليق والتقييد ، سواء أكان العام والمطلق الكتابيان نصين في العموم والإطلاق أم ظاهرين فيهما ، اللهم إلّا إذا كانا مهملين في العموم والإطلاق ، صريحين في الإهمال أو ظاهرين فيه ، لحدّ يعلم أن هناك في الكتاب أو السنة ما يخصّص أو يقيّد ذلك العام والمطلق المهملين ، المذكورين كضابطة من الضوابط المرسلة ، فهنا لا مخالفة بين مقطوع التخصيص أو التقييد ، بل ونستقبل ما نعرف بإجمال من تخصيص أو تقييد شرط أن يكون معلوم الصدور عن مصدر الوحي ، نقية عن التقية أماهيه من موهنات.

وهكذا لا نصدق حديثا يطارد ظاهر الوجوب من الأمر وظاهر الحرمة من النهي ، وسائر الظواهر البواهر في القرآن العظيم ، ككل ما يخالف موضوعات الأحكام وسواها ، توسيعا لها ، أو تضييقا إياها ، أم إلقاء لخصوصياتها ، زيادة عليها أو نقيضة فيها.

والأحاديث التأويلية إنما تصدّق على كتاب الله إذا كانت موافقة في

خط النص أو الظاهر من الآيات حيث تقبل إلغاء خصوصيات كآية صلاة الخوف تلحيقا لصلاة السفر بها بمعونة مثل ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

ذلك وهنا ﴿أَقامُوا الصَّلاةَ﴾ دون ما سواها مما في الكتاب ، ليدل على أنها عمود الدين وعماد اليقين ، فالذين يقيمون الصلاة حقا هم المؤمنون حقا ف ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ (٢٩ : ٤٥).

ثم هذه الصيغة السائغة ﴿يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ﴾ تصوّر لنا بالغ الصورة الصالحة للقبض على الكتاب بكل قوة وجدية وصرامة ، خارجة عن كل هوة وعرامة في غير ما تعنّت ولا تزمّت وتنطّع ، إنما هو تطلّع على ما فيه بكل إتقان وإيقان ، دون تحميل عليه رأيا ، ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ فالممسّكون بغير الكتاب رفضا ، أم فرضا عليه ما ينافيه ، أو تحميلا عليه ما لا يوافيه ، إنهم هم المفسدون مهما غربلوا آراء من روايات وشهرات وإجماعات أم أي دليل يزعم من غير الكتاب.

وفي الحق إن الحوزات العلمية المسماة بالإسلامية هي كلها مندد بها في الطامة الكبرى وهاهنا ، إذ ﴿قالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ (٢٥ : ٣٠) ، أو ليس القرآن مهجورا في حوزاتنا ، فلا هو متن لها ولا هامش على متونها ، لحد قد يفتي بخلاف نصه العلي أو ظاهره الجلي!.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧١).

﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢ : ٦٣). ﴿وَرَفَعْنا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثاقِهِمْ﴾ (٤ : ١٥٤).

فقد كان رفع الطور نتقا وقلعا عن الأرض فإطارة في الفضاء على

رؤوسهم ، فهو «طير طار مرة لم يطر قبلها ولا بعدها» [١] ، وهنا ﴿واقِعٌ بِهِمْ﴾ دون «عليهم» إشارة إلى أن وقوعه عليهم لم يكن إلّا بهم ، بسبب تمردهم عن شرعة التوراة.

﴿خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ القلوب والأبدان [٢] فتنكير «قوة» يعرّفنا أنها تحلّق على كلّ قوة ، فالمفروض ـ إذا ـ تكريس كافة القوات والإمكانيات لأخذ التوراة ، أخذا علميا وعقيديا وعمليا : شخصيا وجماعيا ، دون أن يترك في أيّ حقل من هذه الحقول سدى وهملا.

«خذوا» وليس يكفى مطلق أخذه بل ﴿وَاذْكُرُوا ما فِيهِ﴾ فليكن ما فيه من أوامر الله ونواهيه ذكرى لكم تعيشونها على كل حال ، وفي كل حلّ وترحال ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ كل المحاظير المذكورة فيه ، ذلك ، فأخذ ما في كتاب الله بقوة وذكر ما فيه ، هما جناحان للوصول إلى حق التقوى ، خروجا عن كل طغوى.

وأهم ما في كتب الله تعالى هو التوحيد الحق وحق التوحيد بدرجاته ، فقد يذكرنا الله فيها بما كتب في الفطر والعقول وسائر الآيات في كتابات الآفاق والأنفس ، فليست كتب الدعوة الربانية إلّا شروحا وتفاصيل ربانية على كتاب الله في الفطر وما أشبه من سجلات الآيات ، مهما كانت فيها زيادات لتعبديات من طقوس وشكليات العبادات.

لذلك فيما يلي يذكرنا الله تعالى بما سجله في كتاب الفطرة الذرية والذرية الفطرة ، حيث هما واحد في الحق مهما اختلفا في العبارة ، ولقد

---

(١) بحار الأنوار ١٣ : ٢١٣ ـ ٦ عن أبي بصير قال سأل طاوس اليماني الباقر (عليه السلام) عن طير ذكره الله في القرآن ما هو؟ فقال : طور سيناء أطاره الله عزّ وجلّ على بني إسرائيل حين أظلهم بجناح منه فيه ألوان العذاب حتى قبلوا التوراة وذلك قوله عزّ وجل : وإذ نتقنا الجبل.

(٢) المصدر ١٣ : ٢٢٦ ـ ٢ عن إسحاق بن عمار قال : سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قوله الله : خذوا ما آتيناكم بقوة «أقوة في الأبدان أم قوة في القلوب؟ قال : فيهما جميعا» ، وفيه عنه (عليه السلام) قال : واذكروا ما فيه «واذكروا ما في تركه من العقوبة».

فصلنا القول في أحكام الفطرة على ضوء آية الفطرة في الروم ، ما يكمل البحث حول آية الذرية.

إذا فالإنسان يعيش عهودا ربانية ، بفطرته وعقليته وبشرعة الله ككل وبنود خاصة راصة من شرعته ، لا يستطيع نكران هذه العهود ، ولا سيما عهد الفطرة المندغم فيها من ذي قبل.

ولأن آيتي الفطرة والذرية بينهما تلاحم الوحدة ، وقصوى الغاية ، فلننظر إليهما نظرة عميقة أنيقة :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾(١٧٣).

فهنا تعرض قضية التوحيد من زاوية الفطرة بصيغة الذرية ، ولأن الفطرة هي ذرية الروح كما النطفة الجرثومية للجسم.

في درس سابق لهذه الآية شهدنا مشهد الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل : ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١٧١) . وهنا تتابعه قصة الميثاق الأكبر الذي أخذه الله على الذرية : الفطرة ، في مشهد لا يدانيه أو يساميه شيء في روعة وجلالة مشهد الجبل المنتوق وسائر المشهد ، فهو ميثاق هو أوثق من كافة المواثيق حيث تتبناه كأصل.

إنها قضية توحيد الفطرة في صورة مشهد التساءل ، ولا تساءل بين الإنسان وربه حال ذرّه ، إلّا ما أودعه الله فيه من الغيب المكنون ، المستكن في : ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها﴾ التي تصاغ هنا بصيغة الذرية ، فهو عرض للواقع الحق من التكوين الفطري للإنسان بصورة التساءل والتقاول كما هي دأب القرآن في تجسيم الحقائق البعيدة عن الإحساس ، حيث يصورها بصورة المحسوس قولا وسواه.

وقد وردت روايات حول الذر وعالمه متهافتة متضادة مع بعض ،

معارضة مع الآية ، وبجنبها أقوال وآراء غريبة قلّما يقرب منها منطوق الآية.

لذلك ، ولكي نكون على بصيرة في مغزى الآية ، علينا أن ننظر إلى «عالم الذرية» من زاوية الآية نفسها بكل إمعان ودقة : مع العلم المسبق أن «الذر» هي النمل ، وليست الذرية! ولا نجد في القرآن كله إلّا «ذرة» و «ذرية» وهما من أصل واحد ، مهما اختصت الثانية بقبيل الإنسان ، فقد أوغلوا في الخطأ في تفسير آية الذرية لفظيا ومعنويا.

قد يشهد بعض بالآية أن هناك قبل خلق الإنسان له كيان الذر ، وعالمه عالم الذر ، لمكان المسائلة : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى﴾[1]

---

(١) قال الشريف المرتضى في أماليه (١ : ٢٨) وقد ظن من لا بصيرة له ولا فطنة عنده أن تأويل هذه الآية أن الله تعالى استخرج من ظهر آدم (عليه السلام) جميع ذريته وهم في خلق الذر ، فقررهم بمعرفته ، وأشهدهم على أنفسهم! وهذا التأويل ـ مع أن العقل يبطله ويحيله ـ مما يشهد ظاهر القرآن بخلافه لأن الله تعالى قال : «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ» ولم يقل «من آدم» وقال «من ظهورهم» ولم يقل من ظهره ، وقال : «ذريتهم» ولم يقل «ذريته» ثم أخبر تعالى بأنه فعل ذلك لئلا يقولوا يوم القيامة : إنهم كانوا عن ذلك لغافلين ، أو يعتذروا بشرك آباءهم ، وأنهم نشئوا على دينهم وسنتهم وهذا يقتضي أن الآية لم تتناول ولد آدم (عليه السلام) لصلبه وأنها إنما تناولت من كان له آباء مشركون ، وهنا يدل على اختصاصها ببعض ذرية بني آدم فهذه شهادة الظاهر ببطلان تأويلهم.

فأما شهادة العقول فمن حيث لا تخلو هذه الذرية التي استخرجت من ظهر آدم (عليه السلام) فخوطبت وقررت من أن تكون كاملة العقول ، مستوفية لشروط التكليف أو لا تكون كذلك فإن كانت بالصفة الأولى وجب أن يذكر هؤلاء بعد خلقهم وإنشائهم وإكمال عقولهم ما كانوا عليه في تلك الحال وما قرروا به واستشهدوا عليه ، لأن العاقل لا ينسى ما جرى هذا المجرى ، وإن بعد العهد وطال الزمان ، ولهذا لا يجوز أن يتصرف أحدنا في بلد من البلدان وهو عاقل كامل فينسى مع بعد العهد جميع تصرفه المتقدم وسائر أحواله ، وليس أيضا لتخلل الموت بين الحالين تأثير ، لأنه لو كان تخلل الموت يزيل الذكر لكان تخلل النوم والسكر والجنون والإغماء بين أحوال العقلاء يزيل ذكرهم لما مضى من أحوالهم لأن سائر ما عددناه مما ينفي العلوم يجري مجرى الموت في هذا

ولكنما التأنّق في سائر مضمونها يدلنا إلى أن تلك المقاولة المسائلة ليست هي ظاهرها الواقع ، بل هي من مسارح الحقيقة أن لو كانت هنالك مسائلة لكانت كما هيه ، وهذه هي طريقة القرآن ، الفريدة في تبين الحقائق ، تصويرا بصورة المسائلة ليعقلها العالمون ، وكما «قال ﴿لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ﴾ (٤١ : ١١) ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٣٦ : ٨٢) ﴿وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ. فَكَفى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ﴾ (١٠ : ٢٩) مع العلم أن الأصنام والأوثان والنبات والحيوان ، بين شركاءهم ، ليست لتتكلم ، وإنما هو قالها الحال.

وإن الكيان الإنساني ليرتعش من أعماقه حين يتحلى ذلك المشهد الرائع الباهر ، ويتملّى اختجالا أمام ربه حين يسأل : ألست بربكم. وإجابة «بلى» سابقة سابغة حيث يرى فطرته الذرية مصبوغة بها ، فلما ذا أنكرها بعد إلى خلافها؟

ولأنها آية مسائلة الذرية فلنجعلها في مسائلة حول ما هي الذرية ومسائلته؟ سرا وتقسيما دلاليا ، وبضمنها ردا أو قبولا لما ورد حول الذرية من روايات وآراء.

لماذا «أخذ ربك» دون «الله» أم «رب العالمين»؟ علّه لأن ذلك الأخذ هو في موقف تربوي خاص ، والهدف الأسمى والغاية القصوى هي

ـ الباب ، وليس لهم أن يقولوا : إذا جاز في العقل الكامل أن ينسى ما كان عليه في حال الطفولة جاز ما ذكرناه ، وذلك إنما أوجبنا ذكر العقلاء لما ادّعوه إذا كملت عقولهم من حيث جرى لهم وهم كاملوا العقول ، ولو كانوا بصفة الأطفال في تلك الحال لم نوجب عليهم ما أوجبناه ، على أن تجويز النسيان عليهم ينقض الفرض في الآية وذلك أن الله تعالى أخبر بأنه إنما قررهم وأشهدهم لئلا يدعوا يوم القيامة الغفلة عن ذلك ، وسقوط الحجة عنهم فيه ، فإذا جاز نسيانهم له عاد الأمر إلى سقوط الحجة وزوالها ، وإن كانوا على الصفة الثانية من فقد العقل وشرائط التكليف قبح خطابهم وتقريرهم وإشهادهم وصار ذلك عبثا قبيحا يتعالى الله عنه ...».

التربية المحمدية (صلّى الله عليه وآله وسلم) كأعلى نموذج تربوي بين ملاء العالمين! وليكون نبراسا ينير الدرب على السالكين إلى الله على ضوء التربية المحمدية عليه أفضل صلاة وتحية. فهذا الرسول الألمعي الابطحي هو المحور الأصيل في الحقل التربوي الربوبي ، وفي ظلاله العالمون على درجاتهم قبولا أم دركاتهم ردا ، ف «ربك» لمحة إلى ذلك وان ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها﴾ هي ظرف ظريف طريف لكل تربية ربوبية أسماها وأسناها ما اختص به الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) دون معاناة أحد أو مساماته معه ، مهما اختلفت المحاولات التربوية للناس وما يختارها الله للمختارين من عباده الصالحين.

ذلك «وإذ» هنا متعلقة ب «اذكر» وما أشبه ، فليذكر محمد (صلّى الله عليه وآله وسلم) ذلك الميثاق ﴿مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ برمتهم ، فليس يعني «إذ» إذا زمنا خاصا مضى ، بل هو كل زمن خلقة بني آدم عن بكرتهم ، وقد عبر عنها ب «إذ» كزمن واحد ، لوحدة ذلك الأخذ الفطري دونما تخلّف لأيّ منهم فيه.

ولمكان «ربك» خطابا للنبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) نتلمح أن تفهّم معنى الآية بحاجة إلى نبوة في التفكير ، فلنقف وراء ساحة النبوة القدسية بنبوة قدسية حتى نعرف القصد من ذلك الأخذ ، وليس باب تفهم أمثال هذه الآية مسدودة على غير من خوطب بها ، إلا على من سدّ على نفسه منافذ المعرفة ، أمن لم يبلغ بالغ الاستعداد لتفهمها.

وليس هنا قصور دلالي ، إنما هو قصور المستدل ، غير البالغ مبلغ العلم القرآني ، فعلى أهل القرآن ، العائشين إياه معرفيا ، أن يتدبروا آياته الغامضة ، فإنها وامضة مشرقة لمن استشرق منها.

ولقد نجد الآيات التي تحمل لفظة «ربك» كلها دقيقة المعنى ، رقيقة المغزى ، لخاصة الخطاب الموجه إلى أعرف العارفين (١) ولأن

---

(١) مثل قوله تعالى : «وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» (٢ : ٣٠).

القرآن ـ ككل ـ بيان للناس ، إلا الخاص منه كمفاتيح سور وتأويلات أحكام غير مذكورة في القرآن ، فمجال تفهم خاصة الخطابات ـ كهذه ـ مفسوح لمن تدبر فيها حقه ، مهما لا يصل إلى حاقها.

فكتاب التدوين : القرآن ، هو ككتاب التكوين ، هما للناس كافة بمختلف درجاتهم في الاستعدادات الخلقية ، والتي تنبو قضية درجات المساعي قدرها ، لكلّ حسب سعيه وقدره.

ذلك ، ومن آيات القرآن ما هي لائحة لمن يعرف لغة القرآن ، وهي قدر الواجب من معرفة الشرعة ، ومنها ما يختص بالمعصومين كتأويلات الآيات ، ومنها عوان بين ذلك وهي تختلف ظهورا وغموضا حسب مختلف الاستعدادات والقابليات والفاعليات.

فترى «إذ أخذ» حكاية عن زمان سابق لواقع ذلك الأخذ؟ و «بني آدم» لما يخلقوا عن آخرهم حتى يعنى هنا سابق الأخذ!.

إنه أخذ علمي في الصميم في حقل خلق الإنسان ، أنه يخلق على طول الخط بهذه الفطرة التوحيدية ، أخذا ربانيا في العلم ، يحذوه أخذ في الخلق دونما استثناء.

ف «إذ» هنا حكاية عن العلم المصمّم دون طليقه ، فإنه أزلي ليس

ـ «يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» (٥ : ٦٧) «وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً» (٦ : ١١٥) «وَهذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ» (٦ : ١٢٦) «خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ» (١١ : ١٠٧ ـ ١٠٨) «وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ» (٧ : ١٦) «وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً» (١٠ :) ٩٩) «وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ» (١١ : ١١٨) «وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» (١٥ : ٩٩) «ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ» (١٦ : ١٢٥) «وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا» (١٩ :) ٧١) «وَالْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ» (٦٩ : ١٧) «وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا» (٨٩ : ٢٢) «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها» (٩٩ :).

له زمان ، بل هو صميم العلم منذ بدء خلق هذا النوع.

و «أخذ» حكاية عن أصيلة خلق الإنسان بحصيلته التوحيدية الفطرية ، فهو ـ إذا ـ مأخوذ بحكم الفطرة التي فطره الله عليها و ﴿ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.

وترى بعد أن «ذريتهم» مأخوذة من ظهر آدم كما تقول رواية؟ وهي تطارد نص الآية : ﴿مِنْ بَنِي آدَمَ ـ مِنْ ظُهُورِهِمْ ـ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ دون «من آدم ـ من ظهره [1] ـ ذريته»؟ فما آدم نفسه مأخوذا من ظهره شيء في هذه المعركة!.

---

(١) في الكافي باسناده عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : سألته عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ قال : اخرج من ظهر آدم ذريته إلى يوم القيامة فخرجوا كالذر فعرفهم وأراهم نفسه ولو لا ذلك لم يعرف أحد ربه ورواه مثله في التوحيد عن عمر بن أذينة عنه (عليه السلام). ومثله في غوالي اللئالي وقال (عليه السلام) أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعني عرفة فاخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالنور ثم كلمهم وتلا ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى﴾.

أقول : هذا التفسير خلاف نص الآية فهو مدسوس على الإمام (عليه السلام)!

وأخرج ما في معناه في الدر المنثور ٣ : ١٤٣ عن جماعة عن مسلم بن يسار والجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ فقال : سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) سئل عنها فقال : إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون فقال الرجل يا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) ففيم العمل فقال : إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الله الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله الله النار أقول : وهو إضافة إلى مخالفة الآية في أخذ الذرية مخالفة للضرورة حيث يصرح بالجبر في عمل أهل الجنة وأهل النار ، ومثله روايات أخر رواها في الدر المنثور عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وكلها مردودة بمخالفة القرآن.

وفيه ما يوافق الآية في أخذ الذرية من ظهر بني آدم في ١٤٣ ـ عن جماعة عن هشام بن حكم أن رجلا أتى النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) فقال أتبتدء الأعمال أم قد قضي ـ

ثم ترى «بني آدم» هم ولده الأولون دون مفاصلة ، وذريتهم هم ولدهم إلى يوم القيامة ، فهم ـ فقط ـ أشهدوا على أنفسهم في هذه المسائلة دون آبائهم؟ ولم يأت «بني آدم» في آياتها الست الأخرى لهم [1] ، إلّا للناس أجمعين من ذرية آدم! ولم يكن بنوه الأوّلون مشركين ولا واحد منهم ـ مهما قتل قابيل هابيل ـ حتى تصح الحجة لو لا الإشهاد والمسائلة ﴿إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ﴾!.

أم إن «بني آدم» هنا بعضهم الأعم منهم بمن فيهم من مشركين؟ والتبعيض بحاجة إلى قرينة هي هنا منفية! و ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ هي خطاب التنديد بعامة المشركين ، فيشمل الآباء كما الأبناء طول التاريخ الإنساني منذ البداية حتى النهاية ، دون خصوص الأبناء! ولا خصوص الآباء ، بأولاد ليسوا بآباء لآخرين ، فإنها حجة ـ لو صحت ـ لعامة المشركين.

ثم ومن الآباء موحدون وأبناء منهم مشركون ، كما منهم مشركون وأبناء منهم موحدون ، أم مشرك من مشرك أو موحد من موحد! وما من أبناء إلّا وهم آباء لآخرين إلّا قليلين هم في عقم عن إيلاد ، وليس يختص الشرك بأولاد ليسوا بآباء لآخرين ، فإنّها حجة ـ لو صحت ـ لعامة المشركين.

إذا ف «بني آدم» هم كلهم منذ أوّل من ولّده آدم حتى آخر من يولد من ذريته إلى يوم القيامة دونما استثناء.

ثم من هم «ذريتهم» المأخوذون ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾؟ أهم ولدهم بعد؟! وقد شملتهم «بني آدم»! استغراقا لذرية آدم على طول الخط! أم هم آباءهم؟ فكذلك الأمر إضافة إلى أن الآباء ليسوا بذرية! ، وإلى سائر

ـ القضاء فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم): «إن الله أخذ ذرية آدم من ظهورهم ثم اشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم في كيفية فقال هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار» أقول صدر الحديث فقط يوافق الآية.

(١) وهذه الست الأخرى هي : ٧ : ١٩ ـ ٢٦ ـ ٢٧ ـ ٣١ ـ ٣٥ و ١٧ : ٧٠ و ٣٦ : ٦٠.

المحاظير المشار إليها من ذي قبل.

إنهم هم أنفسهم إضافة لهم إلى أنفسهم كما ذريتهم في الفلك المشحون : ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ (٣٦ :) ٤١) وقد فسرتها آية الحاقة : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ﴾ (٦٩ : ١١) فذريتهم هم أنفسهم حالكونهم ذرية.

فقد ـ والله أعلم ـ ﴿أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ أخذ ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ﴾ أولا : بني آدم ـ ذريتهم ﴿عَلى أَنْفُسِهِمْ﴾ فالمأخوذون هم بنو آدم بأسرهم ، لا كما هم بعد خلقهم ، وإنما «من ظهورهم» إيحاء إلى الأصل الأصيل من كيانهم وهو «ذريتهم» ، دون الفصيل من ولدهم وليكونوا في ذلك الأخذ كائنين بظهورهم ، فليس ـ إذا ـ في كون قبل كونهم.

وترى إذا «من ذريتهم» هم من أنفسهم بأرواحهم وأجسادهم كما هم بعد خلقهم؟ وليسوا هم هكذا ذرية لأنفسهم! وإنما هو كون لهم قبل كونهم ، فهم ـ إذا ـ آباء أنفسهم! أم كون أوّل لهم قبل كونهم الأخير؟ فلا يصح القول ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ حيث يتطلب كونهم الحالي قبل كونهم الحالي ، تقدم الشيء على نفسه!.

ثم من هذا الذي يذكر ذلك التساءل وحتى أفضل المؤمنين فضلا عن أدناهم أو المشركين؟ فلهم الحجة ـ إذا ـ ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ﴾! ثم أنى لهم من آباء وهم كل «بني آدم» دونما استثناء! حيث يعم كل الآباء والأبناء في الطول التأريخي الإنساني ، فلا حجة إذا للمشركين منهم لو لا المسائلة ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ﴾.

أو ترى «ذريتهم» هم بأبدانهم دون أرواح ، نطفأ أم كما هم الآن؟ و «ذريتهم» ليست هي كل أبدانهم! والنطف دون أرواح لا تعقل حتى تشهد على أنفسها أم تتساءل عن وحدة إلهها! حقيقة أو تقديريا و «هم» المربع في كلمات الآية : الأربع «ظهورهم ـ ذريتهم ـ أشهدهم ـ على أنفسهم» دليل الحياة العقلية هناك حينذاك! ولا يرجع ضمير العاقل إلى

الجسم الإنساني إلا اعتبارا بروحه الكائن فيه ، أو كان أم سوف يكون.

أم هي ذرية الأبدان : «النطف» مع أرواح تعقل وتشهد؟ ولا تسمى هذه المجموعة ذرية بل هي الآباء الأصول وهم الذرية الفروع.

ثم و «بني آدم» كلهم عن ذلك الإشهاد وتلك المسائلة غافلون ، إذا فلهم الحجة : ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ﴾ دون فارق بين ما لو كانت هذه مسائلة واقعة أم لم تكن! فهل أخذت ذرية الأبدان بأرواح عاقلة مكلفة تثبتا لما ليست بحجة على أية حال ، إذ لا يذكره أحد من بني آدم حتى أفضل المؤمنين فضلا عن المشركين!.

ثم وآية الإنشاء ﴿ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ (٤٣ : ١٤) وآيات كأضرابها ، تضرب بخلق الأرواح قبل الأجساد ضرب الحائط!.

أم إن «ذريتهم» هي فطرهم فإنها ذريات الأرواح ، فكما النطف هي ذريات الأجسام وأصولها ، كذلك الفطر هي ذريات الأرواح وأصولها ، وإنما كيان الإنسان بروحه ، وكيان الروح بفطرته ﴿الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها﴾ فهي الأصيل الأوّل من بعدي الإنسان الأصيلين الجذريين ، فللجسم بعد الأصل النطفة الذرية وبعد الفرع ، سائر الأجزاء المتفرعة عليها ، وللروح بعد الأصل الفطرة الذرية ، وبعد الفرع سائر الروح المتفرعة عليها ، فأحرى بالفطرة أن يعنيها «هم» هنا وهناك.

فما لم يشهدوا على أنفسهم فيعرفوها ، لا يصح أن يشهدوا على أنفسهم فيعترفوا بحكم فطرتها ف «من عرف نفسه فقد عرف ربه» فليعرف الإنسان نفسه بفطرته ليعرف على غرارها ربّه ، فإن معرفة النفس أقرب ما يعرفه الإنسان من مطلق الكون ، فلا يعذر أحد في جهله نفسه ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا﴾.

والسؤال : ألست بربكم. تقديري أن جعل فيهم ما إذا سألهم أجابوه. وذلك السؤال نفسي وخارجي ، فلو تعنت الإنسان في الإجابة الصحيحة عن ذلك السؤال فهو بينه وبين نفسه يجيب «بلى» لا سيما إذا تقطعت الأسباب وحارت دونه الألباب ، إذ يراه يتعلق قلبه بسبب واحد

خفي وهو الله تعالى شأنه العزيز! ﴿قالُوا بَلى شَهِدْنا﴾ شهودا فطريا ، ثم فكريّا.

فقد أخذ الله فطرة كل إنسان وهناك الإشهاد والمسائلة؟

وكيف تؤخذ الفطرة التي فطر الناس عليها قبل خلق الناس بروح وجسم ، والفطرة هي أعمق أعماق الروح ، وقد خلقت الأرواح بأعماقها بعد الأجساد كما تقوله آية الإنشاء؟

وترى «من» هنا تبعيضية تعني أن المأخوذ هنا هو البعض من بني آدم ، فهل هو البعض من الكلي وهم جمع منهم؟ وهذه الحجة مأخوذة على كلهم!

ثم «ذريتهم» دون «ذرياتهم» تؤكد أن ذلك البعض هو البعض من كل واحد منهم.

أم هي نشوية تعني نشوء ذلك الأخذ من منشإ بني آدم ثم المأخوذ هو ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ عناية إلى فطرهم التي هي ذريات الأرواح وأصولها ، أم هي بيانية تبين المأخوذ انه ليس بني آدم من كل منهم كله ، وإنما هو ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وهي أصول أرواحهم وفطرهم.

وعلى أية حال المأخوذ منهم في ذلك العرض للحجة الذاتية هو الأصل المعطى لهم ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها﴾.

ف «أخذ» هنا حكاية عن كيان تكوينه بصورة المسائلة. وليست في الحق مسائلة ماضية. بل هي تقديرية أنه إذا سئل أجاب «بلى» فقد خلق في حاق ذاته على قول «بلى».

وجوابا عن سؤال : لماذا هذا التعبير الغامض عن حجة الفطرة ، وهي مذكورة في آية الفطرة ببساطة؟

نقول : آية الفطرة تتحدث عن أصالتها وبسالتها في أحكامها ، وآية الذرية تبين مكان الفطرة بمكانتها ، أنها ذرية الروح وأصله وأثافيّه ، ولأن المخاطب فيها أولا هو الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) فلا ضير في أجمالها بعرضها إياها بذلك الجمال.

أجل هناك ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها﴾ تقرير لأصالة الفطرة في كيان الإنسان ، وهنا ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أنها من ظهر الروح ، تعبيران متجاوبان يتحدثان عن أصل كيان الإنسان وأثافيّه.

فقد تعني «ذريتهم» هذه ـ والله أعلم ـ فطرهم [1] ، دون أرواحهم ككل ولا أجسادهم في جزء ولا كلّ ، والفطرة من كل إنسان هي أصله الأصيل ، فإنها ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ وهي حجر الأساس لإنسانية الإنسان.

فالإشهاد والمسائلة لا تعنيان إلّا قضية الفطرة لبني آدم على طول الخط دون زمن خاص واحد ، بل بمستمر زمن الخلقة لذلك النوع

---

(١) وفيه روايات كما في نور الثقلين ٤ : ١٨٤ ح ٥٣ عن أصول الكافي باسناده إلى أبي عبد الله (عليه السلام) قال : سألته عن قول الله عزّ وجلّ ﴿فِطْرَتَ اللهِ﴾ ما تلك الفطرة؟ قال : هي الإسلام فطرهم الله حين أخذ ميثاقهم على التوحيد «قال ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وفيه المؤمن والكافر.

وفيه ٢ : ٩٦ ح ٣٥٢ عن التوحيد باسناده المتصل عن زرارة قال : قلت لأبي جعفر (عليه السلام) أصلحك الله قول الله في كتابه ﴿فِطْرَتَ اللهِ﴾؟ قال : فطرهم على التوحيد عند الميثاق وعلى معرفة أنه ربهم ، قلت : وخاطبوه؟ قال : فطأطأ رأسه ثم قال : لو لا ذلك لم يعلموا من ربهم ولا من رازقهم ، أقول : طأطأة الرأس نكران أن يكون هناك قال فانه لا يضمن المعرفة ، وإنما حال الفطرة ذاتية هي التي تضمن المعرفة. وفيه ٢ : ٩٧ عن التوحيد باسناده إلى أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قلت له أخبرني عن الله عزّ وجلّ هل يراه المؤمن يوم القيامة؟ قال : نعم قد رأوه قبل يوم القيامة! فقلت : متى؟ قال : حين قال لهم : ألست بربكم قالوا بلى ثم سكت ساعة ثم قال : وان المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة ، ألست تراه في وقتك هذا؟ قال أبو بصير : فقلت له جعلت فداك فأحدث بهذا عنك؟ فقال : لا ـ فإنك إذا حدثت به فأنكره منكر جاهل بمعنى ما تقول ثم قدر أن ذلك تشبيه كفر ، وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين تعالى الله عما يصفه المشبهون الملحدون.

أقول : ورؤيتهم قبل القيامة هي رؤية المعرفة الفطرية دون رؤية المقاولة المشافهة وقد تكون للمنافقين أكثر!

الإنساني ، وكما في آيات خطاب السماء والأرض ﴿فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ﴾ (٤١ : ١١) وعديدة من آيات التكوين : ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٣٦ : ٨٢).

ف «إذ» لا تعني زمنا سابقا على خلقة «بني آدم» ولا «أخذ» تعني واقع أخذ الفطر من ظهور الأرواح ، ولا ﴿أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ﴾ تعني إشهادا واقعا قبل خلقهم ، ولا ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ سؤال لفظي عن الفطر ، ولا ﴿قالُوا بَلى﴾ إجابة في قوله باللسان.

فقد تعني «إذ» كل زمن خلق ويخلق فيه من بني آدم ، وهو مثلث الزمان إلى يوم القيام و ﴿أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ تصوير فني منقطع النظير لما يفعله تعالى ببني آدم حين يخلقهم ، أنه يتبنى العصمة في أعمق أعماق كيان الإنسان كإنسان ، والأفعال الماضية هنا تشمل مثلث : زمن الخلق لبني آدم ، ومن مضى منهم لمضيّه ، ومن يستقبل لتحقق وقوعه كمضيه ، فلم تكن مسائلة قبل خلقهم ، فإنما ، وعلى حد المروي عن الصادق (عليه السلام): جوابا عن سؤال : كيف أجابوا وهم ذر قال : «جعل فيهم ما إذا سألهم أجابوه» [1] فالتساؤل ـ إذا ـ تقديري

---

(١) في الكافي وتفسير العياشي عن أبي بصير قال قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) كيف أجابوا وهم ذر؟ قا : وكان محمد أول من قال بلى ، قال : كانت رؤيته معاينة فأثبت المعرفة في قلوبهم ونسوا ذلك الميثاق وسيذكرونه بعد ولو لا ذلك لم يدر أحد من خالقه ولا من رازقه (البرهان ٢ : ٥٠ ح ٢٦).

وفي المحاسن عن زرارة عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ﴾ قال : كلّ ذلك معاينة فأنساهم المعاينة وأثبت الإقرار في صدورهم ولو لا ذلك ما عرف أحد خالقه وإلا رازقه وهو قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

ذلك ، والمروي عن علي (عليه السّلام): «إني لأذكر الوقت الذي أخذ الله علي فيه الميثاق» كما أخرجه ابن المغازلي في المناقب (١٠٠) بسنده عنه (عليه السلام) انه قرء عليه أصبغ بن نباتة هذه الآية فبكى (عليه السلام) أقول : انه قد يعني الميثاق الخاص ، أم وميثاق الفطرة معرفة كاملة ، دون عالم قبل خلقه يسمى الذر.

لا واقع له قبل خلقهم ، فهو تصوير فني عما قدر في ذات الإنسان بصورة المسائلة وليس بها.

ثم ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ﴾ كخلفية لهذا الأخذ : أنهم شهدوا أنفسهم دون ستار ، فعرفوها دون غبار ، فأشهدوا على أنفسهم بحكم الفطرة أنه تعالى ربهم ، حيث تصرخ الفطرة من أعماقها عند السؤال ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ . تصرخ صارحة : ﴿بَلى شَهِدْنا﴾ شهدنا أنفسنا وشهدنا على أنفسنا أنها في حاق ذاتها موحدة لله تعالى!

ولقد «صنع منهم ما اكتفى به» [1] حجة لوحدانيته عليهم ، وعلّ الأخذ تعني ذلك الصنع ، وهو ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها﴾ وقد يعنيه المروي عن الصادق (عليه السلام) تفسيرا للآية : «نعم لله الحجة على جميع خلقه أخذهم يوم أخذ الميثاق هكذا وقبض يده» [2] فالأخذ هو

(١) وفيه ٣٦٢ عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قالوا بألسنتهم؟ قال : نعم وبقلوبهم فقلت وأي شيء كانوا يومئذ؟ قال : صنع منهم ما اكتفى به.

أقول «وبقلوبهم» عله تفسير لقوله : نعم بألسنتهم حيث يعني لسان الحال ، الذي يبدو في أحبائه في المقال و «صنع منهم ما اكتفى به» هو اكتفاء الحجة حيث صنع فيهم الفطرة التي تحكم في ذاتها بتوحيد الله.

وفي تفسير القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن ابن مسكان عن أبي عبد الله (عليه السلام) في آية الميثاق قلت : معاينة كان هذا؟ قال : نعم فثبتت المعرفة ونسوا الموقف وسيذكرونه.

(٢) وفي تفسير العياشي عن زرارة قال سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾.

الأخذ الصنع الحجة ، فهم في قبضته فطريا بميثاقهم دون تلفّت عنه ولا تفلّت إلّا من ظلم نفسه.

«أخذ ذريتهم» حيث أخذ يخلق أرواحهم ، أخذا في أخذ دون أي وخز ، وأين أخذ من أخذ؟! وهذه هي الحجة الوحيدة الذاتية ، غير الوهيدة على أية حال ، تقطع أية عاذرة في الأنفس والآفاق ، ومن الأولى الغفلة الذاتية الفطرية للنفس :

﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ﴾ حيث الغفلة الفطرية العاذرة تعذر صاحبها في غفلة عقلية ، فتغافلا عن تذكيرات الرسالات الإلهية ، وأما اليقظة الفطرية فصاحبها غير معذور وإن لم يعقل ، مهما كانت الحجة عليه قدر حكم الفطرة.

فما لم يتزود الإنسان في أعماق ذاته بحجة التوحيد ، المعصومة ، والعقول ليست معصومة ولا ـ بأحرى ـ عاصمة دون أخطاء ، والشرعة الإلهية لا تقبل إلّا بحجة معصومة ، فالإنسان معذور في ترك الشرعة ، وله الحجة ـ إذا ـ : ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ﴾ ـ : غافلين عن أن الله ربنا! إذ لم يكتب في ذواتنا كلمة التوحيد.

ومن الثانية عامل التربية ، فلو لا الفطرة المفطورة على التوحيد ، فلمن يشرك بالله ، خاويا عن حجة ذاتية ، عائشا في جو الشرك ، في تربية شركية بين الآباء ، أم أي مجتمع شركي ، إن له عذرا في إشراكه بالله ، لقصوره الذاتي ، والواقع الخارجي.

ولا يقطع الأعذار الأنفسية والآفاقية ، إلّا حجة ذاتية فطرية ، وهي الدين حنيفا ، حيث أمرنا بإقامة وجوهنا إليها : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٠ : ٣٠). حجة قيمة قائمة على كل نفس بما كسبت ، لا تبدّل لها ولا تبديل ، قاطعة كل عذر إلّا الجنون ، أماذا من قصور دون تقصير ، فالفطرة بنفسها ليست حجة كاملة ما لم يساندها العقل فيستند إليها ، ثم الشرعة الإلهية تتبنى العقول كوسائط والفطر كأصول ،

وهنالك تتم الحجة البالغة الإلهية.

صحيح أن العقل الإنساني حجة رسمية راسمة لتكاليف الشرعة ، حاسمة كل عاذرة أمام الشرعة ، ولكن الذي لا يعقل كما الإنسان العاقل ، يكلّف قدر تمييزه مهما لم يكن كتكليف العاقل ، فإذا كانت الدواب كلها تحشر لتطبيق الجزاء الوفاق : ﴿وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (٦ : ٣٨).

فبأحرى الإنسان سفيها أو مجنونا أو قاصرا أن يكون مسئولا قدر تمييزه ، وكما «إن الله يداق العباد في الحساب يوم القيامة على قدر عقولهم» كذلك الدقة في الحساب للدواب وغير العقلاء من الإنسان على قدر تمييزهم!

ذلك ﴿وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ﴾ أنفسية كما نفصلها آفاقية ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إليها بادئين بآيات الفطرة ، حيث تتبنى الإنسانية كأول خطوة.

ذلك هو التجاوب المفهوم بين آيتي الفطرة والذرية ، فإذا كانت الثانية متشابهة فالأولى المشرقة بنسبتها تفسرها ، ونصدق فيها تفسير الروايات الملائمة لها ، ونكذب المخالفة لصراحة أو ظهور مستقر فيهما ، ونرد المشكوك إلى قائله دون رد ولا قبول.

وذلك هو العهد الأول ، المعهود في الفطرة ، حيث يندّد بهم الله في نقضه : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٣٦ : ٦٠) فالعهد إليهم كلهم ليس إلّا عهد الفطرة ، حيث المجانين والعائشين في الفترة والقصّر خارجون عن عهد الشرعة ، ثابتا فيهم عهد الفطرة.

كذلك ﴿وَما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ﴾(٧ : ١٠٢).
عهد لزام الفطرة ، هو حزام صارم لذوي الفطرة ، لا يعذرون في إشراكهم بالله على أية حال ، وعلى حد تعبير الإمام الصادق

(عليه السلام): صنع منهم ما اكتفى به [١] وكفى بحكم الفطرة حجة.

ذلك هو التفسير المفهوم للآية المقبول لدى العقول ، وهو القدر المتيقن بما تعنيه ، مهما روي بجنبه عالم آخر هو الآخر يسمى الذر لا نعرف معناها ومغزاها [٢] إلّا البعض مما تضاد الآية ، والواقع المعقول بحق القبول.

وهنا يتجلى الحق في قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ (٤ : ٤٨) فما فوق الشرك هو الإلحاد في الله بنكران وجوده فبأحرى لا يغفر أن ينكر إذا لا يغفر أن يشرك به ، وما دون ذلك هي كافة المعاصي دون الشرك ، يغفرها على شروطها ، وطبعا عدم الغفران لمن يشرك به ليس في حياة التكليف ، إنما هو من مات على الشرك.

لا يغفر أن يشرك به لأنه خلاف حكم الفطرة من زاوية ، وخلاف حكم العقل من أخرى ، حيث التصديق بوجود الإله الخالق والإشراك به في شأن من شؤون الألوهية لخلق من خلقه ، إنه تسوية برب العالمين وذلك هو الضلال المبين : ﴿تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (٢٦ : ٩٨) فكيف إذا ترك عبودية الله إلى عبودية غير الله ، فإنه أظلم من تلك التسوية الظالمة الضالة ما أظلمه.

---

(١) قد مضى حديثه أخيرا تحت الرقم (١) حول هوامش تفسير الذر بالفطرة وفي تفسير العياشي عن رفاعة قال : سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؟ قال : نعم لله الحجة على جميع خلقه أخذهم يوم أخذ الميثاق وهكذا وقبض بيده.

(٢) وفي تفسير البرهان ٢ : ٤٩ ح ٢٠ . ابن بابويه بإسناد متصل عن الفضل بن عمر عن الصادق جعفر بن محمد (عليه السلام) في حديث طويل قال قال الله عزّ وجلّ لجميع أرواح بني آدم : ألست بربكم قالوا بلى ، كان أول من قال بلى محمد (صلّى الله عليه وآله وسلم) فصار بسبقه إلى بلى سيد الأولين والآخرين وأفضل الأنبياء والمرسلين.

رجعة أخرى إلى الآية في نبرات :

١ «ربك» هنا تلمح لرباط عريق بين ما «أخذ ربك» في ذلك العرض الفطري ، فكما رباك «ربك» التربية القمة العالية ، كذلك «ربك» ربى «بني آدم» ككل تربية الفطرة المعصومة ، فهنا لك عصمتان اثنتان ، عصمة ربانية أولى للإنسان هي لفطرت الله التي فطر الناس عليها ، وعصمة ربانية ثانية هي للمرسلين ومن يحذون محذاهم من أئمة الدين المعصومين ، وبينهما العصمة الإنسانية قدر المساعي المبذولة للحصول عليها ، وهي في مثلث من الأضلاع : الفطرة ـ العقل ـ الشرع ، فالعقل السليم يأخذ كأصل أوّل من الفطرة السليمة ، ثم يأخذ من شرعة الله كأصل ثان ، فيتكامل قدر معطياته ومساعيه.

٢ ثم ضمائر الجمع في «ظهورهم ـ ذريتهم ـ اشهدهم ـ أنفسهم ـ ربكم ـ قالوا» هذه الستة تعني كل «بني آدم» دونما استثناء.

٣ ثم تتضيق الدائرة في «أن تقولوا» حيث تختص بالمشركين والملحدين على مدار الزمن ، لاختصاص هذه القولة بالمنحرفين عن توحيد الله ، اعتذارا بالغفلة القاصرة.

ثم تضيّق ثان في «أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ» فإنها تختص بقسم من المشركين وهم الذين لهم آباء مشركون فهم أولاء «ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ» لمقابلة الذرية بالآباء ، فهم ذرية مشركة دون آباء مشركين.

٤ «أخذ» تلمح إلى ما أعطاه الله تعالى «بني آدم» والأخذ هو أخذ الميثاق على فطرهم بما فطرها على معرفته بتوحيده.

٥ وهنا «أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ» دون «أشهدهم أنفسهم» أو «أشهدهم لأنفسهم» شاهد لا مرد له أن القصد من ذلك هو الإشهاد «على» احتجاجا بالمشهود به : «الفطرة» على المشهود عليه : «بني آدم».

فالفطرة التوحيدية ـ إذا ـ حجة ناظرة حاضرة ربانية في أعمق أعماق

الروح ، ليست لتنفصل عن الإنسان أيّاً كان ، فهو بين غافل عنها تقصيرا : ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ﴾ ولا تعذره هذه الغفلة المقصرة ، أو ذاكر لها بدرجاته ، فمؤمن بالله.

ثم لا نجد من هو غافل عنها قصورا ، مهما كان قاصرا عن عقلية التكليف أم مجنونا ، وإن كان الله لا يعذب غير المكلفين رحمة منه.

فالفطرة الحاضرة مع الإنسان ما هو كائن على أية حال ، هي الحجة العاصمة المعصومة الربانية ، وهي مع العقلية التكليفية تصبحان حجتين داخليتين ، لا يقبل أي عذر بعدهما أبدا.

فمهما غفل الإنسان أو تغافل عما سواه وعمن سواه ، ليس ليغفل عن نفسه الأصيلة وهي فطرته ، إلا تغافلا مقصرا يخسر فيه نفسه فيخسر كل شيء.

رجعة أخرى إلى آية الذر في ملاحظات :

١ آية الفطرة تعم الناس من آدم وبنيه ، فكيف اختصت آية الذرية ببني آدم ، والفطرة هي الفطرة والميثاق هو الميثاق؟ والآيتان تعنيان عهدا واحدا؟

«بني آدم» قد تعني آدم وبنيه ، وهذه صورة رائعة عن سيرة كلامية رائجة؟ أو أن آدم نفسه استثنى في ذلك المسرح حيث الحجّة الثانية ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ لا تشمله إذ لم يكن له أب أو آباء ، ولم يكن ذرية من بعد آباء لكي تصح له هذه الحجة لو كان مشركا ، وهذا أصح بل هو الصحيح لا سواه ، ثم حجة الغفلة لآدم لو لا حجة الفطرة ، غير قائمة بعد ما عهد الله إليه مهما نسى حين عصى : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (٢٠ : ١١٩).

وأما بنو آدم ككلّ فليسوا ممن يوحى إليه حتى يكون له عهد ـ غير الفطرة ـ بالوحي ، إذا ف «بني آدم» صيغة قاصدة هادفة.

٢ ما هو موقع ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا﴾ وتلك المسائلة الفطرية تطارد تلك القولة وهذه؟

جوابه أن هناك حذفا ـ ك : حذرا أن تقولوا ـ لئلا تقولوا وأشباهه ، لأنه معلوم بقرينة المقام.

٣ لو كان «ذريتهم» هي كيان لهم ذرّي قبل كونهم فيه يعقلون ويتساءلون ، فالتعبير الصحيح «وإذ خلق ربك الإنسان ذرا قبل كونه الآن» دون حاجة إلى «بني آدم» فإنه يتطلب خلق آدم كما هو قبل ذلك الأخذ حتى يكون له بنون ، وكذلك نسله «بني آدم» حتى تكون لهم ظهور فذرية ، مما يدل على أن الأخذ كان ضمن تناسل آدم وبنيه ، فهو إذا بعد كونهم الحالي دون كيان ذري قبل كونهم ، فإنه كيان دون تناسل كما في الخلق الثاني يوم الآخرة ، كما وروايات عالم الذر تقول كلمة واحدة ـ إلّا قليلا ـ أنه خلقهم أولا قبل خلقهم في تناسل ، ثم ولد من ولد على غرار ما خلق أولا في ذرّ!

إذا ف «بني آدم ـ ظهورهم ـ ذريتهم» ذلك المثلث الرائع مما يضاف إلى أدلة سابقة لنا سابغة أن «ذريتهم» في ذلك الأخذ هي (فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها).

أجل إن كانت روايات الذر هذه تعني غير ما تعنيه الآية ، دون صلة تفسيرية لها ، فقد تقبل فيما يعقل ولا يطارد الضرورة القرآنية أم أية ضرورة ، ولكن الأكثرية الساحقة منها تظهر في مظهر التفسير لآية الذر ، فلا مجال لتصديقها أو ترد إلى قائليها.

٤ ترى وما هو الداعي لهكذا تعابير متشابهة في أفصح بيان وأبلغه حتى يختلف في تفسيرها الناظرون؟

على حدّ تفسير الإمام الرضا (عليه السلام) للمتشابه : «المتشابه ما اشتبه علمه على جاهله» لا تشابه في متشابهات القرآن دلاليا حيث الدلالات مستقيمة كأقوم ما يكون وأقيمه ، وإنما التشابه فيها معنوي لبعد البعيدين عن غوامض المعاني فمتشابهة ، وقرب القريبين إليها على درجاتهم فمحكمة ، وقد تنحصر المتشابهات في أسماء الله وصفاته وأفعاله المشتركة الاستعمال لفظيا بينه وبين خلقه كالسمع والبصر واليد وما أشبه

حيث تسحب معانيها الخلقية عند المجاهيل إلى الخالق سبحانه ، فلا بد من تجريدها عن المعاني الخلقية ، كما لا بد من تجريد المستعملة في الخلق عن المعاني الخالقية كلفظ الخالق.

ولأن ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها﴾ تحمل معنى غامضا قلما يعيه المعنيون بها المخاطبون ، لذلك صيغت آية الفطرة بصيغة المسائلة ، وفي تجاوب رائع بالغ بين الآيتين يلمع المعني منهما لمن أمعن النظر فيهما ، ففي كلّ تشابه من جهة وإحكام من أخرى ، توضّح كلّ تشابه الأخرى هي الأخرى في توضيح الأولى كما بينا ، والله أعلم بما يعنيه وليس علينا ولا لنا إلّا الإمعان في القرآن لنتروى من معين معانيه.

ذلك ، والفطرة الإنسانية لا تشذ نسمة قط وكما يروى عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم): «ما من نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة» (١) «كل إنسان تلده أمه على الفطرة» (٢) «الحمد لله الذي هداك للفطرة» (٣).

تلحيقة حول ﴿فِطْرَتَ اللهِ﴾ :

إن ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها﴾ هي الذاتية العريقة الإنسانية منذ ﴿أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ وهو الروح الإنساني ، وعلى مدار حياته صغيرا وكبيرا عالما وجاهلا عاقلا ومجنونا ، فطالما العقل يأتي بعد ردح من خلق الروح ، وقد يزول بالجنون ، ولكن الفطرة الإنسانية ليست لتزول ، فهي ما به الإنسان إنسان وما أشبه من نفسياته ، ومهما زال عن الإنسان أي شيء منه ليست لتزول عنه الفطرة الإنسانية.

ولأن المعرفة الربانية الصالحة ليست إلا بذريعة العصمة الربانية ، فالمعرفة الفطرية الخالصة هي الصالحة ، وسائر المعرفة كالسة فالسة مهما

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي (١٧٩) حم ٣ ، ٤٣٥ ، ٤ ، ٢٤.

(٢) المصدر م قدر ٢٥.

(٣) المصدر في تفسير سورة ١٧ ، ٣ ، أشربة ١ ، م اشربة ٤١ ، دى أشربة ١.

كانت لا عقل العقلاء ، إلّا إذا تبنى في معرفته فطرته الخالصة غير المحجوبة بأي حجاب ، وهنا يعرف المعني من قوله (صلّى الله عليه وآله وسلم): «من عرف نفسه فقد عرف ربه» حيث المعروف من النفس ، الذي يعرف به الرب ليس إلا أنفس أبعاد النفس الإنسانية وأمسها بذات الإنسان وهو ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها﴾ وعلى حد تعبير الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم): «ما من مولود إلا يولد على الفطرة» (١) فطالما العقل ـ فضلا عن الحس ـ قد يخطأ حتى في المستقلات العقلية ، فضلا عن غيرها ، ليست الفطرة لتخطئ في المستقلات الفطرية ، فهي كنز للعقل يتبناها في سلوكه إلى الله ، مستنيرا من شرعة الله في تعاليه.

فقد يرسم هندسة الإنسانية الصالحة مثلث الفطرة والعقلية والشرعة ، فالعقلية الصالحة هي الوسيطة بين الفطرة كأصل الدين وأثافيّه ، وبين الشرعة كتكملة له ، فالعقل المستفيد بين مستفادين معصومين تكوينا هو الفطرة وتشريعا هو الشرعة ، وكما لا تبديل لشرعة الله في أصلها ، كذلك ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ : فطرت الله ، وإنما العقل يتكامل بين هذين معرفيا وعمليا ، كلما ازدادت المعرفة إزداد العمل الصالح ، عدّة وعدّة ، وكلما إزداد العمل الصالح بعدته وعدته ، ازدادت المعرفة ، فالمعرفة والعمل الصالح هما جناحان للطائر القدسي الإنساني براحلة العقل وزاد الفطرة والشرعة ، «ولا ينبئك مثل خبير».

ذلك ، فمن «عرف نفسه» هكذا «فقد عرف ربه» قدر المقدور والمقدر من صالح السلوك إلى الله ، ومن لم يعرف نفسه لم يعرف ربه ولا سواه ، حيث الجاهل بنفسه هو أجهل بغيره دون ريب ، فمن ضل عن نفسه فقد ضل عن ربه ومربوبيه ، فهو ضال عن الحياة الإنسانية عن بكرتها.

---

(١) مفتاح كنوز السنة نقلا عن بخ ك ٢٣ ب ٨٠ و ٩٣ ، ك ٦٥ سورة ٣٠ ، ك ٨٢ ب ٣ مس ـ ك ٤٦ ح ٢٢ ـ ٢٥ بد ـ ك ٣٩ ب ١٧ تر ـ ك ١٦ ح ٥٢ حم ـ ثان ص ٢٣٣ و ٢٥٣ و ٢٧٥ و ٢٨٢ و ٣١ و ٣٤٦ و ٣٩٣ و ٤١٠ و ٤٨١ ، ثالث ص ٢٥٣ و ٤٣٥ ، رابع ص ٢٤ ط ـ ح ٢٣٥٩ و ٢٤٣٣ قد ـ ص ٣٦١.

ذلك ، فسائر الطرق المختلقة المختلفة ، فلسفية وعرفانية أمّا هيه ، غير طريق الفطرة بالعقلية الصالحة والشرعة الربانية ، هي طرق ملتوية غير معصومة مهما كانت صالحة غير مدخولة ، حيث التغاضي عن الفطرة كأصل تكويني معصوم ، مع التغاضي عن الشرعة كأصل تشريعي معصوم ، إنه تغاض مذموم مأثوم ، ولا بد في سبيل معرفة الله من زاد معصوم هو الفطرة ، وراحلة معصومة هي الشرعة ، حتى يسلك سالك العقل سبيله الصالحة وصراطه المستقيم إلى الله.

ولا بد في ذلك السلوك من سلبيات وإيجابيات ، سلبا للغشاوات عن الفطرة والعقلية التي تتبانا ، وعن الشرعة فيما حرفت ، وإيجابا لأحكام الفطرة إحكاما لأحكام العقل ، وإيجابا للتعقل في استنباط الأحكام الفطرية ، وإيجابا للشرعة تكملة للأحكام الفطرية والعقلية في مستقلاتها ، وإبداعا في غير المستقلات فطرية وعقلية.

ذلك ، ولو كانت معرفة الله بدرجاتها بحاجة إلى مقدمات منطقية وفلسفية وعرفانية وعلمية مصطلحة ، لكانت منحصرة في الأخصائيين في هذه الصلاحات ، وهي في نفس الوقت غير معصومة عن الأخطاء قاصرة ومقصرة ، ولكنما المعرفة الفطرية هي الكاملة الشاملة كل ذي فطرة ، ثم وهي تتكامل بالعقلية الصالحة التي تتبناها كأصل أوّل ، ثم تتبنى شرعة الله كأصل ثان ، فهي ـ إذا ـ سائرة مسيرها إلى معرفة الله بجناحي الفطرة والشرعة ، مستزيدة في هذه السبيل بزائد التعقل فالمعرفة والعمل الصالح.

ومهما كان الإنسان قاصرا في سائر القوات المدركة بتقصير أو قصور ، ليس هو قاصرا في فطرته ، فمهما عاند في تكذيب آيات الله آفاقية وأنفسية ، فليس له أن يعاند فطرته حين تظهر دون إختياره عند ما تنقطع كافة الأسباب الحيوية التي يعتمد عليها ، حيث الذات الإنساني تتعلق بنقطة مجهولة مرموزة وهي نقطة الربوبية ، وهنا يفحم الناكر لوجود الله ووحدانيته بكلمته الفطرة «بلى» إجابة عن ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ حيث هي محاكاة عن حكم الفطرة ، دون مقاولة لفظية.

ولأنه لا يقدر الإنسان إلا على حجة بالغة إلهية ذاتية معصومة تبلغ به إلى حجته الشرعية ، لذلك فطره على فطرته المعصومة في حدود أحكامها حيث لا تخطأ فيها إذا ظلت دون حجاب ، دونما إذا ضلت بحجاب.

إذا فلله الحجة البالغة على الإنسان أيا كان وأيان ، وطالما يتغافل الإنسان عن ربه قضية الشهوة والحيونة والمصلحية المادية لحد تصد عنه كل آيات الله البينات آفاقية وأنفسية ، وحتى الفطرة حيث تحجب بحجاباتها ، فليس في وقت من الأوقات فاضيا عن هذه الحجة الفائضة ، فقد يبرزها الله عند الحجاب المطلق المطبق بقصور أم تقصير بما يقطع الله عنه كل الأسباب التي كان يعتمد عليها ، فهنا لك يجد ربه وجدانا في أعمق أعماق نفسه المسمى ب ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها﴾.

ولما اكتملت الحجة الأنفسية والآفاقية لتوحيد الله ، فلا عاذرة للإنسان أيّا كان وأيان في ضلاله عن التوحيد الحق وحق التوحيد : ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ﴾ عاذرة ذاتية ، حيث الغفلة عن ﴿رَبُّنَا اللهُ﴾ هي غفلة مقصرة قاصدة ، وليست قاصرة ذاتية.

﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ فإن جو الإشراك بآباء وسواهم ، لا يعذر اتباع الذرية ، التاركة لذواتها ، التابعة لما يضادها.

ذلك ، وكافة التذكيرات الأصيلة القرآنية تعني ـ فيما تعنيه ـ الذكرى الفطرية ، المغشوة بغشاوات الأهواء الطائشة ، فما دامت الفطرة خاملة غائبة فإنسانية الإنسان ككلّ هي غائبة ، لأنها أصل الدين الحنيف ، أمام كل جنيف.

ذلك ، فدين الفطرة ـ كأصل ـ هو الذي يدان به للسالك إلى الله ، دون دين الفلسفة والعرفان وما أشبه ، إذ لا عصمة فيها بما فيها من تقصيرات وقصورات فتضادات وتناقضات ، وأنها ـ ولو كانت صحيحة صالحة للسالك إلى الله ، لا تعم كافة المكلفين.

فالفلسفة التي تتبنى المنطق العلمي نجدها ببنائها خالطا غالطا ، فأثافيّها المنطق العلمي ـ دون المنطق الفطري المؤيد بالكتاب والسنة ـ نجد

فيه ـ لأقل تقدير ـ اختلافات بين علمائه عديد أبجدية «الله» (٦٦) وكما استخرجها عيلم نحرير وعلامة كبير كان في سلك الفلاسفة المنطقيين والعرفاء الرسميين ، ثم أصبح من أكبر المعارضين لذلك الثالوث! [1].

---

(١) انه استاذنا الأقدم بحر المعارف الربانية ، المتحقق بحقيقة من المعرفة الشهودية المغفور له الحاج الميرزا مهدي الإصبهاني المشهد موطنا ، وقد نقل عنه ذلك العدد بعض تلاميذه الكبار ننقله عنه بتصليحات أدبية واختصارا :

اختلفوا في :

١ أن المنطق علم أم لا كما في منطق الإشارات.

٢ وفي أنه علم آلي أم استقلالي ، وينبعث منه الاختلاف في تعريف المنطق «المصدر».

٣ وانه من الحكمة النظرية أو العملية.

٤ ثم في أنه من الأصول أو الفروع : (منطق الشفاء).

٥ وفي موضوعه هل هو الألفاظ من حيث دلالتها على معانيها؟ أم هو نفس المعاني المدلولة بها؟ (شرح المطالع).

٦ وفي موضوعه وهو التصديق هل هو الحكم؟ أو ملازم له؟ أو مركب من أمور أربعة؟ أو مشروط بها؟ وأن المقسم للتصور والتصديق ما هو؟ (رسالة صدر المتألهين في التصور والتصديق المطبوع ذيل ، جوهر النضيد في منطق التجريد).

٧ وفي أن الافتقار إلى المنطق هل هو إلى كل قوانينها؟ أم البعض الذي يكون بمنزلة الدعائم؟ وصدر المتألهين في هامشه على حكمة الإشراق ـ بعد نقض وإبرام كثير ـ يقول : ما من مسألة من مسائل المنطق إلّا ولها دخل في العصمة من الخطأ ، إما قريبا أو بعيدا ولأن في مسائله معركة متضادة الآراء فلا عصمة فيها أبدا.

٨ وفي أن اكتساب المجهولات التصورية بل والتصديقية هل هو ممكن أو ممتنع؟ وأول من أبدى هذا السؤال هو «مائن» وقد عرضه على سقراط وله في هذا المقام إشكالان ذكرهما شارح المطالع في أواخر مبحث الحدود ، وقد أشار إليهما صدر المتألهين في هامش حكمة الإشراق في أواخر الضابط السابع ، وأجاب عن الأول بما يرجع محصله إلى أن : «لو أن العلم بوجه الشيء هو العلم بالشيء من ذلك الوجه» على ما ظنه من لا تحقيق له ، لزم أن يكون جميع الأشياء معلومة لنا مع عدم اتجاه عقولنا إليها ، وذلك بيّن الاستحالة فكم بين كلامه وكلام الصور من المناقضة.

٩ وفي تعريف الفكر هل هو ترتيب أمر أو أمور؟ ومنه ينبعث الاختلاف في أن التعريف بالفصل وحده وبالخاصة وحدها جائز أم لا ، ثم تنازعوا في أن الشيء هل هو مأخوذ في ـ

ـ المشتق أم لا ، وقال المحقق الطوسي في «شرح الإشارات» وإنما قال : عن أمور ولم يقل عن أمر واحد؟ لأن المبادئ التي ينتقل عنها إلى المطاليب انتقالا صناعيا إنما تكون فرق الواحدة وهي أجزاء الأقوال الشارحة ومقدمات الحجج على ما سنبين.

فهذه حال أصل المنطق وموضوعه ، وأما مباحثه فقد اختلفوا في : ١٠ أن الدلالة هل هي تابعة للإرادة كما قال الشيخ وأتباعه ـ ولذا لم يعتبروا فيه الحيثية في تعريف الدلالات ـ أم ليست بتابعة لها كما قال صاحب المطالع وشارحه ، ولذلك اعتبروا هذا القيد لئلا ينتقض تعاريفها في صورة الاشتراك اللفظي ، ثم إنه يعلم مراد الشيخ من الدلالة هل هي التصديقية أو التصورية؟

١١ وفي حقيقة الدلالة الالتزامية أن اللزوم الذهني كما الخارجي هل يعتبر فيها أم لا؟ فالشيخ الإشراقي يقول بعدم اعتباره ، وأن المعتبر هو اللزوم الخارجي ، فالنسبة بين دلالة المطابقة والالتزام هي التساوي ، إذ كلما تحققت المطابقة تحقق الالتزام وبالعكس ، وأنه كلما تحقق التضمن تحقق الالتزام ، فالنسبة بينهما عموم مطلق ، وتبعه في أصل المبني شارح المطالع وشارح حكمة الإشراق ، وقد ذهب كثير من المتأخرين إلى الإعتبار فخالفوا الشيخ الإشراقي في النسبة بين المطابقة والالتزام ، وكذا بين التضمن والالتزام كما هي مشهورة عندهم.

١٢ وأن الدلالة الالتزامية هل هي مهجورة ـ فقط ـ في الحدود التامة؟ أم وفي كل الحدود والرسوم بقسميها؟ فذهب الشيخ والمحقق الطوسي إلى الأول ، قال المحقق في شرح الإرشاد : والحق فيه أن الالتزام في جواب ما هو وما يجري مجراه من الحدود التامة ، لا يجوز أن يستعمل ، وأما في سائر المواضع فقد يعتبر ، ولو لا اعتباره لم يستعمل في الحدود والرسوم الناقصة الخالية من الأجناس ، إذ هي لا تدل على ماهيات المحدودات إلّا بالالتزام ، فإن الحد هو القول الدال على الماهية ، وهذا اللفظ يقع بالاشتراك على الحد والرسم التامّين والناقصين ، وأما صاحب المحاكمات فقد خالف الشيخ المحقق في ذلك وذهب إلى عدم دلالة الحدّ الناقص والرسم على الماهية فهو خالفهما في جواز استعمال الدلالة الالتزامية في الحدود الناقصة والرسوم ، وذهب إلى عدم جوازه.

١٣ في أن النسب هل هي محصورة في الأربع المشهورة أم أزيد منها؟ وقد أشكل على الحصر فيها باللّاممكن بالإمكان العام وباللّاشيء ، حيث إن بينهما لا توجد واحدة منها ، وشارح المطالع سلّم الإشكال وأنكر الحصر ، ثم وأشكل في كون نقيضي المتساويين متساويين ، وفي أن نقيض الأعم المطلق أخصى مطلقا.

١٤ واختلفوا في تعريف الكلي الطبيعي الذي هو معروض للمنطقي ، والشيخ عرّفه بما ينافي كلام المشهور (راجع شرح المطالع عند نقله كلام الشيخ في هذا الباب) ثم أشكل.

ـ في انحصار تقسيم الكلي إلى الكليات الخمس إشكالات ست ، في أنّ المقسم هل هو الكلي الفرد أو لا؟ (المصدر).

١٥ وفي أن تعريف الجنس هل هو حدّ له أم رسم؟ فالشيخ والإمام الرازي وشارح المطالع جعلوه حدا له ، وصاحب المطالع والمشهور جعلوه رسما ، ومن هذا الاختلاف ينبعث الترديد في تقويم الجنس المنطقي أو الطبيعي أو العقلي (المصدر) والعجب أن بعض قدماء المنطقيين لم يفرقوا بين الجنس والفصل ، والأعجب توهم جماعة منهم عند سماع : إن كل جنس معقول في جواب ما هو : أن كل منقول في جواب ما هو جنس ، ولذلك أنكروا الحد التام ، وقد تعرض الشيخ كلا الوهمين (راجع الإشارات).

كما وذهب جمع منهم إلى أن كل ذاتي أعم يكون دالا على الماهية كالحساس بالنسبة إلى الإنسان ، ورد الشيخ عليهم بأنه فصل الجنس وليس بدال على الماهية إلّا بالالتزام ، والدلالة الالتزامية مهجورة في الحدود التامة دون غيرها ، وقد عرفت أنه كان مختلفا فيه بين المحقق والشيخ وصاحب المحاكمات.

١٦ وفي تعريف النوع الإضافي ، قال شارع المطالع : تعريف القوم فاسد ، بل الأحسن أن يعرّف بأنه أخص كليين مقولين في جواب ما هو (راجع شرح المطالع ترى فيه إساءة أدب من الشيخ الرئيس إلى فرفوريوس صاحب إيساغوجي كما في الإشارات).

١٧ وأن النوع الإضافي هل هو أعم مطلقا من الحقيقي؟ كما نسبه شارح المطالع إلى الشيخ صريحا ، أم هو أعم من وجه؟ كما هو مذهب صاحب المطالع وشارحه.

١٨ وفي علائم الذاتي وخواصه بأنها ثلاثة كما ذهب إليه جمع من المنطقيين وقالوا : كلما يمتنع رفعه في الذهن فهو ذاتي ، أو تكون محصورة في واحدة وهي السبق في التعقل كما ذهب إليه الشيخ وأتباعه ، ورد عليهم بوجود اللوازم البينة التي يمتنع رفعها في الذهن.

١٩ وأن امتناع سلب الذاتي عن صاحبها هل هو على تقدير إخطار الماهية والذاتي كليهما في البال؟ كما اختاره الشيخ الرئيس ، أو هو على تقدير إخطار الماهيّة فحسب دون فاقة إلى إخطار الذاتي فيه؟ كما ذهب إليه جمع كثير من المنطقيين ، وقال شارح المطالع : كم فرق بين القولين! ٢٠ واختلف أرسطاطاليس مع الشيخ في أن ذكر مواد الأجناس العالية ـ فقط ـ هل هو واجب لتنبيه المتعلم كما هو مذهب أرسطو؟ أم لا؟ وإنما هو فضولي زائد ، وإن ذكر فلتذكر موارد الأجناس المتوسطة كما هو مذهب الشيخ ، وانتصر المحقق الطوسي في الإشارات لأرسطو ، ولذلك تبعه في مسلكه في جوهر النضيد.

٢١ واختلفوا في أن المعرّف هل يجب كونه مساويا في الصدق مع المعرّف؟ كما ذهب إليه الشيخ الإشراقي وجمع كثير من المنطقيين ، أم لا؟ بل يمكن كونه أعم منه أو أخص أو ـ

ـ مباينا له؟ كما اختاره شارح المطالع ، ونقل كلام الشيخ الرئيس عن الشفاء ، ثم قال : وقد بان منه أن المساوات ليست مشروطة في مطلق التعريف ، بل في التعريف التام.

٢٣ ومن جرّاءه اختلفوا في بيان الحدود التامة والناقصة والرسوم التامة والناقصة اختلافا عظيما ، فصار تقسيم التعريف إلى الأربعة عند الظاهريين تقسيما مخالفا لما هو عند المتوسطين ، وقد قسم صاحب أساس الاقتباس تقسيما ثالثا يخالف كليهما ، ولذلك فالحد التام عند بعض منهم حد ناقص عند الآخرين ، وكذلك الرسم ، كما يكون الحد والرسم الناقصان عند بعض غير حد ولا رسم عند الآخرين.

٢٣ وفي أن الحد الناقص والرسمين هل تدل على الماهية بالالتزام؟ كما ذهب إليه الشيخ والمحقق الطوسي ، أم لا تدل عليها أصلا؟ كما ذهب إليه صاحب المحاكمات بقوله : الحادّ بالحد الناقص لم يرد به ماهية المحدود ، ولا الراسم ماهية المرسوم ، وإلّا لكانا حدين تامين ، بل لم يردا بهما إلّا مفهوميهما المطابقين وهو ظاهر.

٢٤ وفي جواز تركّب الماهية كالجنس العالي والفصل الأخير من أمرين متساويين أو أمور متساوية كلّ منها فصل مع عدم كونه مميزا عن المشاركات الجنسية ، كما ذهب إليه جماعة من متأخري المنطقيين على ما قال صاحب المحاكمات ، وعدم جواز التركب كما ذهب إليه الشيخ والمحقق.

٢٥ وفي أن مناط الفصلية هل هو التميّز عن جميع المشاركات؟ كما يظهر من الشيخ والمحقق ، أو عن بعضها؟ كما ذهب إليه صاحب المحاكمات وجمع كثير (راجع الإشارات والمحاكمات).

٢٦ وفي أن التعريف هل يجب أن يكون بأمور؟ كما ذهب إليه الشيخ الإشراقي ، ولهذا أنكر كون الناطق حدا ناقصا ، والضاحك رسما ناقصا ، وذهب أيضا إلى أن الفكر هو ترتيب أمور لا أمر واحد ، أم يكفي كونه بأمر واحد كما ذهب إليه المتأخرون (راجع حكمة الإشراق).

٢٧ ومن هنا أنبعث خلاف آخر عظيم هو أنهم اختلفوا في إمكان معرفة البسائط كالأجناس العالية من طريق التعريف كما ذهب إليه صدر المتألهين ، أو امتناعه كما ذهب إليه الشيخ الإشراقي ، وشدد النكير على المشائين بأن البسائط أي الفصول . لا يمكن معرفتها إلّا بأمور محسوسة ظاهرة للحس ، أو من طريق الكشف والشهود ، وقد ذكر صدر المتألهين في هامشه على هذا المقام أن البسائط سواء أكانت أجزاء الحدود أم لا قد تعرف بوجوه أخرى غير ما ذكره المصنف ، منها ما ذكره الشيخ الرئيس بقوله في الحكمة المشرقية : أن الأشياء المركبة قد توجد لها حدود غير مركبة من الأجناس والفصول ، وبعض البسائط توجد لها لوازم يوصل الذهن تصورها إلى حاقّ الملزومات ، وتعريفاتها لا تقصر عن.

ـ التعريف بالحدود.

وخلاصته : أن البسائط قد تعرّف بمعرفة آثارها ولوازمها ، كمعرفة العلة الموجبة للشيء لذاتها من جهة معرفة معلولها ، كما تعرف القوى بأفاعيلها ، وكمعرفة المسخّنة كالنار من معرفة السخونة الشديدة ، ومعرفة الصورة المرطّبة من الرطوبة الشديدة ، وكما يحصل من معرفة الإدراك للكليات معرفة الجوهر الناطق بما هو قوة دراكة ، ومنها طريق القسمة ، ومنها طريق التحليل ، والأول لأفلاطون ، والثاني لأرسطو ، أقول : وهذان الطريقان لا يأتيان في البسائط كما هو المقصود في المقام ، لعدم تركبهما من الذاتي الأعم والأخص لكي يقسّم أو يحلّل.

ومنها معرفته من عرض خاص له ، أي مساو في العموم أعرف عند العقل من هذا المحدود ، ومنها أن يعرف الأعراض البسيطة بموضوعاتها تعريفا بما فيه زيادة للحد على المحدود في المعنى اضطرارا ، كتعريف الأمور بالشيء الذي ـ أي الجسم الذي ـ عرضه السواد (وهناك كلام لطيف عن الشيخ فليراجع إلى ذلك الهامش).

ومنها تعريف الشيء الخاص بمجموع أمور كلّ منها وإن كان عاما له ولغيره ، ولكن المجموع مما يخصه ، ومنها أن الأمر الخاص قد يكون بديهي التصور ، إما من الأوليات أو الحسيات ، فلا حاجة إلى أن يكتسب من مفهوم آخر (انتهى ما أردنا نقله عن هذا الهامش ملخصا) وأقول : المنقول هنا عن الشيخ الرئيس في الحكمة المشرقية مردود منسوخ بما نقله في الأسفار عن تعليقاته حيث يقول : «لا نعرف حقيقة الجوهر ، بل نعرف شيئا له هذه الخاصية» والإنصاف أن الحق مع كلامه في التعليقات. إذ ما يكون خارجا عن حقيقة الشيء كيف يوصلنا إلى حاق ذلك الشيء. فبعد التفتيش التام يظهر أن الحق مع شيخ الإشراق المؤيد بالمنقول عن الشيخ الرئيس ، وهذه كلها نبذات من اختلافاتهم في الحدود ، ولهم اختلافات أخرى في سائر مباحث المنطق ، حيث اختلفوا في :

٢٨ أن حمل الجزئي الحقيقي على نفسه كهذا الكاتب على هذا الإنسان ، جائز؟ كما ذهب إليه الفارابي والصدر ، أم لا؟ كما عليه جمهور المتأخرين (راجع هامش حكمة الإشراق في أواخر الضابط الأول من المقالة الثانية).

٢٩ وفي أن مادة العقود وعناصرها هل هي عين الجهات ذاتيا وغيرها اعتباريا كما عليه متأخروا المنطقيين ، أم لا؟ بل هي غيرها ذاتيا كما هي اعتباريا ، كما عليه قدمائهم ، وهو التحقيق عند المتأخرين من الفلاسفة (راجع شرح المطالع والشوارق في مبحث الماهية) واضطربت الكلمة في أن الممكنة العامة هل هي من الموجّهات أم ليست بقضية أصلا (المصدر). .

٣٠ وفي أن المطلقة العامة هل هي من الموجبات كما اختاره السبزواري في لتاليه؟ أم لا ، بل هي متقابلة لها تقابل العدم والملكة؟ كما هو التحقيق عندهم ، ويرد عليهم بأنكم تذهبون إلى كون الدائمة المطلقة نقيضا للمطلقة العامة مع اشتراطكم في التناقض اختلاف الجهة ، فكيف تجعلون الدائمة نقيضا لها مع أنه لا جهة فيها ، قال الشيخ الإشراقي في آخر الضابط الثالث : كثر الخبط فيها ، يعني من المشائين.

٣١ وفي أن المواد مواد للموجبات فقط؟ أم وللسوالب أيضا؟ ذكره الصدر في بحث عدم كون العدم رابطيا في الأمور العامة من الأسفار.

والعجب أنه أنكر قوم من المناطقة الإمكان ، لاستلزامه إما كون الواجب ممكن العدم ، أو كونه ممتنع الوجود (راجع شرح المطالع) وقال الشيخ في الإشارات : «السؤال الذي يهول به قوم» قال شارحه : السؤال الذي ذكره مما استعظمه قوم من المنطقيين وهو مغالطة باشتراك الاسم . انتهى.

أقول : هذه غاية مدارك بعض المنطقيين ، فكيف الاطمئنان بضوابطهم وقواعدهم؟ والأعجب أن جمهورا من المنطقيين لم يفرقوا بين الضروري والدائم لأن كل دائم كلي فهو ضروري (راجع شرح الإشارات في الضرورة والدوام).

٣٢ وفي أن تعدد القضية هل هو بتعدد الحكم فقط؟ كما عليه المحققون ، أم لا؟ كما ذهب إليه صاحب المطالع في الفصل السادس من مباحث التصديقات.

٣٣ وفي أن الوحدات المعتبرة في التناقض هل هي ثمان ولا يجوز إرجاعها إلى الموضوع والمحمول والزمان؟ كما هو مختار الشيخ والمحقق في الإشارات وشرحه ومختار الجمهور ، أم لا ، بل يجوز الإرجاع؟ كما عليه الفارابي والإمام الرازي (راجع شرح الإشارات والمطالع).

٣٤ وفي أن الوحدات الثمانية هل تكفي في تحقق التناقض؟ كما عليه جمهورهم ومحققوهم كالشيخ الرئيس والمحقق الطوسي وأتباعهما ، أم لا ، بل تحتاج إلى وحدة الحمل ذاتيا وصناعيا؟ كما ذهب إليه الصدر ومقلدوه.

٣٥ وفي أنه هل يعتبر في تناقض المحصورات الاختلاف في الكمّ؟ كما عليه مشهور المنطقيين ومحققوهم كالشيخ والمحقق وأتباعها؟ أم لا ، بل لا بد من كون السلب واردا على عين القضية الموجبة؟ كما عليه شيخ الإشراق وشارح حكمة العين والصدر ، فيكون نقيض القضية عند القوم لازم النقيض عند هؤلاء.

والعجب أن الشيخ وأتباعه ذهبوا إلى أن السالبة الجزئية ليست بنقيض للموجبة الكلية ، وكذلك العكس ، بل هما لازما النقيض ، والشيخ وأتباعه جعلوها نقيضا صريحا ، مع أن الجميع اتفقوا على أن التناقض يحصل بورود السلب على عين ما ورد الإيجاب.

. ٣٦ وفي أنه هل يعتبر في تناقض الموجبات الاختلاف في الجهة؟ كما عليه الشيخ الرئيس وأتباعه ، وشنّع في الإشارات بقوله : إن الناس قد أفتوا على سبيل التحريف وقلة التأمل أن للمطلقة نقيضا من المطلقات أم لا؟ ، بل ليس الاختلاف فيها بمعتبر في نقائض الموجبات؟ كما عليه شيخ الإشراق وشارح حكمة الإشراق والصدر وصاحب الكشف.

قال شيخ الإشراق : ولعلّه لا يحتاج إلى تعمق المشائيين ، وقال الصدر : أرى كلام هذا الشيخ وهذا التحقيق من الشيخ يخلّص السالك عن ارتكاب كثير من التكلفات الشاقة ، ويسهّل الطريق إلى طلب الحق.

٣٧ وفي أن عقد الوضع في القضاء هل هو بالفعل؟ كما عليه الشيخ ، أو بالإمكان؟ كما عليه الفارابي ، فعلى الأول لا عكس للممكنتين ، ولا تنتج الصغرى الممكنة في الشكل الأول والثالث ، وتكون فعلية الصغرى شرطا في إنتاجهما ، ولا تنعكس السالبة الضرورية المطلقة والدائمة المطلقة والمشروطة العامة والعرفية العامة إلى أنفسها ، ولا تنعكس الخاصتان إلى عامتهما مع قيد اللّادوام في البعض ، بل عليه تنعكس الدائمتان إلى الدائمة المطلقة ، والعامتان إلى العرفية العامة مع قيد اللّادوام في البعض ، والخاصتان إلى العرفية الخاصة.

وعلى الثاني للممكنتين عكس ، ولا يشترط فعلية الصغرى في الشكل الأول ، وينعكس جميع هذه المذكورات إلى أنفسها ، ويجرى دليل الخلف والعكس في جميعها ، وقدماء المنطقيين اختاروا مذهب الفارابي ، وإليه ذهب المحقق الطوسي في جوهر النضيد واختار متأخروهم مذهب الشيخ وشنّعوا عليه ، حيث أخذ عقد الوضع بالفعل ، ولكن في مقام ترتيب الأحكام سلك مسلك القدماء بجعل السالبة الضرورية منعكسة كنفسها ، وقد وجه شارح المطالع كلام الشيخ بتكلّف ثم قال : ويلوح في كلام الشيخ اضطراب وتشويش ، وذهب صاحب المطالع إلى انعكاس الدائمتين إلى الدائمة المطلقة ، وانعكاس العامتين إلى أنفسهما ، وانعكاس الخاصتين إلى عامتين مع قيد اللّادوام في البعض ، وهذا المسلك كما ترى مذهب متوسط بين المذهبين.

٣٨ وفي أن السالبة لا تنعكس مطلقا كما عليه القدماء؟ أو في غير الخاصتين كما عليه المتأخرون؟ فهم بين فريقين متخالفين بالاختلاف السابق ، فتبعه الفارابي ، ذهبوا إلى انعكاسهما كنفسهما ، وأتباع الشيخ إلى العرفية الخاصة ، وقال العلامة في شرح جوهر النضيد : إن أثير الدين المفضل بن عمر الأبهري عثر على انعكاسهما.

ثم ليعلم أنه قد أورد الشيخ الرئيس والمحقق الطوسي على مذهب الجمهور في انعكاس السوالب المطلقة كنفسها ، وارتضاه الصدر واستنصر للشيخ الإشراقي بأن مسلكه في العكوس أحسن من مسألة الجمهور. لأنه في فسحة ومندوحة عما يرد عليهم ، ثم نقل عن.

. الفارابي قياسا مؤلفا في انعكاس السالبة الكلية كنفسها (راجع هامش حكمة الإشراق).

٣٩ واختلف الشيخ الإشراقي مع جمهور المنطقيين في عكوس القضايا ، إذ على مذهبه يكون جميع العكوس مع أصولها ضروريات بتأنة كلية ، سواء أكان الأصل موجبا أم سالبا ، كليا أو جزئيا ، مطلقا أو موجّها ، وقد نسب الجمهور إلى الخبط في انعكاس الضروريات الموجبة.

٤٠ واختلفوا في لزوم تكرار الوسط بتمامه بلا زيادة ولا نقصان في القياس. كما عليه الجمهور ، ولذلك وقعوا في الحيرة وتشتت الكلمة في قياس المساوات ، أو عدم لزومه بالتمام كما عليه المحقق الطوسي والصدر ، أو أن التكرار ليس بلازم أبدا كما عليه شارح المطالع. ولا يخفى أن النزاع في المقام إنما هو في إنتاج القياس لا العلم به.

وأعلم أنه قد أورد أبو سعيد أبو الخير إيرادا على الشكل الأول بأنه دوري ، وهو صعب الانحلال عند التفطن بمقصوده.

وقد أورد الشيخ شكا في اشتراط الإيجاب في صغرى الشكل الأول ، وفي اشتراط الكلية في كبراه ، ولذلك زاد المحقق الطوسي في تعريف القياس قيد «بعينه» دفعا لهذا الشك.

ثم الشيخ لم يشترط خصوص الإيجاب في صغرى الشكل الأول ، بل قال : يشترط أن تكون موجبة أو في قوة الموجبة كالسالبة اللّادائمة ، وعلى مذهبه تكون القرائن المنتجة ثمانية ، وعلى مذهب الجمهور أربعة ، وعلى مذهب الشيخ الإشراقي واحدة.

٤١ وفي أن الصغرى الممكنة في الشكل الأوّل لا تنتج أصلا كما هو مذهب جماعة منهم ، أو تنتج كما هو مذهب الشيخ والمحقق وأتباعها ، واحتجوا عليه بالخلق ، وأجاب المانعون عن حجتهم.

٤٢ ثم القائلون بالإنتاج اختلفوا في أن الصغرى الممكنة مع الكبرى الضرورية تنتج ممكنة؟ كما عليه جمهور القدماء ، أو ضرورية كما عليه الشيخ والمحقق ومن تابعهما؟ ٤٣ وهذا الاختلاف نشأ من اختلاف آخر بينهم هو أنهم اختلفوا في أن النتيجة في هذا الشكل هل تتبع أحسن المقدمتين في الكم والكيف والجهة جميعا كما عليه جمع منهم؟ أم هي تابعة في الكمية للصغرى ، وفي الكيفية والجهة الكبرى إلا في موضعين كما عليه الشيخ والمحقق في الإشارات وشرحه؟

٤٤ واختلفوا في إنتاج القياس الشرطي الاقتراني المؤلّف من منفصلتين حقيقيتين فذهب الشيخ إلى عدم إنتاجه وخالفه صاحب المطالع وشارحه.

٤٥ وفي قياسية القياس الشرطي المؤلف من متصلتين اتفاقيتين ، فمنع بعضهم قياسيته ، وآخر عدّه قياسا مفيدا.

. ٤٦ وفي أن القياس المركب من الحملية والمتصلة لا ينتج ، كما عليه جماعة من متأخري قدمائهم ، أو ينتج ، كما عليه المحققون.

٤٧ وفي أن الضروب المنتجة في الشكل الرابع هل هي خمسة أو ثمانية ، وأوّل من عثر على هذه الثلاثة الزائدة هو أثير الدين المفضل الأبهري.

٤٨ وفي شروط إنتاج الشكل الثاني بأنه يجب الاختلاف في الكم ، ولو لم يكن حكم المقدمتين مختلفا ، كما ظنه جمع منهم؟ أم لا بل يجب الاختلاف في الحكم كما عليه المحققون؟ ونبه على ذلك في شرح الإشارات.

٤٩ وفي شروط إنتاج الشكل الثالث من القسم الثالث من أقسام القياس الشرطي الاقتراني أي المركب من المتصلة والحملية ، فأشترط الشيخ وأتباعه إيجاب الحملية ، ولم يشترط صاحب المطالع وشارحه وأتباعهما وأجابا عن إشكالات الشيخ.

٥٠ وفي شروط إنتاج الشكل الثاني من القسم الرابع من أقسام القياس الشرطي الاقتراني ، فاشترط الشيخ وجوب موافقة الحملية لمقدم المتصلة في الكيف ، ولم يشترطها صاحب المطالع وشارحه.

٥١ وفي القسم الثاني من قسمي القياس الاقتراني ، المركب من الحملية والمنفصلة ، فقال الشيخ : إن الحملية الواحدة إن كانت صغرى لا تنتج في هذا القسم ، وقال صاحب المطالع وشارحه بإنتاجهما سواء أكانت صغرى أو كبرى.

٥٢ وفي أن المنفصلة الحقيقية إذا كانت موجبة جزئية وكبرى فهل تنتج مع المتصلة الموجبة الكلية المشاركة التالي كما عليه صاحب المطالع وشارحه؟ أم لا تنتج كما عليه الشيخ وأتباعه ، وقد استدل الشيخ بما فسخه شارح المطالع.

ثم إنهم قد شكلوا في إنتاج الشرطية الاقترانية المؤلفة من المتصلتين كما أن الشيخ قد شك في الشكل الأول عن لزومية هذه الشرطية ، وأجاب عنه في الشفاء ، وقد أجاب عنه شارح المطالع أيضا بما قد ردّه الصدر في تعليقاته فراجع.

٥٣ وفي أن اعتبار الاتصال في الشرطية المتصلة هل هو بلحاظ نفس النقيضين ، بلحاظ التوافق بينهما في الصدق (راجع شرح المطالع أواسط الفصل الثاني من التصديقات).

٥٤ وفي أن النسبة التي تكون جزء للقضية هل هي نسبة موضوعية الموضوع للمحمول أو نسبة محمولية المحمول إلى الموضوع ويثمر ثمرا عظيما في الموجبات ، حيث إن الجهة هي كيفية النسبة ، فما هذه النسبة المكيفة ، فقولنا : الكاتب إنسان ، نسبة موضوعية الموضوع فيها للمحمول إنما هي بالوجوب ، وقد بين في شرح المطالع تغاير النسب.

وبالجملة هنا اختلاف عظيم بحيث قال شارع المطالع : اضطربت الأقوال فيها ، ثم قال في آخر هذا الفصل : فحقّق هذا الموضوع على هذا النسق ، وامح من بالك ما يقولون .

٥٦ وفي اختصاص الشرطيات بالقياس الاستثنائي ، والحمليات بالقياس الاقتراني وعدم وجود قياس اقتراني شرطي كما عليه عامة الجمهور قبل الشيخ؟ وعليه ورود التعليم الأول أم لا ، بل هناك اقترانات شرطية كما نبه عليه الشيخ واختاره جمع آخرون.

ـ ويزخرفون ، فلا شبهة بعد شروق الحق المبين.

٥٥ وفي أن كلّ متصلتين توافقنا في المقدم والكم وتخالفتا في الكيف وتناقضا في التالي ، تكونان متلازمتين ومتعاكستين كما عليه القدماء منهم؟ أو لا تكونان متلازمتين ولا متعاكستين كما عليه متأخروهم؟ (راجع جوهر النضيد في بيان أقسام المتصلة والمنفصلة في أوّل مبحث القضايا).

٥٧ وفي جواز تركب مانعة الجمع والخلو من أجزاء فوق اثنتين ، كما عليه جمع كثير من متقدميهم وعليه شارح حكمة الإشراق والمحقق في جوهر النضيد ، بل ظاهر عبارة المحقق تجويزه في المنفصلة الحقيقية أيضا ، أم لا ، بل لا يجوز في كل واحد من المنفصلات الثلاث إلّا التركّب من جزئين فقط ، كما عليه الشيخ وصاحب المطالع وشارحه.

٥٨ وفي حقيقة القضية الحقيقية ، وأنه ما الفرق بينها وبين الخارجية وهناك تفصيلات كثيرة تطلب من شرح المطالب.

٥٩ وفي حقيقة القضية الطبيعية بأنها شخصية أم لا؟ وهل هي داخلة في المهملة أم لا؟ (راجع الإشارات وشرح المطالع وتعليقات حكمة الإشراق في المحصورات).

٦٠ وفي اقتضاء الموجبات وجود الموضوع وإن كانت معدولة ، دون السوالب إن كانت بسيطة كما عليه الشيخ الرئيس والمحقق الطوسي والصدر وجمع كثير منهم ، أو ليس بين الموجبات والسوالب فرق من هذه الجهة حسب الواقع أصلا ، بل هما كلتاهما تقتضيان ثبوت الموضوع في الذهن أو في نفس الأمر كما عليه المحقق الدواني وجمع آخر منهم؟ بل وذهب بعضهم إلى أنه إن لم تقتض السالبة وجود الموضوع لزم عدم إنتاج الضرب الثاني والرابع من الشكل الأول (راجع شرح المطالع).

ومن هنا نشأ الاختلاف في حقيقة القضايا التي تكون موضوعاتها من الممتنعات كشريك الباري واجتماع النقيضين والمعدوم المطلق ، ولهذا لجأ بعضهم إلى تصوير قضية أخرى مسماة بالموجبة السالبة المحمول.

ثم إن الفرقة الأولى ـ أي الشيخ وأتباعه ـ القائلين باقتضاء الموجبات دون السوالب قد افترقوا فرقتين ، ففرقة ذهبت إلى أن التمايز بين الموجبات والسوالب فالاقتضاء وعدمه إنما يكون في الشخصيات والمحصورات كلتيهما ، كالشيخ الرئيس والصدر وجمع من المحققين ، وفرقة أخرى ذهبت إلى انحصار التمايز في خصوص الشخصيات دون ـ

. المحصورات لاشتمالها على عقد وضع هو في قوة قضية إيجابية حملية بخلاف الشخصيات لعدم وجود عقد الوضع كالشيخ الإشراقي ومن تبعه.

وهنا لك وقع الاختلاف بينه وبين الصدر في حقيقة عقد الوضع بأنه ما هو؟ (راجع الضابط السادس من المقالة الثانية من حكمة الإشراق عند قوله : وهاهنا دقيقة إشراقية).

٦١ وفي وجود الموجبة السالبة المحمول وعدمها ، وأنها هل هي قضية أخرى سوى البارقية أم لا؟ وعلى فرض كونها قضية ، فهل تقتضي وجود الموضوع كما عليه صاحب المطالع وشارحها أم لا؟ تشبيها بالسوالب المحصلة كما ذهب إليه جماعة أخرى منهم السبزواري في لئاليه (راجع شرح المطالع عند بيان المعدومات).

٦٢ وفي تحليل قياس الخلف ، ففرقة كالشيخين ومن تبعهما خالفوا المتأخرين وعسر عليهم فهم التعليم الأول ، ومن هذا الاختلاف يختلف شرائط إنتاج قياس الخلف فيعسر الأمر في إنتاج الضروب المنتجة من الأشكال الثلاثة ، إذ عمدة الدليل في تمييز المنتج منها عن غيره هو الخلف (راجع تعليقات حكمة الإشراق لدى بيان قياس الخلف).

٦٣ وفي أن مقدمات البرهان هل يجب أن تكون واجبات محضة ـ أي ضروريات ـ قبال الممكن والممتنع ، كما ذهب إليه الصدر تبعا للشيخ الإشراقي ، وإليه ذهب قوم من قدمائهم تبعا لما ورد في التعليم الأوّل ، أم لا؟ بل يمكن كون كلتيهما أو إحداهما ممكنة بل وممتنعة كما ذهب إليه الشيخ الرئيس وأتباعه ، فإنه بعد ما أبطل رأيهم نسبهم إلى تقليد المعلم الأول وهجى المعلم وقال : إن القوم تخبطوا في كثير من المواضع لأجل تقليدهم المعلم الأول.

٦٤ وفي أن المتواترات هل تكون حجة في المعقولات كما عليه المعلم الثاني الفارابي في كتابه : (الجمع بين الرأيين) أم لا بل تنحصر حجيتها في المحسوسات فقط كما عليه الشيخان والصدر والمحقق الطوسي.

ومن هنا ينبعث الخلاف في وجوب كون المتواترات قضايا جزئية مفيدة للحكم الجزئي كما هو لازم المذهب الثاني؟ أو عدم وجوبه بحيث يمكن إفادته رأيا كليا كما هو لازم المذهب الأوّل.

٦٥ وفي أن العلم الحاصل بالمتواترات نظرية كما ذهب إليه قوم على ما في جوهر النضيد ، أم ضرورية كما عليه مشهور المناطقة.

٦٦ وفي تمايز برهان اللّم عن برهان الإنّ ، فقد ذهب الشيخ الرئيس والشيخ الإشراقي والمحقق الطوسي وصاحب المحاكمات وشرح المطالع وشارح حكمة الإشراق والجمهور من المتأخرين إلى أن الأوسط في برهان اللّم هو الذي علة للوجود الرابط للأكبر في الخارج وفي العقل ، سواء أكان معلولا لوجوده المحمولي أيضا أم لا ، وفي برهان الإنّ .

ذلك المنطق العلمي الرسمي كمقدمة ضرورية لهذه الفلسفة ، فضلا عن نفسها التي فيها مغالطات ومخالطات ، ولا بد للسالك إلى الله من زاد معصوم وراحلة معصومة لكي تكون عاصمة ، وليست إلّا راحلة العقل السليم بزاد الفطرة السليمة ، استضاءة من الشرعة الربانية ، دون أية حاجة للورود في لجج المنطقيات والفلسفيات والعرفانيات المصطلحة الحائدة عن الصراط المستقيم والطريق القويم.

هذا! ف :

نهايـــة أقـــدام العقـــول عقـــال   وأكثـــر ســـعي العـــالمين ضـــلال

وكـــم قـــد رأينـــا مـــن رجـــال ودولـــة   فبـــادوا جميعـــا مســـرعين وزالـــوا

ولم نســـتفد مـــن بحثنـــا طـــول عمـــرنا   ســـوى أن جمعنـــا فيـــه قيـــل وقـــالوا [١]

فمن أسس الفلسفة تلازم العلة والمعلول ، ولأنهم يعتبرون الله علة يقولون بأزلية وأبدية الخلق لكونه معلولا له تعالى ، والعلة هي والدة المعلول ، والله سبحانه لم يلد ولم يولد ، فهو خالق بالإرادة وليس والدا دون إرادة كما هو قضية العلية المصطلحة.

ومنها مسانخة العلة والمعلول ، إذا فهناك مسانخة ذاتية بين الخالق

. هو الذي يكون علة لوجود رابط الأكبر في العقل فقط ، وأما الصدر فقد ذهب إلى أن برهان اللم ما كان الأوسط فيه علة للوجود والمحمول الذي للأكبر ولوجوده الرابط كليهما في العقل والخارج كليهما أيضا ، وبرهان الإنّ ما كان الأوسط فيه علة لوجوده الرابط فقط في الخارج والعقل كليهما. ولهذا يختلط الأمر على هذين المذهبين كمال الاختلاط ، إذ يكون أغلب البراهين اللّمية على المذهب الأوّل إنية على المذهب الثاني ، وأنت تعلم أن طرفي الاختلاف في هذه المسألة من فحول الحكمة والمنطق وأساطينهما.

وحيث إن أعداد الاختلافات المذكورة بلغت إلى عدد «الله» أي : ست وستين ، وقد ورد في الحديث: «إذا بلغ الكلام إلى الله فانصتوا» ننصت ونسكت ونرجع إلى ما كنا من موهنات مسلك الفلاسفة.

(١) ينسب المبيدي شارح هداية المفضل الأبهري في شرحه على الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى فخر الدين الرازي هذه الأشعار.

والمخلوق ، وهذا من أسس القول بوحدة حقيقة الوجود وإنما الاختلاف بالمراتب.

ومنها أن الواحد لا يصد منه إلا واحد ، فليس معلول الله عندهم إلّا واحد هو العقل الأوّل ، ثم هو الخالق لسائر الخلق ، ووحدة العقل الأول قضية وحدة العلة الأولى ، هي وهدة في خلق سائر الخلق كوهدته تعالى عندهم عن خلق سائر الخلق.

هذه وما أشبه خلطا بين الخالق والعلة مما أهواهم في هوّات جارفة ، مما جعل الفلسفة الإلهية إلحادية أو إشراكية لا تشبه تصريحات الكتاب والسنة ، وكما تجد المفاصلة التامة بينهما بطيات الآيات في حقول معرفة الله في هذا الفرقان.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١٧٦).

هنا عرض وجيز عن ﴿الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها﴾ وهو منقطع النظير في القرآن كله ، وقد ورد في مسرحه روايات متهافتة تحمل في الأكثر خرافات غريبة : . شرقية أو غربية . تفرض علينا تعمقا أنيقا في نص الآية ليسهل لنا الرد والقبول والله المستعان.

ترى من هو صاحب المسرح؟ وما هي الآيات التي أوتيها؟ وكيف انسلخ منها؟ ولا تؤتى الآيات المعجزات إلّا أهلوها الصالحون لها! ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

إنه حسب روايات عدة «بلعم بن باعورا من بني إسرائيل» أم سواه [1] ولم يكن نبيا ولا وصيا خلاف ما قد يروى ، حيث العصمة

---

(١) بحار الأنوار ١٣ : ٣٧٧ عن تفسير القمي حدثني أبي عن الحسين بن خالد عن أبي الرضا (عليه السلام) أنه أعطي بلعم بن باعورا الاسم الأعظم وكان يدعو به فيستجيب له ، .

ولا سيما الرسالية اصطفاء واجتباء ، وكيف يصطفى ويجتبى من هو من الغاوين المخلدين إلى الأرض المتبعين أهواءهم لحد يمثّل بالكلب ، وهو مكذب بآيات الله ، فكيف يصطفيه إلّا الجاهل القاحل المغري للمجاهيل ويكأن الله يجهل حيث يجعل رسالته؟ و ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾ فكيف جهل هنا موضع رسالته؟

إذا ف «آياتنا» هنا ليست هي من آيات العصمة رسالية وسواها ولا الآيات العامة المزيدة ، بل هي التي قد تؤتى غير الصالحين لردح من الزمن امتحانا فامتهانا ، ولكي نعلم أن الآيات الربانية ليست إلّا لمستحقيها بحق والذين يعملون لها كما هيه ، ليست إلّا هيه.

فسواء أكانت «آياتنا» آية استجابة الدعوة كما يروى؟ وهي آية واحدة! أم وآيات آفاقية وأنفسية في سلك معرفة ربانية زائدة ابتلاء له وامتحانا؟ وقد تناسبه جمع «آياتنا» هي الآيات العوان بين الخاصة الرسالية والعامة السارية.

هنا «آياتنا» هي عوان بين الآيات المؤتيات لكافة المكلفين بمختلف قابلياتهم وفاعلياتهم ، وبين الآيات الرسولية والرسالية للمرسلين ، فلا هي الخاصة ب ﴿الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا﴾ من الآيات العامة ، حيث تعمه وسواه ، ولا هي من الآيات الخاصة الرسالية لاختصاصها بالمصطفين ، فهي ـ إذا ـ عوان بين قبيلي الآيات ، أن زوّد فيما أوتي منها على سائر المكلفين ،

ـ فمال إلى فرعون في طلب موسى (عليه السلام) وأصحابه ، قال فرعون لبلعم : أدع الله على موسى وأصحابه ليحبسه علينا ، فركب حمارته ليمرّ في طلب موسى فامتنعت عليه حمارته فأقبل يضربها فأنطقها الله عزّ وجلّ فقالت : ويلك على ما تضربني؟ أتريد أن أجيء معك لتدعو على نبي الله وقوم مؤمنين؟ فلم يزل يضربها حتى قتلها ، وانسلخ الاسم من لسانه وهو قوله : ﴿فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ ... فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ وهو مثل ضربه.

أقول : هذا الحمار هو كالحمار الذي اختلق هذه الرواية المخيّلة للناظر إليها كان الله مجبر في إجابة دعاء ابن باعورا ، فلذلك امتنع عن المرور إلى موسى خوفة دعاءه وإجابته تعالى إياه.

مهما نقص عن المرسلين.

فهي ـ إذا ـ قوة زائدة في الفطرة والعقلية الإنسانية ، والطاقة الحسية ، أماهيه في ذلك المثلث ، ومنها ظاهرة الكرامات بدعوات وسواها ، قوة زائدة بين زائدة العصمة والناقصة قدر الحاجة في قضية التكليف العام ، وهذه القوة رحمة للذين يتذرعون بها رفعا لكيانهم المعرفي والعبودي ، وزحمة للذين ينسلخون منها فيسقطون في هوّات الضلالة والمتاهة ، وكأنهم ما أوتوا من آيات الله شيئا.

ذلك ولقوة البصيرة والنظر ، ولنضوج العقل والبصر ، ولمزيد العلوم والفكر ، إن لها نصيبا بالغا للسالك إلى الله في مزيد معرفة الله ، ولكنه ﴿فَانْسَلَخَ مِنْها﴾ وقد كانت تحوطه حيطة الجلد على البدن فسلخها عنه ﴿فَانْسَلَخَ مِنْها﴾.

فرغم أن على الإنسان الاستزادة والاستقواء من ذرائع مزيد المعرفة بالله فالحب في الله ، ترى ماذا تكون حال من ﴿آتَيْناهُ آياتِنا﴾ دون محاولة منه إذا ﴿فَانْسَلَخَ مِنْها﴾ رغبة في الحياة الدنيا والإخلاد إليها ، قلبا لنعمة الله والذريعة إلى معرفة الله ، نقمة ونعمة وجهلا بالله ، ولذلك ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ﴾ له ولنفسه ومن سواه خالصا كالسا فالسا عما أوتي ، ﴿فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ﴾ الهاوين ، رغم الآيات التي أوتيها ، إذ كفر بها.

ومن هذه الآيات هي الباهرات على نبوة هذا النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) ، وهذه الآيات تحمل له بسوء صنيعه سبعا من أبواب جحيم الغوايات لهذا الذي ﴿آتَيْناهُ آياتِنا﴾ إذ بدل نعمة الله كفرا وأحل نفسه دار البوار جهنم يصلاها وبئس القرار :

١ ﴿فَانْسَلَخَ مِنْها﴾ حيث عامل «آياتنا» معاملة الكفران والنكران ، فعمل في انسلاخه منها عن بكرتها فأصبح أدنى ممن أوتي آيات الله ككل وهم عامة المكلفين.

٢ ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ﴾ في انسلاخه حيث صار من أتباع الشيطان بعد ما أوتي آيات الرحمن ، ولأن المفعول الثاني ل «أتبعه» محذوف ، فهو إذا

المعروف بثالوثه ، أتبعه نفسه الأمارة ، فاتبعه إياه : الشيطان ، وأتبعه جموعا يتابعونه.

٣ ﴿فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ﴾ بذلك الانسلاخ فالإتباع الذي هو من خلفيات الانسلاخ ، فحين ينسلخ الإنسان من آيات الله ، فيصبح خاويا عنها جافيا ، فهنالك إتباع الشيطان في ثالوث بخطواته الثلاث ، وهنا تتم الغواية الطليقة ﴿فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ﴾ المحسوبين بحساب الشيطان : ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ﴾ (١٥ : ٤٢) فإن له عليهم سلطانا ماكنا حيث يحتنكهم راكبا عليهم فهم ـ إذا ـ سيّقة الشيطان.

﴿وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها﴾ رفعا من حالة الكرامة إلى هالة العصمة وما أشبه.

٤ ﴿وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ رغم ما أوتي من آيات ترفعه إلى السماء ، ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ : أرض الشهوة والحيونة والإنية والأنانية ، أماهيه من أرضيات سافلة تافهة.

و «الأرض» هنا هي أرض الحياة المادية قبال الحياة الروحية ، فالمخلد نفسه بكل حوله وقوته إلى الحياة المادية ، لا يعني من الحياة ما هو حي إلّا الشهوات والحيونات وإن كان موحدا فضلا عن ملحد أو مشرك ، فمن الموحدين من لا يعني من الحياة إلا دنياها ، وقد يتذرع بمظاهر إيمانية بغية الوصول إلى بغيته الأرضية منها.

ذلك ، والأرض هي الأرض بالنسبة لقبيلي الكفر والإيمان ، بفارق أن الكافر يبصر بها فتبصّره ، والمؤمن يبصر إليها فتعميه ، وعلى حد قول الإمام علي (عليه السلام) في صفة الدنيا : «من أبصر بها بصرته ومن أبصر إليها أعمته».

٥ ﴿وَاتَّبَعَ هَواهُ﴾ تخلفا عن أمر مولاه فهويّا في خضمّ هواه ، فإن اتباع الهوى يصد عن الحق.

٦ ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ بل وأضل سبيلا ، حيث الكلب كلب له كلب كما خلق ، وهو جعل نفسه كلبا يكلب بانسلاخه عن آيات الله

فانسلاخه عن إنسانيته ، ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ في ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ : دالعا لسانه من العطش ، فهو ـ إذا ـ دائم اللهث وكأنه ليس له قلب يضبطه لهثه حين لا تحمل عليه.

٧ ﴿ساءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا﴾ ومن مثلهم السوء حالة الكلب في حمل سواه.

ذلك ، وباحتمال آخر قد تعني الآية أشخاصا أخر [(١)] وبثالث لا تعني شخصا أو أشخاصا خصوصا ، إنما تعني الموصوف بهذه الأوصاف الخبيثة النحيسة على مدار الزمن [(٢)] والنص يحتمل كل هذه الثلاث فلنرسله كما أرسل دونما تحديد بواحدة من هذه.

فلقد أوتي من الآيات لحد كأنها أصبحت جلدا له يحفظه لمكان ﴿فَانْسَلَخَ مِنْها﴾ انسلاخا بسوء صنيعه إذ لم يقل : فسلخه منها ، ففاعل السلخ هو هو بما صنع ، وهو الله جزاء بما ضيع فيما صنع.

ولأن هذا المسرح الغاوي الهاوي هو المجال الأجلي للشيطان ، لذلك ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ﴾ اتبعه نفسه إذ أصبح تابعا للشيطان تماما كما انسلخ من آيات الله تماما جزاء وفاقا : ﴿فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ كما وأتبعه الشيطان نفسه بعد ما اتبعه نفسه الامارة ، ثم اتبعه جموعا

---

(١) وهم بين أمية بن أبي الصلت وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولا في ذلك الوقت ورجا أن يكون هو فلما أرسل الله محمدا في ذلك الوقت ورجا أن يكون حسده ثم مات كافرا ولم يؤمن بالنبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) وهو الذي قال فيه النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم): «آمن شعره وكفر قلبه» عن عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وأبو روق .

وأبي عامر الراهب الذي سماه النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) الفاسق كان يترهب في الجاهلية فلما جاء الإسلام خرج إلى الشام وأمر المنافقين باتخاذ مسجد ضرار وأتى قيصر واستنجده على النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) فمات طريدا وحيدا وهو قول سعيد بن المسيب .

ومنافقي أهل الكتاب كانوا يعرفون النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) عن الحسن والأمم .

(٢) وهو قول قتادة وعكرمة وأبي مسلم.

يرأّسونه إذ أصبح من رؤساء الشيطانات ﴿فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ﴾ نفسه وأتباعه ، رغم ما أوتي من الآيات ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ﴾.

﴿وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها﴾ كما آتيناه إياها ، لو أنه اتبعها واستفاد منها ، ﴿وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ لازقا إياها ، راضيا بالحياة الدنيا من الآخرة ، تاركا آيات السماء وراءه ظهريا ﴿وَاتَّبَعَ هَواهُ﴾ في إخلاده فلم ينج منه ، فقد يرفع الله بآياته الذي يتذرعونها إلى الحق المرام قدر مسعاهم ومرماهم.

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ اللّاهث ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ هجوما ضاريا «يلهث» . «أو تتركه» مسالما «يلهث» واللهث هو حال العطش ، فمن الكلاب من تسوى له الحالتان ريّا وعطشا ، فذلك الذي ﴿آتَيْناهُ آياتِنا﴾ فأصبح ريا بها لا يعطش ، وأخذ يلهث وعنده ما يغنيه منها ، فقد آتاه الله العلم فأغناه عن التعرض لهذا الأركس الأدنى ، ولكنه ألغاه إلقاء لنفسه فيما تشتهيه نفسه الخبيثة وطبيعته الخسيسة ، دونما حاجة إلى الأرض بما عنده من آيات السماء ، فسواء عليه إن أوتي «آياتنا» أم لم يؤت منها فإنه لاهث عطشان للحياة الأرضية الدانية الفانية ، حيث يفدي للحصول عليها بآياتنا ﴿ساءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا﴾ وقد أوتوها انسلاخا منها ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

فيا له من مشهد عجاب ، إنسان آتاه الله آيات له بينات ، خالعا عليه من فضله ، كاسيا من علمه بفرصة كاملة شاملة للاهتداء والارتفاع بها ، وإذا هو ينسلخ منها وكأنما الآيات أديمت له متلبسة بلحمه ، فهو ذا ينسلخ منها بعنف ، انسلاخ الحي أمن أديمه اللّاصق بكيانه.

فمن هذه الآيات آية الفطرة : الذر التي فطر الناس عليها ، حيث تلبس بها تلبس الجلد بالإنسان ، تجردا وانسلاخا من الغطاء الواقي والدرع الحامي ، فيهبط من الأفق البارق إخلادا إلى الطين المحمى الحارق ، فيصبح غرضا للشيطان ، مخلدا إلى الأرض ، ملتبسا ملوثا بطينها ، ممسوخا كالكلب اللّاهث.

ثم آية العقل وسائر الآيات الأنفسية الواسطة بين العقل والفطرة ، وبينها وبين الآيات الآفاقية ، من النبيين وكتاباتهم وآياتهم ، ومن الكائنات ككل ، وفي كل شيء له آية تدل على أنه صانع.

فبقدر ما يؤتي الإنسان من آيات الله يرجى منه بنفس القدر أن يرتفع بها من الحياة الأرضية إلى الحياة السماوية ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه وكان أمره فرطا ، فاحصا عن الحيونات ، لاهثا وراء الفرعنات والنمردات.

وكم من عالم عيلم نراه على مدار التاريخ يعلم دين الله بزيادة بالغة ولكنه يزيغ عنه ويزيغ ، إعلانا للبدع ، واستخداما لشرعة الله في التحريفات المقصودة والفتاوى المطلوبة أو المتطلّبة للأهواء والمصلحيات! منسلخا من آيات الله ، منتهيا إلى كلب الكلاب بلهثات لا تنقطع كما الجحيم حيث يقول كما تقول : هل من مزيد؟.

إنهم يلهثون وراء هذا الأدني الأركس ، وراء الحطام ، وراء الشهوات والأهواء ، ولا حدود لهذه اللهثات ولا تنقطع أبدا إلّا بانقطاع أنفاسهم النحيسة البخيسة الخبيثة.

هؤلاء هم أشر خلق الله ، وأخطر على دين الله من الكلاب اللاهثة الضارية في ضرايع الغنم!

كلام حول قصص القرآن :

﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ هنا ، و ﴿لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾ في يوسف (١١١) و ﴿كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَجاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١ : ١٢٠) و ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ﴾ (٦ : ٥٧) وما أشبه.

إنها تعريفات بالقصص القرآنية أنها تعني للرسول نفسه تثبيت فؤاده على بلاغه الرسالي دونما تلكؤ وتهامل ، أم يأس من فاعليها ، وللمرسل

إليهم عبرة وتذكرة وتفكرة ، فإن كل إنسان تاريخ بنفسه فضلا عن كل جيل.

فدراسة القصص الحق هي كراسة للتفكير ، وحراسة عن التهدير ، ومراسة لسلوك صالح السبيل ﴿وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ و ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾.

فليس القرآن كتاب العرض القصصي تخديرا لأعصاب متوترة ، وإتلافا لأوقات ثمينة ، إنما هو فتح لما مضى من كتاب الحياة الإنسانية ، ممثلا كافة النتائج الواقعة ، خيّرة وشرّيرة من قبل لفريقي الخير والشر ، فهو نبراس لمستقبل الحياة ومتراس ، إضافة إلى حاضرة العظات القرآنية ، المحلقة على كل صنوف البراهين ، مبشرة ومنذرة.

وهذا هو المعني من السير في الأرض بتاريخها الجغرافي وجغرافياها التاريخي ، تفكرا في خلق الله : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٩ : ٢٠) وذلك سير آفاقي وأنفسي متعاضدين مع بعضهما البعض للحصول على معرفة المبدء والمعاد ، وسير آخر به يطلع على مسير المكذبين ومصيرهم : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٧ : ٦٩).

وجامع السير هو النظر إلى كل عواقب الخير والشر : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ (٣٠ : ٤٢).

فقد يضم السير في الأرض إلى كل إنسان تجربات ماضية لقبيل الإنسان ، فالإنسان السائر في الأرض بنظرة واقعية إلى وقائع الأرض ، يصبح كأنه التاريخ كله ، يقبل إلى وارده ويدبر عن شارده فيصبح ابنا صالحا للتاريخ الواقع.

ولكي نحصل على حاق التاريخ دون ليّ وعيّ ، علينا أن نكون واقعيين ، لا خياليين تقليديين لكل ما قيل أو يقال ، فننظر إلى واقع التاريخ

المفتوح ، دون المقفل المغلق المغقّل الذي اختلقته مصلحيات المترفين المسيطرين على الشعوب بالسيف والنار ، فإنه تاريخ منكوس مركوس يصنع من السائر فيه نكسة وركسة عن انسانيته.

فالإنسان الجاهل بالتاريخ هو ابن نفسه قدر نفسه خيّرة وشريرة ، والعالم بالتاريخ هو ابن التاريخ إضافة إلى كونه ابن نفسه ، حيث يجمع تجارب السابقين إلى تجاربه نفسه ، ان في طريق الهدى أم طريق الردى.

ولأن النبوات هي بناة التاريخ الصالح ، فالذي يدرس تاريخها بتقدماتها وعرقلاتها لتكون له نبراسا ينير الدرب إلى الحق المرام ، ومتراسا يترس به عما لا يرام ، ذلك الإنسان يصبح ابن النبوات بحصائلها في وسائلها التي يدرسها.

ولا بد في عرض التاريخ من أرض صالحة لذلك العرض وهو القرآن ، حيث تعني ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أرضه بعرضه لصالح التاريخ غير المدسوس ولا المغشوش.

والقرآن حافل للقصص التاريخي الصالح لإنشاء فكرة صالحة ، بجنب ما هو حافل لسائر المواد التربوية الربانية.

إذا فلا فارق بين إنشاءات القرآن وإنباءاته ، حيث الكل تعني بناية الإنسان كأصلح ما يرام في حقل التربية الربانية.

﴿ساءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَأَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ﴾(١٧٧).

فقد رجع رجيع ظلمهم ـ بما كذبوا ـ إلى أنفسهم ، فلن يضروا الله شيئا ولا آياته حيث الحق ليس ليتحول عن حاله بتواتر التكذيب ، فإنما المتحول هو نفوس الظالمين حيث نزلوا أنفسهم عن كيانها الإنساني فهم ﴿كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ﴾ :

﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾(١٧٨).

ولا يهدي الله إلّا من هو في سبيل الاهتداء ، ناحيا نحو الهدى ، وأما الناحي نحو الردى ، حيث يضل بما يهوى ، فهو يضله مهما أوتي من آيات الله الدالة على حق الهدى.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ﴾(١٧٩) .

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (٢٥ : ٤٤) . ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ﴾ (٤٧ : ١٢).

إن القلوب تفقه كأصل من ناحيتين اثنتين ، ذاتية أنفسية دون حاجة إلى أعين وآذان ، وآفاقية هما فيها من الذرايع الإذاعية لها ، فإن الصورة الصوتية المسموعة وغيرها المبصرة تنتقل إلى القلوب فتدرسها تقليبا لها ظهر بطن اصطفاء لأحسنها وأليقها تقبلا.

فالذين ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها﴾ ثم ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها﴾ بصر الإنسان الواعي ﴿وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها﴾ سمع الإنسان ﴿أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ﴾ حيث لا تفقه فقه الإنسان ولا تبصر أو تسمع كما الإنسان ، ولأن ذلك في الأنعام قصور دون تقصير ، وهو في الإنسان تقصير دون قصور فليس ـ فقط ـ أولئك كالأنعام ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ حيث ﴿أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ﴾ بما غفلوا ، والأنعام غافلة عن ذكرى الإنسان كما خلقت.

وترى كيف ﴿ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾؟ وقد خلق الخلق للرحمة لا للعذاب ، ف ﴿لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (١١ : ١١٩).

ثم ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ هل هي صفة الذرء الخلق؟ فما بالهم يؤنّبون ويعذّبون! أم صفة المخلوق بسوء اختياره؟ فكيف ﴿ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ﴾!.

الذرء ليس هو الخلق نفسه ، بل هو إظهار ما خلق بمظهر أعمالهم

الصالحة أو الطالحة ، كما «يذرؤكم فيه» (٤٢ : ١١) و ﴿مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ﴾ (٦ : ١٣٦) هما إظهار ما خلق بمظهر آخر.

فكما أن مظاهر الخير هي من الخيّرين وهي من عند الله ، كذلك مظاهر الشر هي من الشرّيرين وهي من عند الله ، بمعنى أنهما منا بما نختار ونعمل ، وهي من عند الله بما يجازي بالعمل.

وهنا ثالوث المواصفات «لهم قلوب لهم أعين لهم آذان» تقرر معنى الذرء ، فنسبة الذرء إليه تعالى لا تعني أنهم خلقوا لجهنم ، بل هم الكثير كما القليل خلقوا للرحمة ، ولكنهم بسوء صنيعهم بهذه الذرايع إلى الرحمة ، هيّئوا أنفسهم لجهنم.

فلما ذا ﴿ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ لأن ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها﴾ وقد أمروا بالفقه والإبصار والسماع وهو مهيّئ لهم أسبابها الآفاقية والأنفسية ، فهو يذرؤهم ـ إذا ـ إظهارا بمظهر الخير الذي لم يعملوه بمظهر الشر الذي عملوه ، فذلك ذرأهم أولاء لجهنم ، وكما ذرأ قليلا للجنة وهم أولئك الذين لهم قلوب يفقهون بها ولهم أعين يبصرون بها ولهم آذان يسمعون بها ، ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى﴾ : ﴿وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ. فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ﴾(٦٧ : ١٠).

ذلك ، فإنما الإنسان هو القلب الفقيه والعين البصيرة والأذن السميعة بما لها من درجات ، ومن سواه ليس من الناس ، بل هو من النسناس بماله من دركات.

فقد خلق الله الإنسان للرحمة ، ثم ذرأ الصالحين للجنة والطالحين للنار بما ذرأوا أنفسهم ، وكما يحضر الزارع الحبّ فيذرء صالحه لزرعه ويذرأ طالحه لما دون ذلك ، وهكذا يذرأ الإنسان كما يزرع في مزرعة الدنيا ﴿وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾.

ذلك ، وقد يعني «ذرأنا» هنا إلى ما قدمناه ، ذرء العلم ، أن الأكثرية من الجن والإنس هم سائرون إلى جهنم بما يختارون على علم

من ﴿قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها﴾ وليس العلم قبل واقع المعلوم سببا للمعلوم ، إنما هو كاشف عنه ، سواء أكان سببا له إلى كونه كاشفا ، أم ليس هو السبب بل إنما هو كاشف ، وهكذا «لقد ذرأنا».

وفي احتمال ثالث قد يصح «ذرأنا» بما ذرأ الله وسائل النار والذرايع إليها كما ذرأ الذرايع إلى الجنة ، ولكنها كما العلم بها ليست مسيّرة لهما إلى عمل الجنة ولا عمل النار.

فقد خلقنا الله مختارين وهدانا النجدين خيرا وشرا ، وخلق ما نختاره من خير أو شر ، ولم يسيّرنا لا إلى أسباب الجنة ولا إلى أسباب النار ، ثم وذرائع الجنة هي أكثر بكثير من ذرائع النار ، فلا خلقه هذه الذرايع وإيانا ولا خيرنا تسيير ، ولا علمه بما سوف نعمله تسيير ، فإنه «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين».

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٨١) وَمِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما خَلَقَ

اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلا هادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرًّا إِلاَّ ما شاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَما مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١٨١).

لقد تحدثنا عن ﴿الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾ على ضوء آيات الأسرى (١١٠) وطه (٨) والحشر (٢٤) وهنا زيادة ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ﴾ نتحدث ـ فقط ـ عنها دون زيادة أخرى اللهم إلّا شطرا.

كما أن ذات الله هي الحسنى بين الذوات ، بل ولا حسن لها أمام

قدسية هذه الذات ، كذلك ﴿لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾ ذاتية وفعلية ، وذوات المقربين والسابقين التي هي من أحسن الأسماء الفعلية [(١)] وكذلك الأسماء اللفظية التي تعني مثلث الأسماء هذه ﴿فَادْعُوهُ بِها﴾ لا سواها.

والإلحاد في أسماء ، منه أن تختلق له أسماء من أيّ الأربعة ، أم تفسر بغير معانيها ، أم يدعى بها خلاف المرسوم أو المطلوب بها في أي دعاء : استدعاء ونداء ومعرفة وتوصلا وما أشبه.

والإلحاد في أسماءه تعالى وجاه التوحيد فيها يعني كلا الإشراك والإلحاد ، وكافة التخلفات عما رسمه الله من دعوته بها كما هو المسرود في القرآن والسنة.

ومن الإلحاد في أسماءه تسمية غيره بها كما هو يدعى ، تركا له سبحانه فإلحاد أم إشراكا به فإشراك ، ومنه تحسّب عناية أسماءه معاني زائدة على ذاته في أسماءه الذاتية ، وتحسّب عديدها واقعيا ، وما أشبه من تخلفات عن شرعة التوحيد الحق وحق التوحيد في ﴿الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾. ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من تخلفات عن رسم التوحيد فيها وتوحيدها.

واحسن أسماءه الحسنى اللفظية وأجمعها هو الاسم الظاهر : «الله» وهو الاسم الباطن : «هو» ف «الله» ليس له سميّ حتى عند المشركين والملحدين : ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ (١٩ : ٦٥)؟.

والأسماء اللفظية الحسنى حسب المذكور في القرآن مائة وخمسة وأربعون [(٢)] والروايات القائلة إنها تسعة وتسعون بين مطروحة. إذا. أو

---

(١) نور الثقلين ٢ : ١٠٣ في أصول الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال في الآية : نحن والله الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله عملا إلا بمعرفتنا.

(٢) إليكم هذه الأسماء حسب ترتيب حرف التهجي : سواء المذكورة بألفاظها أو المستفادة من صيغها :

ألف الله. الإله. الأحد. الأوّل. الآخر. الأعلى. الأكرم. الأعلم. أرحم الراحمين.

مأوّلة برجوع الزائدة عليها من عديد القرآن إلى تسعة وتسعين ، وكما يروى

ـ أحكم الحاكمين ـ أحسن الخالقين ـ أهل التقوى ـ أهل المغفرة ـ الأقرب ـ الأبقى ـ أسرع الحاسبين ـ أسرع مكرا ـ

ب ـ البارئ ـ الباطن ـ البديع ـ البر ـ البصير ـ الباقي ـ

ت ـ التواب ـ التائب.

ج ـ الجبار ـ الجامع ـ

ح ـ الحكيم ـ الحليم ـ الحي ـ الحق ـ الحميد ـ الحسيب ـ الحفيظ ـ الحفي ـ

خ ـ الخبير ـ الخالق ـ الخلاق ـ الخير ـ خير الماكرين ـ خير الرازقين ـ خير الفاصلين ـ خير الحاكمين ـ خير الفاتحين ـ خير الغافرين ـ خير الوارثين ـ خير الراحمين ـ خير المنزلين.

ذ ـ ذو العرش ـ ذو الطول ـ ذو الانتقام ـ ذو الفضل العظيم ـ ذو الرحمة ـ ذو القوة ـ ذو الجلال والإكرام ـ ذو المعارج ـ ذو المغفرة.

ر ـ الرحمان ـ الرحيم ـ الرؤوف ـ الرب ـ رفيع الدرجات ـ الرازق ـ الرقيب ـ رب الفلق ـ

س ـ السميع ـ السلام ـ سريع الحساب ـ سريع العقاب ـ أسرع الحاسبين ـ أسرع مكرا ـ

ش ـ الشهيد ـ الشاهد ـ الشاكر ـ الشكور ـ شديد العقاب ـ شديد المحال ـ شديد القوى ـ شديد العذاب ـ

ص ـ الصمد ـ

ظ ـ الظاهر ـ

ع ـ العليم ـ العزيز ـ العفو ـ العلي ـ العظيم ـ علام الغيوب ـ عالم الغيب والشهادة ـ

غ ـ الغني ـ الغفور ـ الغالب ـ غافر الذنب ـ الغفار ـ

ف ـ فالق الإصباح ـ فالق الحب والنوى ـ الفاطر ـ الفتاح ـ

ق ـ القوي ـ القدوس ـ القيوم ـ القاهر ـ القهار ـ القريب ـ القادر ـ القدير ـ قابل التوب ـ القائم على كل نفس بما كسبت ـ

ك ـ الكبير ـ الكريم ـ الكافي ـ ل ـ اللطيف ـ

م ـ الملك ـ المؤمن ـ المهيمن ـ المتكبر ـ المصور ـ المجيد ـ المجيب ـ المبين ـ المولى ـ المحيط ـ المقيت ـ المتعال ـ المحيي ـ المميت ـ المتين ـ المقتدر ـ المستعان ـ المبدي ـ مالك الملك ـ مالك يوم الدين

ن ـ النصير ـ خير الناصرين ـ النور ـ

و ـ الوهاب ـ الواحد ـ الولي ـ الوالي ـ الواسع ـ الوكيل ـ الودود ـ الوفي ـ المتوفي ـ

هـ ـ الهادي ـ هو ـ

عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) وهي في القرآن [١].

وظاهر التعبير في الكتاب والسنة عن ﴿الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾ أنها توقيفية لا يجوز الزيادة فيها ولا النقص عنها ، بل وهما من الإلحاد في أسماءه تعالى ، كمثل «العلة» «علة العلل» «واجب الوجود» وما أشبه ف ﴿سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ. إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٣٧ : ١٦) وأسماء الله تعالى هي توصيفات له سبحانه ، «ان الخالق لا يوصف إلا بما وصف به نفسه وأنى يوصف الذي تعجز الحواس أن تدركه والأوهام أن تناله والخطرات أن تحده والأبصار عن الإحاطة به جل عما يصفه الواصفون وتعالى عما ينعته الناعتون» [٢].

ذلك ، وكما أن اشتقاق أسماء للخلق من أسماءه الخاصة هو من الإلحاد في أسماءه تعالى ، كإلهة من الإله وما أشبه [٣]﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ﴾ جهلا بغير علم ، فالذي يلحد في أسماءه بغير علم يشرك وهو لا يعلم ويكفر به ، وهو يظن أنه يحسن ، ولذلك قال : وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون «فهم الذين يلحدون في أسماءه بغير علم فيضعونها غير مواضعها» [٤].

---

(١) الدر المنثور ٣ : ١٤٨ ـ أخرج أبو نعيم عن ابن عباس وابن عمر قالا قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم): تسعة وتسعون اسما من أحصاها دخل الجنة وهي في القرآن ، أقول : وهذه التسعة والتسعون لما تطابق بما ذكرناه من المائة وخمسة وأربعين ، نجدها فيها والستة والأربعون هي من المكررات الراجعة إلى التسعة والتسعين ، وقد نقل هذا العدد عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) في بخ ـ ك ٥٤ ب ١٨ ، ك ٨٠ ب ٦٨ ، ك ٩٧ ب ١٢ مس ـ ك ٤٨ ح ٥ و ٦ ـ تر ـ ك ٤٥ ب ٨٢ ـ مج ـ ك ٣٤ ب ١٠ حم ـ ثان ص ٢٥٨ و ٢٦٧ و ٣١٤ و ٤٢٧ و ٤٩٩ و ٥٠٣ و ٥١٦.

(٢) نور الثقلين ٢ : ١٠٣ في أصول الكافي عن أبي الحسن (عليه السلام) أنه قال :

(٣) وقد حرف المشركون في الجزيرة من أسماء الله الحسنى فسموا بها آلهتهم المدعاة فحرفوا «الله» فسموا به «اللات» ، و «العزيز» فسموا به العزى.

(٤) المصدر عن كتاب التوحيد للصدوق باسناده إلى حنان بن سدير عن أبي عبد الله (عليه السلام) : ...

وبرجعة أخرى إلى آية ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ ننتبه بما يلي :

١ في تقديم «لله» على ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ عناية لحصرها فيه سبحانه وتعالى ، فليس ـ إذا ـ لغيره أسماء حسنى حيث هم بجنبه فقراء ولا حسن فيهم إلا كيان الفقر والافتقار إليه وكما يروى عن أحسن أسمائه الفعلية أن «الفقر فخري».

فليس لغير الله شيء من هذه الأسماء الحسنى في أيّ من حقولها ، ولا أي نصيب منها.

٢ الأسماء الحسنى لأنها خاصة بالله ، فلا تعني الأسماء العامة المستعملة في الله وما سواه ، إذا ف «شيء ـ موجود» وما أشبه وإن استعملت في الله ولكنها ليست من أسماءه الحسنى ، وحين تستعمل في الله تجرد عن ميزات ما سوى الله بذلك الاستعمال ، وقد يصح كونها من أسماءه الحسنى.

٣ ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ يدلنا انه تعالى لا يدعى إلا بها ، فدعوته تعالى بغيرها أم دون اسم منها إلحاد فيها.

٤ ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ مما يدلنا على توقيفية الأسماء الحسنى حيث «الأسماء» تعني المعهودة وطبعا هي في الكتاب والسنة ، ولو لم تكن توقيفية لما كان للإلحاد في الأسماء اللفظية معنى.

٥ قضية الدعوة بها أن يعرف من معانيها ما يصح أن يدعى بها ، وهنا ركنان ركينان لتلك الدعوة هما معرفة ذل العبودية وعز الربوبية.

٦ ولأن الإلحاد هو الميل عن الحق ، إذا ف ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ هو الميل عن الحق في كلا الأسماء والدعوة بها ، إلحادان اثنان هما ركنان للمعني من ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾.

ومن الإلحاد في أسماءه إطلاقها على غير الله كما يطلق على الله ، ومنه تسمية تعالى ودعوته بغير هذه الأسماء ، ومنه عناية المعاني غير اللائقة بساحته منها ، وما أشبه.

ذلك ، ومن مجامع الأسماء الحسنى سلبيا وإيجابيا ، كتابا وسنة ، محلقة عليها كلها ، وشارحة لمعانيها ومغازيها ، مبرهنة عليها ، موضحة إياها ، إن منها الخطبة التوحيدية الجامعة لكل شؤونها ذاتيا وصفاتيا وأفعاليا ، للإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) ما لا تجمعه غيرها من الخطب :

«ما وحده من كيّفه ، ولا حقيقته أصاب من مثّله ، ولا إيّاه عنى من شبّهه ، ولا حمده من أشار إليه وتوهمه ، كل معروف بنفسه مصنوع ، وكل قائم في سواه معلول ، فاعل لا باضطراب آلة ، مقدّر لا بجول فكره ، غني لا باستفادة ، لا تصحبه الأوقات ، ولا ترفده الأدوات ، سبق الأوقات كونه ، والعدم وجوده ، والابتداء أزله ، بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له ، وبمضادته بين الأمور عرف أن لا ضد له ، وبمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له ، ضادّ النور بالظلمة ، والوضوح بالبهمة ، والجمود بالبلل ، والحرور بالصّرد ، مؤلف بين متعادياتها ، مقارن بين متبايناتها ، مقرب بين متباعداتها ، مفرق بين متدانياتها ، لا يشمل بحد ، ولا يحسب بعدّ ، وإنما تحد الأدوات أنفسها ، وتشير الآلات إلى نظائرها ، منعتها منذ القدمة ، وحمتها قد الأزلية ، وجنّبتها لو لا التكملة ، بها تجلى صانعها للعقول ، وبها امتنع عن نظر العيون ، لا يجري عليه السكون والحركة ، وكيف يجري عليه ما هو أجراه ، ويعود فيه ما هو أبداه ، ويحدث فيه ما هو أحدثه ، إذا لتفاوتت ذاته ، ولتجزّأ كنهه ، ولامتنع من الأزل معناه ، ولكان له وراء إذا وجد له أمام ، ولا لتمس التمام إذ لزمه النقصان ، وإذا لقامت آية المصنوع فيه ، ولتحول دليلا بعد أن كان مدلولا عليه ، وخرج بسلطان الامتناع من أن يؤثر فيه ما يؤثر في غيره ، الذي لا يحول ولا يزول ولا يجوز عليه الأفول ، لم يلد فيكون مولودا ، ولم يولد فيصير محدودا ، جل عن اتخاذ الأبناء ، وطهر عن ملامسة النساء ، لا تناله الأوهام فتقدره ، ولا تتوهمه الفطن فتصوره ، ولا تدركه الحواس فتحسه ، ولا تلمسه الأيدي فتمسّه ، ولا يتغيّر بحال ، ولا يتبدل في الأحوال ، ولا تبليه الليالي والأيام ، ولا تغيره الضياء والظلام ، ولا يوصف بشيء من الأجزاء ، ولا

بالجوارح والأعضاء ، ولا بعرض من الأعراض ، ولا بالغيرية والأبعاض ، ولا يقال له حد ولا نهاية ، ولا انقطاع ولا غاية ، ولا أن الأشياء تحويه ، فتقله أو تهويه ، أو أن شيئا يحمله فيميله أو يعدله ، وليس في الأشياء بوالج ، ولا عنها بخارج ، يخبر لا بلسان ولهوات ، ويسمع لا بخروق وأدوات ، يقول ولا يلفظ ، ويحفظ ولا يتحفّظ ، ويريد ولا يضمر ، يحب ويرضى من غير رقة ، ويبغض ويغضب من غير مشقة ، يقول لمن أراد كونه كن فيكون ، لا بصوت يقرع ، ولا بنداء يسمع ، وإنما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه ، ومثله لم يكن من قبل ذلك كائنا ، ولو كان قديما لكان إلها ثانيا .

لا يقال : كان بعد أن لم يكن فتجري عليه الصفات المحدثات ، ولا يكون بينها وبينه فصل ، ولا له عليها فضل ، فيستوي الصانع والمصنوع ، ويتكافأ المبتدع والبديع .
خلق الخلائق على غير مثال خلا من غيره ، ولم يستعن على خلقها بأحد من خلقه خضعت الأشياء له ، وذلت مستكينة لعظمته ، لا تستطيع الهرب من سلطانه إلى غيره فتمتنع من نفعه وضره ، ولا كفء له فيكافئه ، ولا نظير له فيساويه ، هو المغني لها بعد وجودها حتى يصير موجودها كمفقودها ، وليس فناء الدنيا بعد ابتداعها بأعجب من إنشاءها واختراعها ، وكيف ولو اجتمع جميع حيوانها من طيرها وبهائمها ، وما كان من فراحها وسائمها ، وأصناف أسناخها وأجناسها ، ومتلبّدة أممها وأكياسها على إحداث بعوضة ما قدرت على إحداثها ، ولا عرفت كيف السبيل إلى إيجادها ، ولتحيرت عقولها في علم ذلك وتاهت ، وعجزت قواها وتناهت ورجعت خاسئة حسيرة ، عارفة بأنها مقهورة ، مقرة بالعجز عن إنشاءها مذعنة بالضعف عن إفناءها .

وإن الله سبحانه يعود بعد فناء الدنيا وحده لا شيء معه كما كان قبل ابتداءها ، كذلك يكون بعد فناءها بلا وقت ولا مكان ولا حين ولا زمان ، عدمت عند ذلك الآجال والأوقات ، وزالت السنون والساعات ، فلا شيء إلّا الله الواحد القهار الذي إليه مصير جميع الأمور ، بلا قدرة منها كان

ابتداء خلقها ، وبغير امتناع منها كان فناءها ، ولو قدرت على الامتناع لدام بقاءها ، لم يتكأده صنع شيء منها إذ صنعه ، ولم يؤده منها خلق ما برأه وخلقه ، ولم يكوّنها لتشديد سلطان ، ولا لخوف من زوال ونقصان ، ولا للاستعانة بها على ندّ مكاثر ، ولا للإقرار بها من ضدّ مثاور ، ولا للازدياد بها في ملكه ، ولا لمكاثرة شريك في شركه ، ولا لوحشة كانت منه فأراد أن يستأنس إليها ، ثم هو يفنيها بعد تكوينها ، لا لسأم دخل عليه في تصريفها ، وتدبيرها ، ولا لراحة واصلة إليه ، ولا لثقل شيء منها عليه ، ولا يملّه طول بقاءها فيدعوه إلى سرعة إفناءها ، لكنه سبحانه دبّرها بلطفه ، وأمسكها بأمره ، وأتقنها بقدرته ، ثم يعيدها بعد الفناء من غير حاجة منه إليها ، ولا استعانة بشيء عليها ، ولا لانصراف من حال وحشة إلى حال استئناس ، ولا من حال جهل وعمى إلى حال علم والتماس ، ولا من فقر وحاجة إلى غنى وكثرة ، ولا من ذل وضعة إلى عزّ وقدرة منا ما لا نملك ومن أنفسنا ، وأخرجنا مما كنا فيه إلى ما صلحنا عليه فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى ، وأعطانا البصيرة بعد العمى» (الخطبة ٢٢٨).

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾(١٨٢).

هنا «يهدون» حالا واستقبالا قد تختص بالأمة الإسلامية ، كما ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ وكما يروى عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم): «هذه أمتي بالحق يحكمون ويقضون ويأخذون ويعطون» [1].

هذا ، ومن أهدى هداة الأمة الإسلامية هو علي (عليه السلام) وكما

(١) الدر المنثور ٣ : ١٤٩ ـ أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريح في الآية قال : ذكر لنا أن نبي الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) قال : هذه أمتي وفيه عن قتادة في الآية قال : بلغنا أن نبي الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) كان يقول إذا قرأها : هذه لكم وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها : ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسى﴾ وفيه عن الربيع في الآية قال : قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم): إن من أمتي قوما على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم متى ما نزل.

يروى بطرق عدة أن هذه الأمة «هم علي وشيعته» [(١)].

ذلك وقد تهدي الآية بطليق نصها أن ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ﴾ تشمل الأمة الهادية العادلة من كل أمة ، وهم من هذه الأمة ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ إذ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ :

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾(١٨٣).

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ. وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (٦٨ : ٤٥)[(٢)] وعذاب الاستدراج. وهو طلب الدرج في حزب الشيطان خطوة خطوة. إنه أخطر عذاب يوم الدنيا ، ومن ظروفه ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ إمهالا في بوتقة العصيان ﴿إِنَّ

---

(١) السيوطي في الدر المنثور (٣ : ١٤٩) أخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال : ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة يقول الله : ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ فهذه التي تنجو من هذه الأمة ، والكشفي الترمذي في مناقب مرتضوي (٥٢) بسند قال علي كرم الله وجهه وهم أنا وشيعتي ، والقندوزي في ينابيع المودة (١٠٩) عنه (عليه السلام): وهم أنا ومحبيّ وأتباعي ، وابن مردويه في المناقب كما في كشف الغمة (٩٥) عنه : «هم أنا وشيعتي» كما في ملحقات إحقاق الحق ٣ : ٤١٣ وفيه ١٤ : ٣٤٤ عن البدخشي في مفتاح النجا (٤٢) وأخرج زادان عن علي كرم الله وجهه مثله : «هم أنا وشيعتي» والحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ١ : ٢٠٤ بسند عن ابن عباس في الآية قال : يعني من أمة محمد أمة ، يعني علي بن أبي طالب ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ يعني : يدعون بعدك يا محمد إلى الحق ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ في الخلافة بعدك ، ومعنى الأمة العلم في الخير نظيرها : ﴿إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً﴾ يعني علما في الخير ، معلما للخير.

(٢) القول الفصل حول الاستدراج مدرج في تفسير آيته الأخرى في «القلم» فراجع.

نور الثقلين ٢ : ١٠٥ في أصول الكافي عن سفيان بن السمط قال قال أبو عبد الله (عليه السلام): وهو قول الله عزّ وجلّ : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ بالنعم عند المعاصي ، وفيه عن سماعة بن مهران قال سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ قال : هو العبد يذنب الذنب فتجدد له النعمة معه تلهيه تلك النعمة عن الاستغفار عن ذلك الذنب ، وعنه (عليه السلام) مثله بزيادة : هو مستدرج من حيث لا يعلم.

﴿كَيْدِي مَتِينٌ﴾ مكين لا ينجو منه ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا﴾ أبدا.

وهكذا «إن الله إذا أراد بعبد خيرا فأذنب ذنبا أتبعه بنقمة ويذكره الاستغفار ، وإذا أراد بعبد شرا فأذنب ذنبا أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى بها» [(١)].

أجل ف ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ﴾ (٣ : ١٩٧) ﴿ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا﴾ (٧ : ٩٥) ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ﴾ (٩ : ٥٥).

وهؤلاء المستدرجين من حيث لا يعلمون هم من المعنيين ب ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ (١٨ : ١٠٤).

ف «كم من مغرور بما قد أنعم الله عليه ، وكم من مستدرج يستر الله عليه ، وكم من مفتون بثناء الناس عليه» و «إنه من وسع عليه في ذات يده فلم ير ذلك استدراجا فقد أمن مخوفا» [(٢)].

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾(١٨٥) ألم ينظروا إلى عقليته البارعة المنقطعة النظير ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ما

---

(١) المصدر عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله (عليه السلام) : وفيه عن روضة الكافي خطبة طويلة مسندة إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول فيها : ثم إنه يأتي عليكم من بعدي زمان ليس في ذلك الزمان شيء أخفى من الحق ولا أظهر من الباطل ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم). إلى أن قال. : يدخل الداخل لما يسمع من حكم القرآن فلا يطمئن جالسا حتى يخرج من الدين ، ينتقل من دين ملك إلى دين ملك ومن ولاية ملك إلى ولاية ملك ومن طاعة ملك إلى طاعة ملك ومن عهود ملك إلى عهود ملك فاستدرجهم الله تعالى من حيث لا يعلمون وان كيده متين بالأمل والرجاء.

(٢) المصدر عن غياث عن أبي عبد الله (عليه السلام) والثاني فيه عن نهج البلاغة عن الإمام علي (عليه السلام).

بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ فقد صاحبهم صاحبهم عمرا من قبله بكلّ رزانة عقل ورحابة صدر ورصانة قدر : **﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾** (١٠ : ١٦).

كيف وقد صاحبكم صاحبكم طوال أربعين عاما أمينا متينا عاقلا لحد سميتموه محمد الأمين ، فالآن تتهمونه بالجنة لأنه يأمركم بالمعروف وينهاكم عن المنكر [(١)] و **﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾** هويته في النذارة الرسالية بعقلية الوحي الصارم : **﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ﴾** (٢٣ : ٧٠). **﴿كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾** (٥١ : ٥٢).

ذلك لأن الرسالات الربانية تعارض الجاهليات والهمجيات المجنونة ، وهذه طبيعة الحال أن المجانين يحسبون من يخالفهم في جنّتهم مجانين وهم أولاء عقلاء!

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾؟ وهكذا يدق عليهم الله دقّاته المتواترة علّهم ينتبهون عن غفلتهم ويستيقظون عن غفوتهم ، إيقاظا لهم بإيعاظ بالغ من تحت الركام الطامّ المسيطر على فطرهم وعقولهم.

ولأن الإنسان بين عاقل ومجنون ، وهم صاحبوا المجانين وصاحبوا صاحبهم هذا الذي يقولون إنه لمجنون ، فهل رأوا فيه جنّة كسائر المجانين ، الخالطين في أقوالهم وأفعالهم ، المتناقضين في كل حالاتهم؟ ولم يدّع أحد من هؤلاء أنه رأى فيه ما كان يراه في المجانين ، بل ولا أنه رأى وزان ما رآه منه بين سائر العقلاء ، إذا فهو فوق العقلاء بعقلية الوحي بعد العقلية الإنسانية الناضجة التي كانوا يعترفون بها فيه في العمر الذي لبث فيهم قبل الرسالة.

---

(١) الدر المنثور ٣ : ١٤٩ عن قتادة قال : ذكر لنا أن نبي الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) قام على الصفا فدعا قريشا فحذا فحذا من قريش فقال : يا بني فلان يا بني فلان وكان يحذرهم بأس الله ووقائع الله إلى الصباح حتى قال قائلهم : إن صاحبكم هذا لمجنون بات يهوت حتى أصبح فأنزل الله هذه الآية.

وعل «ما» هنا تعني مع النفي ـ نفيا لجنة ـ الموصول ، فتعني : الذي بصاحبهم من جنة ، مجاراة في قولة الجنون ، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ جنته المدّعاة ما هي جنة ، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ينذر العقلاء عما يناحر العقل والفطرة الإنسانية فضلا عن عقلية الوحي ، فلو كانت به جنة كما تدعون فما هي مادتها بين مواد الجنة التي هي معروفة عن المجانين؟

ذلك ، والقرآن يحث دوما على التفكير ، مادحا المفكرين ، قادحا غير المفكرين ، الذين لا يستعملون عقولهم : ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٧ : ١٧٦) ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٦ : ١١) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٣ : ١٩١).

أجل و «تفكرك يفيدك الإستبصار ويكسبك الإعتبار» [١] «والتفكر حياة قلب البصير» [٢] و «الفكر مرآة صافية» [٣] و «طول الفكر يحمد العواقب ويستدرك فساد الأمور» [٤] و «من أسهر كنه فكرته بلغ كنه همته» [٥] و «ركعتان خفيفتان في تفكر خير من قيام ليلة» [٦] و «لا عبادة كالتفكر في صنعة الله» [٧].

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾(١٨٦).

---

(١) غرر الحكم ١٥٧ عن الإمام علي (عليه السلام).

(٢) الكافي ١ : ٢٨ الامام الصادق عنه (عليه السلام).

(٣) نهج البلاغة ١٠٩٠.

(٤) غرر الحكم ٢٠٨ عنه (عليه السلام).

(٥) غرر الحكم ٢٨٨ عنه (عليه السلام).

(٦) ثواب الأعمال ٦٨ عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم).

(٧) أمال الطوسي ١ / ١٤٥ عن الإمام علي (عليه السلام).

وإذا لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ ليعرفوا أنه لا إله إلّا هو وأن محمدا (صلّى الله عليه وآله وسلم) رسوله.

ذلك ، ولأن التعرف إلى العقلية الرسالية له بابان اثنان ، ١ التفكر في قالات الرسول وحالاته وفعالاته وكما عناها رسل المسيح ردا على الناكرين : ﴿قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ (٣٦ : ١٦) حيث وجهوهم إلى التربية الرسالية الباهرة فيهم ، ثم النظر في ملكوت السماوات والأرض حيث يوصل إلى معرفة الله ، وضرورة الرسالة من الله ، والرجوع إلى الله ، ثم إذا تفكروا في صاحبهم وجدوه رسولا من الله يحمل تفاصيل هذه الأصول وسائر الفروع.

ومن ثم ﴿وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ فليتقوا ربهم قبل فجأة الأجل ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ : بعد الله إلها وبعد محمد (صلّى الله عليه وآله وسلم) رسول الإله ، وبعد القرآن كتاب الله؟ والدلائل القاصعة قاطعة كل شك وريبة عن ساحة هذه الرسالة التوحيدية.

والحديث يعم الحادث الذات والصفات والأفعال ، وحادث الذكر الذي يتحدث عنه ، فالقرآن ورسول القرآن حديثان ذاتا وذكرا ، والله تعالى حديث يتحدث عنه في كافة الحقول المعرفية فإيمانا أو نكرانا ، فكما أن آيات الله حديث يتحدث عنها في الاستدلال بها على الله ، كذلك الله وهو رأس كل حديث : ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٤٥ : ٦).

ذلك ، والملكوت في حقل النظر المعرفي لها درجات أعلاها هي المختصة بالله ، وهي الحيطة العلمية الحقيقية : ﴿فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٣٦ : ٨٣) وأدناها هي العامة لكل السالكين إلى الله على درجاتهم فدرجاتها ، وهي المأمور بها هنا وفيما أشبه أن ﴿يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ فيهما تذرعا بها إلى معرفة الله كما هنا ، وأوسطها هي الخاصة بالرعيل الأعلى من السابقين والمقربين المكرمين كمحمد (صلّى الله عليه وآله وسلم)

والمحمديين من عترته المعصومين (عليهم السلام) ، ثم من دونهم كإبراهيم الخليل في مثل ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى﴾ حيث تطلّب كيفية الإحياء وهي ملكوت فعل الله ، وقد أوتيها قدر ما يمكن لمن سوى الله على قدر المعرفة والكيان الإبراهيميين ، وفي قصة رؤية الكوكب والقمر والشمس : ﴿وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (٦ : ٧٥).

فالخلق كله بمراتبه مجال فاسح للنظر في ملكوته للحصول على معرفة الله بدرجاته ، والنظر المأمور به إليه عبارة عن تحديق حدقة العقل والفطرة إليه إبصارا إلى كيانه أزلية أم حدوثا ، ثم من الحدوث إلى المحدث وهو الله تعالى شأنه العزيز (١).

أجل إن كتابي التكوين والتدوين التشريع هما من كاتب واحد ، يدل عليه التجاوب التام بينهما ، فكما ﴿ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (٦٧ : ٤) كذلك كتاب التدوين ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ (٤ : ٨٢) ثم ولا نجد بين الكتابين أنفسهما اختلافا لو أننا أجدنا النظر واعتبرنا بالعبر.

إن التوازن المقصود ملحوظ في خلق الرحمن حين نتفكر في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء ، ملحوظ في بناء الذرة كما هو ملحوظ في بناء المجرّة ، ولو اختل قيد شعرة لفسد الخلق عن بكرته ،

(١) للاطلاع الوسع على مراتب الملكوت راجع إلى تفسير آية الأنعام ، وفي الدر المنثور ٣ : ١٥٠ عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم): رأيت ليلة أسري بي فلما انتهينا إلى السماء السابعة نظرت فوقي فإذا أنا برعد وبرق وصواعق قال : وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم ، قلت من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال : هؤلاء أكلة الربا فلما نزلت إلى السماء الدنيا فنظرت إلى أسفل مني فإذا أنا برهج ودخان وأصوات فقلت ما هذا يا جبرئيل؟ قال : هذه الشياطين يحرجون على أعين بني آدم أن لا يتفكروا في ملكوت السماوات والأرض ولو لا ذلك لرأوا العجائب.

حيث ننظر بالقلب المفتوح والبصيرة المتفتحة إلى ملكوته.

ذلك ، وأما الملحدون المصلحيون الجدد ، أصحاب الاشتراكية العلمية ، فهم مسوخ مشوّهو الفطر ، بل هم ناكروها عند ما يلجئون إلى تقبل أحكامها ، فعند ما يصعدون إلى الفضاء وينزلون على القمر فيشهدون مشاهد الكون الرائع أمامهم ، ومشهد الكرة الأرضية معلقة في الفضاء هتفت فطرهم ما الذي خلقها وعلّقها في فضاءها ، ولكنهم حين هبوطهم إلى الأرض أمام إرهاب الدولة ، وإرهاب المصلحيات المادية ، يقول أحدهم إنه لم يجد الله هناك ، كاتما إلحاح فطرته وإلماع فكرته أمام ظاهرة من ملكوت السماوات والأرض! أجل و :

﴿مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلا هادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(١٨٧).

وهو لا يضل إلّا من ضل على علم وتجاهل ، فإضلاله هو إدلاله فيما هو فيه ، ومدّه في ضلاله باستدراج «فلا هادي» له ، إذا ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وهذا هو جانب من إضلاله تعالى أنه يكلهم إلى أنفسهم دون مدّ إلى الهدى ، وهم ممدودون إلى الردى جزاء وفاقا ، فإنهم هم الذين أغلقوا أبصارهم وبصائرهم ، وعطلوا قلوبهم وعقولهم ، فغفلوا عن ملكوت السماوات والأرض وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، فيذرهم ـ إذا ـ في طغيانهم يعمهون ، وفي غيّهم يترددون.

﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٨).

﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها. فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها ، إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها﴾ (٧٩ : ٤٤) ـ ﴿يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ﴾ (٣٣ : ٦٣) «الساعة» في هذه الثلاث وفي الأربعين الأخرى هي من أسماء القيامة الكبرى ، وأصل الساعة هو الزوال والضياع ويقال لجزء خاص من الزمان «ساعة» لتصرّمه وضياعه فهي ـ إذا ـ حين تضيع الكائنات

وتزول عن كينونتها الحالية ، فالساعة هي منتهى الحياة الدنيا منذ قيامة الإماتة إلى قيامة الإحياء.

و «مرساها» هي ثباتها ، ثباتا لذلك الضياع والزوال ، وبداية ليوم القيامة إماتة وإحياء [1].

وكل هذه الآيات الثلاث والأربعون تؤكد على اختصاص علم الساعة بالله ، إجابة عن كافة الأسئولة عنها :

﴿قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي﴾ حيث رباني بهذه التربية القمة الرسالية ، ولكنه ما علمني إياها لاختصاصها بحضرته تعالى ، وليس فقط ﴿إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي﴾ بل و ﴿لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ﴾ تجلية الإعلام عند وقوعها ، وتجلية التحقيق لها ، فلا حظّ لي على محتدي الرسالي العظيم والتربوي العميم من هذه الثلاث ، فلا علم لي بها أبدا ولا تجلية لها أبدا.

﴿ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ علما وإعلاما وتحقيقا وتحققا ، ثقلا لا تتحمله السماوات والأرض وحتى من شاء الله ألّا يصعق عندها : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ﴾ (٣٩ : ٦٨) ومنهم هذا النبي العظيم الذي هو أثقل من السماوات والأرض ، فقد «ثقلت» الساعة عليه علما وإعلاما وتجلية بكل أبعادها ، وأما غير ﴿مَنْ شاءَ اللهُ﴾ فهم فانون عند الساعة فكيف يعلمون مرساها؟

وفيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم): تقوم الساعة على رجل أكلته في فيه فلا يلوكها ولا يسيغها ولا يلفظها وعلى رجلين قد نشرا بينهما ثوبا يتبايعانه فلا يطويانه ولا يتبايعانه.

ومن ثقل الساعة في السماوات والأرض وطئتها ووقعتها القارعة حيث تنفطران : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (١٤ : ٤٨) ، ﴿لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ مهما جاءت أشراطها ، فإن أشراطها تشير إلى قربها دون إشارة إلى مرساها[(١)].

﴿يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها﴾ وما أنت بحفي عنها ﴿إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ والحفي من الحفاوة هو الرحمة والحنان : ﴿إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا﴾ (١٩ : ٤٧) ، وهو العلم ، فهو يائيا التنزع في الإلحاح في المطالبة ﴿إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ (٤٧ : ٣٧) أو في البحث عن تعرف الحال ، وأصله من أحفيت الدابة جعلتها حافيا أي منسجح الحافر والبعير جعلته منسجح الخف من المشي حتى يرق ، فما هو المناسب هنا من هذه المعاني؟

«عنها» هنا قد تستثني العلم بها حيث الصحيح ـ إذا ـ حفي بها ، وكذلك الإلحاح حيث الملحّ هو السائل دون المسؤول ، اللهم إلّا أن يعني الحفي المفعول يعني أنت ملحّ عنها؟ والإلحاح في السؤال عنها عنه (صلّى الله عليه وآله وسلم) أمر واقع مكرور فكيف ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها﴾! اللهم إلا أن تعني أنك عالم تلح في السؤال عنها حتى تعترف بجهلك بها أو تجيبهم بشيء حتى يكذبون [(٢)] ، أم حين تسكت يقولون : أنت ضنين بها [(٣)].

---

(١) نور الثقلين ٢ : ١٠٦ عن تفسير القمي في الآية أن قريشا بعثت العاص بن وائل السهمي والنضر بن الحارث من كلدة وعقبة بن أبي معيط إلى نجران ليتعلموا من علماء اليهود مسائل يسألونها رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وكان فيها : سلوا محمدا متى يقوم الساعة فإن ادعى العلم فهو كاذب فإن قيام الساعة لم يطلع الله عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا فلما سألوا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) متى تقوم الساعة أنزل الله تبارك وتعالى : يسألونك عن الساعة.

(٢) الدر المنثور ٣ : ١٥٠ عن قتادة قال قالت قريش يا محمد أسر إلينا الساعة لما بيننا وبينك من القرابة ، قال : يسألونك كأنك حفي عنها.

(٣) الدر المنثور ٣ : ١٥٠ ـ أخرج ابن إسحاق وابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس قال قال ـ

وقد يناسب المقام أن تعني الحفيّ الخفيّ : كأنك خفي عنها بمعنى أن ربك أخفاك عنها وكان له أن يعلمك إياها لأنه «ربك» فكيف يضنّ بإعلامك إياها؟! أو كأنك ملح في السؤال عنها ربك فمخبرك إياها إذا كرر عليك السؤال عنها ، أو كأنك أخبرت عنها بالحاحك في السؤال عنها أو كأنك حاف عنها راجل عن العلم بهذه المهمة العظمى فكيف . إذا . أنت رسوله الأعظم ونبيه الأكرم وأنت حاف لا تقدر أن تمشي مشية الرسالة الصالحة حيث تجهل الساعة.

﴿قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ﴾ فإذا لمح ﴿إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي﴾ إمكانية أن تعلّمها بتلك التربية الطليقة فهنا بصيغة أخرى ﴿إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ﴾ تقضي على هذه الإمكانية بأسرها ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ . ﴿إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ﴾ فلذلك يحفونك في السؤال عنها كأنك حفي عنها.

فذلك السؤال المكرور الإلحاح الإحفاء كان القصد منه إحراج الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) حتى يعترف بجهله! أم انه بخيل عن الإجابة ، أو ربه بخيل عن تعليمه إياها أو يدعى العلم بها فهو إذا كاذب كما سولت لهم اليهود. إزراء بساحته ومسا من كرامته ، فجاء جواب حاسم لا حول عنه ﴿قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ﴾.

فالساعة غيب مغيّب من غيوب الله الخاصة حيث استأثر الله بعلمه ، ولكن المشركين يحفون في السؤال عنها بين اختبار الامتحان والامتهان ، وسؤال المستعجب المستقرب ، وسؤال المستهين المستغرب.

والجواب الحاسم جهله وجهل من في السماوات والأرض بها ﴿قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ﴾.

أجل : ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ﴾ وكيف لا تثقل؟ :

«حتى إذا تصرمت الأمور ، وتفضت الدهور ، وأزف النشور ،

. حمل ابن أبي قشير وسمول بن زيد لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أخبرنا متى الساعة ان كنت نبيا كما تقول فإنا نعلم ما هي ، فأنزل الله هذه الآية.

أخرجهم من ضرائح القبور ، وأوكار الطيور ، وأوجرة السباع ، ومطارح المهالك ، سراعا إلى أمره مهطعين إلى معاده ، رعيلا صموتا ، قياما صفوفا ، ينفذهم البصر ، ويسمعهم الداعي ، عليهم لبوس الاستطانة ، وضرع الاستسلام والذلة ، قد ضلت الحيل ، وانقطع الأمل ، وهوت الأفئدة كاظمة ، وخشعت الأصوات مهيمنة ، وألجم العرق ، وعظم الشفق ، وأرعدت الأسماع لزبرة الداعي إلى فصل الخطاب ، ومقايضة الجزاء ، ونكال العقاب ، ونوال الثواب .

عباد مخلوقون اقتدارا ، ومربوبون اقتسارا ، ومقبوضون احتضارا ، ومضمنون أجداثا ، وكائنون رفاتا ، ومبعوثون أفرادا ، ومدينون جزاء ، ومميزون حسابا» (٨١) .

«حتى إذا بلغ الكتاب أجله ، والأمر مقاديره ، وألحق آخر الخلق بأوله ، وجاء من أمر الله ما يريده من تجديد خلقه ، أماد السماء وفطرها ، وأرج الأرض وأرجفها ، وقلع جبالها ونسفها ، ودك بعضها بعضا من هيبة جلالته ، ومخوف سطوته ، وأخرج من فيها فجددهم بعد إخلاقهم ، وجمعهم بعد تفريقهم ، ثم ميزهم لما يريد من مسألتهم عن خفايا الأعمال ، وخبايا الأفعال ، وجعلهم فريقين ، أنعم على هؤلاء ، وانتقم من هؤلاء» (١٠٧).

وي «وكأن الصيحة قد أتتكم ، والساعة قد غشيتكم ، وبرزتم لفصل القضاء ، قد زاحت عنكم الأباطيل ، واضمحلت عنكم العلل ، واستحقت بكم الحقائق ، وصدرت بكم الأمور مصادرها ..» (١٥٥) .

﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَما مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١٨٩).

آية صريحة لا حول عنها في أنه (صلّى الله عليه وآله وسلم) لا يعلم الغيب كأصل ، اللهم إلّا ما يعلّمه الله تعالى قضية ضرورة الرسالة الربانية : ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً. إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ

رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً. لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾ (٧٢ : ٢٨) [١].

وهنا «الغيب» هو الغيب المطلق الذي لا يتحوّل شهودا لمن سوى الله ، فما ورد متظافرا «أن الأئمة يعلمون علم ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة» مطروح أو مأوّل ببعض الغيب ، وهو المرتبط بالوحي الرسالي ، فحين لا يعلم الرسل غيب الآيات الرسالية التي تجري بذوات أيديهم ، فكيف يعلمون سائر الغيب التي ليست لتجري على ألسنتهم وأيديهم كغيب الساعة وما أشبه.

وهنا ﴿لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرًّا﴾ تعم ملك العلم والقدرة ، ف ﴿إِلَّا ما شاءَ اللهُ﴾ تستثني ملك بعض النفع والضر ، سواء أكان غيبا أم شهودا ، أو كان مقدورا عاديا أم سواه ، فقد يصدق انه (صلّى الله عليه وآله وسلم) ـ فضلا عمن سواه ـ لا يعلم الغيب المطلق مهما علّم مطلق الغيب حيث يستثنيه ﴿إِلَّا ما شاءَ اللهُ﴾.

ثم ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ تحيل له علم الغيب عن بكرته ذاتيا أم تعلما من الله حيث الاستكثار من الخير لا يختص بذاتية علم الغيب ، بل العلم ذاتيا أم عرضيا بالغيب ينتج الاستكثار من الخير وعدم مس السوء حيث الإيجابية العملية وسلبيتها وجاه الخير والشر ، هما من خلفيات طليق العلم بالغيب.

﴿قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ﴾ (٦ : ٥٠) ـ ﴿وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها﴾ (٦ : ٥٩) ـ ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ (١٠ : ٢٠) ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ (١١ : ١٢٣).

---

(١) راجع تفسير الآية في الفرقان ٢٩ : ٢٠١ ـ ٢٠٦.

وترى ﴿لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرًّا﴾ تسلب عنه. وبأحرى ممن سواه. الإختيار في جلب النفع وسلب الضر؟ كلّا لمكان ﴿إِلَّا ما شاءَ اللهُ﴾ حيث تثبت له ملكا للنفع والضر بمشيئة الله، وهي عبارة أخرى عن الأمر بين أمرين، فنحن لا نملك نفعا ولا ضرا مستقلين عن إرادة الله، والله لا ينزّل علينا نفعا ولا ضرا دون عمل ومحاولة منا اللهم إلا ما لا يحصل بعمل وما أشبه، فقد يشاء الله ما نشاء حسب الصالح من حكمته تعالى وتقدس ف. ﴿ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾ وما أشبه دليل واقع المشية منا في خير أو شر، ولكنها مربوطة بإذن الله.

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فقد انحصر كياني في هذه السلبية والإيجابية الرساليتين في حقل رسالتي من الله، دون أية ولاية تكوينية أو تشريعية، ولا أي علم لا تقتضيه الرسالة الربانية لزاما أو رجحانا.

ذلك، وقد يروى عنه (صلّى الله عليه وآله وسلم) قوله: «والله ما أدري وأنا رسول ما يفعل بي» نسخة طبق الأصل: ﴿قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ وَما أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٤٦: ٩).

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها فَلَمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ

رَبَّهُما لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِين فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما فَتَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَسْمَعُوا

﴿وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾(١٩٨)

هذه الآيات هي قبل صحيح التأمل فيها قد تكون متسرّبا لوثنيات مفتريات على أبينا الأول أول المرسلين المعصومين سلام الله عليهم أجمعين ، لحد يختلق عن خاتم المرسلين (صلّى الله عليه وآله وسلم) أنه قال : «خدعهما مرتين» [1] يعني الشيطان ، فالخدعة الأولى حيث أضلهما في الجنة وجاه الشجرة المنهية ، والثانية لما ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما﴾ كما هنا!!

ذلك رغم أن الله اجتباه بعد ما هبط إلى الأرض ، وكيف يقع اجتباءه على من يشرك به وقد علّمه الأسماء كلها؟! أجهلا بما يشرك ، أم اجتباء لمن يشرك!

فكيف بالإمكان للذي علّم الأسماء كلها ، وقد عرّفه الله الشيطان إذ هما في الجنة ، كيف له أن ينخدع مرة أخرى هي أفضح من الأولى أن يسمي بعض أولاده أسماء شركية؟ فهل ضاقت عليه الأسماء بما رحبت فلم يجد لولده اسما إلّا ما يختاره عدوه المعروف لديه؟

ذلك ، وليس في مسرح هذه الآيات ذكر من الشيطان ، ولو كان هو المقصود من ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ﴾ لكان النص «جعلا له شريكا» لوحدة هذا الشيطان ، ثم ﴿ما لا يَخْلُقُ﴾ كان «من لا يخلق» اعتبارا بأن الشيطان من ذوي العقول.

وبعد ذلك كله فضمائر الجمع التي هي هنا بضع وعشرون وفي

---

(١) الدر المنثور ٣ : ١٥٥ ـ أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : ولد لآدم ولد فسماه عبد الله فأتاهما إبليس ما سميتما ابنكما هذا؟ قال : عبد الله ، وكان ولد لهما قبل ذلك ولد فسمياه عبد الله فقال إبليس : أتظنان أن الله تارك عبده عندكما والله ليذهبن به كما ذهب بالآخر ولكن أدلكما على اسم يبقى لكما ما بقيتما فسمّياه عبد شمس فسمّياه فذلك قوله تعالى : أيشركون ما لا يخلق شيئا الشمس لا تخلق شيئا إنما هي مخلوقة ، قال وقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) : خدعهما مرتين.

أفعال مستقبلة! لا تناسب خصوص أبوينا الأولين ، فلو كانا هما المقصودين لكان حق النص التثنية الماضية ، لا سيما وأن الحق في اجتثاث جذور الوثنية عن بكرتها منذ بزوغها أن يركز على أول المشركين ، فلو كان أبوانا هما اللذان أشركا بالله قبل كل المشركين! لكان الحق تركيز الضمائر في ذلك التنديد المديد عليهما ، دون أولادهما اللذين لم يولدوا بعد والذي ولد لما يبلغ الحلم حتى يكلّف فيندّد بشركه.

ذلك خلاف ما يروى أنه بعد مرات عدة لم تكن زوجه موفقة حيث ولدت ناقصا لا يعيش [١]! فإنها من الإسرائيليات المسيحية والمسيحيات الإسرائيلية التي تلقي كل عصان على آدم وزوجه ، وهنا «مرت به» أي الحمل ، هو المرور كعادة بلا ثقل حيث لا تحس ذلك الحمل.

فالعلاقة الأولية بين الزوج ومسكنه هي التغشي حبا وشهوة وإنجابا للمماثل ، والتغشي هو أحسن تعبير عن ذلك اللقاء اللقاح حيث يغشى كيانها ككل فتحشر فيه بكلها روحا وجسما ، فهو التقاء روحين بجسدين وجسدين بروحين ، كما الزواج هو الالتقاء المثنّى وأهمها الروح إذ هو الذي يدرك المسكن ، وهذه صورة إنسانية في تلك المباشرة بعيدة عن الحيوانية الخالصة الكالسة الفالسة ، قريبة إلى الإنسانية الصالحة ، إنجابا لصالح.

﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ بحملها ﴿دَعَوَا اللهَ رَبَّهُما﴾ الذي رباهما وحملها ﴿لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً﴾ يصلح للحياة الإنسانية ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ المخلصين لك الدين.

فقد تبين الحمل وتعلقت به قلوبهما وجاء دور الأطماع فيه ، المختصرة في صيغة (صالحا) وهو الصلاح الظاهر عند الولادة لمكان ﴿فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً﴾ حيث الصلاح الظاهر عند الولادة ليس إلا الظاهر في

---

(١) الدر المنثور ٣ : ١٥١ عن سمرة عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) قال : لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فإنه يعيش فسمته عبد الحارث فعاش فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره.

الحياة الإنسانية ، دون الباطن الذي لا يظهر إلّا عند بلوغ الحلم ، لا سيما وأن الطبيعة الإنسانية المائلة إلى الإشراك لا تنحو نحو صلاح الباطن.

فهذه قصة واقعية عامة بين بني الإنسان تصويرا لمدارج الانحراف في النفس الإنساني من معارج الفطرة التي فطرهم الله عليها :

﴿فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً﴾ يعيش عيشة صالحة ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما فَتَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهنا «شركاء» دون «شريك» لا ينطبق على الشيطان ، كما أن «يشركون» جمعا لا ينطبق عليهما ، إذا فهما كل أبوين من هذا النسل ، أنهما عند اثقالها يدعوان الله ﴿لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ولكنهما ينسيان صالح ما آتاهما الله إلى طالح الإشراك به حيث ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما﴾ إذ يخيل إليهما أن لغير الله مدخلا في صالح الولد.

وهذه طبيعة الإنسان الغفلان النسيان إلّا من هداه الله ووقاه ، تخلفا عما فطره الله عليه كما ويكرر قصّ ذلك التخلف في القرآن بصورة عدة : ﴿وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٠ : ١٢). ﴿وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ (٣١ : ٣٢) ﴿وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ. لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٣٠ : ٣٤).

وهكذا ينقطع الإنسان فطريا إلى ربه حين تنقطع الأسباب التي كان يعيشها ، فلما كشف عنه ضره رجع إلى نفس الأسباب معتبرا إياها كأنها الكاشفة له ضره ، فقد يمرض مرضا هالكا فلا ينفعه أي طبيب ولا دواء ، فلمّا يعافى ينسب عافيته إلى كل شيء إلّا الله!

هذا ، والقول إن «يشركون» وما أشبه جمعا لا ينافي تثنية الأبوين ، فإن دأب القرآن الدائب هو التعميم بعد التخصيص إعطاء للضابطة ، مردود

بظاهر الجمع الراجع إلى صاحبي القصة ، إلّا إذا دلت قرينة كما فيما تقولون ، ولو كانت هنا قرينة كسائر الموارد ف ﴿نَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ . لأقل تقدير . لا تعني . فقط . آدم (عليه السلام) مهما كان محتملا ، ولكن الاحتمال ليس بناء الاستدلال ، ففرية الإشراك على أبوينا الأولين لا سناد لها هنا ، والأسناد القرآنية الأخرى تترى على أنهما كانا موحدين ، مهما عصيا في الجنة : ﴿وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى. ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى﴾ (٢٠ : ١٢٢) وكيف يقع اجتباء الله على من يشرك بالله فيما يعلم منه و ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾ ولا يلمح القرآن بعد عصيان آدم في الجنة أية لمحة لتخلف منه صغير طيلة حياته وهو رسول ، فضلا عن هكذا الإشراك بالله ، وعوذا بالله من هذه المختلقات الزور الغرور التي يزوّرها لأهليها الغرور ، ﴿أَيُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ﴾ لهم ﴿شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ إشراكا به في صالح ما آتاهم من ولد؟ ﴿وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾؟

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ وهنا الخطاب الجمع برهان آخر مع عساكر البراهين الأخرى أن التنديد غير وارد على أبوينا الأولين ﴿سَواءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أنتم المشركون على مدار الزمن ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ﴾ فهؤلاء الذين تدعونهم من دون الله من حي وميت هم في ضلال لا يهتدون فكيف يتخذون شركاء لله ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (١٠ : ٣٥)!.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أيا كانوا وحتى الملائكة والنبيين هم «عباد» لله ﴿أَمْثالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ أنهم ليسوا أمثالكم بل هم آلهة كما الله.

«ألهم» أولاء الأموات منهم الذين تعبدونهم ﴿أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ﴾ وحتى الذين لهم أرجل وأيد طائلة وأعين مبصرة وآذان سامعة ، لا يستطيعون نصركم بل ولا أنفسهم ينصرون.

ذلك ، فاحتمال أن النفس الواحدة هنا أبو البشر ، فضلا عن ظهور الآية أو صراحتها فيه كما الخصم يدعيه لا يأتي بشيء ينال من كرامة آدم (عليه السلام) إلّا باحتمالات أخرى لو ثبت :

الأول : رجوع ضمير الغائب في «ليسكن» و «تغشاها» إلى خصوص النفس الواحدة هذه ، وهو خلاف الأدب الفصيح والصحيح أن يرجع الضمير المذكر إلى مرجع مؤنث هو ﴿نَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ فالصحيح هنا لو عنيت نفس النفس الواحدة ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْها﴾ و ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاها﴾ بضميري التأنيث كما في ضميري ﴿مِنْها زَوْجَها﴾ حيث هما راجعان إلى ﴿نَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ وفقا لتأنيثها ، إذا فلا تعني «ليسكن وتغشى» إلّا جنس النفس الواحدة من ذكور بني الإنسان دون شخصها ، وليس من المحتمل رجوع ضمير المذكر هنا إلى «زوجها» لأنوثتها الحقيقية ، ولأن الزوج هو الذي يسكن إلى زوجته من الأتعاب كما ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها﴾ (٣٠ : ٢١).

الثاني : أن تعني «شركاء» شخص إبليس حسب الرواية المختلقة ، والجمع لا يناسبه ، فهم ـ إذا ـ الشركاء المعبودون لجنس بني الإنسان.

الثالث : رجوع ضمير الجمع في «يشركون» وما أشبه من بضع وعشرين إلى خصوص آدم وزوجه والفصيح الصحيح رجوعه إلى الجمع دون المثنى ، إضافة إلى استقبال تلكم الجموع ، والمثنى ماض فقد رجع الضمير المفرد الغائب في «ليسكن وتغشاها» إلى نوع مرجعه وهو كل ذكر من ذلك النوع لا شخصه ، استخداما لطيفا في ذلك الإرجاع.

وهكذا ترجع ضمائر الجمع أيضا من «يشركون» وما أشبه إلى جمع الأزواج من نوع الإنسان ، أي يشركون هؤلاء الأزواج ، استخداما لطيفا حيث هو من المجازات الحسنة اللطيفة.

ثم من قال لكم ـ بعد ـ إن ﴿نَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ هنا هي شخص آدم إلّا على وجه أن «من» في ﴿مِنْها زَوْجَها﴾ نشوية لا جنسية ، والجنسية هي المعنية هنا للذكورة في «ليسكن وتغشاها» والجمعية في بضع وعشرين ،

فلا تدل الآية على ما تستدل به الجمعية المرسلون الأمريكيون إلّا على احتمال اختصاص ﴿نَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ بآدم ، ورجوع ضمير الذكورة إلى مؤنث ﴿نَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ ورجوع ضمائر الجمع هنا إلى مثناهما رغم استقبال افعالها ، ثالوث من الاحتمالات التي لا تحتملها هذه الآيات ، اللهم إلا أولاها دون الأخريين.

ذلك ، فالقصة كما ترى تتحدث عن سيرة عامة لأفراد هذا النوع إلّا من رحمه الله وهداه ، أنهم مهتمون بنقض مواثيقهم وخلف مواعيدهم مع الله نقضا لنداء الفطرة والعقلية السليمة : ﴿فَتَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

والذي غفل عنه كلا الناقدين ، والموجهين للآية بوجوه غير وجيهة ولا مرضية ، هو تحسّب أن هذه الآيات عرض عن الحالة الوالدية لأبوينا الأولين ، وهي بعيدة عنها كل البعد.

ذلك لأن «خلقكم» تعم كل بني الإنسان ، و ﴿نَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ هنا هي الوالد لكل مولود منهم ﴿وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها﴾ قد تعني والحال انه تعالى جعل من جنسها زوجها فخلقكم منهما اعتبارا بأصالة زائدة بين الأصلين للزوج الوالد على الزوجة الوالدة ، «جعل ليسكن إليها» : ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (٣٠ : ٢١) فالأصل في التقاء الزوجين هو السكن ليظل السكون والأمن جو المحضن الذي تنمو فيه الفراخ الزغب : فليس لمجرد اللذة ، إلا ذريعة تجذبهما إلى هذه العشرة العشيرة على أتعابها وأسغابها ، فاللذة العابرة والنزوة العارضة هما اللتان تتغلبان على كل الحوادث والكوارث في ذلك الالتقاء.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّاها﴾ جماعا ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً﴾ هو النطفة الجرثومية «فمرت به» وذلك هو الحمل الأول فهي تبين حال الأبوين من النوع الإنساني في انجابهما أولادهما باعتبار العام النوعي دون اختصاص بالأولين ، ولا جمع خاص من الأبوين ، ولا شمولهما للأولين ، حيث تعني أن كل إنسان وليد أبويه : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى﴾ (١٣ : ٤٩).

والغالب على حال الأبوين ـ وهما محبان مشفقان شغفان على ولدهما ـ أن ينقطعا في أمرهم إلى الله قبل ولادهم ، دون التفات إلى تفصيل ذلك الانقطاع ، وكما ينقطع راكب البحر ـ إذا التطمت أمواجه وأخذت تلعب به ـ إلى الله ، فالإنسان في هذه الحالة المضطربة ينقطع في لب ذاته إلى ربه وإن لم يكن موحدا ولا معترفا بأصل الألوهة ، ولكنه ينسى ربه أو يتناساه بعد ما نجى : ﴿فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٢٩ : ٦٥).

كذلك للأبوين ـ نوعيا ـ انقطاع إلى ربهما في أمر الأولاد ، يريدان صلاح الولادة ويشترطان بطبيعة الحال أن يكونا له شاكرين ، فلما أجيبت دعوتهما إذا هما يشركان بالله وينثلان ما عاهدا عليه الله ، وهذه حالة النوع الإنساني إلّا من عصمه الله كآدم وسائر المعصومين والصالحين الموحدين على طول الخط.

إذا ففرية الشرك على أبوينا الأولين مبنية على فرية أخرى هي الخلط وعدم التناسب بين هذه الضمائر ومراجعها ، وهل ترى عاقلا منصفا يزيف المعني من مقالة صادقة لا لشيء إلا الخبط والخلط في لفظية التفسير ، كاعتبار المؤنث مذكرا في حالة ومؤنثا في أخرى ، واعتبار التثنية جمعا أو الجمع تثنية والشريك الواحد شركاء والشركاء واحدا!

وهكذا ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ نزل الكتاب هدى للصالحين وهو بنفسه دون شركاء يتولى الصالحين ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أيا كانوا ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾.

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَسْمَعُوا﴾ هؤلاء المشركون ، كمثل شركائهم ﴿وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ ك ، كرسول تدعو إلى الهدى ، إنما يبصرون شركاءهم فهم عليها عاكفون.

فهذه الآيات ـ بالرغم من روايات شيطانية (١) وتخيّلات واهية ـ لا تدل ـ ولا لمحة ـ على ما يمس من الكرامة التوحيدية لأبوينا الأولين.

---

(١) نور الثقلين ٢ : ١٠٨ في تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن محمد بن النعمان الأحول عن بريد العجلي عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال : لما علقت حوا من آدم (عليهما السلام) وتحرك ولدها في بطنها فقالت لآدم : إن في بطني شيئا يتحرك فقال لها آدم : أبشري إن الذي في بطنك نطفة مني استقرت في رحمك يخلق الله منها خلقا ليبلونا فيه فأتاها إبليس فقال لها : كيف أنتم؟ فقالت له : أما إني قد علقت وفي بطني من آدم ولد يتحرك ، فقال لها إبليس : إما إنك إن نويت أن تسميه عبد الحارث ولدتيه غلاما وبقي وعاش ، وإن لم تنوي أن تسميه عبد الحارث مات بعد ما تلدينه بستة أيام ، فوقع في نفسها مما قال لها شيء فأخبرت بما قال لها آدم فقال لها آدم : قد جاءك الخبيث لا تقبلي منه فإني أرجو أن يبقى لنا ويكون خلاف ما قال لك ووقع في نفس آدم مثل ما وقع في نفس حوا من مقالة الخبيث ، فلما وضعته لم يعش إلا ستة أيام حتى مات فقالت لآدم قد جاءك الذي قال لنا الحارث فيه ، ودخلهما من قول الخبيث ما شككهما فلم تلبث أن علقت من آدم حملا آخر فأتاها إبليس فقال لها : كيف أنتم؟ فقالت له : قد ولدت غلاما ولكنه مات يوم السادس ، فقال لها الخبيث : أما إنك لو كنت نويت أن تسميه عبد الحارث لعاش ، وان ما هو الذي في بطنك كبعض ما في بطون هذه الأنعام التي بحضرتكم ، إما بقرة وإما ناقة وإما ضأن وإما معز ، فدخلها من قول الخبيث ما استمالها إلى تصديقه والركون إلى ما أخبرها الذي كان تقدم إليها في الحمل الأول ، فأخبرت بمقالته لآدم فوقع في قلبه من قول الخبيث مثل ما وقع في قلب حوا ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُما لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً﴾ أي لم تلد ناقة أو بقرة أو ضأنا أو معزا فأتاها الخبيث فقال لها : كيف أنتم؟ فقالت له : قد أثقلت وقربت ولادتي ، فقال : أما إنك ستلدين وترين من الذي في بطنك ما تكرهين ، ويدخل آدم منك ومن ولدك شيء لو قد ولدتيه ناقة أو بقرة أو ضأنا أو معزا لكان أحسن ، فاستمالها إلى طاعته والقبول لقوله ، ثم قال لها : اعلمي إن أنت نويت أن تسميه عبد الحارث وجعلت لي فيه نصيبا ولدتيه غلاما سويا وعاش وبقي لكم ، فقالت : فإني قد نويت أن أجعل لك فيه نصيبا ، فقال لها الخبيث : لا تدعين آدم حتى ينوي مثل ما نويت ويجعل لي فيه نصيبا ويسميه عبد الحارث ، فقالت له : نعم ، فأقبلت على آدم فأخبرته بمقالة الحارث وبما قال لها فوقع في قلب آدم من مقالة إبليس ما خافه فركن إلى مقاتلة إبليس وقالت حوا لآدم لئن أنت لم تنو أن تسميه عبد الحارث وتجعل للحارث فيه نصيبا لم أدعك تقربني ولا تغشاني ولم يكن بيني وبينك مودة ، فلما سمع منها آدم قال لها : أما إنك سبب المعصية .

ف ﴿نَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ كما تحتمل آدم (عليه السلام) حيث خلق منه الجميع برمتهم ، كذلك تحتمل كل والد من هذا النوع حيث خلق منهم المجموع ، كل من كلّ على الأبدال ، وتحتملهما ـ أيضا ـ معا ، أن خلق المجموع من نفس واحدة كما خلق الجميع من نفس واحدة ، مهما اختلف خلق عن خلق ، في تسلسل الانتشاء كما من آدم ، أم فرديته كما من كل ذكر لهذا النوع.

ثم ﴿جَعَلَ مِنْها زَوْجَها﴾ كما تحتمل أمّنا الأولى أن جعلت من أبينا خلقا منه ، ثم جعلت له زوجا ، كذلك تحتمل كافة الأمهات حيث جعلت في الخلق كالآباء في المجانسة الإنسانية المؤاتية للزواج ، وجعلت في التشريع محلّلة لذلك التزاوج.

ف «من» في الأول نشوية حيث انتشأت الأم الأولى من الأب الأول ، والجعل يعم التكوين والتشريع ، وهي في الثانية جنسية والجعل نفس الجعل حيث يعمهما.

ثم ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْها﴾ الحاملة ضمير المذكر ـ كما في ـ تغشاها ـ لا تعني تغشية خاصة بأبوينا الأولين ، حيث المرجع وهو ﴿نَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ تستحق أنوثة الراجع إليه قضية الأدب الصحيح أو الفصيح ، ولكيلا يشتبه

ـ الأولى وسيدليك الغرور ، قد تابعتك وأجبت إلى أن أجعل للحارث فيه نصيبا وأن أسميه عبد الحارث ، فأسرّ النية بينهما بذلك فلما وضعته سويا فرحا بذلك وأمنا ما كانا خافا من أن يكون ناقة أو بقرة أو ضأنا أو معزا وابلا أن يعيش لهما ويبقى ولا يموت يوم السادس ، فلما كان يوم السابع سمياه عبد الحارث.

أقول : هذه من الروايات الشيطانية التي اختلقها عباد الحارث ونسبوها إلى أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ، وعوذا بالله من هذه الهرطقات الزور والغرور التي دسها في أحاديثنا الغرور ، نعوذ بالله منه ومن أتباعه.

ذلك ، وقد افترى مثلها على النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) كما في الدر المنثور ٣ : ١٥١ عن سمرة بن جندب عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) قال : لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال : سميه عبد الحارث فإنه يعيش فسمته عبد الحارث فعاش فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره. أقول : بل نفس الرواية هي من وحي الشيطان.!

أمر العناية من ذلك التغشي بما بعده من ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ﴾.

ومن ثم ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ﴾ تحمل الحمل الأوّل لأقل تقدير ، فلا تحمل على الحمل غير الأول كما حملتها روايات شيطانية تشيطن أبوينا في حقل الحمل!

ثم «يشركون» وما بعدها من الجموع المستقبلة لمن يشركون ، تدل بجمعيتها واستقبالها أنها ليست لتعني أبوينا الأولين ، لأنهما اثنان ماضيان دون جمع مستقبل.

كما و «شركاء» وما بعدها من الجموع لا تناسب شخص الشيطان المضلل إياهما في هذه الرواية الشيطانية.

فسواء أكانت «نفس واحدة وزوجها» هما خصوص أبوينا الأولين ، أم وبأحرى كل الآباء والأمهات ، أم المجموع من الأولين وسائر الآباء والأمهات ، ف «ليسكن ـ تغشاها» وما تتلوها من عرض لما استعرض ، لا تناسب إلّا نسل الإنسان ككلّ وبطبيعة الحال ، إلا من رحم الله.

فذلك ـ إذا ـ عرض للحالة التي عليها الأكثرية الساحقة من هذا النوع (١) ، وكما ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ

---

(١) نور الثقلين ٢ : ١٠٧ في عيون الأخبار في باب مجلس الرضا (عليه السلام) عند المأمون في عصمة الأنبياء عن علي بن محمد الجهم قال : حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا (عليه السلام) فقال له المأمون يا بن رسول الله أليس من قولك أن الأنبياء معصومون؟ قال : بلى ، قال : فما معنى قول الله عزّ وجلّ : ﴿فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما﴾؟ قال : إن حوا ولدت لآدم خمسمائة بطن في كل بطن ذكر وأنثى وإن آدم وحوا عاهدا الله تعالى ودعواه وقالا : لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين. فلما آتاهما صالحا من النسل خلقا سويا بريئا من الزمانة والعاهة كان ما آتاهما صنفين : صنفا ذكرانا وصنفا إناثا فجعل الصنفان لله تعالى ذكره شركاء في ما آتاهما «ولم يشكرا» كشكر أبويهما له عزّ وجلّ ، قال الله تعالى : ﴿فَتَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فقال المأمون:«أشهد أنك ابن رسول الله حقا» وفي الدر المنثور ٣ : ١٥٢ عن ابن عباس قال : «ما أشرك آدم ، إن أولها شكر وآخرها مثل ضربه لمن بعده». وفيه عن السدي في قوله تعالى : ﴿فَتَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هذه فصل بين آية آدم ، «خاصة في آلهة العرب».

ظَلُوماً جَهُولاً ﴿**إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى**﴾ ﴿**إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً**﴾ فانها وما أشبه تقرر الأصل الأكثري بطبيعة الحال لقبيل الإنسان ﴿**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ «وإلا».

فلا تعني الآية أبوينا الأولين بلا كرامة حتى في إشراك طاعة [1] فضلا عن إشراك عبادة.

فليست هذه الآيات الكريمة لتمس من كرامة أبوينا الأوّلين إلّا بتأويلات عليلة مختلقة لا تناسب أدب اللفظ ولا حدب المعنى لهذه الآيات.

وليس إقحام أمثال هذه المختلقات الزور التي دسها الغرور في رواياتنا إلا من شيطنات الشياطين، عمدا وعلما وعنادا من الذين يعلمون، وجهالة وحماقة من بسطاء المسلمين مؤلفين وسواهم.

فحذار حذار من تنقل هذه الروايات الشيطانية، التي تبزر آيات من القرآن كأنها آيات شيطانية، اللهم إلا تزييفا لها حين تنقل [2].

. وفيه عن أبي مالك في الآية قال: هذه مفصولة أطاعاه في الولد ﴿**فَتَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ هذه لقوم محمد «وقال الحسن: هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادا فهودوا ونصروا، وعنه أيضا قال: يعني بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده، وقال: هذا في الكفار يدعون الله فإذا آتاهما صالحا هودا ونصرا».

(١) المصدر في تفسير القمي عن أبي جعفر (عليهما السلام) في الآية قال: هو آدم وحواء وإنما كان شركهما شرك طاعة ولم يكن شرك عبادة فأنزل الله على رسوله (صلّى الله عليه وآله وسلم): ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ**﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿**فَتَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ قال: جعلا للحارث نصيبا في خلق الله ولم يكن شركاء إبليس في عباده، ثم قال: أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون.

(٢) ومن جراء هذه الروايات الشيطانية تؤلف كتابات شيطانية تسمي القرآن «آيات شيطانية» تناصرا من شيطانين اثنين في هذا البين، شيطان العناد والتزييف لساحة القرآن العظيم من ملحدين، وشيطان الحماقة ممن يتسمون مسلمين والله منهما براء على سواء، إن لم تكن الشيطنة الثانية أشطن حيث تفسح مجالات لهذه الشيطنات، وتخيّل إلى بسطاء المسلمين كأنها صادرة عن مصدر الوحي المعصوم!

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْ لا اجْتَبَيْتَها قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (٢٠٦)

«خذ» هنا لا تختص برسول الهدى ولا سيما ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ﴾ وهو معصوم عن نزغ الشيطان فإنه من أفضل المخلصين وقد ﴿قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٣٨ : ٨٣) ونزغ الشيطان إغواء تسمو عنه ساحة الرسالة القدسية.

إذا ف «خذ» هي لأقل تقدير تعم كافة المكلفين ، ثم يستثنى الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) عن نزغ الشيطان.

وترى ما هو «العفو» الذي يؤمر هنا بأخذه؟ أهو ـ فقط ـ العفو عمن ظلمك؟ وصيغته الخاصة : أعف عمن ظلمك ، ولأن العفو تستعمل بمختلف المتعلّقات أم دون متعلّق ، وهي هنا طليقة عن أي تعلق ، فالقصد منها هنا كل معانيها المناسبة للأخذ : ف «عفاه» تعني قصده متناولا ما عنده ، وعفت الريح الدار قصدتها متناولة آثارها ، وعفوت عنه قصدت إزالة ذنبه ، والعفو هو الزيادة كما في ﴿يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ (٢ : ٢١٩) أي الزائد عن الحاجة ، ومن العفو الوسط ، إذا ف ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قد تعم أخذ العفو من الأموال ، ف ﴿خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً﴾ (٩ : ١٠٣) قد تقيدها بالزكوات المفروضة المقررة بأنصبتها كضريبة مستقيمة ، ولكن ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ تعني أخذ الزائد عن الحاجة من الأموال وهو ضريبة غير مستقيمة ، كما وتعني أخذ هذه الطريقة لنفسه أن ينفق الزائد من ماله للمحاويج.

ثم ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ عن الناس ، أن تعفو عمن ظلمك [1] والعفو في الأمور هو الوسط فيها دون إفراط ولا تفريط. وكما يروى عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) أنه قال لما نزلت هذه الآية : أمرت أن آخذ العفو من

---

(١) الدر المنثور ٣ : ١٥٥ ، أخرج البيهقي في شعب الإيمان من طريق وهب بن جرير عن أبيه قال : كنت جالسا عند الحسن إذ جاء رجل فقال : يا أبا سعيد ما تقول في العبد يذنب الذنب ثم يتوب؟ قال : لم يزدد بتوبته من الله إلا دنوا ، قال : ثم عاد في ذنبه ثم تاب؟ قال : لم يزدد بتوبته إلا شرفا عند الله ، قال ثم قال لي : ألم تسمع ما قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم)؟ قلت : وما قال؟ قال :

أخلاق الناس [١] إذ قد تعني بين الإفراط والتفريط.

ثم ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ قد تعني نفس الأمر عرفا كما الأمر بالعرف ، فليكن الأمر عرفا دون نكر ، عرفا في مادة الأمر وكيفيته ، وعرفا من الآمر أن يكون هو نفسه مؤتمرا به ثم ليكن أمرا بالعرف ، فالباء في الأولى للمصاحبة وفي الثانية للتعدية وهما معا معنيّان.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ﴾ إعراضا عن ملاحقتهم لجهلهم القاحل ، وإعراضا عن مصاحبتهم للجهل المتجاهل العارف ، وإعراضا عن إتباعهم مسايرة جهلهم ، فالجهل في مثلث التعامل تتركز عليه نقطة الإعراض ، إبرازا للمفاصلة بين غير الجاهلين والجاهلين ، ونهيا جاهرا عن منكر الجهل الجهالة.

وهنا الأخذ بالعفو الإغماض هو كأصل ما لم يعارض ملابسات تفرض عدم العفو ، كأن يعفى عن الظالم الذي يزداده العفو عتوا على المظلوم ونفورا عن العدل ، سواء كان المظلوم هو العافي فهو ظالم مرتين ، أم المطّلع على ظلم أخيه فهو ظالم مرة.

كما وأن الإعراض عن الجاهلين لا تعنى ـ فيما تعنيه ـ الإعراض عن تعليم وتأديب الجهال الذين هم في تحرّي العلم والمعرفة ، أم هم غافلون عن جهلهم أو واجب تعلمهم ، فعلى العالم أن يظهر علمه اللهم إلّا فيما يهدر أو يهدّر فإنه ـ إذا ـ ظلم بالعلم ورعيله.

ومن الترتيب التربوي بين هذه الثلاثة أن الأصل الأوّل هو الأخذ بالعفو مالا وحالا وأعمالا في نفسك وذويك وسائر الناس ، ومن العفو في

---

(١) المصدر ـ أخرج ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق عن إبراهيم بن أدهم قال : لما أنزل الله وفي نور الثقلين ٢ : ١١١ في تفسير العياشي عن أبي عبد الله (عليه السلام) ان الله أدب رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فقال : «يا محمد خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين» قال : خذ منهم ما ظهر وما تيسر والعفو الوسط.

الدعوة هو الوسط بين الإفراط والتفريط ، فإذا تخلف متخلف بعد بلوغ الحجة ف ﴿أْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ ثم إذا جهل جاهل إصرارا على جهله ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ﴾.

وهكذا يصدق المروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) انه ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية (١).

فهنا في ختام السورة يؤمر صاحب الدعوة بمن معه ـ وهم بعد في مكة ـ أن يواجهوا تلك الجاهلية العريقة الحميقة بكل سماحة ويسر ، أخذا بالعفو الميسّر ورفضا لكل معسّر إلّا إذا لزم الأمر كما في حقل النهي والأمر ، تغاضيا عما يقبل في عشرة الناس ، دونما تنازل عما قرره الله من شرعته حيث لا تقبل التنازل كما ليس فيها تعاضل.

فالأعضاء عن الضعف البشري ، والعطف عليه ، والسماح معه ، كل ذلك واجب الداعية ، فالتعامل مع مختلف النفوس البشرية بغية هداها يقتضي رحابة صدر وسماحة طبع ، في غير تهاون ولا تفريط في شرعة الله.

ثم الأمر بالعرف هو عرف ذلك الأمر في شرعة الله ، والعرف المأمور به هو المعروف لدى الفطرة والعقلية الإنسانية والشرعة الربانية ، معروفا لا ينكر ولا يتنكر ، وهذه هي الخطوة الأولى في حقل الأمر ، ومن ثم خطوات

---

(١) الدر المنثور ٣ : ١٥٤ ـ أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن علي (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم): ألا أدلك على خير أخلاق الأولين والآخرين؟ قلت يا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) نعم قال : تعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك ، أقول وقد تظافرت الروايات عنه (صلّى الله عليه وآله وسلم) انه قال مقالته تلك بعد نزول هذه الآية وبمناسبتها.

وفي نور الثقلين ٢ : ١١١ في عيون الأخبار باسناده إلى الحارث بن الولهاث مولى الرضا (عليه السلام) قال : سمعت أبا الحسن (عليه السلام) يقول : لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون فيه ثلاث خصال سنة من ربه وسنة من نبيه وسنة من وليه ـ إلى قوله : وأما السنة من نبيه فمداراة الناس فإن الله أمر نبيه بمداراة الناس فقال : خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين.

أخرى إلى أعراف أخرى تلحقها.

ثم الإعراض عن الجاهلين في حقلي الأخذ بالعفو والأمر بالعرف ، ومن الإعراض عنهم هو الإعراض عن عفوهم إلى مجازاتهم ، والإعراض عن أمرهم إلى إلزامهم.

ذلك ، وتعريفا بالجاهلية عن لسان النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم): «الناس معادن ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» (١) و «كل دم ومال كان في الجاهلية تحت قدمي هاتين» (٢) و «كل ربا في الجاهلية موضوع» (٣) و «كل دين في الجاهلية موضوع» (٤) و «دعوى الجاهلية حرام» (٥).

وقد يروى عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) قوله : مثل المؤمن مثل السنبلة تميل أحيانا وتستقيم أحيانا وفي ذلك تكبر فإذا صدها صاحبها حمد أمره كما حمد صاحب السنبلة بره ثم قرء هذه الآية (٦).

ف احذروا أيها الناس من الذنوب والمعاصي ما قد نهاكم الله عنها

---

(١) مفتاح كنوز السنة عن بخ ـ ك ٦١ ب ١ ، مس ـ ك ٤٣ ح ١٦٨ ، ك ٤٤ ح ١٤٩ مى ـ المقدمة ب ٢٣ ، حم ـ ثان ص ٦٥٧ و ٢٦٠ و ٣٩١ و ٤٣١ و ٤٣٨ و ٤٨٥ ٣ و ٤٩٨ و ٥٢٤ و ٥٣٩ ، ثالث ص ٣٦٧ و ٣٨٣ ، رابع ص ١٠١ ط ـ ح ٢٤٧٦ قا ، قد ـ ص ٤٢٤.

(٢) المصدر عن بد ـ ك ٣٨ ب ١٧ و ٢٤ ، تر ـ ك ٤٤ سورة ٩ ح ٢ ، مج ـ ك ٢١ ب ٥ حم ـ ثان ص ١١ و ١٠٣ و ١٨٧ و ١٨٧ و ٢٠٧ ، رابع ص ٣٢ ، خامس ص ٧٢ و ٤١١ ، ط ـ خ ٢٢٧ هش ـ ص ٦٩٨ ، قد ـ ص ٣٣٨.

(٣) المصدر عن بد ـ ك ٢٢ ب ٥ ، مى ـ ك ١٨ ب ٣.

(٤) المصدر عن حم ـ ثان ص ١٠٣.

(٥) المصدر عن بخ ـ ك ٢٣ ب ٣٦ و ٣٩ و ٤٠ ، ك ٦١ ب ٨ ، ك ٦٥ سورة ٦٣ ب ٥ ، حم ـ ثالث ص ٣٣٨ و ٣٨٥ و ٣٩٢ ، رابع ص ١٣٠ و ٢٠٢ ، خامس ص ٣٤٤ ، ط ـ ح ١١٦٢.

(٦) الدر المنثور ٣ : ١٥٤ ـ أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : لما نزلت «خذ العفو» قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم): وفيه عن ابن مسعود عنه (صلّى الله عليه وآله وسلم) انه كان يقول : اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من همزه ونفثه ونفخه.

وحذركموها في كتابه الصادق بالبيان الناطق فلا تأمنوا مكر الله وتحذيره عند ما يدعوكم الشيطان اللعين إليه من عاجل الشهوات واللذات في هذه الدنيا فإن الله عزّ وجلّ يقول : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ فأشعروا قلوبكم خوف الله وتذكروا ما قد وعدكم الله في مرجعكم إليه من حسن ثوابه كما قد خوفكم من شديد العقاب (١)

ذلك! ومن الجاهلين الماحلين الذين يحسبونهم عارفين فالحين من يصفهم الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) في عظة له :

لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ، ويرجئ التوبة بطول الأمل ، يقول في الدنيا بقول الزاهدين ، ويعمل فيها بعمل الراغبين ، إن أعطي منها لم يشبع ، وإن منع منها لم يقنع ، يعجز عن شكر ما أوتي ، ويبتغي الزيادة فيما بقي ، ينهى ولا ينتهي ، ويأمر بما لا يأتي ، يحب الصالحين ولا يعمل عملهم ، ويبغض المذنبين وهو أحدهم ، يكره الموت لكثرة ذنوبه ، ويقيم ما يكره الموت له ، إن سقم ظل نادما ، وإن صح امن لاهيا ، يعجب بنفسه إذا عوفي ، ويقنط إذا أبتلي ، إن أصابه بلاء دعى مضطرا ، وان ناله رجاء أعرض مغترّا ، تغلبه نفسه على ما يظن ، ولا يغلبها على ما يستيقن ، يخاف على غيره بأدنى من ذنبه ، ويرجو لنفسه بأكثر من عمله ، إن استغنى بطر وفتن ، وإن افتقر قنط ووهن ، يقصّر إذا عمل ، ويبالغ إذا سأل ، إن عرضت له شهوة أسلف المعصية ، وسوّف التوبة ، وإن عرته محنة انفرج عن شرائط الملة ، يصف العبرة ولا يعتبر ، ويبالغ في الموعظة ولا يتعظ ، فهو بالقول مدلّ ، ومن العمل مقلّ ، ينافس

---

(١) نور الثقلين ٢ : ١١٢ في روضة الكافي كلام لعلي بن الحسين (عليهما السلام) في الوعظ والزهد في الدنيا يقول فيه : وفيه عن الخصال عن أبي بصير عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال : ثلاثة من أشد ما عمل : إنصاف المؤمن نفسه ومواساة المؤاخاة وذكر الله على كل حال وهو أن يذكر الله عند المعصية وهو قول الله عزّ وجلّ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ : وفيه عن الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال سألته عن قول الله عزّ وجلّ : «إذا مسهم» قال : هو العبد يهم بالذنب ثم يتذكر فيمسك فلذلك قوله : ﴿تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾.

فيما يفنى ، ويسامح فيما يبقى ، يرى الغنم مغرما والغرم مغنما ، يخشى الموت ولا يبادر الفوت ، يستعظم من معصية غيره ما يستقل أكثر منه من نفسه ، ويستكثر من طاعته ما يحقره من طاعة غيره ، فهو على الناس طاعن ، ولنفسه مداهن ، اللغو مع الأغنياء أحب إليه من الذكر مع الفقهاء ، يحكم على غيره لنفسه ، ولا يحكم عليها لغيره ، ويرشد غيره ويغوي نفسه ، فهو يطاع ويعصي ، ويستوفي ولا يوفي ، ويخشى الخلق في غير ربه ، ولا يخشى ربه في خلقه (الحكمة ١٤٣).

وهنا يقول رسول الهدى (صلّى الله عليه وآله وسلم): «كيف يا رب والغضب»؟ غضبي عليهم لعنادهم وغضبهم علي حيث أدعوهم وآمرهم وأنهاهم خلاف أهواءهم ، فيجاب :

﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٢٠٠).

النزغ هو دخول في أمر لإفساده ، وهكذا يتدخل الشيطان في صالح أمورنا لإفسادها ، ومنه تدخّله في هذه المكارم الأخلاقية والعلاج بعد كلّ القدرات المقاومة ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ ليعيذك من نزغ الشيطان ، ولا بد فيها من قال مع حال وأعمال لمكان ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فهو «سميع» لقالات المستعيذين ، «عليم» حالاتهم وفعالاتهم المستعيذة ، كما هو ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قالات وفعالات المتخلفين عن شرعة الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾(٢٠١).

مسّ طائف من الشيطان يعمي على الممسوس طريقه ، فإذا تذكروا فإذا هم مبصرون والمس هنا مس للصدر فالقلب وما قبلهما من الفطرة والعقلية وما بعدهما من اللب والفؤاد حيث الشياطين يطوفون على كل مواضع اليقظة تعمية لها ، إلّا ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١٦ : ٩٩) استعاذة وسواها [١].

﴿وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ﴾(٢٠٢).

---

(١). تفسير الفخر الرازي ١٦ : ٩٦ وقال جعفر الصادق رضي الله عنه : ...

إنه لا يقتصر ﴿طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ﴾ على مسهم المسيس ، بل ﴿وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ﴾ المس ﴿ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ﴾ أولاء وهؤلاء في مسهم اللعين المتقين ، فاليقظة اليقظة للذين اتقوا تذكرا باستعاذة باستنجازة حتى يبصروا مسيرهم إلى مصيرهم ولا يصطادوا إلى فخ الشيطان.

﴿وَإِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْ لا اجْتَبَيْتَها قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٢٠٣).

﴿إِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾ يقترحونها أو يرتقبونها كما أوتي رسل الله ، ﴿قالُوا لَوْ لا اجْتَبَيْتَها﴾ كأنه هو المجتبي لآيات الله كما يحب ويرضى ﴿قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ دون ما أهواه أم تهوونه أنتم ، إنما أتبعه لا سواه ، سواء في وحي الرسالة أم آيتها الخالدة ، فلا أنتظر من ربي آية سواها ، ولن أقترح عليه آية سواها ، بل والاقتراح على ربي في حقل رسالتي تجاوز عن أدب الرسالة إلى حدب الربوبية ، ثم ليست الآيات الربانية إلّا بصائر من ربكم و «هذا» القرآن العظيم ﴿بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فقد جمع آية القرآن بوحدتها كلّ البصائر الربانية ، حيث تبصّر ما يبصر ببصيرة أم بصر ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ . ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾.

أجل إنه «بصائر» تبصر وتبصّر «وهدى» تهدي «ورحمة» تحمل كل الرحمات ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ف ﴿بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ تحلّق بصائره على كافة المكلفين ، ولكن البصيرة ليست إلّا الطريقة المثلى ، فليست ـ إذا ـ ﴿هُدىً وَرَحْمَةٌ﴾ إلّا ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالبصائر ، دون هؤلاء الحماقى الذين ﴿جَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا﴾ (٢٧ : ١٤) : ﴿قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (٦ : ١٠٤) . ﴿هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٤٥ : ٢٠) . ﴿قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ (١٢ : ١٠٨).

هنا ﴿لَوْ لا اجْتَبَيْتَها﴾ تعجيز إلى سخرية ، وكأنه مدع إمكانية إتيانه بآيات يجتبيها ، و ﴿هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ثم الويل كل الويل لهؤلاء الذين يضلون الناس ويعمونهم بتلك البصائر ، تذرعا بالقرآن إلى ضده علميا أو

عمليا ، وكما يندّد بهم فيما أوحي إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) [(١)].

وهؤلاء هم المعنيون من خطاب علي (عليه السلام) العتاب : «أريد اداويكم وأنتم دائي ، كناقش الشوكة بالشوكة وهو يعلم أن ضلعها معها ، اللهم قد ملت أطباء هذا الداء الدوي ، وكلت النزعة بأشطان الركي» (الخطبة ١٢٠).

أجل ﴿قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ﴾ هي القرآن نفسه ، دون حاجة له إلى بصائر أخرى تفسره ، ف «فيه الحجة والنور والبرهان ، كلام الله غض جديد طري شاهد ، وحكم عادل ، قائد بحلاله وحرامه ، بصير به ، قاض به ، مضموم فيه ، يقوم غدا فيحاج أقواما فتزل أقدامهم عن الصراط» [(٢)] و «القرآن غنى لا غنى دونه ولا فقر بعده» [(٣)].

---

(١) الدر المنثور ٣ : ١٥٥ ـ أخرج الحكيم الترمذي عن عمر بن الخطاب قال : أتاني رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وأنا أعرف الحزن في وجهه فأخذ بلحيتي فقال : ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ﴾ من قوله : أتاني جبرئيل آنفا فقال : ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ﴾ قلت : أجل فإنا لله وإنا إليه راجعون فمم ذاك يا جبرئيل؟ فقال : إن أمتك مفتتنة بعدك بقليل من الدهر غير كثير ، قلت : فتنة كفر أو فتنة ضلالة؟ قال : كل ذلك سيكون ، قلت : ومن أين ذاك وأنا تارك فيهم كتاب الله؟ قال : بكتاب الله يضلّون وأوّل ذلك من قبل قرائهم وأمرائهم ، يمنع الأمراء الناس حقوقهم فلا يعطونها فيقتتلون ، وتتبع القراء أهواء الأمراء فيمدونهم في الغي ثم لا تقصرون ، قلت : يا جبرئيل! فبم يسلم من سلم منهم؟ قال : بالكف والصبر إن أعطوا الذي لهم أخذوه وإن منعوه تركوه.

(٢) جامع أحاديث الشيعة للمغفور له استاذنا الأقدم في الفقه السيد البروجردي ، ج ١٥ : ٧ ، السيد علي بن طاووس في الطرف عن كتاب الوصية لأبي ضرير عيسى بن المستفاد من أصحاب الكاظم (عليه السلام) عنه عن أبيه (عليهما السلام) في حديث أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) قال للأنصار أيام وفاته فيما أوصى به إليهم : كتاب الله وأهل بيتي ، فإن الكتاب هو القرآن وفيه الحجة.

(٣). المصدر عن المجمع ١٥ ج ١ ـ أنس بن مالك عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) انه قال : ..

وقال (صلّى الله عليه وآله وسلم): ما من مؤمن ذكر أو أنثى ، حرّ أو مملوك إلا ولله عليه حق واجب أن يتعلم من القرآن ويتفقه فيه ثم قرأ : ﴿وَلكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَبِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (٣ : ٧٩) [١].

فلا تحصل الربانية العلمية والتربوية إلّا على ضوء دراسة الكتاب وتعليمه وكما قال (صلّى الله عليه وآله وسلم): «إن أردتم عيش السعداء وموت الشهداء والنجاة يوم الحشر والظل يوم الحرور والهدي يوم الضلالة فادرسوا القرآن فإنه كلام الرحمن وحرز من الشيطان ورجحان في الميزان» [٢].

وقال : «حملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله ، الملبسون نور الله ، المعلمون كلام الله ، من عاداهم فقد عادى الله ومن والاهم فقد والى الله» [٣].

ذلك وهؤلاء ممن يكون «القرآن حديثه» [٤] و «شعاره» [٥] و «لا يعذب الله قلبا وعى القرآن» [٦] وقد كان كلام الامام الرضا (عليه السلام) كله وجوابه وتمثله انتزاعات من القرآن [٧].

(١ ، ٢). المصدر ، أبو الفتوح الرازي في تفسير عن عبد الله بن عباس عنه (صلّى الله عليه وآله وسلم) وعن معاذ بن جبل عنه (صلّى الله عليه وآله وسلم.

(٣). المصدر ٢٥ عن تفسير أبي الفتوح الرازي.

(٤). المصدر ٣٠ في رواية جامع الأخبار :

(٥) المصدر ٢٩ قوله (صلّى الله عليه وآله وسلم): «أولئك قوم اتخذوا مساجد الله بساطا والقرآن شعارا.»

(٦) المصدر ٣٥ ـ أمالي ابن الشيخ بسند متصل عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) : وفيه عن جامع الأخبار للصدوق عنه (صلّى الله عليه وآله وسلم): اقرءوا القرآن واستظهروه فإن الله تعالى لا يعذب قلبا وعى القرآن.

(٧) المصدر ٦٧ عن العيون ٢ : ١٨٠ عن إبراهيم بن العباس يقول : ما رأيت الرضا (عليه السلام) يسأل عن شيء قط إلا علم ، ولا رأيت أعلم منه بما كان في الزمان الأول إلى وقته وعصره ، وكان المأمون يمتحنه بالسؤال عن كل شيء فيجيب فيه ، وكان كلامه كله.

ف أسألك بمعاقد العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك ، أسألك أن تصلي على محمد وآل محمد وأن ترزقني حفظ القرآن وأصناف العلم ، وأن تثبتها في قلبي وسمعي وبصري ، وأن تخالط بها لحمي ودمي وعظامي ومخي ، وتستعمل بها ليلي ونهاري برحمتك وقدرتك فإنه لا حول ولا قوة إلا بك يا حي يا قيوم [١].

«اللهم ارحمني بترك معاصيك أبدا ما أبقيتني ، وارحمني من تكلف ما لا يعنيني ، وارزقني حسن المنظر فيما يرضيك عني ، وألزم قلبي حفظ كتابك كما علمتني ، وارزقني أن أتلوه على النحو الذي يرضيك عني ، اللهم نور بكتابك بصري ، واشرح به صدري ، فرح به قلبي ، وأطلق به لساني ، واستعمل به بدني ، وقوني على ذلك ، وأعني عليه إنه لا معين عليه إلا أنت» [٢].

﴿وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٢٠٤).

هنا «قرئ القرآن» موضوع لواجب الاستماع له والإنصات ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ والنتيجة الصريحة لسلبية الاستماع والإنصات له هي زوال الرحمة. وطبعا. إلى خلاف الرحمة وهو العذاب الزحمة ، فإن الله لا يخلى عباده من رحمة أو زحمة جزاء وفاقا بأسبابهما ، وهنا السبب لزوال الرحمة إلى الزحمة هو ترك الاستماع والإنصات للقرآن حين يقرء.

(١ ، ٢) المصدر ٣٨ عن الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : تقول : اللهم إني أسألك ولم يسأل العباد مثلك ، أسألك بحق محمد نبيك ورسولك وإبراهيم خليلك وصفيك وموسى كليمك ونجيّك وعيسى كلمتك وروحك ، وأسألك بصحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى وقرآن محمد (صلّى الله عليه وآله وسلم) وبكل وحي أوحيته وقضاء أمضيته وحق قضيته وغني أغنيته وضال هديته ، وأسألك باسمك الذي وضعته على الليل فأظلم ، وباسمك الذي وضعته على النهار فاستنار ، وباسمك الذي وضعته على الأرض فاستقرت ودعمت به السماوات فاستقلت ، ووضعته على الجبال فرست ، وباسمك الذي بثثت به الأرزاق ، وأسألك باسمك الذي تحيي به الموتى ، وأسألك.

أترى بعد أن «قرئ» تختص بقراءة حية للحمد والسورة ومن قارئ مسلم يكلف ، أم وأنت في صلاة جماعة مؤتما به كما قد يروى؟ وقد روي إطلاق فرض الاستماع والإنصات للقرآن أيضا [١] ، و «القرآن»

(١) نور الثقلين ٢ : ١١٣ في التهذيب عن معاوية بن وهب عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال سألته عن الرجل يؤم القوم وأنت لا ترضى به في صلاة يجهر فيها بالقراءة؟ فقال : إذا سمعت كتاب الله يتلى فأنصت له فقلت : إنه يشهد علي بالشرك! قال : إن عصى الله فأطع الله فرددت عليه فأبى أن يرخص لي قال : فقلت له : أصلي إذا في بيتي ثم أخرج إليه؟ فقال : أنت وذاك وقال : إن عليا (عليه السلام) كان في صلاة الصبح فقرأ ابن الكوا وهو خلفه ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ فأنصت علي تعظيما للقرآن حتى فرغ من الآية ثم عاد في قراءته ثم عاد ابن الكوا فأنصت علي (عليه السلام) أيضا ثم قرأ فأعاد ابن الكوا وانصت علي (عليه السلام) ثم قال له : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ ثم أتم السورة ثم ركع ورواه العياشي عن أبي كهمش عن أبي عبد الله (عليه السلام) من قوله : «قرأ ابن الكوا» ، أقول ، ورواه العياشي في تفسيره عن أبي كهمش عنه (عليه السلام) والقمي ٢ : ١٦٠ قال : كان علي (عليه السلام) والجعفريات عنه (عليه السلام) وابن شهر آشوب في المناقب ٢ : ١١٣ مثله.

أقول : علّ قراءته (عليه السلام) هذه الآية كان بعد الفاتحة في نفس السورة التي فيها الآية ، ثم يلمح له «تم أتم السورة ثم ركع» حيث السورة هنا ليست هي الفاتحة لمكان «ثم ركع» بل هي سورة بعدها.

وفيه عن تفسير العياشي (٢ : ٤٤) عن زرارة قال سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول : يجب الإنصات للقرآن في الصلاة وغيرها وإذا قرئ عندك القرآن وجب عليك الإنصات والاستماع ، وفيه عن المجمع ٤ : ٥١٥ عن عبد الله بن أبي يعفور عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قلت له : الرجل يقرأ القرآن أيجب علي من سمعه الإنصات له والاستماع؟ قال : «نعم إذا قرئ عندك القرآن وجب عليك الإنصات والاستماع».

(البحار ٩٢ : ٢٢٢ جامع البزنطي نقلا عن خط بعض الأفاضل عن جميل عن زرارة قال : سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن الرجل يقرأ القرآن (وذكر نحوه).

وروى الإمام أحمد وأهل السنن وقال الترمذي عنه : هذا حديث حسن وصححه أبو حاتم الرازي من حديث الزهري عن أبي أكثمة الليثي عن أبي هريرة أن رسول الله (صلّى الله .

ليس ليعني سورة خاصة في صورة خاصة ، مهما نزلت هذه الآية فيما كان المسلمون يتكلمون في الصلاة والإمام : النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) جاهر بالقراءة! فمهما كان ذلك سببا لنزولها ولكنه ليس سببا لاختصاصها بذلك السبب ، ولو أن القرآن مات بموت سبب نزوله لمات القرآن كله ، فإنما العبرة بعموم النص لا بخصوص سبب نزوله ، ولو كان قرآن خاص موضوعا للحكم لجيء بخصوصه ، ولا سيما في ﴿بَيانٌ [1] لِلنَّاسِ﴾ أفترى القائل : إذا رأيت مسلما فسلّم عليه ، وهو في مقام البيان ، فهل يصلح تقييده بمسلم خاص؟ وبأحرى القرآن لما يقول : ﴿إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾ فالموضوع هو مطلق القرآن.

. عليه وآله وسلم) انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال : هل قرء أحد منكم معي آنفا به؟ قال رجل : نعم يا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) قال : إني أقول : مالي أنازع القرآن ، فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم).

أقول : ليس يعني هذا اختصاص وجوب الاستماع بالصلاة الجهرية للمأمومين وإنما هي الظرف الأهم لواجب الاستماع حيث الامام يتحمل عن المأموم القراءة إضافة إلى واجب الاستماع إلى القرآن بصورة مطلقة ، فلا معارضة بين أدلة وجوب الاستماع في الجهرية والأخرى الطليقة فيه ولا سيما الآية حيث ركز الأمر على «القرآن» وليس من الفصيح بل هو من القبيح.

وفي بحار الأنوار ٨٩ : ٢٢٢ عن جامع البزنطي نقلا عن خط بعض الأفاضل عن جميل عن زرارة قال : سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن الرجل يقرأ القرآن يجب على من يسمعه الإنصات له والاستماع له؟ قال : نعم ، إذا قرئ القرآن عندك فقد وجب عليك الاستماع والإنصات.

وفي جامع أحاديث الشيعة ١٥ : ١٦٣ عن كتاب العلا عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال : يستحب الإنصات والاستماع في الصلاة وغيرها للقرآن ، أقول : لا يعني الاستحباب هنا إلا الوجوب لمكان «في الصلاة» ففي «غيرها» أيضا لوحدة التعبير ، ثم وليس الاستحباب نصا أو ظاهرا فيما اصطلح عليه ، بل هو مشترك في استحباب الواجب والندب اللهم إلا بقرينة تخص أحدهما.

وعناية قرآن الحمد في جهرية الجماعة ، جناية في التعبير ، لا تقبلها كلام اللطيف الخبير ، أن تعنى الحمد من «القرآن» الذي يحوى زهاء ألف ضعف من آياتها السبع!

إنما «القرآن» هو القرآن كله ما صدق عليه ، كلمة أو جملة أو آية أو سورة ، ومجهولية «قرئ» تجهّل تخصيص القارئ بما قد يخصّص به من كونه مسلما بالغا حالة القراءة الجهرية للصلاة ، أو كونها قراءة حية ، فلا يجب الاستماع والإنصات للقراءة المسجلة[1].

ذلك ، وقد هدد التارك للسجود حين يقرء القرآن بعدم الإيمان حيث يعني السجود غاية الخضوع ، لا فقط سجود التلاوة لمكان «القرآن» دون خصوص آيات التلاوة منه : ﴿فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ. وَإِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ﴾ (٨٤ : ٢١) ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولاً وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾ (١٧ : ١٠٩) ﴿إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا﴾ (١٩ : ٥٨).

ذلك ، وحتى لو لم يكن في القرآن نصوص كهذه التي تدل على فرض الاستماع لكان ذلك فرضا أدبيا وفطريا وعقليا ، فحين يكلمك عظيم من العظماء لصالحه هو دونك فهل يجدر بك أن تلهو عنه إلى غيره؟ فمالك حين يقرء القرآن لا تستمع له ولا تنصت ملتهيا إلى سواه؟ وهو لصالحك فقط دون صالح الله!

صحيح أنك حين تشتغل بواجب يشغلك عما سواه لا يفرض عليك استماع القرآن حيث يزول وجوبه إما حرجا أم تقديما لواجب أهم منه عليه كأن تصلي قارئا لواجباتها ، اللهم إلّا إذا أمكن الجمع كما فعله علي

---

(١) راجع الفرقان ٣٠ : ٢٤٩ ـ ٢٥٣ تجد تفصيلا لبحث حول حكم استماع القرآن على ضوء هذه الآية.

(عليه السلام) حيث سكت في صلاته مرات ثلاث احتراما للقرآن إذ كان يقرأه ابن الكوا وهو يندد به في آية الإشراك!

فمثل استماع القرآن كمثل سائر الواجبات التي تختلف حالاتها في دوران الأمر بينها وبين الأهم منها ، أم في حالة الحرج وما أشبه.

ذلك ، فالقرآن ككلّ أيا كان ومن أيّ كان يجب الاستماع له ، لا فقط سمعه ، وإنما ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ تقصّدا بسمع الأذن سمع القلب حتى يحلّق صوته ثم صيته على كيانك كله ، ثم «وانصتوا» فالاستماع دون إنصات كما الإنصات دونما استماع ليس هو كامل الفرض ، فإنه الجمع بينهما حيث القصد توحيد الاتجاه إلى القرآن لما يقرء ، كما توحد الله في الربوبية.

فهنا توحيد في الاستماع والإنصات للقرآن هو المأمور به ، وهناك إلحاد ألا يستمع له ولا ينصت ، وبينهما اشتراك أن يستمع له وينصت مع استماع لغيره وإنصات ، أو استماع دون إنصات أم إنصات دون استمتاع.

ثم ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ دون «إليه» أو «استمعوه» مما يدلنا على مغزى الاستماع ، فقد يستمع إليه ولا يستمع له كأن يسمع الصوت دون تأمل في معناه ، حيث القصد من الاستماع إليه هو الاستماع له ، فقد يستمع إلى كتاب الله هزء وتحريفا وتجديفا أم لا له ولا عليه ، و ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ تعني استماعا يليق بالقرآن ولصالحه إيمانا وتصديقا وتدبرا وتذكرا وتطبيقا ، أن يصبح المستمع له استماعا له بكل آذانه ، وإنصاتا بكل كيانه ، والإنصات ذريعة صالحة لصالح الاستماع له ، فإن «له» تعني اختصاص ذلك الاستماع بالقرآن ، دون إشراك له بسواه ، بل هو توحيد الاستماع بعد توحيده الإنصات ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ قدر الاستماع والإنصات له ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى﴾.

لا كمن ﴿يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ﴾ (٢ : ٧٥) ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ (٨ : ٢١) و ﴿ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٢١ : ٢)

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ (٦ : ٢٥) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً﴾ (٤٧ : ١٦).

فإنما القصد من ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ هو افتعال سمع الأذن لصالح التصديق والتطبيق ، فمن سمع الأذن إلى سمع الصدر والقلب واللب والفؤاد ، وإلى سمع الأقوال والأحوال والأفعال كلها ، حتى تصبح بكيانك ككلّ القرآن كلّه ، وكما أمر الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) أن يسمعهم هكذا : ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾(٤ : ٦٣).

وهذا هو المعني من السجود للقرآن حيث يندد بتركه المشركون ﴿فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ. وَإِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ﴾ فإنه عناية الخضوع استماعا وقراءة وفي كافة الحقول الأنفسية والآفاقية.

وفي رجعة أخرى إلى الآية نجد المناسبة التامة بين طامة الاستماع والإنصات الواجب للقرآن لمكان ﴿هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ﴾ فكما أن «هذا» يعني القرآن كله ، فإنه بصائر كله ، فلا بد من انفتاح الأبصار لرؤيته ، فالبصر عند قراءته استماعه والإنصات له ، ثم سائر الأبصار لسائر الإبصار حتى تحلّق بصائره على كل الأبصار.

وأما أن هناك القرآن البصائر ﴿رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وهو هنا عله رحمة إن استمعوا له وأنصتوا : ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ حيث الرحمة الأولى هي المبدئية للذين به يؤمنون ، ثم الرحمة المترقّبة هي الزائدة قدر المزيد من الاستماع والإنصات له ، فالقول إن الآية تخاطب فقط ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إنه كفر بها ، لا سيما وأنها في عداد الأوامر المتواترة المتتالية للنبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) والذين معه! والروايات المتظافرة انها نزلت بشأن الاستماع والإنصات في الصلوات الجهرية.

ومن الأحكام الفقهية المستفادة من الآية بعد وجوب الاستماع والإنصات له بصورة عامة ، أنه لا تجوز القراءة خلف الإمام الجاهر بها حيث تسمعها ، فإن واجب الاستماع والإنصات ليس لمجرد القراءة ،

حيث الإخفاتية خارجة عن حقل الاستماع ، فحين يمكن الاستماع للقرآن في صلاة وسواها وجب الاستماع ، وأما الهمهمة غير المسمعة للقرآن فليس استماعها استماعا للقرآن حتى يجب ، اللهم إلا تفتيشا عما يسمع منه فيسمع.

ذلك ، وإذا دار الأمر بين واجب الاستماع وواجب القراءة كما في الصلاة وما أشبه ، فالأهم هو الأهم إن لم يمكن الجمع بينهما ، كأن تقرء في صلاتك نفس ما يقرءه غيرك جهارا ، فهناك تقرء مستمعا لما يقرء.

أم تقرء غير ما يقرأه غيرك مع إمكانية الجمع بين قراءتك واستماعك فكذلك الأمر ، هذا ، ولكن المفروض ـ قدر الإمكان ـ التجنب عن هذه المآزق ، ابتعادا في قراءتك المفروضة عن مسمع سائر القراءة ، أم تأخيرا لصلاتك حين لا تتمكن من الابتعاد.

ذلك ، وفي تساوي الفرضين يتساوى الفرضان حيث تتخير بينهما ، وإذا تكرر فالتراوح قضية الاحتياط ، بل هو المفروض ، تقديما لأحدهما مرة وللآخر أخرى.

وقد يجوز الأمر بإخفات القارئ لتجد أنت مجالا لتحقيق فرضك ، فإن قراءتك مفروضة ، وليست قراءته في أصلها ـ فضلا عن الجهر بها ـ مفروضة ، وقضية تقديم الأهم على المهم هي الأمر بإخفات تلك القراءة غير المفروضة التي تناحر قراءتك المفروضة.

ذلك ، وفي رجعة ثالثة إلى الآية نجد في «له» اختصاصا في ذلك الاستماع بالقرآن ، ألا يشرك في استماعه غيره أيا كان وأيان ، اللهم إلا وجاه الأهم أم في ظروف محرجة مخرجة عن إمكانية الاستماع في وسع.

وهكذا الإنصات فإنه أيضا «له» قضية العطف ، فليكن المؤمن بالقرآن ، حين يقرء جهرا يسمع ، مستمعا له ومنصتا له بكل كيانه ، والخطوة الأولى هي الاستماع بظاهر الأذن والإنصات بلسانه ، ثم استماعا وإنصاتا بإذن الفطرة والعقلية السليمة ، وإلى اللب والقلب والفؤاد ، ولحدّ يصبح بكيانه كله استماعا له وإنصاتا له ، وهنا تتحقق الرحمة الطليقة قدر

الاستماع والإنصات الطليقين ، وقد سئل النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) عن قوله تعالى : ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ قال : يعني حركوا به القلوب ، ولا تتحرك القلوب بحراك القرآن إلا قضية صالح الاستماع له والإنصات له.

ذلك وإن الناس ليخسرون الخسارة العظمى التي لا يعوضها شيء بالانصراف عن القرآن ، فإن العكوف على هذا القرآن في استماع وإنصات فوعي وتدبر ، لينشئ في العقل والقلب من الرؤية البصيرة الواضحة ، البعيدة المدى ، القريبة الهدى ، ما لا تدانيه رياضة أخرى في أية روضة من الرياض.

وهنا ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ تعني رحمة زائدة متزايدة على ضوء الزيادة والتزايد من الاستماع للقرآن والإنصات له.

ذلك و «قراء القرآن ثلاثة : رجل قرأ القرآن فاتخذه بضاعة واستدر به الملوك واستطال به على الناس ، ورجل قرأ القرآن فحفظ حروفه وضيع حدوده ، ورجل قرأ القرآن ووضع دواء القرآن على دائه وأسهر به ليله وأظمأ به نهاره ، وأقام به في مساجده ، وتجافى به عن فراشه فبأولئك يدفع الله عز وجل البلاء ، وبأولئك يديل الله من الأعداء ، وبأولئك ينزل الله الغيث من السماء ، فو الله لهؤلاء في قراء القرآن أعز من الكبريت الأحمر» (١).

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ﴾(٢٠٥).

هنا «في نفسك» ذكر موعل في النفس ، محلّق عليها كلّها بحيث

(١) بحار الأنوار ٨٩ : ١٧٨ عن أبي جعفر (عليهما السلام) ، وفيه ١٧٩ عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : القراء ثلاثة : قارئ قرء ليستدر به الملوك ويستطيل به على الناس فذاك من أهل النار ، وقارئ قرأ القرآن فحفظ حروفه وضيع حدوده فذاك من أهل النار ، وقارئ قرء فاستتر به تحت برنسه فهو يعمل بمحكمه ويؤمن بمتشابهه ويقيم فرائضه ويحل حلاله ويحرم حرامه فهذا ممن ينقذه الله من مضلات الفتن وهو من أهل الجنة ويشفّع فيمن شاء.

تحشر النفس «ذكر ربك» فهذا هو موطن الذكر ومأمنه ، ثم ﴿تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ يحوّله إلى قال وحال أخرى ، قال دون الجهر اللهم إلّا إذا لزم الأمر كجهرية الصلاة ، أو رجح كأن تتذكر به أكثر أو تعلّم من سواك ، وكقراءة القرآن حيث يرجح الجهر بها إسماعا فاستماعا ، فالضابطة الأصيلة فيه هي ﴿دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ إذ لا تذكر أصم فتسمعه بجهر من القول ، وعل «اذكر» هنا هو خاص الذكر لخصوص المكلفين ، والقرآن والأذان وما أشبه هي من عامة الذكر الدعائي ، فليقرء القرآن جهارا لا إسرارا كما الأذان فإنه للإعلام ، وهكذا المواعظ والمدائح والخطابات المذكرة وأضرابها.

فلئن كان القصد من الجهر بذكر ربك رئاء الناس أم إسماع الله فمحظور محظور ، وإن كان إسماع الناس ليتذكروا كما أنت ، أم تعليما لهم أم إعلاما فمحبور محبور.

والأصل في ذكر ربك ـ تغاضيا عن ملابسات تفرض أو ترجح الجهرية ـ هو تحريك اللسان دون الجهر من القول مع حركة القلب ، فإذا نبست الشفاة مع الأرواح ، فليكن ذلك في صورة وسيرة لا تخدش الخشوع ولا تناقض الضراعة والبخوع ، بل هو صوت خفيض حفيظ دون صراخ وضجّة ، أو مكاء وتصدية أو غناء وتطرية ، وإنما هو ذكر يناسب «عند ربك» وكما يرضاه دون ما ترضاه وتهواه.

و ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ﴾ علهما زاويتان أصيلتان للأوقات كلها ، فإنهما بداية اليقظة ونهايتها وقد فرضت الصلاة أوّل فرضها فيهما ثم ازدادت في غيرهما ، أم هما عبارتان عن كافة الأوقات.

هذا قاله ، وأما حاله الأخرى بعد «في نفسك» فهي «تضرعا» أمام ربك بضراعة وتذلل وتبتّل «وخيفة» مما قدمت يداك ، ومن نفسك غير اللائقة بذلك الذكر ، وتلك الدعوة أمام ربك ﴿وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ﴾ في أي وقت من أوقاتك ، فليحشرك ذكر ربك قالا وحالا وأعمالا على أية

حال [1] ف :

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾(٢٠٦).

وهنا «عند ربك» تعني عندية الزلفى كما تناسب ربوبيته العليا لمكان «ربك» فهؤلاء السابقون المقربون هم «عند ربك» مكانة لا مكانا أو زمانا ، فلا مكانة لهم إلّا «عند ربك» ولا قال لهم ولا حال ولا أعمال إلّا «عند ربك» فهم ليسوا حضورا عند شيء أو عند أحد أم وعند أنفسهم إلا «عند ربك» فقد تخلّوا عما سوى «ربك» فتحلّوا ب «عند ربك» فهم ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ﴾ بذكره في أنفسهم تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال «وليسوا هم من الغافلين».

«ويسبحونه» دائبين «وله» لا لسواه «يسجدون» منقطعين إليه في غاية التذلل بكل كيانهم.

وهذه هي من آيات السجدة التي لا تحصر فيما حصروه في أربع ، بل هي بضع عشرة آية فإحدى عشرة سجدة [2] ولا سيما التي تأمر بالسجدة ، وعل الأربع هي مهامها ثم تمامها.

---

(١) الدر المنثور ٣ : ١٥٧ . أخرج البزار والطبراني عن ابن مسعود عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) قال : ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل عن الفارين ، وفيه عن ابن عمرو أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) قال : الغفلة في ثلاث عن ذكر الله ومن حين يصلّى الصبح إلى طلوع الشمس وان يغفل الرجل عن نفسه في الدين حتى يركبه.

(٢) المصدر أخرج ابن ماجة والبيهقي في سننه عن أبي الدرداء قال : سجدت مع النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) إحدى عشرة سجدة ليس فيها من المفصل شيء : الأعراف والنحل وبني إسرائيل ومريم والحج سجدة والفرقان وسليمان سورة النمل والسجدة وص وسجدة الحواميم.

سورة الأنفال مدنيّة

وهي خمس وسبعون اية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ
وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذا
تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ
يُنْفِقُونَ (٣) أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾(٤)

«سورة الأنفال» سمّيت بها حيث ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ﴾ وإنها هي الوحيدة في القرآن حول الأنفال ، ما تختص بالقيادة الإسلامية السامية ، وليست لتختص بأشخاص خصوص حكومة أو شعبا ، إنما هي لصالح الحكم الإسلامي حيث تصرف في المصالح العامة الراجعة ـ ككل ـ إلى الكتلة المؤمنة.

﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١).

هنا «يسألونك» مضارعة ، دون «سألوك» ماضية ، مما تلمح لاستمرارية السؤال عن الأنفال ، منذ السؤال الأول حتى يوم الدين ، والجواب : ﴿قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ إجابة وافية للمتساءلين حوله إلى يوم الدين.

فالضرائب المستقيمة الإسلامية حسب القرآن هي أربع : هنا الأنفال فقط ﴿لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ صرفا في الدعاية التوحيدية والرسولية ، وتحكيما لعراهما ، ثم الفيء الذي عديد مستحقيه هو كعديد مستحقي الخمس ـ إن كان الخمس حقا سوى الزكاة ـ : ﴿وَما أَفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ وَلكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. ما أَفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ (٥٩ : ٧).

فمقسم الفيء والخمس هو الستة ، ومقسم الأنفال اثنان ، ثم مقسم الزكاة ثمانية ، ولا اشتراك بينها وبين ست الخمس إلا في المساكين وابن السبيل ، فتبقى ستة من مقسم الزكاة غير مذكورة في مقسم الخمس ، كما أن أربعة من مقسم الخمس غير مذكورة في الزكاة ، أم إن الخمس ضريبة أخيرة من أنصبة الزكاة نسختها وكما يأتي تفصيله في آية الخمس.

فعلى أية حال قد تختلف الأنفال عن سائر الضرائب مصرفا وعديدا ،

كما اختلفت مادة ومديدا.

فمادة الأنفال ـ وهي الزوائد من الأموال التي لا تختص بناس خصوص على أية حال ـ هي البحار والأنهار والصحاري والغابات وبطون الأودية والجبال (١) وما أشبه من عامة الأموال ، التي لم تحصل بسعي ، بل هي من خلق الله كما خلق ، أم لا مالك له بالفعل مهما حصل بسعي سابق لمالك سابق.

فمن الأنفال ميراث من لا وارث له (٢) ، كما منها الأموال المتروكة المعرض عنها (٣) وما أشبههما مما حصل بسعي وليس له مالك بالفعل ، والأراضي المفتوحة عنوة بغير قتال مهما كانت ـ كأصل ـ من الأنفال ، ولكنها مخصصة بآية الفيء ، وتبقى الأراضي وما أشبه ، التي تركها أهلوها ، خربت أم هي بعد عامرة.

إذا فنحن مع حرفية النص «الأنفال» نمشي معها كما تمشي ، فإنها هي الأموال الزائدة ، غير المفروضة لأحد ، حيث الأموال الخاصة هي مفروضة لأصحابها ، فلا تدخل في عامة الأموال وأنفالها حتى تختص بصالح القيادة الرسولية والرسالية.

وترى «يسألونك» سؤال لأخذ الأنفال لمكان (أَصْلِحُوا ذاتَ

---

(١) نور الثقلين ٢ : ١١٨ في أصول الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : الأنفال ما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب أو قوم صالحوا أو قوم أعطوا بأيديهم وكل أرض خربة وبطون الأودية فهو لرسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وهو للإمام بعده يضعه حيث يشاء.

(٢) المصدر عن الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الرجل يموت ولا وارث له ولا مولى قال : هو أهل هذه الآية (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ) وفي أخرى عنه (عليه السلام) قال : من مات ليس له مولى فماله من الأنفال.

(٣) المصدر عن إسحاق بن عمار قال سألت أبا عبد الله عن الأنفال فقال : هي القرى التي قد خربت وانجلى أهلها فهي لله والرسول وما كان للملوك فهو للإمام وما كان من أرض خربة لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب وكل أرض لا رب لها والمعادن ومن مات وليس له مولى فماله من الأنفال.

﴿بَيْنِكُمْ﴾؟ [(١)] وصيغته ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ﴾! أم سؤال عن مادة الأنفال وحكمها ومصرفها؟ و ﴿قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ تلمح انه سؤال لأخذ الأنفال! ، أم مصرفها.

علّ السؤال ـ قضية الأمرين ـ هو عن الأمرين ، و «عن» يؤكد السؤال عن مادة الأنفال وحكمها ومصرفها مهما كان ـ أيضا ـ سؤالا إياها ، قضية ﴿وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ﴾ فلأن الأنفال كانت معلومة المادة ومجهولة المورد والحكم ، لذلك اختص الجواب بالثاني ، وقد تعني لام التعريف تعريفا بأنفال سالفة الذكر على لسان الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) ، فصحيح أن الأنفال مطلقة تشمل كل زائد عن حاجيات الحياة ، إلا أن تعريفها يعرّفها أن لها عهدا بين المسلمين ولا نجد لها عهدا إلّا في الأموال التي ليس لها أصحاب خصوص ، ففي كل حاجة من حاجيات الحياة فرائض وأنفال ، ولكن المعني من الأنفال هنا ما عنته السنة وعرّفته دون سائر الأنفال.

ولأن «الأنفال» من النفل وهو الزائد ، فالأنفال في حقل الأموال هي الزائدة عن المساعي كالتي لا مالك لها خاصا ، أم عايدة بمساعي وسواها ثم طرء عليها عدم مالك لها كميراث من لا وارث له ، أم الأموال التي أعرض عنها أصحابها [(٢)] وأما الزوائد عن الحاجات المتعودة فيما حصلت بمساعي

---

(١) المصدر ٢ : ١١٧ في تهذيب الأحكام في مرفوعة بعض أصحابنا «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ» أن تعطيهم منه قال «قل الأنفال لله وللرسول وليس هو يسألونك عن الأنفال».

أقول : علّه ينفي اختصاص السؤال بمادة السؤال ، ولقد غلط من قال قد صح أن قراءة أهل البيت ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ﴾ كما في البحار (١٩ : ٢١١) وفي جامع الجوامع للطبرسي. قرأ ابن مسعود وعلي بن الحسين زين العابدين والباقر والصادق (عليهم السلام) : يسألونك الأنفال.

(٢) مما يوافق الآية موثقة إسحاق بن عمار المروية في تفسير القمي عن الأنفال فقال : هي القرى التي قد خربت وانجلى أهلها فهي لله وللرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) وما كان للملوك فهو للإمام وما كان من الأرض الخربة لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب وكل أرض لا رب لها والمعادن منها من مات وليس له مولى فماله من الأنفال ، والمروي في ـ

كما عنتها «العفو» في : ﴿يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ (٢ : ٢١٩) فلأنها غير محصورة ب ﴿لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فلأصحابها إنفاقها في مختلف الحاجات والمحاويج فلا تشملها «الأنفال» بدليل اختصاصها بالله والرسول.

وهل المعادن من الأنفال؟ كونها من واقع الأنفال يحسبها منها ، ومختلف الرواية حولها معروض على عموم الآية ، فليست المعادن ـ إذا ـ مما يجب فيه الخمس ، بل هي كسائر الأنفال لله والرسول.

وهكذا الكنوز وما أشبه من أموال لا يعرف لها مالك خاص ، فانحساب المعادن والكنوز مما يجب فيه الخمس يطارد آية الأنفال.

وقطائع الملوك هي من الأنفال فإنهم لا يملكونها لكونها من الأنفال أم مجهولة المالكين [1] ، وكذلك الأراضي أو البلاد التي سلّم للمسلمين دون حرب ، إذا فبين الفيء والأنفال والخمس بون ، حيث يختص الفيء بما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب والأنفال تعم كل الأنفال ، والخمس بما غنمتم من شيء ، فالمعادن والكنوز ليست من موارد الخمس.

وليست آية الخمس ـ الآتية ـ بالتي تنسخ آية الأنفال ، بل هي تخصّص بها بغير الأنفال ، لا سيما وأن المحتمل قويا ـ كما يأتي ـ كون الخمس ضريبة ناسخة لأنصبة الزكوة في السنة كما لا تنسخها آية الفيء ، فالأنفال عامة لعموم آيتها ، ثم تخصص بالفيء كما تتخصص بها الخمس خروجا للمعادن والكنوز عنه إلى الأنفال.

إن موضوع الخمس ﴿أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ والغنيمة تباين «الأنفال»

ـ تفسير العياشي عن أبي بصير وما الأنفال؟ قال : منها المعادن والآجام ـ الحديث.

ومما يخالفها هي التي تعد المعادن مما يجب فيه الخمس ، كما عن تفسير النعماني باسناده عن علي (عليه السلام) قال : الخمس يجري من أربعة وجوه من الغنائم التي يصيبها المسلمون من المشركين ومن المعادن ومن الكنوز ومن الغوص.

(١) وتدل عليه صحيحة داود بن فرقد قال قال أبو عبد الله (عليه السلام): «قطائع الملوك كلها للإمام وليس للناس فيها شيء» (التهذيب ١ : ٣٨٨).

فإنها خارجة عن المساعي مغنما سواه ، وموضوع الفيء هو الفيء ، فلا تناسخ ـ إذا ـ بين هذه الثلاثة ، وإنما لكلّ موضوعه الخاص وحكمه دون تدخل لبعض في بعض أو تداخل.

إذا ف «الأنفال» ـ باستثناء الفيء ـ هي كلها لله والرسول ، تصرف في صالح الدعوة التوحيدية والرسولية والرسالية ، فهي بيد الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) يصرفها في صالح الرسالة الإسلامية كما يراه صالحا ، ثم خلفاءه المعصومون (عليهم السلام) كلّ تلو الآخر ، ومن ثم الشورى من الرعيل الأعلى في العلماء الربانيين ، فالمصرف هو المصرف مهما كان الصارف في مثلث مترتب تلو بعض.

ومهما نزلت سورة الأنفال في جو بدر الكبرى وغزوته بملابساتها الخاصة ، ولكنها ليست ـ على أية حال ـ بأنفال بدر فقط ، قضية جمعها المحلى باللّام حيث يفيد الاستغراق.

ذلك ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ﴾ وذلك هتاف عطاف لهذه القلوب المتنازعة المتفللة غير المتنفلة حول الأنفال ، من هؤلاء الأغفال الذين كانوا يتهافتون على الأنفال.

ومن حصائل تقوى الله وإصلاح ذات البين طاعة الله ورسوله : ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بالله ورسوله ، ومتقين حرمات الله ورسوله.

وإصلاح ذات البين هو من هامة الفرائض الإيمانية ، محاولة جماهيرية من كافة الأطراف المعنية لإصلاح الفاسد فيما بينهم حيث بزغ الشيطان ونزغ بينكم ، ف ﴿قُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ (١٧ : ٥٣). ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ (٤ : ١٢٨).

والله هو المصلح بيننا بما نسعى ونصلح في الآخرة [١] والأولى.

---

(١) في الدر المنثور ٣ : ١٦٢ عن أنس قال قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم): إذا ـ

ولكنه ﴿لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وقد تعني ﴿ذاتَ بَيْنِكُمْ﴾ إلى مختلف الأطراف المتنازعة ، ذوات الأنفس ، حيث الاختلاف بين العقل والنفس ، بل وإصلاح النفس هو قبل إصلاح ذات البين لآخرين.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(٢).

هنا مثلث وجل القلوب ، وزيادة الإيمان ، والتوكل على الرب ، هي المحاصيل الأصيلة لصالح الإيمان.

١ ف ﴿إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ حيث يدخل ذكر الله من مسامعهم إلى عقولهم ومنها إلى قلوبهم فهي وجلة من عظم الموقف من ربهم حيث يجدونه حاضرا في قلوبهم ، فيغيب عنها كل ما سوى الله حيث احتل مجالاتها ذكر الله.

وترى كيف ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؟ والإذاعة القرآنية تعلن ﴿أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾!

هنا ﴿تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى الله ، وهناك ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ عما سوى الله ، حيث تجلت بذكر الله ، وجل من أن تحل في قلوبهم ذكر غير الله مع الله ، ووجل من عظمة الله ، ثم تحلّ كامل فيها لذكر الله ، فاطمئنان. إذا. بذكر الله ، كما ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللهِ﴾ (٣٩ : ٢٣).

فالوجل والقشعريرة هما حالتان سلبيتان للقلوب تخلية لها عما سوى الله ، ثم الاطمئنان لها بذكر الله حالة إيجابية تمثيلا للكلمة ﴿لا إِلهَ إِلَّا اللهُ﴾ مهما كان للوجل حالة أخرى إيجابية تجتمع مع الاطمئنان وهي الشعور بعظم الموقف الرهيب أمام الله.

فليس الله ليوجل ويخاف إلا من عدله ومن عظم محتده ، وذلك

.كان يوم القيامة نادى مناد يا أهل التوحيد إن الله قد عفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض وعليّ الثواب.

الوجل الثاني هو الوسيط بين الأول وبين اطمئنان القلوب بذكر الله ، وهو يعيش ذلك الاطمئنان ومن حصائل ذلك الوجل الجلل والطمأنة :

٢ ﴿وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً﴾ حيث تجلو القلوب بتلاوة آيات الله إذ تحل فيها وتحتل القمة منها ف ﴿زادَتْهُمْ إِيماناً﴾ على إيمانهم ، ف ﴿الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ﴾ (٤٧ : ١٧) بتلاوة آياته سمعا وعقلا وعلما وطاعة بكاملها.

هنا «تليت» وليست «قرأت» مما يلمح بأن ذلك من خواص التلاوة المتبعة ، كما وان مهمة الرسالة الإسلامية هي ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ﴾ دون «أقرء» حيث التلاوة هي المتابعة.

وقد تعني ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾ (٤ : ٦٣) هذه التلاوة الصالحة المصلحة التي يتلوها ﴿زادَتْهُمْ إِيماناً﴾.

فقد يحصل حاصل الإيمان الزائد بفاعلية «تليت» وقابلية القلب المتلوّ عليه ، فأما إذا فقد القابلية بسوء الاستقبال أم عدم تصميمه في صميمه فلا محصل للقلب قطعا ، وفي القابلية . وحتى مع نقص الفاعلية . له محصل مهما اختلفت الدرجات ، فوا ويلاه إذا ضعف الطالب والمطلوب ، نقصانا في الفاعلية والقابلية.

و «آياته» جمعا مضافا تستغرق إلى الآيات التدوينية ، الأخرى التكوينية ، فحين تتلى تبينا عليه هذه الآيات زادته إيمانا كما زادته آياته التشريعية إيمانا.

وهذه التلاوة المباركة لطليق آياته تسمعه ما يحرضه على زائد الإيمان سمعا ثم عقلا وتدبرا ثم علما ثم عقيدة ثم تطبيقا شخصيا ثم نشرا وبلاغا.

٣ ومن ثم ﴿وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في الحصول على مزيد الإيمان وصالح أعمال الإيمان ، دونما اتكالية خاوية عن مساعي ، أم توكل دون معداته.

ولقد ذكر الإمام أمير المؤمنين لأهل الذكر ذكرا جميلا ما أجمله ، قاله عند تلاوته ﴿رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ : إن الله

سبحانه وتعالى جعل الذكر جلاء للقلوب ، تسمع به بعد الوقرة ، وتبصر به بعد الغشوة ، وتنقاد به بعد المعاندة ، وما برح لله ـ عزت آلاءه ـ في البرهة بعد البرهة ، وفي أزمان الفترات عباد ناجاهم في فكرهم ، وكلمهم في ذات عقولهم ، فاستصبحوا بنور يقظة في الأبصار والأسماع والأفئدة ، يذكّرون بأيام الله ويخوّفون مقامه ، بمنزلة الأدلة في الفلوات ، من أخذ القصد حمدوا إليه طريقه ، وبشروه بالنجاة ، ومن أخذ يمينا وشمالا ذمّوا إليه الطريق ، وحذروه من الهلكة ، وكانوا كذلك مصابيح تلك الظلمات ، وأدلة تلك الشبهات .

وإن للذكر لأهلا أخذوه من الدنيا بدلا ، فلم تشغلهم تجارة ولا بيع ، يقطعون به أيام الحياة ، ويهتفون بالزواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين ، يأمرون بالقسط ويأتمرون به وينهون عن المنكر ويتناهون عنه ، فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها فشاهدوا ما وراء ذلك ، فكأنما اطلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه ، وحققت القيامة عليهم عذابهم ، فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس ، ويسمعون ما لا يسمعون (الخطبة ٢١٣).

ولأن أصل الذكر هو في القلوب فخير الذكر هو في أوعى القلوب وكما قال لكميل بن زياد : «يا كميل! إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها فاحفظ عني ما أقول لك : الناس ثلاثة ، فعالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا ينور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق .

اللهم بلى ، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة ، إما ظاهرا مشهورا ، وأما خائفا مغمورا ، لئلا تبطل حجج الله وبيناته ، وكم ذا وأين؟ أولئك والله الأقلون عددا ، والأعظمون عند الله قدرا ، يحفظ الله بهم حججه وبيناته حتى يودعوها نظراءهم ، ويزرعوها في قلوب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة ، وباشروا روح اليقين ، واستلانوا ما استوعره المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى ، أولئك خلفاء الله في أرضه ،

والدعاة إلى دينه ، آه آه شوقا إلى رؤيتهم ، انصرف يا كميل إذا شئت» [١]

يا كميل! العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق ، وصنيع المال يزول بزواله .

يا كميل بن زياد! معرفة العلم دين يدان به ، به يكسب الإنسان الطاعة في حياته ، وجميل الأحدوثة بعد وفاته ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه .

يا كميل بن زياد! هلك خزان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة ، ها أن هاهنا لعلما جما لو أصبت له حملة ، بلى أصبت لقنا غير مأمون عليه مستعملا آلة الدين للدنيا ، ومستظهرا بنعم الله على عباده ، وبحججه على أوليائه ، أو منقادا لحملة الحق لا بصيرة له في أحنائه ، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة ، ألا لا ذا ولا ذاك ، أو منهوما باللّذة ، سلس القياد للشهوة ، أو مغرما بالجمع والادخار ، ليسا من رعاة الدين في شيء شبها بهما الأنعام السائمة ، كذلك يموت العلم بموت حامليه .

«إنما» هؤلاء الأكارم هم «المؤمنون» شرط أن يكونوا من :

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾(٣).

رباط أوّل بالله بإقام الصلاة التي هي عمود الدين وعماد اليقين ، ورباط ثان بالإنفاق لأهل الله في الله ﴿وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ﴾ ما يمكن إنفاقه مالا وحالا : علما وعملا صالحا وعقيدة «ينفقون» دون رجاء لجزاء أو شكور إلا ابتغاء وجه الله ، ف :

---

(١) الحكمة ١٤٠ قال كميل بن زياد : أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) فأخرجني إلى الجبّان ، فلما أصحو تنفس الصّعداء ثم قال : ...

﴿أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾(٤).

فحق الإيمان وحاقّه ودرجات عند الرب ومغفرة ورزق كريم ، ليست إلّا على ضوء الواقع من ذلك المخمس البارع ، ثم من دون هؤلاء هم دونهم في الإيمان والدرجات والمغفرة والرزق الكريم ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى﴾ و «بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله وبالنقصان دخل المفرطون النار»[1].

ولقد تقدمت هنا أفعال القلوب الثلاث على أفعال القوالب الإثنين في الذكر ، قضية تقدمها في صالح الترتيب واقعيا ، فما لم يعمّر القلب لم يعمّر القالب.

فالخطوة الأولى من الأولى هي ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ بجانبي السلب والإيجاب ، والثانية ﴿زادَتْهُمْ إِيماناً﴾ وهي جانب الإيجاب ، والثالثة ﴿عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في كلا السلب والإيجاب ، ابتداء بذكر الله وانتهاء إلى التوكل على الله ، وهم على طول الخط يعيشون الإيمان بالله ، متكاملا متكافلا على مدار الحياة في سبيل الله.

ومن محاصيل هذه الخطوات القلبية الثلاث كظاهرة أولى في العمل : إقام الصلاة. ومن ثم الإنفاق من رزق الله ، ف ﴿أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

---

(١) نور الثقلين ٢ : ١٢١ في أصول الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قال : ... وفي الدر المنثور ٣ : ١٦٢ ـ أخرج الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري انه مر برسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فقال له كيف أصبحت يا حارث؟ قال : أصبحت مؤمنا حقا ، قال : انظر ما تقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ فقال : عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي واظمأت نهاري وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها ، قال : يا حارث عرفت فالزم ثلاثا.

وقد تختصر هذه الخمس في : ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ كما العكس هو عكسه : ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ﴾ (٢٢ : ٥١).

وهنا ـ قضية مختلف الدرجات لذلك المخمس وعامليها ﴿دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ مقسّمة فيما بينهم حسب درجاتهم في هذه الخطوات الخمس دونما فوضى جزاف ، كما والعندية الزلفى أيضا «درجات» درجات حسب الدرجات ولا يظلمون فتيلا.

﴿كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ (٥) يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَما جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ

إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ وَلِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ (١٢) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ (١٣)

﴿كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ﴾(٥).

ترى وإلى م يرجع التشبيه في ﴿كَما أَخْرَجَكَ﴾ ثم الذين كفروا هم الذين أحرجوه حتى أخرجوه بالباطل ، فكيف ـ إذا ـ ﴿أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾؟ : ف ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ﴾ (٩ : ٤٠)! لأن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) كان في أعلى قمم التقوى ، وجلا قلبه بذكر الله ، زائدا إيمانه إذا تليت عليه آيات الله أو تلي

آيات الله ، متوكلا ـ على أية حال ـ على الله ، مقيما للصلاة ومنفقا مما رزقه الله في الله ، لذلك فعلى الله ألا يكله إلى نفسه وان يرعاه بخاصة رعايته ، وإخراجه من بيته مهما كان بإخراج المشركين تصميما لقتله ، ولكن ـ من ناحية أخرى ـ إخراج من الله إلى الغار حيث أعماهم كيلا يروه ، خلاصا عن قتلهم إياه ، وإلى المدينة حتى بعد عدّته ، ويمضي مدته خلال عشرة كاملة فيرجع إلى بيته عزيزا منتصرا ، ثم إخراجا منه للبدر الكبرى كانتصار أول له بعد الهجرة ، فمهما كان ذلك الإخراج من المشركين بالباطل قضية تصميمهم على قتله ، فقد كان من الله بالحق ، بل إنهم ما أخرجوه في مكرهم اللعين ، بل صمموا على قتله فأخرجه الله تخليصا له عن كيدهم أولا ، وتأسيسا لدولة الإسلام في مهجره أخيرا ، ثم رجوعا إلى العاصمة منتصرا.

فنسبة الإخراج إلى الذين كفروا نسبية فإنه ـ فقط ـ إحراج بتصميم قتله فأخرجه الله ، ثم نسبته إلى الله واقعية حقيقية حيث نجاه به من بأسهم.

فهو ـ إذا ـ إخراج من ربك بالحق ، قضية التربية القمة الخاصة بك ، حيث يريد الله تكميل رسالتك وبلاغ دعوتك ، ولأنها لم تكن لتتم في ذلك الجو المحرج المكي ، فقد أخرجه الله إلى المدينة استتماما لدعوته واستكمالا لبقيته ، وكما أخرجك ربك من بيتك بالحق يوم بدر.

ذلك ، رغم «إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ» ذلك الإخراج ، بقصر النظر إلى ظاهر الإحراج وحاضره الوبيء ، دون نظرة إلى صالح الحاضر فرارا عن بأسهم ، وصالح المستقبل استرجاعا للعاصمة بكل قوة.

فحين يرى الداعية أن جو الدعوة الحاضر صعب صلب صلت ، وقد يقضى على دعوته فيه أو يصد عنها ، فصالح الدعوة أن يتنقل بحياته وحياة الدعوة إلى جو آخر يستكمل فيه عدته وعدته لردح صالح من الزمن ، ثم إذا رأى كفاحا صارما في بنيته بأنصاره يرجع إلى عاصمة الدعوة قويا صارما منتصرا وكما فعله الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) بما أخرجه الله من بيته بالحق.

ذلك إخراج بالحق هجرة ، ثم إخراجات أخرى كما أخرجك ربّك من المدينة لحرب بدر ﴿وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ﴾ كراهة لمعركة دموية خطيرة ، حيث يرون عدم المكافحة في عدة ولا عدة ، فإنهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا والمشركون ألف أو يزيدون ، وكما كانوا كارهين اختصاص الأنفال بالله والرسول ، فبين الكراهتين تشابه موردهما في الحق لصالحهم أنفسهم.

ف ﴿كَما أَخْرَجَكَ﴾ في التأويل الأول ، هي كما أخرجناه ، وفي الثاني قد يعني : أن الله خصك بعد نفسه تعالى بالأنفال ، كما خصّك أن ﴿أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾. فلو لا أن الله أخرجه يوم بدر لم يحصل ذلك الفتح المبين ، جبرا لكسر إخراجه من العاصمة بعد ثمانية عشر شهرا من مهجره.

﴿يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾(٦).

هؤلاء الكثيرة الكارهة لخروجك عن العاصمة عند الهجرة ، وخروجك عن المدينة إلى بدر ﴿يُجادِلُونَكَ فِي﴾ ذلك ﴿الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ﴾ لهم بما أخرجك ربك وحيا فارضا ﴿كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ حيث يرونهم قلة وأعداءهم كثرة كثيرة ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ إلى مضاجعهم في هذه الحرب الحرجة الخطيرة المرجة [1].

---

(١) روي الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره باسناده عن ابن أيوب الأنصاري قال : قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) ونحن بالمدينة : إني أخبرت عن عير أبي سفيان بأنها مقبلة فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله أن يغنمناها؟ فقلنا : نعم فخرج وخرجنا فلما سرنا يوما أو يومين قال لنا : ما ترون في قتال القوم؟ إنهم قد أخبروا بخروجكم؟ فقلنا : لا والله ما لنا طاقة بقتال العدو ، ولكنا أردنا العير ، ثم قال : ما ترون في قتال القوم؟ فقلنا مثل ذلك ، فقال المقداد بن عمرو : إذن لا نقول لك يا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) كما قال قوم موسى لموسى : ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ﴾ فتمنينا معشر الأنصار أن لو قلنا كما قال المقداد بن عمر أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم ، قال : فأنزل الله على رسوله (صلّى الله عليه وآله وسلم) ﴿كَما أَخْرَجَكَ﴾.

. وفي البحار ١٩ : ٢١٥ قال أصحاب السير وذكر أبو حمزة وعلي بن إبراهيم في تفسيرهما دخل حديث بعضهم في بعض : أقبل أبو سفيان بعير قريش من الشام وفيها أموالهم وهي اللطيمة فيها أربعون راكبا من قريش فندب النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) أصحابه للخروج إليها ليأخذوها وقال : لعل الله أن ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم ولم يظنوا أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) يلقى كيدا ولا حربا ، فخرجوا لا يريدون إلا أبا سفيان والركب لا يرونها إلا غنيمة لهم فلما سمع أبو سفيان بمسير النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة وأمره أن يأتي قريشا فيستنفرهم ويخبرهم أن محمدا قد تعرض لعيرهم في أصحابه فخرج ضمضم سريعا إلى مكة وكانت عاتكة بنت عبد المطلب رأت فيما يرى النائم قبل مقدم ضمضم بن عمرو بثلاث ليال أن رجلا أقبل على بعير له ينادي يا آل غالب اغدوا إلى مصارعكم ثم وافى بجمله على أبي قبيس فأخذ حجرا فدهدهه من الجبل فما ترك دارا من دور قريش إلا أصابته منه فلذة فانتبهت فزعة من ذلك فأخبرت العباس بذلك فأخبر العباس عتبة بن ربيعة فقال عتبة هذه مصيبة في قريش وفشت الرؤيا فيهم وبلغ ذلك أبا جهل فقال : هذه بنية ثانية في بني عبد المطلب واللات والعزى لننظرن ثلاثة أيام فإن كان ما رأت حقا وإلا لنكتبن كتابا بيننا انه ما من أهل بيت من العرب أكذب رجالا ولا نساء من بني هاشم ، فلما كان اليوم الثالث أتاهم ضمضم يناديهم بأعلى الصوت يا آل غالب يا آل غالب اللطيمة اللطيمة العير العير أدركوا وما أراكم تدركون ، ان محمدا والصباة من أهل يثرب قد خرجوا يتعرضون لعيركم فتهيأوا للخروج وما بقي أحد من عظماء قريش إلا أخرج مالا لتجهيز الجيش وقالوا : من لم يخرج نهدم داره ، وخرج معهم العباس بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب واخرجوا معهم القيان يضربون الدفوف وخرج رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا فلما كان بقرب بدر أخذ عينا للقوم فأخبره بهم .

وفي حديث أبي حمزة الثمالي بعث رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) عينا له على العير اسمه عدي فلما قدم على رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فأخبره أين فارق العير نزل جبرئيل على رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فأخبره بنفير المشركين من مكة فاستشار أصحابه في طلب العير وحرب النفير فقام أبو بكر فقال : يا رسول الله إنها قريش وخيلاءها ما آمنت منذ كفرت ولا ذلت منذ عزت ولم تخرج على أهبة الحرب .. وأنا عالم بهذا الطريق فارق عديّ العير بكذا وكذا وساروا وسرنا فنحن والقوم على بدر يوم كذا وكذا كأنّا فرسا رهان ، فقال (صلّى الله عليه وآله وسلم) : أجلس فجلس ثم قام .

ـ المقداد فقال : يا رسول الله إنها قريش وخيلاءها وقد آمنا بك وصدقنا وشهدنا أن ما جئت به حق والله لو أمرتنا أن نخوض جمر الغضا وشوك الهراس لخضناه معك ، والله لا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ﴾ ولكنا نقول : امض لأمر ربك فإنا معك مقاتلون فجزاه رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) على قوله ثم قال : أشيروا عليّ أيها الناس ـ وإنما يريد الأنصار ـ لأن أكثر الناس منهم ولأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : إنا براء من ذمتك حتى نصل إلى دارنا ، ثم أنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع آباءنا ونساءنا فكان يتخوف أن لا يكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا على من دهمه بالمدينة من عدو وأن ليس عليهم أن ينصروه بخارج المدينة ، فقام سعد بن معاذ فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله كأنك أردتنا؟ فقال : نعم ، فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله إنا قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به حق من عند الله فمرنا بما شئت وخذ من أموالنا ما شئت وأترك منها ما شئت والله لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخضناه معك ولعل الله أن يريك ما تقربه عينك ، فسر بنا على بركة الله ففرح بذلك رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وقال : سيروا على بركة الله فإن الله وعدني إحدى الطائفتين ولن يخلف الله وعده والله لكأني أنظر إلى مصرع أبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وفلان وفلان وأمر رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) بالرحيل وخرج إلى بدر وهو بئر ـ

وأقبلت قريش وبعثوا عبيدها ليستقوا من الماء فأخذهم أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وقالوا لهم : من أنتم؟ قالوا : نحن عبيد قريش ، قالوا : فأين العير؟ قالوا : لا علم لنا بالعير ، فأقبلوا يضربونهم وكان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) يصلي فانفتل من صلاته وقال : إن صدقوكم ضربتموهم وان كذبوكم تركتموهم فأتوه بهم فقال لهم : من أنتم؟ قالوا يا محمد نحن عبيد قريش ، قال : كم القوم؟ قالوا : لا علم لنا بعددكم قال : كم ينحرون كل يوم من جزور؟ قالوا : تسعة إلى عشرة ، فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) : القوم تسعمائة إلى ألف رجل فأمر (صلّى الله عليه وآله وسلم) بهم فحبسوا وبلغ ذلك قريشا ففزعوا وندموا على مسيرهم ولقى عتبة بن ربيعة أبا البختري بن هشام فقال : أما ترى هذا البغي والله ما أبصر موضع قدمي خرجنا لنمنع عيرنا وقد أفلتت فجئنا بغيا وعدوانا والله ما أفلح قوم بغوا قط ولوددت ما في العير من أموال بني عبد مناف ذهبت ولم نسر هذا المسير فقال له أبو البختري : إنك سيد من سادات قريش فسر في الناس وتحمل العير التي أصابها محمد (صلّى الله عليه وآله وسلم) وأصحابه بنخلة ودم ابن الحضرمي فإنه حليفك ، فقال له : علي ذلك وما على ـ

وهنا نعرف أن التكتيكات الحربية إلى سائر التصرفات الرسالية ، كانت كلها بوحي من الله وكما قال الله ﴿إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللهُ﴾ (٤ : ١٠٥) فحاكميته الرسالية في كل حقولها ليست إلّا بما أراه الله دون رأيه أم آراء المسلمين.

ومهما استشار الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) في ظاهر الحال أصحابه في مواجهة النفير أو العير وأكثرهم كانوا مع العير خائفين عن النفير كأبي بكر وأضرابه ، ولكن قلة قليلة كمقداد وأضرابه تقول «امض لأمر ربك فإنا معك مقاتلون» ولكنه كان ماضيا بأمر الله على أية حال حيث ﴿يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ. لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

ذلك والمجادلة بين محظورة ومحبورة [1] والمحظورة هي المجادلة

. أحد منا خلاف إلا ابن الحنظلة يعني أبا جهل ، فصر إليه وأعلمه أني حمّلت العير ودم ابن الحضرمي وهو حليفي وعلي عقله ، قال : فقصدت خباه وأبلغته ذلك فقال : ان عتبة يتعصب لمحمد فإنه من بني عبد مناف وابنه معه ويريد أن يخذل بين الناس ، لا واللّات والعزى حتى نقحم عليهم يثرب ، أو نأخذهم أسارى فندخلهم مكة وتتسامع العرب بذلك وكان أبو حذيفة بن عتبة مع رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وكان أبو سفيان لما جاز بالعير بعث إلى قريش قد نجى الله عيركم فارجعوا ودعوا محمدا والعرب وادفعوه بالراح ما اندفع وان لم ترجعوا فردّوا القيان ، فلحقهم الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) في الجحفة فأراد عتبة أن يرجع فأبى أبو جهل وبنو مخزوم وردوا القيان من الجحفة ، قال : وفزع أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) لما بلغهم كثرة قريش واستغاثوا وتضرعوا فأنزل الله : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾.

(١) يروى عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) أنه قال : «نحن المجادلون في دين الله» وقد نهي عن الجدل والاختلاف ، وهو الجدل في الحق لإبطاله أو التشكيك فيه دون عناية لإيضاحه وتحقيقه كما في مفتاح كنوز السنة تحت عنوان «النهي عن الجدل والاختلاف» عن بخ ـ ك ٩٦ ب ٢ و ٣ و ٢٦ ، مس ـ ك ٤٣ ح ١٣٢ و ١٣٤ ، ك ٤٨ ح ٥ ، بد ـ ك ٣٩ ب ٤ ، قا ١٨ ، مج ـ المقدمة ب ٧ و ١٠ ، مي ـ المقدمة ب ٢٨ و ٣٤ ، حم ـ أول ص ٤٥٧ ، ثان ص ٣١٧.

وتحت عنوان «ما يهدم الإسلام من الجدل» عن مى ـ المقدمة ب ٢٢ ، وتحت عنوان ما .

في الحق نكرانا له ، والمحبورة هي المجادلة تصديقا إياه.

والمجادلة في الحق بعد التبين أشد حظرا منها بغير علم كما ﴿يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ﴾ ومن ثم بغير علم : ﴿ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ (٣ : ٦٦) وأنحس منهما المجادلة لدحض الحق : ﴿وَيُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ (١٨ : ٥٦).

وكما للمجادلة المحظورة دركات ، كذلك للمحبورة درجات أحسنها أحسنها : ﴿وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (١٦ : ١٢٥) وطالما الجدال نوعان ، لكنما المراء محرم على أية حال [1].

﴿كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾! «فإن الموت هادم لذاتكم ، ومكدر شهواتكم ، ومباعد طياتكم ، زائر غير محبوب ، وقرن غير مغلوب ، وواتر غير مطلوب ، قد أعلقتكم حبائله ، وتكفتكم غوائله ، وأقصدتكم معابله ، وعظمت فيكم سطوته ، وتتابعت عليكم عدوته ، وقلت عنكم نبوته ، فيوشك أن تغشاكم دواجي ظلله ، واحتدام علله ، وحنادس غمراته ، وغواشي سكراته ، وأليم إزهاقه ، ودجو إطباقه ، وجشوبة مذاقه ، فكان قد أتاكم بغتة فأسكت نجيكم ، وفرق نديكم ، وعفى آثاركم ، وعطل دياركم ، وبعث وراثكم يقتسمون تراثكم ، بين حميم خاص لم ينفع ، وقريب محزون لم يمنع ، وآخر شامت لم يجزع» (الخطبة ٢٢١).

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ﴾(٧).

«الطائفتين» هنا هما العير والنفير [2] عير كبير من الشام إلى مكة

. ضل قوم بعد هدي إلا أوتوا الجدل عن مس. ك ٤٣ ح ١٣٠ و ١٣١ حم. خامس ص ٢٥٢ و ٢٥٦.

(١). وعن أبي الدرداء وأبي أمامة وواثلة وأنس قالوا : خرج علينا رسول الله (صلّى الله عليه.

مثقلة بأموال ضخمة ، ونفير من مكة مثقلة بعتاد للحرب ضخمة يريدون حرب الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) وقد وعد الله المؤمنين إحدى الطائفتين «أنها تكون لكم» تغلّبا على العير أم على النفير ، والنفير هي بطبيعة الحال ذات الشوكة الحربية القوية عدة وعدة ، والمسلمون ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا في قلة من عدة وعدة ، فأنتم ﴿تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ خوفا عن الشائكة ، واغتناما للغنيمة دونما حرب ، ولكن ﴿يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ﴾ بهزيمتهم العظيمة رغم كثرتهم الكثيرة في عدة وعدة.

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾(٨).

وحيث لا يضمن التغلب على العير إحقاق الحق وإبطال الباطل إلا تغلبا اقتصاديا ، ولكن التغلب على النفير يضمن كل تغلب للحق على الباطل ، لذلك أراد الله أن تكون لهم الطائفة ذات الشوكة ، تحقيقا للحق وقطعا لدابر الكفر ، تضعيفا لساعده ومساعده لردح بعيد من الزمن.

وهكذا حاك في نفوس كثير من المؤمنين كراهة القتال حتى ليقول الله عنهم : ﴿يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ رغم تبين الحق وأن الله وعدهم إحدى الطائفتين ، مقدرا لهم إحداهما كما يريد لا كما يريدون.

فقد قدر الله لهم إحدى الطائفتين أولا على سبيل الإجمال كائنة ما كانت عيرا أو نفيرا ، القوية ذات الشوكة والشائكة ، أو الأخرى غير ذات الشوكة ، وهم يريدون حاضر العير دون تعب ، والله يريد حاذر النفير بتعب

ـ وآله وسلم) «ونحن نتمارى في شيء من أمر الدين فغضب غضبا شديدا لم يغضب مثله ثم قال : إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ذروا المراء فإن المؤمن لا يمارى ، ذروا المراء فإن المماري قد تمت خسارته ، ذروا المراء فإن المماري لا أشفع له يوم القيامة ، ذروا المراء فأنا زعيم بثلاثة أبيات في الجنة : في رياضها وأوسطها وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق ، ذروا المراء فإن أول ما نهاني عنه ربي بعد عبادة الأوثان المراء» (العوالم ٢ ـ ٣ : ٤٣٢).

وليحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، بضمان رباني «انها تكون لكم» مهما كان في أمر مواجهتهم من إمر ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ فأين ما أراده الله لهم مما أرادوه ، فلقد كانت تمضي ـ لو كانت لهم غير ذات الشوكة ـ قصة غنيمة فحسب ، فأما قصة بدر فقد مضت في التاريخ كله قصة عقيدة صامدة للمؤمنين ، وعقدة كافرة عاندة للكافرين ، قصة انتصار القلوب حين تتصل بالله انفصالا عما سوى الله وتخلصا من ضعفها الذاتي ، فقد خاضت المعركة بنصر الله وكفة الكفر راجحة في الظاهر ، فقلبت كفة الإيمان بيقينها ميزان الظاهر فغلبت عليها ذلك الغلب الباهر.

ولقد حقق الله وعده في أنها تكون لكم : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ﴾ (٣ : ١٢) و ١٢٧).

ذلك ، وهنا تفاصيل هامة عن وقعة بدر الكبرى امتنانا على الرسول وعلى المؤمنين وليأخذوا درسا عن روحية التكتيك في قتال أعداد الله على مدار الجبهات الإسلامية السامية دونما استثناء.

لقد نسمع الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) في غائلة بدر يقول : «اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض» فما زال يهتف ربه مادا يديه حتى سقط رداءه من منكبه فأنزل الله ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾[1] ويقول : «اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، اللهم انهم عراة فاكسهم ، اللهم إنهم جياع فأشبعهم» [2].

---

(١) البحار ١٩ : ٢٢١ قال ابن عباس : لما كان يوم بدر واصطف القوم للقتال قال أبو جهل : اللهم أولانا بالنصر فانصره ، واستغاث المسلمون فنزلت الملائكة ونزل قوله : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ وقيل : إن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) لما نظر إلى كثرة عدد المشركين وقلة عدد المسلمين استقبل القبلة وقال : اللهم ..

(٢) المغازي للواقدي ١ : ٢٦ والسنن الكبرى للبيهقي عن عبد الله بن عمر أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) دعا بهذا الدعاء رافعا يديه إلى السماء حين خرج بعدة البدر من المؤنثة.

ذلك ، وقد دعاهم رسول الله ـ مبتدرا بينهم ـ إلى بدر لمواجهة النفير دون العير فقال : هلموا إلى بدر فإن هناك الملتقى والمحشر ، وهناك البلاء الأكبر ، لأضع قدمي على مواضع مصارعهم ، ثم ستجدونها لا تزيد ولا تنقص ولا تتغير ولا تتقدم ولا تتأخر لحظة ولا قليلا ولا كثيرا فلم يخف ذلك على أحد منهم ولم يجبه إلا علي بن أبي طالب (عليه السلام) وحده وقال : نعم ـ بسم الله فقال الباقون : نحن نحتاج إلى مركوب وآلات ونفقات ولا يمكننا الخروج إلى هناك وهو مسيرة أيام فخطا القوم خطوة ثم الثانية فإذا هم عند بئر بدر فعجبوا فجاء رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فقال : اجعلوا البئر العلامة واذرعوا من عندها كذا ذراعا فذرعوا فلما انتهوا إلى آخرها قال : هذا مصرع أبي جهل يجرحه فلان الأنصاري ويجهز عليه عبد الله بن مسعود ضعف أصحابي ، ثم قال : اذرعوا من البئر من جانب آخر ثم جانب آخر ثم جانب آخر كذا وكذا ذراعا وذراعا ـ وذكر أعداد الأذرع مختلفة ـ فلما انتهى كل عدد إلى آخره قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) هذا مصرع عتبة ، وذلك مصرع الوليد ، وهذا مصرع شيبة ، وسيقتل فلان وفلان ، إلى أن سمى تمام سبعين منهم بأسمائهم ، وسيؤسر فلان وفلان ، إلى أن ذكر سبعين منهم بأسمائهم وأسماء آباءهم وصفاتهم ، ونسب المنسوبين إلى الآباء منهم ، ونسب الموالي منهم إلى مواليهم ، ثم قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) أوقفتم على ما أخبرتكم به ، قالوا : بلى ، قال : «إن ذلك لحق كائن بعد ثمانية وعشرين يوما من اليوم التاسع والعشرين وعدا من الله مفعولا وقضاء حتما لازما» (١).

---

(١) بحار الأنوار ١٩ : ٢٦٥ م ج بالإسناد إلى أبي محمد العسكري (عليه السلام) قال : أرسل أبو جهل بعد الهجرة رسالة إلى النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) وهي أن قال : يا محمد إن الخيوط التي في رأسك هي التي ضيقت عليك مكة ورمت بك إلى يثرب وانها لا تزال بك حتى تنفرك ، وتحثك على ما يفسدك ويتلفك إلى أن تفسدها على أهلها وتصليهم حر نار وتعدّيت طورك ، وما أرى ذلك إلا وسيؤل إلى أن تثور عليك قريش ثورة رجل واحد لقصد آثارك ودفع ضررك وبلائك فتلقاهم بسفهائك المغترين بك ويساعدك .

فهؤلاء القتلى السبعون والأسرى السبعون من المشركين الذين كانوا ألفا أو يزيدون ، وأما الشهداء من المؤمنين فأربعة عشر بين ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا! [١].

ـ على ذلك من هو كافر بك مبغض لك فيلجئه إلى مساعدتك ومظافرتك خوفه لأن يهلك بهلاكك ويعطب عياله بعطبك ويفتقر هو ومن يليه بفقرك وبفقر شيعتك إذ يعتقدون أن أعداءك إذا قهروك ودخلوا ديارهم عنوة لم يفرقوا بين من والاك وعاداك واصطلموهم باصطلامهم لك وأتوا على عيالاتهم وأموالهم بالسبي والنهب كما يأتون على أموالك وعيالك وقد أعذر من أنذر وبالغ من أوضح ـ فأديت هذه الرسالة إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وهو بظاهر المدينة بحضرة كافة أصحابه وعامة الكفار من يهود بني إسرائيل وهكذا أمر الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) ليجبّن المؤمنين ويغري بالوثوب عليه سائر من هناك من الكافرين ـ فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) للرسول : قد أطريت مقالتك واستكملت رسالتك؟ قال : بلى. قال : فاسمع الجواب : إن أبا جهل بالمكاره والعطب يتهددني ورب العالمين بالنصر والظفر يعدني وخبر الله أصدق والقبول من الله أحق ، لن يضر محمدا من خذله أو يغتصب عليه بعد أن ينصره الله ويتفضل بجوده وكرمه عليه ، قل له : يا أبا جهل إنك راسلتني بما ألقاه في خلدك الشيطان ، وأنا أجيبك بما ألقاء في خاطري الرحمن ، إن الحرب بيننا وبينك كائنة إلى تسعة وعشرين وان الله سيقتلك فيها بأضعف أصحابي وستلقى أنت وعتبة وشيبة والوليد وفلان وفلان ـ وذكر عددا من قريش ـ في قليب بدر مقتلين ، أقتل منكم سبعين وآسر منكم سبعين ، أحملهم على الفداء الثقيل ، ثم نادى جماعة من بحضرته من المؤمنين واليهود وسائر الأخلاط ألا تحبون أن أريكم مصرع كل واحد من هؤلاء؟ قالوا بلى ، قال : هلموا إلى بدر فان هناك الملتقى والمحشر فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) لسائر اليهود : فأنتم ماذا تقولون؟ قالوا : نحن نريد أن نستقر في بيوتنا ولا حاجة لنا في مشاهدة ما أنت في ادعائه محيل ، فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) : لا نصب عليكم بالمصير إلى هناك ، اخطوا خطوة واحدة فان الله يطوي الأرض لكم ويوصلكم في الخطوة الثانية إلى هناك ، قال المؤمنون : صدق رسول الله فنتشرف بهذه الآية وقال الكافرون والمنافقون : سوف نمتحن هذا الكذاب ليقطع عذر محمد ويصير دعواه حجة واضحة عليه وفاضحة له في كذبه ، قال : فخطى القوم خطوة.

(١) في مجمع البيان وكانت المسلمون ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ، سبعة وسبعون رجلا من المهاجرين ومائتان وستة وثلاثون رجلا من الأنصار وكان صاحب لواء رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) والمهاجرين.

وهذه هي الحرب الأولى بعد الهجرة بين الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) والمشركين ، وقد كسرت سواعدهم وبترت عوائدهم ، وذلك بعد مكاتبة بين أبي جهل والرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) مما يدل على مدى تخوف آباء الجهالات بعد هجرة النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) والمؤمنين ، ومما أجابه الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم): «إن أبا جهل بالمكاره والعطب يتهددني ورب العالمين بالنصر والظفر يعدني».

ذلك ، وإلى هامة المسارح لبدر حسب ما يقصه القرآن :

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَما جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠).

إنها المعركة التي دارت بأمر الله ، شاخصة بحركاتها وخطراتها من خلال هذه الآيات المصورة المتحركة المحيية للمشهد الذي كان كأنه هو الآن ، ولندرسها في كل زمان كأنها ماثلة بين أعيننا آنا بعد آن.

وعلّ الإستغاثة هنا من كلا الغوث والغيث ، فأغاثهم بألف من الملائكة ، وأغاثهم من السماء ماء ، فقد استغاثوا ربهم في حالة الخطر الناجم الهاجم ، بحالة الإيمان القائم بما وعد الله ، وكان الإمداد بألف من الملائكة مردفين ، حيث يخيل إلى المشركين أن قد واجههم أكثر منهم عديدا ومديدا فخافوا على شوكتهم وشائكتهم ضد المؤمنين.

. علي بن أبي طالب (عليه السلام) وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة وكانت الإبل في جيش رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) سبعين بعيرا والخيل فرسين فرس للمقداد بن الأسود وفرس لمرثد بن أبي مرثد وكان معهم من السلاح ستة أدرع وثمانية سيوف وجمع من استشهد يومئذ أربعة عشر ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار وكان المشركون ألفا وخيلهم مائة فرس وكان حرب بدر أوّل مشهد شهده رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم).

وهنا «مردفين» قد تعني ـ فيما عنت ـ إرداف الألف غيرهم من بقية الثلاثة آلاف أو الخمسة آلاف المردفين في آل عمران : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ. بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ. وَما جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾(١٢٦).

ذلك ، وقد يلمح ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ (٣ : ١٣) إرداف ألف آخر فقط ، فالجميع ألفان مع ثلاثمأة وثلاثة عشر رجلا ، والمجموع يرى مثلي ألف المشركين [١] ، ولم تدل ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ أنه أنزل ثلاثة آلاف ، ولا «يمددكم» أنه أنزل خمسة آلاف ، لمكان الشرط الفاقد في ثانيهما إذ لم يأتوهم من فورهم هذا ، وعدم البتّ في الأول ، وهنا البتّ في «ألف ﴿مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ حيث ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾.

ذلك ، إضافة إلى أن قضية طليق الإرداف هي إرداف مماثل في العديد ، وإذ لم يكن عديد المؤمنين ألفا فليكن المردفون هم ألف من الملائكة آخرون.

ولو أراد الله نصرهم دون هؤلاء الألف المردفين لفعل ، ولكن «بشرى» لهم بحق النصر بظاهر من أسبابه ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ ﴿وَمَا النَّصْرُ﴾ على أية حال ـ بظاهر من معداته ودونه ـ ﴿إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢].

وتراهم حاربوا المشركين مع المؤمنين؟ ﴿وَما جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ تنفيها ، ثم ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ

---

(١) في البحار ١٩ : ٢٢٣ في حديث القمي وأبي حمزة في مردفين أي متبعين ألفا آخر بعضهم في أثر بعض.

(٢) راجع آيات البدر في آل عمران تجد الملائمة بين «ألف مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ» و «ثلاثة آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ» و «يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ» فلا نعيد هنا.

فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ يثبت ذلك النفي ، وكما الوارد في الآثار أن عليا (عليه السلام) قتل النصف أو الثلث من السبعين ، وقتل الباقين سائر المؤمنين ، ولم يذكر ولا مرة يتيمة أن أحدا من القتلى هو قتيل الملائكة المردفين.

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وليس ـ فقط ـ بعدّة وعدة الحرب والتكتيكات الحربية ، فقد أراد الله يوم بدر أن تقيس الكتلة المؤمنة قوتها الحقيقية المستمدة من قوة الله إلى قوة أعدائها ، فتعلم أنما النصر إنما هو قدر اتصال القلوب بقوة الله التي لا تقف لها قوّات العباد ، تجربة واقعية تكون لهم نبراسا ومتراسا في كافة الحروب الإيمانية ، تزودا بهذه التجربة في الحرب الأولى الإسلامية لمستقبلاتها كلّها ، ف ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢ : ٤٩).

وأول المستغيثين وأولاهم كان هو الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) حيث رفع يديه وسأل ما سأل واستجيب فيما سأل وكان يقول : «والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم» [(١)].

ذلك ﴿فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ﴾ واستجاب لكم ونصركم بما يلي :

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ وَلِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ﴾(١١).

هنا ﴿يُغَشِّيكُمُ ـ النُّعاسَ ـ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ تلقي ظلا لطيفا حفيفا شفيفا على المشهد ، مما يطمئنهم عن كل بأس وبؤس.

فلقد نعسوا في المصاف ثم غشاهم الله النعاس وهي كامل النوم

---

(١) الدر المنثور ٣ : ١٦٨ ـ أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في حديث له طويل عن قصة بدر. وفيه «ثم قال (صلى الله عليه وآله وسلم) سيروا وأبشروا فان الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين.

حيث يتم ويطم ، فقد تنام العين ولا ينام الأذن والقلب ، وإذا نام الأذن مع العين فقد نام القلب وهنا تغشية النعاس ، إذا فنوم العين نعاس ونوم الأذن إمارة لتغشية النعاس الباطن إلى الظاهر ، وهي من الحديث الأصغر ، فما لم يغشي النعاس كل الحواس لم يكن حدثا.

وفي المروي عن الإمام علي (عليه السلام) قال : ماكان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يصلي تحت الشجرة حتى أصبح» [١].

وتلك التغشية كانت ربانية «أمنة منه» تأمنكم من تعب النضال وخوف القتال ، عدة لكم لإصباح الحرب ، وهذه أمنة من الله حيث غشاكم النعاس ، فضمير الغائب إذا ذو مرجعين اثنين ، وتغشية النعاس في جبهات الحرب ، ولا سيما هذه الخطرة الضاربة ، إنها من نصر الله ، حيث المضطرب لا يأتيه النوم بطبيعة الحال ، فهذه التغشية لم تكن إلا من الله «أمنة منه» : من الله ، من العدو حتى غشاهم النعاس.

ذلك والخطر ناجم والعطش هاجم ، وتغلب المشركين على الحوض قائم ، وتسويل الشيطان ـ إذا ـ هائم ، فالتوتر مداوم ، فكيف ـ إذا ـ النعاس فضلا عن تغشيته ، اللهم إلّا بفضله ورحمته!

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ ولو لا حدثية تغشية النعاس لم يكن في «ليطهركم» هنا دور ، إذ لم يسبق ذلك التطهير نجاسة خبثية ، أم حدثية أخرى لكي «يطهركم به» ثم ﴿يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ﴾ منه حدث ثان ، وطبعا لبعض النائمين ، وليس إلا الجنابة ، حيث النوم لا يحمل إلا نفسه حدثا أصغر ككل ، أم ما قد تحصل فيه من جنابة وهي حدث أكبر.

والقول إن حدثية النوم ليست إلا لخروج الريح ضمنه حيث لا يملك النائم نفسه ، مردود بعدم قاطعية ذلك الخروج ، فهذا الإخراج لا يناسب

---

(١) الدر المنثور ٣ : ١٧١ ـ أخرج أبو يعلي والبيهقي في الدلائل عن علي رضي الله عنه ...

حدثية تغشية النعاس ، وأما حدثية الجنابة ـ وهي أحيانية في النوم ـ فهي مذكورة بنفسها ﴿رِجْزَ الشَّيْطانِ﴾ دون الريح غير المذكورة إلا تغشية النعاس التي تضمنها أحيانا ، ثم وإرسال ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ بعد ﴿يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ﴾ رسل المسلمات ، دليل باهر أن حدثية النوم في السنة كانت حينذاك من المسلمات ، فاختلاف الفقهاء في حدثية النوم بشرط الاضطجاع وما أشبه أم دون شرط ، معروض على طليق «يغشيكم» الشاملة لحالتي النوم.

ذلك ، ومن رجز الشيطان ما وسوس في صدورهم في تلك الحالة الحرجة المرجة من عطش بإعواز ماء الشرب ، وأنهم كانوا مرمّلين تغوص فيه الأرجل ويرتفع منه الغبار ، فأذهب الله رجز الجنابة الجسمية ورجز الخوفة النفسية بذلك الماء.

ذلك ، ثم ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ﴾ طمأنة بتلك الطهارة ، وبرودة الهواء ، وثلوجة الأكباد الحرّى بشرب الماء ، وإزالة الغبار ، وتمكين الأرض ل ﴿يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ﴾ في الرمال المبتلة وفي النضال [1].

---

(١) في نور الثقلين ٢ : ١٢٧ في تفسير علي بن إبراهيم حيث يستمر في قصة بدر قوله : وبلغ أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) كثرة القريش ففزعوا فزعا شديدا وبكوا واستغاثوا فأنزل الله عزّ وجلّ على رسوله ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ فلما أمسى قابل رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وجنه الليل ألقى الله على أصحابه النعاس حتى ناموا وأنزل الله تبارك وتعالى عليهم السماء وكان نزول رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) في موضع لا يثبت فيه القدم فأنزل عليهم السماء ولبد الأرض حتى ثبتت أقدامهم وهو قول الله تعالى : ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ﴾ وذلك أن بعض أصحاب النبي احتلم ، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام وكان المطر على قريش مثل العزالى وكان على أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) رذاذا بقدر ما لبد الأرض وخافت قريش خوفا شديدا فأقبلوا يتحارسون يخافون البيات.

وفي الدر المنثور ٣ : ١٧١ ـ أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ من طريق ابن جريح عن ابن عباس أن المشركين غلبوا المسلمين في أوّل أمرهم على الماء فظمئ المسلمون وصلوا مجنبين محدثين فكانت بينهم رمال فألقى الشيطان في قلوبهم الحزن وقال : أتزعمون أن فيكم نبيا وإنكم أولياء الله وتصلون مجنبين محدثين فأنزل الله من السماء ماء فسال عليهم الوادي ماء فشرب المسلمون وتطهروا وثبتت أقدامهم وذهبت وسوسته.

فلقد كانوا في الرمل بعطشهم غير ثابتي الأقدام في الإقدام على الحرب نفسيا ، وإقدام الأقدام رمليا ، فثبتت أقدامهم ، وبت إقدامهم. ورجز آخر هو وسوسة الشيطان أن كيف ـ وأنتم على حق ـ يعطشكم ربكم ويروى أعداءكم ، وثبتت أقدامهم متربا ، ويوهيها لكم مرملا ، فقد عكس المطر كل المحاسبات الشيطانية الدخيلة في صدور البعض من المؤمنين.

وهذه التغشية المطمئنة بإنزال الماء من السماء كانت بعد ما سبقهم المشركون إلى الماء فنزلوا على كثيب رمل فأحدثوا نائمين بنوم ككلّ ، وبجنابة بعضا ، فوسوس إليهم الشيطان أن عدوكم سبقكم الماء وأنتم محرومون عنه ، فأمطر الله عليهم فتطهروا وتلبّدت به أرضهم إيحالا لأرض العدو وإيغالا له في أوحال إذ لم يكونوا مرملين.

ذلك ، وان غزوة بدر الكبرى بملابساتها الخطرة الوعرة مضت في تاريخ الإنسان مشرقة باهرة ، ظاهرة قاهرة من مظاهر الإيمان على الكفر دون مكافحة ظاهرة ، تقريرا قريرا لدستور النصر والهزيمة ، وكشفا عن أسباب النصر وأسباب الهزيمة ، كتابا مفتوحا تقرءه الأجيال طول الزمان وعرض المكان ، دون تبدل لدلالتها ، ولا تغير بطبيعتها ، فإنها من آيات الله الكبرى على مدار الزمن.

ولقد تمتد بدر بمداد الإيمان الصالح ، تمتد متجاوزة الجزيرة العربية إلى سائر الأرض ، وزمن الرسول إلى سائر الزمن ، ما دامت شروطات النصر الإيماني مستمرة ، وشريطات الملابسات بين المتحاربين مسموعة متسامعة.

ولأن حرب بدر الكبرى هي الأولى بعد الهجرة بردح قليل من الزمن ، فقد كمنت تحديا قويا قويما لجانب الكفر أن يحاسب حسابه بغير

ـ وفيه أخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن علي (عليه السلام) قال : كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) يصلي تلك الليلة ليلة بدر ويقول : اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد وأصابهم تلك الليلة مطر شديد فذلك قوله : وليثبت به الأقدام.

وجه العدّة والعدّة الظاهرة ، وليفكر كيف أن فئة قليلة مهاجرة من العاصمة خوفة القضاء عليها برسولها ، عائشة في غربة عن الوطن المألوف ، فاقدة لكل عدة وعدة لتلك الحرب غير المتكافئة ، كيف تتغلب هذه الفئة القليلة على تلك الفئة الكثيرة ، فتقتل منهم كثيرا وتأسر نفس العدد ، ولا يقتل منها إلّا أربعة عشر وهم خمس قتلاهم ، ولم يكونوا إلّا ثلثهم عددا ومعشاراتهم في ظاهرة العدد!

وهنا مثلث في تاريخ الإنسان من هذا العدد الكريم ، فقبل الإسلام عديد جند طالوت حيث هم أمام جالوت القدّار الغدّار ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ﴾.

ثم في بدر الكبرى بصورة أجلى وملابسات أعجب وأعلى ، ومن قدسيتها : «أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) سافر إلى بدر في رمضان وافتتح مكة في رمضان»(١).

ومن ثم في دولة القائم المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف حيث يتغلب بأصحاب ألويته ـ وهم نفس العدد ـ على كافة الكفار والمشاغبين! ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ﴾(١٢).

«ويريد الله أن يحق الحق إذ تستغيثون ربكم إذ يغشيكم النعاس ويثبت به الأقدام إذ يوحي ربك» تحقيقا لوعده سبحانه ﴿أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ﴾ الألف المردفين «أني معكم» معية خاصة في مسرح بدر لتكونوا مع هؤلاء المؤمنين حضورا كأنكم بشر أمثالهم محاربين ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أقدامهم على النضال ، وإقدامهم على القتال أن تحدثوهم بذلك التثبيت حتى يثبتوا ، فقد ثبّتهم الله بما أنزل من السماء

---

(١) بحار الأنوار ١٩ : ٢٧٣ عن الرضا عن آبائه (عليهم السلام).

ماء ووعدهم النصر ، وزاد في تثبيتهم بما أوحي للملائكة المردفين أن «ثبتوا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾».

وترى كيف ثبتهم الملائكة وهم لا يرونهم ولا يسمعونهم؟ «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن أولياءكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة» (٤١ : ٣١).

ذلك ، وبأحرى في مسرح بدر الذي هو مصرح الإيمان المنقطع النظير ، فقد يكون تنزلهم عليهم يوم بدر متميزا عن سائر تنزلهم على سائر المستقيمين من المؤمنين ، أن تحولوا إلى صور الآدميين وتحدثوا معهم كما يحدث بعضهم بعضا وهم عارفون أنهم من ملائكة الله المردفين.

وحين يلقي الشيطان بأوليائه في قلوب أولياءه الشياطين ما يضلهم ، فبأحرى أن يلقي الرحمن بنفسه وبملائكته في قلوب أولياءه المؤمنين ما يهديهم.

ثم إن ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ فطمأنة قلوب المؤمنين على قلتهم ، وتمكن الرعب في قلوب الذين كفروا على كثرتهم ، هما من الملابسات المعبّدة لتغلّب الأولين على الآخرين ، وإذا : «فأضربوا» أنتم المؤمنين ﴿فَوْقَ الْأَعْناقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ﴾.

ولماذا هنا ﴿فَوْقَ الْأَعْناقِ﴾ دون الرؤوس؟ علّه لأنهم ما كانت لهم رؤوس إنسانية بما كفروا ، فاستبدل بالرؤوس ﴿فَوْقَ الْأَعْناقِ﴾ ، وعلّه يعني بما عناه من ب ﴿فَوْقَ الْأَعْناقِ﴾ فوق أعناق المشركين إذ لم يكونوا عنقا واحدا ، ففوق الأعناق هم الأعناق الفوقية بينهم ، فهم رؤوس الكفر والضلال وكما قتل منهم كبار الأعناق بيد الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) وعلي (عليه السلام) والمؤمنين.

ثم ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ﴾ قد تعني إلى بنان الأيدي والأرجل وما أشبه بنان مختلف الأيادي ، أن اضربوا ـ بما تضربون فوق الأعناق ـ كل

الأيادي والطاقات المجرمة والوسائل المعادية فيما بينهم وكما وعد الله : ﴿وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ﴾ حتى لا يقوم منهم ـ بعد ـ قائم ولا يحوم حوم الحرب منهم حائم إلّا آثم.

لم يكن في بدر دور للألف المردفين من الملائكة إلّا حضورا بأشخاصهم وتثبيتا لقلوب المؤمنين ، وأما ضرب فوق الأعناق وكل بنان فقد كان من المؤمنين [1].

وهنا في الضفّة المؤمنة نصر من الله وتثبيت من الملائكة لهم بإذن الله ، ثم في الضفة الكافرة : ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَقالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى

---

(١) في الدر المنثور ٣ : ١٧٢ عن ابن عباس في حديث بدر الكبرى ونفر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بجميع المسلمين وهم يومئذ ثلاثمائة وثلاث عشر رجلا وسيد المشركين يومئذ عتبة بن ربيعة لكبر سنه فقال عتبة يا معشر قريش إني لكم ناصح وعليكم مشفق لا أدخر النصيحة لكم بعد اليوم وقد بلغتم الذي تريدون وقد نجا أبو سفيان فارجعوا وأنتم سالمون فان يكن محمد صادقا فأنتم أسعد الناس بصدقه وان يك كاذبا فأنتم أحق من حقن دمه ، فالتفت إليه أبو جهل فشتمه وفج وجهه وقال له : قد امتلأت أحشاءك رعبا ، فقال له عتبة : سيعلم اليوم من الجبان المفسد لقومه ، فنزل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة حتى إذا كانوا أقرب أسنة المسلمين قالوا : ابعثوا إلينا عدتنا منكم نقاتلهم ، فقام غلمة من بني الخزرج فأجلسهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم قال : يا بني هاشم أتبعثون إلى أخويكم والنبي منكم غلمة بني الخزرج فقام حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث فمشوا إليهم في الحديدة فقال عتبة تكلموا نعرفكم فان تكونوا أكفاءنا نقاتلكم فقال حمزة أنا أسد الله وأسد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال عتبة كفؤ كريم فوثب إليه شيبة فاختلفا ضربتين فضربه حمزة فقتله ثم قام علي بن أبي طالب إلى الوليد بن عتبة ، فاختلفا ضربتين فضربه علي (عليه السلام) فقتله ثم قام عبيدة فخرج إليه عتبة فاختلفا ضربتين فجرح كل واحد منهما صاحبه وكر حمزة على عتبة فقتله فقام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : اللهم ربنا نزلت علي الكتاب وأمرتني بالقتال ووعدتني النصر ولا تخلف الميعاد فأتاه جبرئيل (عليه السلام) فأنزل عليه : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين فأوحى الله إلى الملائكة «اني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ، فقتل أبو جهل في تسعة وستين رجلا وأسر عقبة بن معيط فقتل صبرا فوفى ذلك سبعين وأسر سبعين».

عَقِبَيْهِ وَقالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾(٨ : ٤٨).

فقد والله إنه الأمر الهائل ، معية الله للمؤمنين بنفسه وبملائكته في المعركة ، فهنا قلوب مطمئنة مؤمنة مرجفة ، وهناك جوار الشيطان للكافرين فقلوب واجفة راجفة ، وأهم الأسلحة في النضال هو سلاح طمأنة القلوب ، وقد يروى عن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) انه (صلّى الله عليه وآله وسلم) رمى كفا من حصباء الوادي في وجوه القوم وقال : شاهت الوجوه ، فلم يبق مشرك إلا دخل في عينه وفمه ومنخريه منها شيء ، ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم وكانت تلك الرمية سبب هزيمتهم [(١)]

وكما لمح الله تعالى ﴿**فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ**﴾ نرى أنهم ضربوا فوق الأعناق وهم كبار المشركين فقتل علي (عليه السلام) منهم شطر شطيرا

---

(١) في المجمع ذكر جماعة من المفسرين كابن عباس وغيره أن جبرائيل قال للنبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) يوم بدر خذ قبضة من تراب فارمهم بها فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) لما التقى الجمعان لعلي (عليه السلام) أعطني قبضة من حصا الوادي فناوله كفا من حصا عليه تراب.

وفي المغازي للواقدي : أمر رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) يوم بدر بالقليب ، أن تغور ثم أمر بالقتلى فطرحوا فيها كلهم إلا أمية بن خلف فإنه كان مسمنا انتفخ من يومه فلما أرادوا أن يلقوه تزايل لحمه فقال النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) : اتركوه فأقروه وألقوا عليه من التراب والحجارة ما غيبه ، ثم وقف على أهل القليب فناداهم رجلا رجلا : هل وجدتم ما وعد ربكم حقا فاني قد وجدت ما وعدني ربي حقا بئس القوم كنتم لنبيكم كذبتموني وصدقني الناس وأخرجتموني وآواني الناس وقاتلتموني ونصرني الناس. فقالوا : يا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) أتنادي قوما قد ماتوا؟ فقال : لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني.

وفي الأمالي باسناده عن ابن عباس قال : وقف رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) على قتلى بدر فقال : جزاكم الله من عصابة شرا لقد كذبتموني صادقا وخونتم أمينا ، ثم التفت إلى أبي جهل بن هشام فقال : ان هذا أعتى على الله من فرعون إن فرعون لما أيقن بالهلاك وحّد الله وان هذا لما أيقن بالهلاك دعا باللّات والعزّى.

والباقون الشطر الأخير وقتلى المحاربين معدودون بأسمائهم [١].

﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾(١٣)

﴿ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ (١٤) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ (١٨) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٩)

---

(١) في الإرشاد انه قد أثبتت رواة العامة والخاصة معا أسماء الذين تولى أمير المؤمنين (عليه السلام) قتلهم ببدر من المشركين على اتفاق فيما نقلوه من ذلك واصطلاح فكان .

﴿ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ﴾ (١٤).

«ذلك» الخزي لهم أولاء الكافرين و «ذلك» النصر لهؤلاء المؤمنين «بأنهم» أولاء المشاغبين ﴿شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ جعلوا أنفسهم في شق فذّ ، وجعلوا الله ورسوله في شق آخر ، فأخذوا يشاقون الله ورسوله ، إذا ﴿فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾.

«ذلك» العقاب يوم الدنيا «فذوقوه» وكضابطة شاملة «ان (عليه السلام) ثم الشهداء الأربعة عشر معروفون بأسمائهم [1].

للكافرين» بدركاتهم ﴿عَذابَ النَّارِ﴾ يوم القيامة ، ولات حين فرار.

ذلك ، وقتلى بدر السبعين قتل شطر منهم كبير بيد أمير المؤمنين

ممن سموه : الوليد بن عتبة وكان شجاعا جريّا وقّاحا فتاكاتها به الرجال ، والعاص بن سعيد وكان هولا عظيما تهابه الأبطال ، وطعيمة بن عدي بن نوفل وكان من رؤوس أهل الضلال ، ونوفل بن خويلد وكان من أشد المشركين عداوة لرسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وكانت قريش تقدمه وتعظمه وتطبعه ولما عرف رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) حضوره بدرا سأل الله أن يكفيه أمره فقال : اللهم اكفني نوفل بن خويلد فقتله أمير المؤمنين (عليه السلام).

وزمعة بن الأسود والحارث بن زمعة والنضر بن الحارث وعمير بن عثمان وعثمان ومالك ابنا عبيد الله أخوا طلحة بن عبيد الله ومسعود بن أبي أمية بن المغيرة وقيس بن الفاكهة بن المغيرة وحذيفة بن أبي حذيفة بن المغيرة وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة وحنظلة بن أبي سفيان وعمرو بن مخزوم وأبو منذر بن أبي رفاعة ومنبّه بن الحجاج السهمي والعاص بن منبّه وعلقمة بن كلدة وأبو العاص بن قيس بن عدي ومعاوية بن المغيرة ولوذان بن ربيعة وعبد الله بن المنذر ومسعود بن أمية وحاجب بن السائب بن عويمر وسعيد بن وهب ومعاوية بن عبد القيس وعبد الله بن جميل والسائب بن مالك وأبو الحكم بن الأخنس وهشام بن أبي أمية بن المغيرة. فذلك خمسة وثلاثون رجلا سوى من اختلف فيه أو شرك أمير المؤمنين (عليه السلام) فيه غيره وهم أكثر من شطر المقتولين.

(١) في البحار عن الواقدي قال : حدثني عبد الله بن جعفر قال سألت الزهري كم استشهد من المسلمين ببدر قال : أربعة عشر : ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار قال : فمن بني عبد المطلب عبيدة بن الحارث قتله عتبة أو شيبة فدفنه النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) بالصفراء ، ومن بني زهرة عمير بن أبي وقاص قتله عمرو بن عبدود فارس الأحزاب وعمير بن عبدود ذو الشمالين حليف لبني زهرة قتلة أبو أسامة الجشمي ، ومن بني عدي.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ﴾(١٥).

تكتيكات حربية إسلامية يذكر منها هنا شطرات هامة لمسارح الزحف ، إذا طبّقت كانت من قضاياها الإنتصار إلى جنب ما على المحاربين المسلمين من سائر الشروطات المسرودة في الكتاب والسنة.

و ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خطاب لعامة المؤمنين أيا كانوا وأيان ، كما ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعمهم كلهم دون اختصاص ببدر وسواها زمن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) أم سواه.

وهنا اللقاء زحفا هو موضوع لشديد النهي عن تولية الأدبار ، وصحيح أن الضابطة الثابتة في لقاء العدو هي حرمة الفرار إلّا ولكن اللقاء زحفا هو أهم مواضيع الحكم.

والزحف هو الدنو رويدا على مهل ، من الذين كفروا إلى الذين آمنوا أم منهم إليهم ، أو الزّاحف منهما ، ولأن اللقاء زحفا ليس إلا بحساب من الزاحف وتحسّب من المزحف إليه ، تحاسب حسب الملابسات المحيطة بالطرفين ، فالأصل فيه حرمة تولي الأدبار ، وهو من السبع الموبقات [1].

عاقل بن أبي البكير حليف لهم من بني سعد قتله مالك بن زهير ، ومهجع مولى عمر بن الخطاب قتله عامر بن الحضرمي ومن بني الحارث بن فهر صفوان بن بيضاء قتله طعيمة بن عدي.

ومن الأنصار ثم من بني عمرو بن عوف ، مبشر بن عبد المنذر قتله أبو ثور وسعد بن خيثمة قتله عمرو بن عبدود ويقال طعيمة بن عدي ومن بني عدي بن النجار حارثة بن سراقة رماه حنان بن العرقة بسهم فأصاب حنجرته فقتله ، ومن بني مالك بن النجار عوف ومعوذ ابنا عفراء قتلهما أبو جهل ، ومن بني سلمة عمير بن الحمام بن الجموح قتله خالد بن الأعلم ومن بني زريق رافع بن المعلى قتله عكرمة بن أبي جهل ، ومن بني الحارث بن الخزرج يزيد بن الحارث قتله نوفل بن معاوية فهؤلاء الثمانية من الأنصار.

(١) نور الثقلين ٢ : ١٢٨ في عيون الأخبار في باب ما كتب به الرضا (عليه السلام) إلى محمد بن سنان في جواب مسائله في العلل : وحرم الله تعالى الفرار من الزحف لما فيه ...

ذلك ، ولأنه دون مبرر منصوص مرصوص فتّ لعضد الإسلام وثلم لكرامته ، و «لما فيه من الوهن في الدين والاستخفاف بالرسل والأئمة العادلة (عليهم السلام) وترك نصرتهم على الأعداء والعقوبة لهم على انكار ما دعوا إليه من الإقرار بالربوبية وإظهار العدل وترك الجور وإماتة الفساد ، لما في ذلك من جرأة العدو على المسلمين وما يكون من السبي والقتل وإبطال دين الله عز وجل وغيره من الفساد» (١).

ذلك و «أن الرعب والخوف من جهاد المستحق للجهاد والمتوازرين على الضلال ، إنه ضلال في الدين وسلب في الدنيا مع الذل والصغار ، وفيه استيجاب النار بالفرار من الزحف بحضرة القتال» (٢).

. وفيه في الخصال في مناقب أمير المؤمنين (عليه السلام) وتعدادها قال : وأما الثالثة والستون فإني لم أفر من الزحف قط ولم يبارزني أحد إلا سقيت الأرض من دمه ، وفيه عن العياشي عن زرارة عن أحدهما (عليهما السلام) قال قلت : الزبير شهد بدرا؟ قال : نعم ولكنه فر يوم الجمل ، فإن كان قاتل المؤمنين فقد هلك بقتاله إياهم وان كان قاتل كفارا فقد باء بغضب من الله حين ولا هم دبره.

(١) تفسير البرهان ٢ : ٦٩ عن الكليني بسند متصل عن عقيل الخزاعي أن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال : قال الله :

(٢) لقد تواردت الروايات حول اختصاص حرمة الفرار من الزحف ببدر وعدمه ومن الثاني وفقا لطليق الآية في الدر المنثور ٣ : ١٧٤ ، أخرج ابن مردويه عن أمامة مولاة النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) قالت كنت أوضئ النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) أفرغ على يديه إذ دخل عليه رجل فقال يا رسول الله أريد اللحوق بأهلي فأوصني بوصية أحفظها عنك قال : لا تفر يوم الزحف فإنه من فر يوم الزحف فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ، وفيه عن ابن عمر قال : لما نزلت هذه الآية قال لنا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) قاتلوا كما قال الله : وفيه انه (صلّى الله عليه وآله وسلم) كان يدعو بهؤلاء الكلمات السبع يقول : اللهم إني أعوذ بك وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبرا ، وروى البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم): اجتنبوا السبع الموبقات ، قيل يا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وما هن؟ قال : الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

وهنا «إذا لقيتم» تضيق دائرة حرمة الفرار هذه ، فحين يهاجم العدو ، ولا مكافئة في البين ، فقد يجوز أو يجب الفرار حفاظا على نفوس محترمة محرّمة أن تهدر دون سبب مبرّر.

وهل تحدّد آية التخفيف حرمة الفرار من الزحف بالمكافئة المضاعفة لجيش العدو؟ : ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٨ : ٦٦).

علّها نعم ، فإنها تحمل ضابطة للمكافئة؟ وعلّها لا ، حيث إن حقل حرمة الفرار هو مسرح لقاء العدو زحفا ، فأما وجوب لقاءه بما دون المكافئة ، أم حرمة الفرار عند الهجمة المباغتة ولا مكافئة ، فلا! وقد يأتي تفصيل البحث عند آية التخفيف.

وأما في اللقاء زحفا منهما أو من إحداهما فالحكم كلمة واحدة حرمة الفرار إلّا.

ومن غريب الوفق عديدا في القرآن أن كلا من «الجهاد» و «المسلمين» بمختلف صيغهما هو (٤١) مرة ، مما يلمح أن الإسلام لزامه الجهاد في سبيله.

ومن وصايا إمام المجاهدين علي أمير المؤمنين بشأن الحروب : «تزول الجبال ولا تزول ، عض على ناجذك ، أعر الله جمجمتك ، تد في الأرض قدمك ، إرم ببصرك أقصى القوم وغض بصرك ، واعلم أن النصر من عند الله سبحانه» (الخطبة ١١).

معاشر المسلمين! استشعروا الخشية ، وتجلببوا السكينة ، وعضوا على النواجذ ، فإنه أنبى للسيوف عن الهام ، وأكملوا اللامة ـ الدرع ـ وقلقلوا السيوف في أغمادها قبل سلّها ، والحظوا الخزر ، واطعنوا الشزر ، ونافخوا بالظّبا ، وصلوا السيوف بالخطى ، واعلموا أنكم بعين الله .. فعاودوا الكرّ ، واستحيوا من الفرّ ، فإنه عار في الأعقاب ونار يوم الحساب ، وطيّبوا عن أنفسكم نفسا ، وامشوا إلى الموت مشيا سجحا.

سهلا ـ فصمدا صمدا حتى ينجلي لكم عمود الدين وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم (خ ٦٤).

«فقدموا الدارع وأخروا الحاسر ، وعضوا على الأضراس فانه أنبى للسيوف عن الهام ، والتووا في أطراف الرماح فإنه أمور للأسنة ، وغضوا الأبصار فإنه أربط للجأش وأسكن للقلوب ، وأميتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل ، ورايتكم فلا تميلوها ولا تخلوها ، ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم ، والمانعين الذمار منكم وأيم الله لئن فررتم من سيف العاجلة لا تسلموا من سيف الآخرة إن في الفرار موجدة الله ، والذل اللازم والعار الباقي ، وإن الفار لغير مزيد في عمره ، ولا محجوز بينه وبين يومه» (خ ١٢١).

«وأي امرء منكم أحس من نفسه رباطة جأش عند اللقاء ورأى من أحد من إخوانه فشلا فليذب عن أخيه بفضل نجدته التي فضل بها عليه كما يذب عن نفسه ، فلو شاء الله لجعله مثله ، إن الموت طالب حثيث لا يفوته المقيم ، ولا يعجزه الهارب ، إن أكرم الموت القتل ، والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون علي من ميتة على الفراش» ذلك :

﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(١٦).

فالتحرف لقتال والتحيز إلى فئة هما فرار للقرار فلا عار فيهما ولا بوار ، فلا تشتدن عليكم فرّة بعدها كرة ولا جولة بعدها حملة ، ووطئوا للجيوب مصارعها ، وإذ مروا أنفسكم على الطعن الدّعسي ـ الشديد ـ والضرب الطلحفي ـ القوي ـ (٢٥٥).

فتولي الدبر في المصاف الزاحف محظور كضابطة ، وهو محبور كتصبره في مجالين اثنين : ١ ﴿مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ﴾ : متطردا يريد الكرة عليهم تحولا إلى قتال أمكن وأقوى. ٢ ﴿أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ﴾ من المؤمنين ، متأخرا إلى أصحابه من غير هزيمة ، ضمالهم إليهم إلى

المواجهة ، أم وكل قوة يحصل عليها في ذلك التولي ، فأما التولي فرارا ، أم والتولي دون عائدة في الرجوع ، فغير مسموح للمناضل بتّا.

ف «من انهزم حتى يجوز صف أصحابه فقد باء بغضب من الله» (١).

وهنا لمحة من الضمائر المفردة أن استثناء المنع عن تولي الدبر ليس يشمل توليه جميعا ، بل هو تولي الأفراد تحرفا لقتال أو تحيزا إلى فئة.

وترى هنا ﴿باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ليست لتستثنى؟ ولقد عفى الله عنهم يوم أحد : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٣ : ١٥٥)

ويوم حنين : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ. ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٩ : ٤٦).

إذا فالفرار من الزحف هو كسائر الكبائر من موارد المغفرة بالتوبة الصالحة (٢).

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١٧).

---

(١) في تفسير العياشي عن موسى بن جعفر (عليهما السلام) في الآية وذكر هذه الجمل الثلاث المذكورة في المتن.

(٢) وقد روى أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي من حديث ابن عمر قال : كنت في سرية من سرايا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فحاص الناس حيصة وكنت فيمن حاص فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ، ثم قلنا : لو دخلنا المدينة فبتنا؟ ثم قلنا : لو عرضنا نفوسنا على رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فإن كان لنا توبة وإلا ذهبنا ، فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال : من الفرارون؟ فقلنا : نحن الفرارون ، قال : بل أنتم العكارون ، أنا فئتكم وفئة المسلمين ، قال : فأتيناه حتى قبلنا يده.

بعد هذه الخوارق لعادات الحرب وتكتيكاتها ، في هذه الهزيمة العظيمة للمشركين الكثرة بالمؤمنين القلة ، لم يكن عاملها وعامل هزيمتهم لا الرسول ولا المؤمنون ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ في الحق بطاقاتكم البشرية العاديّة ﴿وَلكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ﴾ بما نصركم في حلقات ظاهرة وباطنة.

﴿وَما رَمَيْتَ﴾ رمية الحرب وما أشبه ﴿إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمى﴾ حيث هداك ونصرك وعبّد لك طريق النصر ، هذه الشائكة الخطرة الملتوية ، ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ . ﴿وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ﴾ . ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بذلك القتل الرباني وليبلي ﴿بَلاءً حَسَناً﴾ حتى يلمسوا نصر الله ، تحقيقا لوعد الله واستغاثتكم ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ذلك ، ومع أنا لا نجد قتلات ورميات للرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) في هذه المعركة ، نجد الرمية ـ وكأنها هي الوحيدة ـ خاصة بالرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) في هذه التصريحة اليتيمة ، فما هي هذه الرمية البارزة بين كل رمية.

إنه ليس الواجب الهام على قائد القوات المسلحة أن يتولى القتلة والرمية بنفسه ، فإنما مهمته قيادته الحكيمة وخطته العاقلة في كل رمية وقتلة ، وإذا تصح نسبة كل المحاصيل الحربية إلى القائد نفسه ، رغم عدم خوضه لأصل المعركة بنفسه ، أم وعدم حضوره فيها ، فضلا عن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) الخائض بنفسه هذه الحرب ، مخططا لها بنفسه منذ خروجه من المدينة حتى الإنتصار الكامل.

وهنا اختصاص الرمية المنفية بالرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) وتعميم القتلة المؤمنين معه ، دليل اختصاص الرمية القيادية به ، رميا للقوات الإيمانية إلى صفوف المشركين بما رمى.

ففي نقطة الانطلاق نجد الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) هو البادئ والمحرض ﴿كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ ثم قبل المواجهة ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (٤٣) وعند الإستغاثة غوثا وغيثا هو المستغيث أولا :

«اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض ، فما زال يهتف به مادا يديه حتى سقط رداءه من منكبه فنزل» إذ تستغيثون.

ومن قبل هو الذي أراهم قبل الخروج والمواجهة مصارع القوم بما أراه الله حتى رأوها بأم أعينهم ، ثم هو الذي كان يثبتهم ويرشدهم ويخطط لهم خطوة خطوة حتى النهاية : ولما أصبح رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) يوم بدر عبأ أصحابه فكان في عسكره فرسان فرس للزبير بن العوام وفرس للمقداد بن الأسود وكان في عسكره سبعون جملا يتعاقبون عليها ، وكان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وعلي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد يتعاقبون على جمل لمرثد فنظر رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) إلى عبيدة بن الحارث ـ وكان له يومئذ سبعون سنة ـ فقال : قم يا عبيدة ، ونظر إلى حمزة فقال : قم يا حمزة ثم نظر إلى علي (عليه السلام) فقال : قم يا علي وكان أصغر القوم ـ فاطلبوا بحقكم الذي جعله الله لكم فقد جاءت قريش بخيلائها وفخرها تريد أن تطفئ نور الله ، وقال لحمزة عليك بشيبة وقال لعلي (عليه السلام) عليك بالوليد.

وهكذا نجده من خلال هذه الحرب يقودهم روحيا وحربيا خطوة خطوة دون أن تغيب عنه حركته ، إذ كانت كافة الحركات والتكتيكات بقيادته الشخصية ، ومن ناحية أخرى لما يرى العدو فاعلية القوات المسلحة ـ القوية الصارمة ـ بتلك القيادة الحكيمة ، فهم يحسبون ألف حساب لقائد القوات ليسوا ليحسبوها لو أنه هو الداخل بنفسه في القتال ،

لذلك فأصل الرمي في هذه الحرب كان من أصل القيادة الرسولية ، ثم الله ينفيه عنه ـ أيضا ـ ناسبا له إلى نفسه ـ كما القتل العام ـ ، إذ هو الذي أيدهم بنصره ما لولاه لكانوا خطف ساعة!

إذا فسلب القتل عنهم : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ﴾ سلب واقع لا مرد له إذ لم يكونوا يقتلون ـ بل يقتلون ـ لو لا الشروطات الإيجابية

والسلبية الربانية لتلك القتلة الخارقة للعادة ، فهم في أنفسهم صفر الأيدي عن تلك القتلة الغالبة المنقطعة النظير ، فقد قتلهم بما طمأن الله قلوب المؤمنين ، وأنزل عليهم من السماء ماء فوطّد رملتهم أولاء وأوحل طينتهم هؤلاء ففشلوا في مواطئهم ، وأنزل ألفا من الملائكة مردفين ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ ففشلوا ووهنوا في ذوات أنفسهم ، ثم وألقى الرعب في قلوبهم ، إذا فمن هو الذي قتلهم إلّا الله ، مهما ظهرت مظاهر المقاتل؟

ثم إثبات الرمي له (صلّى الله عليه وآله وسلم) بعد سلبه لامح إلى ميّزة خاصة ودور متميّز للرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) قائدا للقوات المسلحة ، حيث رمى ما رماه في قيادته الحربية بكل بسالة وشطارة ، إضافة إلى الأهداف الواصلة هي إليها التي كانت هي الأخرى من النصرة الربانية في ذلك المسرح ، مصرحا لمدى الفاعلية والقابلية لقائد القوات المسلحة الرسولي.

فلأن القائد هنا له دوران اثنان فقد يصدق أنه «رمى» حال انه ما رمى ﴿وَلكِنَّ اللهَ رَمى﴾ ولم يكن للمؤمنين إلّا دور واحد أنهم كانوا مقودين صالحين بتلك القيادة ، فقد يصدق أنهم ما قتلوهم ولكن الله قتلهم.

وترى أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) ـ فقط ـ رمى ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ ولم يقتل؟ المهم لدوره كقائد القوات هو الرمي ، لأنه يعني ـ بما عنت ـ رمي الحصباء إلى وجوه

الكفار قائلا : شاهت الوجود ، فارتموا وارتبكوا حتى لم يكونوا ليروا واقع عديد المؤمنين القلة ، ولم يروا إلّا قلتهم أنفسهم فهزيمتهم ، فلذلك فقدوا عزيمتهم وتناسوا عظيمتهم ، وكل ذلك من الله ، فان مجرد رمي التراب لا يخلف تلك الهزيمة العظيمة ، ومهما كانت صورة الرمية منك فسيرتها ومصيرتها هما من الله.

فكما في المسيح (عليه السلام) : ﴿إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى بِإِذْنِي﴾ إذ يسلب عنه واقع الإحياء إلى ظاهرة من فعله المأذون ، حيث أذن الله في

حياة الموتى قرنا لفعله (عليه السلام) غير الفاعل تلك الفعلة الربانية ، كذلك أنت يا قائد القوات ﴿ما رَمَيْتَ﴾ رمية الغلبة هذه الخارقة للعادة ﴿وَلكِنَّ اللهَ رَمى﴾ إياها ، إيصالا لكف من التراب إلى ألفي عين ، وإيغالا لأصحابها فيما أوغل ، وكأن ذلك التراب غازات كيماوية تعمي العيون ثم وترعب القلوب.

ذلك ، إلى سائر رميات الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) التكتيكية في بدر الكبرى ، فقد انحصرت رمياته في مظاهر ثلاثة : رمية القتل ، ورمية الحصى ، وسائر الرمية الحربية بتكتيكاتها ، ولكن الفاعلية الواقعية في هذه الرميات لم تكن إلّا من الله ما لولاه لم يحصل ما حصل لصالح المؤمنين.

ذلك ، والرمية الأصلية هي رمية التراب حيث قال (صلّى الله عليه وآله وسلم): أمام معسكر العدو : اللهم إنك أمرتني بالقتال ، ووعدتني النصر ولا خلف لوعدك ، وأخذ قبضة من حصى فرمى بها في وجوههم فانهزموا بإذن الله فذلك قوله : ﴿وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمى﴾[١] . «فما بقي أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء» [٢] ، وأما

---

(١) الدر المنثور ٣ : ١٧٤ ـ أخرج ابن عساكر عن مكحول قال : لما كرّ عليّ وحمزة على شيبة بن ربيعة غضب المشركون وقالوا اثنان بواحد فاشتعل القتال فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم): وفيه عن حكيم بن حزام قال : لما كان يوم بدر سمعنا صوتا وقع من السماء إلى الأرض كأنه صوت حصاة وقعت في طست ورمى رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) بتلك الحصباء وقال : شاهت الوجوه فانهزموا فذلك قوله تعالى ﴿وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾.

(٢) المصدر أخرج الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) لعلي (عليه السلام) ناولني قبضة من حصباء فناوله فرمى بها في وجوه القوم فنزلت هذه الآية ، وأخرجه مثله الحمويني بسنده المتصل عن ابن عباس عنه (صلّى الله عليه وآله وسلم) (ملحقات إحقاق الحق ٣ : ٥٤٥).

«وما قتلتموهم» فلأنهم استغلوا عميان العيون بهذه الرمية فاغتالوهم [١].

ذلك ، فحقا ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمى﴾ حيث العدد والعدد للمشركين كانا أضعاف ما للمسلمين ، فالعدد ثلاثة أضعاف ، والخيل مأتا ضعف ، والسيوف خمسمائة ضعف ، والحالة السابقة للمشركين غلبهم عليهم حيث أخرجوهم قبل أشهر من العاصمة ، ولم يكن من المسلمين إلّا رمية الحصباء من النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) بدعاء النصر ، فشملهم المؤمنون قتلا وحصرا وأسرا فبطلت مكيدتهم ، وسكنت أجراسهم ، وخمدت أنفاسهم ، فهم بين قتيل وجريح وأسير وحصير وفرير! : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ في بدر ، فلما ذا ـ إذا ـ تولي الأدبار! [٢].

ذلك ، جبرا لكسرهم في هجرتهم الهاجرة ، وإعلاء لكلمة الحق إحقاقا لها وإخفاقا للباطل ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً﴾ تأكيدا لهم أن سيروا وعين الله يرعاكم ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ مقالهم ومقال أعدائهم «عليم» بحالهم وحال أعداءهم وما هو الصالح في ذلك المسرح الوطيد.

---

(١) المصدر أخرج ابن جرير عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي قالا : لما دنى القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) قبضة من تراب فرمى بها في وجوه القوم وقال : شاهت الوجوه فدخلت في أعينهم كلهم وأقبل أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) يقتلونهم وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فأنزل الله ﴿وَما رَمَيْتَ﴾.

(٢) في تفسير الفخر الرازي ١٥ : ١٣٦ قال مجاهد : اختلفوا في بدر فقال هذا أنا قتلت وقال الآخر أنا قتلت فأنزل الله هذه الآية ، وروى أنه لما طلعت قريش قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) هذه قريش قد جاء بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك : اللهم إني اسألك ما وعدتني ، فنزل جبرئيل وقال : خذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما التقى الجمعان قال لعلي (عليه السلام) أعطني قبضة من التراب من حصباء الوادي فرمى بها في وجوههم وقال : شاهت الوجوه فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه فانهزموا.

﴿ذلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ﴾(١٨).

«ذلكم» الله ربكم إن تنصروه ينصركم ، و «ذلكم» الغلب الخارق لمألوف الحروب هو من بلاءه الحسن «ذلكم» فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴿وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ﴾ كما أوهنه ب «ذلكم» الرمية والقتلة.

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١٩).

وهل المخاطبون هنا هم المشركون حيث استفتح أبو جهلهم بقوله : «اللهم ربنا ديننا القديم ودين محمد الحديث فأي الدينين كان أحب إليك وأرضى عندك فانصر أهله اليوم» فقد جاءكم الفتح ، حيث فتح عليكم للمؤمنين لأنهم أحب إليه وأرضى عنده.

جاءكم الفتح المرضي عند الله لصالح الأحب إلى الله والأرضى ، فجعل الدائرة عليكم تحقيقا لاستفتاحكم ، فعليكم ـ إذا ـ أن تنتهوا عن غيكم وجهلكم إلى رشدكم إيمانا بهذه الرسالة السامية ، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وما أنتم عليه شرّ لكم.

﴿وَإِنْ تَعُودُوا﴾ إلى غيكم ومحاربة المؤمنين «نعد» إلى نصرهم وهزيمتكم ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ عدّة وعدّة ﴿شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ كما لم تغن عنكم يوم بدر ﴿وَأَنَّ اللهَ﴾ على أية حال ﴿مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ما داموا معه ، فالمعركة ـ إذا ـ بين الفريقين غير مكافئة حيث المؤمنون ـ ومعهم الله ـ هم منتصرون دائما ، والكافرون منهزمون كذلك ، معركة مقررة المصير ، إلا عند تخلف المؤمنين عن المسير ، إذا فمصيرهم مصير من سواهم بسجال الحرب.

ذلك ، وإلى واجهة أخرى علّها معنية مع الأولى : ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ أنتم المؤمنين فتح الفتوح ، رجوعا إلى العاصمة الرسالية ، وكما كانوا يستفتحون منذ الهجرة : ﴿وَأُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦١ : ١٣).

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ هنا في بدر ، كبادرة للفتح المبين وأنتم أذلة وقلة ف ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ وسوف يأتيكم ـ بأحرى ـ بعد ردح إذا كنتم كما أنتم وبأحرى وأقوى ، فقد تشمل ﴿جاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ الفتح المستقبل إلى الماضي قضية تحقق وقوعه بما وعد الله.

ثم تحول الخطاب إلى الفرق الآخر ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾ أم وقد يشمل المؤمنين ﴿إِنْ تَنْتَهُوا﴾ عما لا يليق بالمؤمنين ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أو «تنتهوا» عن استعجال الفتح المبين حيث يأتي الله لكم حتى حين ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ﴿وَإِنْ تَعُودُوا﴾ لهذه الحالة والهالة الإيمانية التي اقتضت غلبكم عليهم «نعد» إلى نصركم ، ولكن اعلموا أنه : ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ لو لا واقع الإيمان ، كما لم تغن يوم أحد حيث تركتم المواقع المقررة لكم طمعا في الغنيمة ، وعلى أية حال ﴿وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قدر إيمانهم.

وما أجمله جمعا بين الخطابين بمثنى الاستفتاحين المتعاكسين ، ثم ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾ أنتم المشركين عما أنتم عليه ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ توبة إلى الله أم تركا لمحاربة المؤمنين بالله ، ﴿وَإِنْ تَعُودُوا﴾ إلى تلك المحاربة «نعد» إلى ذلك الاستفتاح ، واعلم أن ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ عدّة وعدّة عن الله «شيئا» ما دام الله مع المؤمنين ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ كما كثرت ﴿وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أم ﴿إِنْ تَنْتَهُوا﴾ أنتم المؤمنين عن القتال استفزازا للكفار ، أم عن الاستفتاح العاجل ، أم عما لا يليق بالمؤمنين ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ﴿وَإِنْ تَعُودُوا﴾ إلى صالح الإيمان «نعد» إلى الفتح لصالح الأمان ، واعلموا أنه ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً﴾ إن كانت لكم فئة ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ لو لم يكن الله ناصركم ﴿وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فقد حملت الآية نذارة للكافرين وبشارة للمؤمنين دونما اختصاص في خطابها فريقا دون آخرين ، قضية أدب اللفظ وحدب المعنى.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (٢٥) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآواكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللهَ

وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ﴾(٣٠)

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾(٢١).

﴿أَطِيعُوا اللهَ﴾ فيما يأمركم وينهاكم «ورسوله» فيما يحمل إليكم من طاعة الله ﴿وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ : عن الله أصالة وعن رسوله رسالة ، فإفراد الضمير قاصد إلى تلك الأصالة أن ليست طاعة الرسول مستقلة أو مشتغلة عن طاعة الله ، ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أنباء ما قد سلف من المتولين عن الله ورسوله ، والمطيعين الله ورسوله ، و «تسمعون» أوامر الله تترى في كتابه وعلى لسان رسوله.

﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا﴾ كالمنافقين ﴿وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ عقيديا وعمليا ، فإنما يسمعون سمع النفاق دون وفاق ، وكالكفار المستهزئين بما يسمعون : ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا﴾ (٨ : ٣١) فهم ﴿لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها﴾ (٧ : ١٧٩) كافرين أو منافقين ﴿وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾ (٦٧ : ١٠) أم ومؤمنين متخلفين قدر ما هم يشابهونهما في عدم سمعهم لما يسمعون.

فقد تعني ﴿وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ جمعا من المكيين الذين آمنوا أوّل مرة

ثم أخرجوا مع المشركين إلى بدر التحاقا إلى الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) أم نظرة الالتحاق بالفرقة الغالبة ، فلما رأوا قلة المسلمين قال نفر منهم ﴿غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾ وأما الذين خرجوا إلى بدر مع الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) فهم خلّص ذو خلّط مهما كانوا درجات.

وحين تكون طاعة الرسول كطاعة الله مفروضة طليقة والتولي عنه كالتولي عن الله مرفوض طليق فما هو الجواب عن «حيلولة عمر بينه (صلى الله عليه وآله وسلم) وبين كتابة وصيته (صلى الله عليه وآله وسلم) في مرض وفاته» [١]؟ والوصية حق لكل مسلم فضلا عن النبي الذي يعني في وصيته تحويل هامة الأمور الرسالية إلى من يرضاه الله! و «لقد لد في مرضه وهو غير راض» [٢].

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾(٢٢).

إن الشرّ المعني هنا ليس إلّا في حقل التكليف الإنساني ومن أشبه ، فالتعبير هنا ب : «الدواب» دون «الناس» أو ﴿الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ تنديد بهؤلاء النسناس الذين هم في الحق دوابّ بل هم أضل : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ﴾ (٧ : ١٧٩).

ف «الدواب» هنا طليعة تشمل خيرها وشرها ، من حيوانها وإنسانها وغيرهما ، والشر الطليق بينها ﴿الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ شرا بين خير من الدواب أو شر بقصور أم تقصير.

فطالما البهائم لها آذان ولكنها ليست لتسمع سمع الإنسان ، وهي

---

(١) مفتاح كنوز السنة نقلا عن بخ. ك ٣ ب ٣٩ قاك ٥٨ ب ٦ ، ك ٦٤ ب ٨٣ ك ٧٥ ب ١٧ ك ٩٦ ب ٢٦ مس. ك ٢٥ ب ٢٢ قد. ج ٢ ق ٢ ص ٣٦ و ٣٢٤ و ٣٣٦ قا حم. أوّل ص ٢٣٢ و ٢٩٣ و ٣٢٤ و ٣٣٦ قا ٣٥٥ ثالث ص ٣٤٦.

(٢) المصدر. ك ٧٦ ب ٢١ مس. ك ٣٩ ح ٨٥ و ٨٦ عد. ج ٢ ق ٢ ص ٣١ حم. أول ص ٢٠٩ سادس ص ٥٣ و ١١٨ و ٤٣٨ هش. ص ١٠٠٧.

مهتدية بفطرتها كما فطر الله ولكن هؤلاء الدواب الناس النسناس لهم آذان وألسنة وهم بسوء صنيعهم لا يسمعون إنسانيا ولا ينطقون ، فقد قطعوا عن أنفسهم النفسية الإنسانية النفيسة إلى نفسية نحيسة بئيسة تعيسة جعلتهم ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ بصورة طليقة! حيث سدوا منافذ الإدراك ظاهرا على آذانهم ، واذاعتها على ألسنتهم ، وباطنا على قلوبهم ، وأهم الواردات المعرفية هي الواردة من الأسماع : ﴿وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾ (٦٧ : ١٠).

وشر الدواب هؤلاء الأنكاد لهم «الصورة صورة إنسان والقلب قلب حيوان وذلك ميت الأحياء» (٨٥ / ١٥٥). أولئك «لم يستضيئوا بأضواء الحكمة ، ولم يقدحوا بزناد العلوم الثاقبة ، فهم في ذلك كالأنعام السائمة ، والصخور القاسية» (١٠٦ و ٤٠). «منهوما باللذة ، سلس القياد للشهوة ، أو مغرما بالجمع والادخار ، ليسا من رعاة الدين في شيء ، أقرب شيء شبها بالأنعام السائمة» (١٤٧ ح / ٥٩٥).

إن الله تعالى لم يخلق دابة شريرة في أصلها ، فلم يخلق الشيطان شيطانا وإنما جنا كسائر الجان ، ثم هو الذي شيطن نفسه بسوء صنيعه ، كما لم يخلق الكافر كافرا ، وكذلك سائر الدواب الشريرة ، اللهم إلّا شرا قاصرا هو قضية كون الكائن مخلوقا إذ لا يمكن أن يخلق ما هو خير مطلق كما الله.

ذلك ، فالدواب الشريرة في حقل ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ﴾ هي المقصرة في شرها فأين تقصير سائر الدواب وتقصير الصم البكم ، فقضية خلق الإنسان في أحسن تقويم والشرعة التي تقومه أكثر صاعدا في المعارج ، ألا يعمل شرا أم يعمل أقل من سائر الدواب ، فأما إذا يعاكس الإنسان أمره ارتدادا إلى أسفل سافلين فهو ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ بصورة طليقة وكما يقول الله عنه ﴿حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ مهما كان حمل الأمانة خيانة من سائر الكائنات كثيرة ، فهو بجنب حمل الإنسان ضئيل قليل.

والتعبير عن الصم البكم بالدواب تعبير لهم بارتجاعهم إلى كيان الدواب الشريرة وأضل سبيلا ، فلا يحق لهم اسم الإنسان أو الناس بل هم الدواب النسناس.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾(٢٣).

هنا «لو» تحيل أن يعلم الله فيهم خيرا إذ لا خير فيهم حتى يعلم ، فهنا مساواة بين علم الله شيئا وواقعه ، وبين عدمه وعدم واقعه لأنه بكل شيء محيط.

فحين لا سمع لهم وهم صمّ بسوء فعالهم واختيارهم ، فلا يحق إسماعهم الحق الذي هم عنه معرضون ، إذا ـ والحال هذه ـ «ولو أسمعهم ـ اسمع قلوبهم وشرحها لما تسمعه آذانهم ـ لتولوا» عما أسمعو ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن الحق المرام. ف «إذا أراد الله بقوم خيرا أسمعهم ولو أسمع من لم يسمع لولى كأن لم يسمع» (١).

فليس ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ واردا مورد سمع القبول ، وإلّا لاستحال التولي والإعراض ، إنما هو مورد سمع التمّنع لهؤلاء الدواب الصمّ البكم الذين لا يعقلون.

وقد قيل إنهم سألوا الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) أن يحيي لهم قصي بن كلاب وغيره من موتاهم ليخبروهم بصحة نبوته ، ولكنه تعالى علم منهم أنهم لا يقولون قولهم هذا إلا تعنتا وعنادا ، فحتى لو أسمعهم كلام موتاهم تصديقا لهذه الرسالة ﴿لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٤).

﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَهُمْ لا

---

(١) نور الثقلين ٢ : ١٤١ في أصول الكافي بسند متصل عن سلمة بن محرز قال : سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول : إن من علم ما أوتينا تفسير القرآن وأحكامه وعلم تغيير الزمان وحدثانه ، إذا أراد الله ثم أمسك هنيئة ثم قال : ولو وجدنا أوعية أو مستراحا لقلنا والله المستعان.

يَسْمَعُونَ﴾، ﴿إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ﴾ وكيف «لما» دون «إلى ما»؟ علّه كما الصراط المستقيم حيث يهداه أو يهدى له أو يهدي إليه، مثلث متدرجة الزوايا في حقل الهدى.

فهنا ﴿لِما يُحْيِيكُمْ﴾ لمحة إلى لزام الحياة لما يدعوكم بكل وصل: أصل دون أي فصل فاصل.

والحياة الموعودة هنا بالدعوة ليست ـ بطبيعة الحال ـ هي الحياة الحاصلة قبل الدعوة والاستجابة، كالحياة الحيوانية والإنسانية الفطرية والعقلية أماهيه من حياة معطاة قبل أي دعاء واستجابة.

ثم وليست هي حياة طليق الإيمان أيضا حيث المخاطبون هم المؤمنون، إذا فهي فوق أصل الإيمان بدرجاته المتكاملة على ضوء الاستجابة في مختلف حقول الدعوة الربانية، كالحياة الحاصلة بالجهاد في سبيل الله وهي ﴿إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ (٩ : ٥٢) قاتلا ومقتولا ف: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (٣ : ١٦٩) وهذه حياة متميزة عن سائر الحياة لأهل البرزخ.

هذا، ولكن لا تختص الحياة الموعودة بحياة الشهداء، كما لا تختص الدعوة لما يحييكم بالجهاد، بل هي الدعوة العامة القرآنية بكل حقولها.

ذلك والأحياء بهذه الحياة: ﴿أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ (٥٨ : ٢٢). ﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ (٦ : ١٢٢). ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦ : ٩٧): أطوار من الحياة بعد حياة الإيمان: تثبيتا للإيمان ومزيدا له وتأييدا بروح منه وسائر الحياة الطيبة علما ومعرفة وإيمانا، ف ﴿الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ﴾ (٤٧ : ١٧).

وبصيغة واحدة المجاهدة في سبيل الله هي التي تحييكم: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٦١ : ١١).

إذا ف «استجيبوا إذا دعاكم لما يحييكم» و «إذا» هذه مستمرة

على مدار الدعوات الربانية بالقرآن والسنة ، فانها تحييكم مهما اختلفت درجات إحياءها حسب درجات أحياءها وموادها ، وقد شهد بحق هذه الحياة الرسولية والرسالية المحمدية من غير المسلمين كثير (١).

---

(١) يقول الشاعر الفرنسي (لامارتين) ١٧٩٠ ـ ١٨٦٩ وهو من مشاهير الشعراء الفرنسيين وزعيم الحركة الرومنطيقية ـ يقول بحق هذا النبي العظيم :

«إن حياة مثل حياة محمد وقوة كقوة تأمله وتفكيره وجهاده ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه وشدة بأسه في لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان ، وإيمانه بالظفر ، وإعلاء كلمته ، ورباطة جأشه لتثبيت أركان العقيدة الإسلامية ، إن كل ذلك أدلة على أنه لم يكن يضمر خداعا أو يعيش على باطل.

فهو فيلسوف ، وخطيب ، ورسول ، ومشرع ، وهادي الإنسان ، إلى العقل ، وناشر العقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب ، ومؤسس دين لا فرية فيه ، ولا صور ، ولا رقيات ، ومنشئ عشرين دولة في الأرض ، وفاتح دولة روحية في السماء وتمتلئ بها الأفئدة ـ فأي رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثل ما أدرك ، وأي إنسان بلغ من مراتب الكمال مثل ما بلغ» (أخرجه المهندس زكريا هاشم زكريا : المستشرقون والإسلام ص ٢٧٢ ـ أنظر كتاب أحمد السيد (محمد نبي الإنسانية) دار الشروق ص ٧٦.

ويقول ويل ديورانت ـ المؤلف الأمريكي ، صاحب قصة الحضارة ـ : وإذا حكمنا للعظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا إن محمدا كان من أعظم عظماء التاريخ ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به دياجير الهمجية حرارة الجو وجذب الصحراء ، وقد نجح في تحقيق هذا الفرض نجاحا لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله ، وقل أن نجد إنسانا غيره حقق كل ما كان يحلم به ، واستطاع في جيل واحد أن ينشئ دولة عظيمة ، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم. (قصة الحضارة ـ ترجمة محمد بدران ـ الجزء الثاني المجلد الرابع ص ٦).

وفي دائرة المعارف البريطانية تحت مادة «محمد» : محمد بن عبد الله مؤسس الدين الإسلامي ـ ولد في مكة عام ٥٧٠ ميلادية ومات عام ٦٣٢ ، وقليلون هم الرجال الذين أحدثوا في البشرية الأثر العميق الدائم الذي أحدثه محمد ، لقد أحدث أثرا دينيا عميقا لا يزال منذ دعا إليه حتى الآن هو الإيمان الحي ، والشريعة المتبعة لأكبر من سبع سكان العالم. على أن أثره التاريخي يبدو بالأكثر عند ما نذكر أنه في أقل من عشرين سنة منذ بدأ دعوته قوّض دعائم إمبراطوريتين عقيدتين وهما الإمبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسية ، مؤسسا على أنقاضها حضارة جديدة.

ولقد أرسى منذ جاء بدعوته ـ التي هي عقيدة وشريعة ـ قواعد بناء المجتمع الاجتماعية.

ثم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ حيلولة صالحة لمن يستحقها بتلك الاستجابة الإيمانية ، وطالحة جزاء وفاقا للذين زاغوا فأزاغ الله قلوبهم وعلى حد المروي عن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم): «يحول بين المؤمن والكفر ويحول بين الكافر والهدى» [1] فلو أن قلب المؤمن حاول التقلب إلى الردى حال بينه وبينها ، ويعاكس أمر الكافر إلى الردى.

ذلك ، ومما يحييكم ، الداخل في دعوة الله والرسول ، ولاية

ـ والسياسية ، وقد أعقب موته أن سجل خلفاءه الأحاديث التي رويت عنه ، وأدق التصرفات والأفعال التي قام بها ، فاتخذ المؤمنون من هذه الأحاديث نبراسا ومثلا أعلى يحتذونه في حياتهم اليومية جيلا بعد جيل (أحمد السيد : محمد نبي الإنسانية ـ دار الشروق ص ٧٢).

وجاء في كتاب (مختصر تاريخ الإنسانية) لمؤلفه هـ. ج. ويلز : كان يمكن لأي متنبئ تاريخي يستعرض حياة بشر في مستهل القرن السابع الميلادي ، أن يتوقع بحق أنه لن تمضي بضعة قرون حتى تقع كل أوروبا وآسيا تحت سيادة المغول والتتار ، فلم يكن في أوروبا الغربية أي إشارة تدل على إمكان قيام النظام فضلا عن الوحدة ، والامبراطوريتان البيزنطية والفارسية كانتا في طريقهما نحو الانحلال والدمار.

ولكن هذا المتنبي كان سيخطئ في تقديره ، فقد اشتعلت دنيا الصحراء والبدو بمائة عام من المجد عند ما بسط العرب سلطانهم ومدوا حكمهم ولغتهم من اسبانيا إلى حدود الصين ، مقدمين للعالم ثقافة جديدة ، ومنشئين دينا لا يزال حتى اليوم أحد القوى الحيوية في العالم.

وكان محمد بن عبد الله هو الذي أشعل الجزيرة العربية ودفعها لتحقيق ذلك كله ، والذي ظل حتى سن الأربعين لا يميز نفسه بشيء غير عادي عن بقية معاصريه ، (أخرجه أحمد السيد في : محمد نبي الإنسانية ، المصدر نفسه ص ٧٣).

(١) الدر المنثور ٣ : ١٧٦ ـ أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : سألت النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) عن هذه الآية ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ قال : ، وفيه عن ابن عباس في الآية قال : يحول بين المؤمن وبين معصيته التي يستوجب بها الهلكة فلا بد لابن آدم أن يصيب دون ذلك ولا يدخل على قلبه الموبقات التي يستوجب بها دار الفاسقين ويحول بين الكافر وطاعته فلا يصيب من طاعته ما يستوجب ما يصيب أولياءه من الخير شيئا وكان ذلك في العلم السابق الذي ينتهي إليه أمر الله تعالى وتستقر عنده أعمال العباد.

علي بن أبي طالب (عليه السلام) كما يروى [١].

وعلى أية حال : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (٥٠ : ١٦) فالله أقرب إلى قلوبنا منا إليها :

يار نزديكتر از من بمن است   وين عجب تر كه من أز وى دورم

ذلك ، ف «كل ميسر صاحب النار ميسر لعمل النار وصاحب الجنة ميسر لعمل الجنة» [٢] : إذ ﴿كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ (١٧ : ٢٠).

أجل ، كلّ ميسر وليس مسيّرا ، وليست الحيلولة الربانية بين المرء وقلبه مؤمنا أو كافرا ، إلا بما يختاره صاحبه تيسرا لما يهواه ، دون ما يختاره الله له أو عليه تسييرا خلاف هواه ﴿وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

فالحيلولة الربانية بين المرء وقلبه تحلق على كل مرء بقلبه ، ولأن القلوب هي أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس

---

(١) وممن أورده وصححه الحافظ أبو بكر بن مردويه على ما في تفسير اللوامع وكشف الغمة (٩٥) روى باسناده مرفوعا إلى الإمام الباقر (عليه السلام) أن هذه الآية قد نزلت في ولاية علي بن أبي طالب ، ومنهم الترمذي في مناقب مرتضوي (٥٦) نقلا عن ابن مردويه في المناقب.

(٢) المصدر أخرج أبو الشيخ عن أبي غالب قال سألت ابن عباس عن هذه الآية قال : قد سبقت بها عند رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) إذ وصف لهم عن القضاء فقال لعمرو غيره ممن سأله من أصحابه : اعمل فكل ميسر قال : وما ذلك التيسر؟ قال (صلّى الله عليه وآله وسلم) صاحب النار.

وفي نور الثقلين ٢ : ١٤١ عن تفسير القمي عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية يقول : بين المؤمن ومعصيته أن تقوده إلى النار وبين الكافر وبين طاعته أن يستكمل بها الإيمان واعلموا أن الأعمال بخواتيمها ، وفيه عن كتاب التوحيد عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : يحول بينه وبين أن يعلم أن الباطل حق ، وفي رواية أخرى عنه (عليه السلام): لا يستيقن القلب أن الحق باطل أبدا ولا يستيقن القلب أن الباطل حق أبدا.

والحواس أئمة الأعضاء ، فلا تفويض لعباد الله في أفعالهم كما لا جبر ، ولله تعالى الدور الأصيل في تحويل القلوب عدلا وفضلا ، حيلولة بين إمام الأئمة والمأمومين في مخمس الكيان الإنساني في هذا الحقل.

وليس ﴿اللهَ يَحُولُ﴾ يعني انه بذاته يحول بين المرء وقلبه ، فإنما هي علمه ومشيئته الحائلة بينهما ، فصلا بين المرء وبين قلبه ، فانه فصل بين قلبه كإمام الأئمة وبين المأمومين العقول والأفكار والحواس والأعضاء.

فحين يحنّ قلب المؤمن خلاف هواه إلى شرّ أو يحن إلى ترك خير ف ﴿اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ تقليبا له إلى خير أم ترك شر ، ويعاكسه الكافر ، قضية الجزاء العدل.

فرغم أن القلوب أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء [(١)] ، رغم ذلك لله المشية الحكيمة بين القلوب وسائر الخمسة تدبيرا صالحا على ضوء ما يقدمه المرء من معدّات وما يعنيه في أصل التصميم الصميم خيرا أو شرا ، وصالح الحيلولة الإلهية هو حيلولة العلم فإنه أقرب إلينا منا ، وحيلولة القيومية ، فإنه أقوم لنا منا ، وحيلولة الإرادة إيجابيا أو سلبيا في صالحنا وطالحنا كما هو قضية العدل أو الفضل ، توحيدا لربوبية التأثير ، وحين يحول الله بين المرء وقلبه ، فبأحرى له أن يحول بين المرء وكل قواته ومراداته ، بين بصره ومبصره ،

---

(١) وبنقل آخر في مستدرك نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله : العقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة القلوب والقلوب أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء(مستدرك ١٧٦) ولكن الآية تؤيد ما ننقله في المتن كرارا ، حيث المحاور الأصيلة هي القلوب ، وحصائل العقول والأفكار والصدور لما تدخل في القلوب تغربل وتخلص.

وقد يوجه الوجهان توافقا بينهما في وجهين ، ان للعقول قوسا صعوديا وآخر نزوليا ، فالصعودي إنها أسس الأفكار ثم الأفكار أسس القلوب ثم القلوب آمرة للحواس ثم الحواس آمرة للأعضاء.

والقوس النزولي ان القلوب تأمر العقول والعقول تأمر الأفكار والأفكار تأمر الحواس والحواس تأمر الأعضاء ، فالآمرية الأخيرة إذا هي للحواس حيث تأمر الأعضاء ، ثم بداية الصعود من العقول ، ثم نزول الأمر من القلوب إلى العقول إلى الأفكار. تأمل.

بين سمعه ومسموعه ، بين ذوقه ومذوقه ، بين حسه ومحسوسه ، وبين كل كيانه وما يهواه ، وحيلولته بين المرء وقلبه هي حيلولة بينه وبين كل كيانه ، وهو القائل ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ منه إلى نفسه وحياته ككل ، وهذه الحيلولة الشاملة هي من قضايا ملكه الطليق للكائنات كلها.

وليس يكفي للمرء أن يعقل صحيحا ، فكثير هؤلاء الذين يعقلون ثم لا تطمئن قلوبهم بما عقلوه لأن قلوبهم مقلوبة مطموسة مركوسة فلا تستجيب.

ذلك ، وبوجه آخر تعني هذه الحيلولة أن الله لا يغيب عن أي قلب مهما تناكر وتجاهل ، فقد يغيب عن القلب أي حاضر أو غائب ولا يغيب الله عنه قضية الفطرة المجبولة على معرفة الله ، فلا عاذرة في عدم استجابة الله ﴿إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ﴾.

فقد تعرفه القلوب ، ويعرف هو القلوب وما في القلوب ، وهو يقلبها كيف يشاء ، فهو المرجع والملجأ في تقلب القلوب فالعقول فالأفكار فالحواس فالأعضاء ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾.

وهذا المقطع القاطع من آية الاستجابة هذه يحلّق على جذور المعارف الربانية ، قاطعا أعذار المتجاهلين المتكاسلين دعوة الله ، قالعا غرة النفاق ، وغرور الإيمان الوفاق ، أن المؤمن - أيا كان - ليس ليستقل في إيمانه فتزول به نكبة الغرور نكسة للغرور ، وهو عبارة أخرى عن ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

ذلك ، ومن حيلولته تعالى بين المرء وقلبه قربه إليه أقرب من نفسه إلى نفسه ، ف ﴿نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (٥٠ : ١٦).

ومنها أن ينسيه ما ذكره أو يذكره ما نسيه ، فإن القلب بين أصبعي الرحمان ، ومنها أن يزيل عنه عقله وتميزه ، حيلولة لإزالته ، أم لتخفيفه ، أم ولتثبيته ، فلا فاعلية للقلب ولا عطلة إلا بإرادته تعالى حسب القابليات والفاعليات ، وهكذا يحول بين قلب الكافر وبينه تجميدا لصميم قصده السيء الخطر ، كما يحول بين قلب المؤمن وبين نفسه تأييدا له في فعل

الخير وترك الشر تكوينا ، كما ويحول تشريعا بالأمر والنهي حيث الإيمان قيد الفتك.

وتلك الحيلولة المؤمنة تعني إمحاء ما يناحر الإيمان أو يضعفه وكما يروى عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله تفسيرا لآية المحو والإثبات : يمحو الكفر ويثبت الإيمان ، ويمحو النكرة ويثبت المعرفة ، ويمحو الغفلة ويثبت الذكر ، ويمحو البغض ويثبت المحبة ، ويمحو الضعف ويثبت القوة ، ويمحو الجهل ويثبت العلم ، ويمحو الشك ويثبت اليقين ، ويمحو الهوى ويثبت العقل على هذا النسق ودليله ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ محوا وإثباتا [١].

حيلولات ربانية تناسب ساحة قدسه تعالى قضية وحدانيته الوحيدة غير الوهيدة فيما يحصل من خلقه أم لا يحصل.

ولعمر إلهي الحق إنها صورة رهيبة يتمثلها القلب بين أصبعي الرحمان ـ رحمة وغضبا ـ يقلبه كيف يشاء حسب المساعي صالحة وطالحة لأصحاب القلوب صورة تستوجب اليقظة الدائمة لخلجات القلب وخفقاته ولفتاته ، تحذرا من كل هاجسة فيه واجسة ، تعلقا دائما بالله ، واستجابة له ولرسوله مخافة تقلبه في سهوة أو غفلة أو دفعة ، ففرارا إليه مما سواه.

ولقد كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) على محتدة القمة عند الله يكرّر دعاءه : «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» فيكف بنا ونحن نحن المجاهيل الضعفاء الفالتون.

ف «اللهم داحي المدحوات وداعم المسموكات ، وجابل القلوب

---

(١) مجلة العرفان العدد الثالث المجلد ٦١ ص ٣٩٥ عنه (عليه السلام).

على خطريها : شقيها وسعيدها» (الخطبة ٧٠) ثبت قلوبنا على دينك.

فقلوب المؤمنين المطمئنين بالله تتقلب إلى الرشد والنور ، وقلوب من سواهم تتقلب إلى النار «قاسية عن حظها ، لاهية عن رشدها ، سالكة في غير مضمارها ، كأن المعني سواها ، وكأن الرشد في إحراز دنياها» [1] «فالصورة صورة إنسان ، والقلب قلب حيوان وذلك ميت الأحياء» (٨٥) .

ف «أين القلوب التي وهبت لله ، وعوقدت على طاعة الله» (١٤٢) .

فلو شغلت قلبك أيها المستمع بالوصول إلى ما يهجم عليك من تلك المناظر المونقة ، لزهقت نفسك شوقا إليها ، ولتحملت من مجلسي هذا إلى مجاورة أهل القبور استعجالا بها ، جعلنا الله وإياكم ممن يسعى بقلبه إلى منازل الأبرار برحمته (١٦٣) . و «أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق وألهمنا وإياكم الصبر» (١٧١) .

«وإن لسان المؤمن من وراء قلبه ، وإن قلب المنافق من وراء لسانه ، لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام تدبره في نفسه ، فإن كان خيرا أبداه ، وإن كان شرا واراه ، وإن المنافق يتكلم بما أتى على لسانه ، لا يدري ماذا له وماذا عليه ، ولقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه» (١٧٤) .

«ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد ، ويتعبدهم بأنواع المجاهد ، ويبتليهم بضروب المكاره ، إخراجا للتكبر من قلوبهم ، وإسكانا للتذلل في

(١) نهج البلاغة الخطبة ٨١ / ٢ / ١٤٣. وكذلك التي تتلوها بارقامها.

نفوسهم ، وليجعل ذلك أبوابا فتحا إلى فضله ، وأسبابا ذللا لعفوه ، فالله الله في عاجل البغي ، وآجل وخامة الظلم ، وسوء عاقبة الكبر ، فإنها مصيدة إبليس العظمى ، ومكيدته الكبرى ، التي تساور قلوب الرجال مساورة السموم القاتلة ، فما تكدي أبدا ، ولا تشوي أحدا ، لا عالما لعلمه ، ولا مقلا في طمره ، وعن ذلك ما حرس الله عباده المؤمنين بالصلوات والزكوات ، ومجاهدة الصيام في الأيام المفروضات ، تسكينا لأطرافهم ، وتخشيعا لأبصارهم ، وتذليلا لنفوسهم ، وتخفيضا لقلوبهم ، وإذهابا للخيلاء عنهم» (١٩٠) .

ف «أحي قلبك بالموعظة ، وأمته بالزهادة ، وقوه باليقين ، ونوره بالحكمة ، وذلله بذكر الموت ، قرره بالفناء ، وبصره فجائع الدنيا ، وحذره صولة الدهر وفحش تقلب الليالي والأيام ، وأعرض عليه أخبار الماضين ، وذكره بما أصاب من كان قبلك من الأولين» (٢٧٠) .

فيا لله من ذلك القلب المتقلب الذي أحتل الإمامة الكبرى في كيان الإنسان ككل ، ف «لقد علق بنياط هذا الإنسان بضعة هي أعجب ما فيه وذلك القلب . بضعة من روحه . وله موارد من الحكمة وأضداد من خلافها ، فان سنح له الرجاء أذله الطمع ، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص ، وإن ملكه اليأس قتله الأسف ، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ ، وإن أسعده الرضا نسي التحفظ ، وإن ناله الخوف شغله الحذر ، وإن اتسع له الأمن استلبته الغرة ، وإن أفاد مالا أطغاه الغنى ، وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع ، وإن عضته الفاقة شغله البلاء ، وإن جهده الجوع قعد به الضعف ، وإن أفرط به الشبع كظة البطنة ، فكل تقصير به مضر ، وكل إفراط له مفسد» (١٠٨ ح).

و «إن للقلوب شهوة وإقبالا وإدبارا ، فأتوها من قبل شهوتها وإقبالها ، فإن القلب إذا أكره عمي» (١٩٣ ح) .

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾(٢٥).

انها فتنة شاملة حاملة الذين عدلوا إلى الذين ظلموا ، أو ليس هذا ظلما بالذين لم يظلموا أن يسوّوا بالذين ظلموا في هذه الفتنة؟ أم كيف تتقى وتقوى العدول هي خير وقاية ، فإن كان هؤلاء غير متقين فهم من الذين ظلموا.

وإن كانوا متقين فكيف ـ إذا ـ يتقون؟ إنها فتنة وليست ـ فقط ـ عذابا حتى لا يشمل غير الذين ظلموا ، فتنة شاملة واختبار هي للذين ظلموا شر ودمار ، ولكنها لغير الظالمين فتنة عليهم أن يتقوها ويقوا أنفسهم منها حتى يتخلصوا عنها ناجحين ، مهما هلكت فيها أبدانهم وفنيت أموالهم.

فالفتن الربانية أنماط وأشكال يتعاكس الأمر فيها للذين اتقوا على الذين ظلموا ، فقد تكون فتنة خير وسعة ، وأخرى فتنة شر وضيق ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (٢١ : ٣٥) فالذين آمنوا واتقوا هم ناجحون والذين فسقوا وطغوا هم ساقطون : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ (٩ : ٤٩).

فمن جملة الفتن التي ﴿لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خاصَّةً﴾ فتنة الخلافة بعد الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) [1] وعن النبي (صلّى الله

---

(١) نور الثقلين ٢ : ١٤٢ عن العياشي عن عبد الرحمن بن سالم عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية قال : أصابت الناس فتنة بعد ما قبض الله نبيه حتى تركوا عليا وبايعوا غيره ، وهي الفتنة التي فتنوا بها وقد أمرهم رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) باتباع علي (عليه السلام) والأوصياء من آل محمد (عليهم السلام).

عليه وآله وسلم) قال : أخبرت أنهم أصحاب الجمل [١] وفتنتهم في ليلة القدر هل هي ماضية أم مستمرة [٢] وما أشبه من فتن صعبة ملتوية تجعل المتوسطين في الإيمان حيارى ، فضلا عن البسيطين كفتنة الرماة يوم أحد ، وهنالك مجالة حق التقوى حفاظا على صالح الهدى.

ولقد تعترضكم فتن تزلزل فيها أركان الإيمان ، ما ليس لها بقية إلّا بكامل التقوى والإيمان : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ (٢ : ٢١٤).

ف «يا أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة» (الخطبة ٥). فإن الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطرات المطر إلى كل نفس بما

. وفي ملحقات أحقاق الحق ٣ : ٥٤٦ عن النيشابوري تفسيره ٩ : ١٣٤ بهامش تفسير الطبري.

وفيه ١٤ : ٣٩٩ عن الحسكاني في شواهد التنزيل ١ : ٢٠٦ بسند متصل عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) : من ظلم عليا مقعدي هذا بعد وفاتي فكأنما جحد نبوتي ونبوة الأنبياء قبلي ، وعن الزبير بن العوام أنه قرأ هذه الآية فقال : ما شعرت أن هذه الآية نزلت فينا إلا اليوم ، يعني يوم الجمل في محاربته عليا ، وفيه عن ابن عباس في الآية قال : حذر الله أصحاب محمد (صلّى الله عليه وآله وسلم) أن يقاتلوا عليا.

(١) المصدر عن العياشي عن إسماعيل السرى عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) : .. ، وفي تفسير الفخر الرازي ١٥ : ١٤٩ عن السدي نزلت في أهل بدر اقتتلوا يوم الجمل وروي أن الزبير كان يساير النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) يوما إذ أقبل علي رضي الله عنه فضحك إليه الزبير فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) : كيف حبك لعلي؟ فقال يا رسول الله أحبه كحبي لولدي أو أشد ، فقال : كيف أنت إذا سرت تقاتله.

(٢) المصدر في أصول الكافي باسناده إلى أبي عبد الله (عليه السلام) عن علي بن الحسين (عليهما السلام) حديث طويل وفيه : ثم قال في كتابه ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ في ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ يقول : إن محمدا (صلّى الله عليه وآله وسلم) يموت يقول أهل الخلاف لأمر الله عزّ وجلّ : مضت ليلة القدر مع رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فهذه فتنة أصابتهم خاصة.

قسم لها من زيادة أو نقصان فإن رأى أحدكم لأخيه غفيرة ـ زيادة ـ في أهل أو مال أو نفس فلا تكونن له فتنة (خ ٢٣) .

و «كن في الفتنة كابن اللبون ـ رضيع الناقة ـ لأظهر فيركب ولا ضرع فيحلب» (ح) ولا يقولن أحدكم : اللهم إن أعوذ بك من الفتنة ، لأنه ليس أحد إلا وهو مشتمل على فتنة ، ولكن من استفاد فليستفد من مضلات الفتن فإن الله سبحانه يقول : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (٩٣) ح).

أما بعد أيها الناس ، فأنا فقأت عين الفتنة ولم يكن ليجترئ عليها غيري بعد أن ماج غيهبها ، واشتد طلبها ، فاسألوني قبل أن تفقدوني ، فو الذي نفسي بيده لا تسألونني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ، ولا عن فئة تهدي مائة وتضل مائة إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومناخ ركابها ومحط رحالها ومن يقتل من أهلها قتلا ومن يموت منهم موتا ، ولو فقدتموني ونزلت بكم كرائه الأمور وحوازب الخطوب لأطرق كثير من السائلين ، وفشل كثير من المسؤولين ، وذلك إذا قلّصت حربكم ، وشمّرت عن ساق ، وكانت الدنيا عليكم ضيقا تستطيلون معه أيام البلاء عليكم ، حتى يفتح الله لبقية الأبرار منكم .

إن الفتن إذا أقبلت شبّهت ، وإذا أدبرت نبّهت ، ينكرن مقبلات ، ويعرفن مدبرات ، يحمن حوم الرياح ، يصبن بلدا ويخطئن بلدا .

ألا وان أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية ، فإنها فتنة عمياء مظلمة عمّت خطّتها ، وخصّت بليّتها ، وأصاب البلاء من أبصر فيها ، وأخطأ البلاء من عمي عنها ، وأيم الله لتجدنّ بني أمية لكم أرباب سوء بعدي كالناب الضروس ، تعذم بغيها ، وتخبط بيدها ، وتزبن برجلها ، وتمنع درّها ، لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلا نافعا لهم ، أو غير ضاربهم ، ولا يزال بلاءهم عنكم حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلا كانتصار العبد من ربه ، والصاحب من مستصحبه ، ترد عليكم فتنتهم شوهاء مخشيّة ، وقطعا جاهلية ، ليس فيها منار هدى ، ولا علم يرى ،

نحن أهل البيت منها بمنجاة ، ولسنا فيها بدعاة ، ثم يفرجها الله عنكم كتفريج الأديم بمن يسومهم خسفا ، ويسوقهم عنفا ، ويسقيهم بكأس مصبّرة ، لا يعطيهم إلا السيف ، ولا يجلسهم إلا الخوف فعند ذلك تود قريش بالدنيا وما فيها لو يرونني مقاما واحدا ، ولو قدر جزر جزور لأقبل منهم ما أطلب اليوم بعضه فلا يعطونني (الخطبة ٩٢).

«فاتقوا سكرات النعمة ، واحذروا بوائق النقمة ، وتثبتوا في قتام العشوة واعوجاج الفتنة ، عند طلوع جنينها ، وظهور كمينها ، وانتصاب قطبها ، ومدار رحالها ، تبدو في مدارج خفية ، وتؤول إلى فظاعة جلية ، شبابها كشباب الغلام ، وآثارها كآثار السلام ، تتوارثها الظلمة بالعهود ، أولهم قائد لآخرهم ، وآخرهم مقتد بأولهم ، يتنافسون في دنيا دنية ، ويتكالبون على جيفة مريحة ، وعن قليل يتبرأ التابع من المتبوع ، والقائد من المقود ، فيتزايلون بالبغضاء ، ويتلاعنون عند اللقاء ، ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرجوف ، والقاصمة الزحوف ، فتزيغ قلوب بعد استقامة ، وتضل رجاء بعد سلامة ، وتختلف الأهواء عند هجومها ، وتلتبس الآراء عند نجومها ، من أشرف لها قصمته ، ومن سعى فيها حطمته ، يتكادمون فيها تكادم الحمر في العانة ، قد اضطرب معقود الحبل ، وعمي وصية الأمر ، تغيض فيها الحكمة ، وتنطق فيها الظلمة ، وتدق أهل البدو بمسحلها ، وترضهم بكلكلها ، يضيع في غبارها الوحدان ، ويهلك في طريقها الركبان ، ترد بمر القضاء ، وتحلب عبيط الدماء ، وتثلم منار الدين ، وتنقض عقد اليقين ، تهرب منها الأكياس ، وتدبرها الأرجاس ، مرعاد مبراق ، كاشفة عن ساق ، تقطع فيها الأرحام ، ويفارق عليها الإسلام ، بريها سقيم ، وظاعنها مقيم» (الخطبة ١٥١).

ذلك ، ومن واجهة أخرى لأن خطاب التحدير التحظير عام يعم كافة المؤمنين ، إذا ف «فتنة» عامة تشملهم أجمع بما ظلم ظالمهم ، كفتنة التفرق والتمزق من المفرقين بين المسلمين ، والاتقاء فيها درجات ، منها التقوى عن الدخول في الفتنة مسايرة معها أم عملا أو عمالة لها ، ومنها الصد عنها نهيا عن نكيرها قدر المستطاع ، ففتنة المنكر الجماعي تشمل

غير الظالمين الذين ظلوا عنها ساكتين لا يقومون بواجب الأمر والنهي ، وتشمل ـ شيئا ما ـ القائمين بهما إذا لم يتمسكوا بكامل التقوى إمساكا على إيمانهم ، وكما تشمل القصّر العاجزين عن الأمر والنهي ، والتقوى العامة المفروضة على الكل في هذه الفتن ألّا يسقطوا فيها ، ثم المفروضة على الخاصة أن يزيلوها أو يقلّلوها.

ففي فتنة السلطات غير الشرعية زمنية وروحية تتساقط الشعوب بين أيديها قدر تخاذلها أمامها ، تسايرا معها ، أم تركا للمعارضة الممكنة ضدها ، أم فسحا لمجال ظهورها في مظاهرها ، والتقوى العامة المفروضة على كل المؤمنين في هذه الفتن أن يتقوا السقوط فيها تجاوبا معها ، حفاظا على بقية الإيمان وبغيته ، ومعارضتها قدر المستطاع.

وهنا «لا تصيبن» نهي مؤكد بالثقيلة ، لمحة إلى ثقل الفتنة الشاملة ، وقد نفيت عن إصابة الظالمين خاصة ، لأنها فتنة عامة تعني ـ بطبيعة حالها ـ المجموعة ، والواجب في حقلها درجات من التقوى قدر المستطاع إزالة إياها أم ـ لأقل تقدير ـ عدم السقوط فيها.

ذلك ، وبوجه عام واجب المؤمنين أمام الفتنة الظالمة عامة وخاصة أن يصدوا عنها بداية واستمرارية ، أم ـ لأقل تقدير ـ ألّا يسايروها ويتماشوا معها أو يسقطوا فيها.

فالجماعة التي تسمح لفريق منها بظلم في أية صورة من صورها ، أو تسكت متجاهلا عنه ، ولا تقف في وجهه ، إنها جماعة تستحق أن تؤخذ بجريرة الظالمين.

إذا ف «اتقوا» صدور فتنة ، أم تزايدها ، أم المزايدة فيها ، أم السكوت عنها بعد ما حصلت ، أم التأثر بها ، فواجب التقوى أمام هذه الفتن العامة درجات حسب الإمكانيات ، لا ـ فقط ـ الاتقاء عن التأثر بها.

﴿فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خاصَّةً﴾ لأنها فتنة عامة ، أم شارك فيها غير الظالمين إلى الظالمين ، فأصبحوا معهم من الظالمين المستحقين لها.

فهذه الفتن الجماهيرية هي مثلثة الجهات : الظالمين ، والمقصرين أمامهم تركا لواجب الردع عن الظلم ، والقاصرين الذين لا صيت لهم في حقل الظلم ولا صوت ، فهي لهم فتنة غفرا وارتفاع درجة ، وللأولين فتنة جزاء لما ظلموا أصولا وأتباعا.

ذلك و «ذمتي بما أقول رهينة ، وأنا به زعيم ، إن من صرحت له العبر عما بين يديه من المثلات حجزته التقوى عن تقحم الشبهات ، ألا وان بيتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيكم (صلى الله عليه وآله وسلم) والذي بعثه بالحق لتبلبلن بليلة ، ولتغربلن غربلة ، ولتساطن سوط القدر ، حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم ، وليسبقن سابقون كانوا قصروا ، وليقصرن سباقون كانوا سبقوا ، والله ما كتمت وشمة ، ولا كذبت كذبة ، ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم ، ألا وإن الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها ، وخلعت لجمها فتقحمت بهم في النار ، ألا وإن التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها وأعطوا أزمتها فأوردتهم الجنة ، حق وباطل ، ولكل أهل ، فلئن امر الباطل لقديما فعل ، ولئن قل الحق فلربما ولعل ، ولقلما أدبر شيء فأقبل» (الخطبة ١٦).

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآواكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٢٦).

«واذكروا» أيها المؤمنون ﴿إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ كما في العهد المكي ﴿تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ النسناس نقمة إيمانكم وكفرهم «فآواكم» هجرة إلى المدينة ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ﴾ في حرب بدر وسواها ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

هذا ، وبصورة عامة قد يشمل الخطاب كافة الأميين قبل الإسلام حيث كانوا خطف الخاطفين من الروم والفرس [١] : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا

---

(١) الدر المنثور ٣ : ١٧٧ ـ أخرج الشيخ وأبو نعيم والديلمي في مسند الفردوس عن ابن

حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ (٢٩ : ٦٧) فآواهم الله بالإسلام ، ثم آوى المهاجرين إلى المأمن المدني [١] ومن أشد الاستضعاف لقبيل الإيمان ما حصل في العهد المكي بشعب أبي طالب حيث كانوا حاسرين عن كل متطلبات الحرية والحياة محصورين عن تحري الواجبات ، وذلك مشهد من التربص الوجل الوحل ، حتى لتكاد العين تبصر بالسمات الخائفة والأيدي الممتدة الخاطفة ، والقلة المستضعفة المسلمة في ارتقاب وتوجّس ، ومن هذا المشهد الحرج المرج الهرج إلى مشهد الإيواء والتأييد والنصر ورزق الطيبات في ظل الضيافة والإضافة الربانية العطيفة الحفيفة.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٢٧).

هنا ﴿وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ﴾ كأنها حال من ﴿لا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾ ف «أماناتكم» الربانية تحلّق على الفطرية والعقلية وسائر الآيات الأمانات أنفسية وآفاقية وأهمها منشور ولاية الله وهو كتاب الله ، ثم امانة الرسالة والولاية [٢] ثم «أماناتكم» الرسولية والرسالية هي التي يأتمنكم الرسول إياها بأمر الله في سنته ، فكما انفصلت طاعة الله عن طاعة الرسول في صيغة التعبير اعتبارا بالكتاب والسنة ، كذلك خيانة الله والرسول في هاتين

ـ عباس عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) في الآية قيل يا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) ومن الناس؟ قال : أهل فارس.

(١) المصدر أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدى في قوله : ﴿فَآواكم﴾ قال : إلى الأنصار بالمدينة ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ﴾ قال : يوم بدر.

(٢) في ملحقات إحقاق الحق ١٤ : ٥٦٤ عن الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ١ : ٢٠٥ في العتيق روى عن يونس بن بكار عن أبيه عن جعفر بن محمد بن علي في قوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ﴾ ـ في آل محمد ـ ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

الأمانتين ، إلى سائر الأمانات الربانية المعنية بآية الأمانة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (٣٣ : ٧٢).

ذلك ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ﴾ (٨ : ٧١) هي الأخرى الدالة على الأمانتين الربانية والرسالية.

ذلك ، وجزم «تخونوا» قد ينحّي احتمال حاليتها فإن قضيتها «وتخونون» فقد تعني الواو أصل العطف وعامل الجزم محذوف معروف من ﴿لا تَخُونُوا اللهَ﴾ حيث تعني «ولا تخونوا أماناتكم» كضابطة ناهية عن خيانة الأمانات كلها ، وهي ـ قضية الإضافة ـ تضم الأمانات الربانية عندكم ـ كأصل ـ وأمانات بعضكم عند بعض ، وقد يعني الجمع من العاطفة ـ كأصل ـ والحالية كفرع عليه ، والجزم هو قضية الأصل.

ولقد حصلت خيانات من المنافقين [١] والبعض من بسطاء المؤمنين بحق الله والرسول ، فعفى الله عمن استعفى كأبي لبابة [٢] ولم يكن ليعفوا

---

(١) الدر المنثور ٣ : ١٧٥ ـ أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن جابر بن عبد الله أن أبا سفيان خرج من مكة فأتى جبريل إلى النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) فقال : إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا فأخرجوا إليه واكتموا فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان أن محمدا (صلّى الله عليه وآله وسلم) يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله ﴿لا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾.

(٢) المصدر أخرج سنيد وابن جرير عن الزهري في الآية قال : نزلت في أبي لبابة بعثة رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فأشار إلى حلقه أنه الذبح فقال أبو لبابة لا والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب علي فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاما ولا شرابا حتى خر مغشيا عليه ثم تاب الله عليه فقيل له يا أبا لبابة قد تيب عليك ، قال : لا والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) هو الذي يحلني فجاءه فحلّه بيده.

وفيه أخرج عبد بن حميد عن الكلبي أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) بعث أبا لبابة إلى قريظة وكان حليفا لهم فأومأ بيده أي الذبح فأنزل الله هذه الآية فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) لامرأة أبي لبابة : أيصلي ويصوم ويغتسل من الجنابة؟.

عن المنافق قضية عناده ، فما خطاب الإيمان للمنافقين مع سائر المؤمنين إلّا بشامل الإقرار باللسان إيمان النفاق ، وكما في التكاليف العامة للمقرين ككل حيث تشمل المنافقين إلى الموافقين.

ولأن أصل الخيانة ليس إلا من منافق ثم من ضعفاء الإيمان قد شملها الخطاب.

هذا وخيانة الأمانة هي بصورة عامة محظورة ، فحتى إذا كانت خيانة بديلة خيانة (١).

. فقالت : إنه ليصلي ويصوم ويغتسل من الجنابة فبعث إليه فأتاه فقال يا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) والله اني لأصلي وأصوم واغتسل من الجنابة وإنما نهت إلى النساء والصبيان فوقعت لهم ما زالت في قلبي حتى عرفت أني خنت الله ورسوله.

وفيه أخرج ابن مردويه عن عكرمة قال لما كان شأن بني قريظة بعث إليهم النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) عليا رضي الله عنه فيمن كان عنده من الناس فلما انتهى إليهم وقعوا في رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وجاء جبريل (عليه السلام) إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) على فرس أبلق فقالت عائشة فلكأني أنظر إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) مسح الغبار عن وجه جبريل (عليه السلام) فقلت : هذا دحية يا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم)؟ قال : هذا جبريل ، فقال يا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) ما يمنعك من بني قريظة أن تأتيهم فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فكيف لي بحصنهم؟ فقال جبريل (عليه السلام) إني أدخل فرسي هذا عليهم فركب رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فرسا معرورا فلما رآه علي رضي الله عنه قال يا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) لا عليك أن لا تأتيهم فإنهم يشتمونك ، فقال : كلّا إنها ستكون تحية فأتاهم النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) فقال : يا إخوة القردة والخنازير ، فقالوا : يا أبا القاسم ما كنت فحاشا ، فقالوا : لا ننزل على حكم محمد (صلّى الله عليه وآله وسلم) ولكننا ننزل على حكم سعد بن معاذ فنزلوا فحكم فيهم أن تقتل مقاتليهم وتسبي ذراريهم ، فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) : بذلك طرقني الملك سحرا فنزل فيهم ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ نزلت في أبي لبابة أشار إلى بني قريظة حين قالوا : ننزل على حكم سعد بن معاذ : لا تفعلوا أمانة الذبح وأشار بيده إلى حلقه.

(١) نور الثقلين ٢ : ١٤٤ عن الكافي عن سليمان بن خالد قال سألت أبا عبد الله.

اللهم إلّا إذا تجرد الاعتداء بالمثل عن ظاهرة الخيانة [١].

فحين يخونك من ائتمنته على مال ليس لك أن تخونه فيما أئتمنك على مثله من مال ، اللهم إلّا أن تعلن له أن هذا بهذا أم تنويه ، دون أن تنكر أمانته كما أنكر هو أمانتك.

فهنا مال بديل مال ، إذا لم يردّ عليك المؤتمن فلا ترد عليه ما ائتمنه عندك ، وأما أن تنكر أمانته كما أنكر أمانتك بحلف وسواه ، فلا يبرره شيء ، إنما المبرّر استنقاذ حقك المهدور قدر المقدور دون تعد آخر عليه.

ذلك ، وبنظرة أخرى إلى الآية قد تعني ﴿وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ﴾ إضافة إلى الحال . الماضية . و «أن تخونوا» اعتبارا بثالث ثلاثة من موارد النهي ، خيانة الله والرسول وخياناتكم فيما بينكم ، فخيانة الله الخاصة هي خيانة آياته التكوينية والتشريعية ، وخيانة الرسول هي خيانته في سنته ، وهما أيضا من خياناتكم أنفسكم ، ثم خيانة بعضكم بعضها أم خيانة أنفسكم وهما أيضا من خيانة الله ، ثم الخيانات التي تعود بأخطارها وأضرارها إلى المجموعة المؤمنة هي مثلث الخيانة.

ثم ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنها خيانات و «تعلمون» أنها محرمات و «تعلمون» آثارها السيئة بنكبات ، و «تعلمون» واجب الحفاظ على الأمانات ف ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها﴾ (٤ : ٥٤). كما ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن خيانة الله والرسول هي خيانة أنفسكم كما وخيانة أنفسكم هي خيانة الله والرسول.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(٢٨).

﴿أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ﴾ في خيرها وشرها ، بكثرتهما وقلتهما وعلى

. (عليه السلام) عن رجل وقع لي عنده مال وكابرني عليه وحلف ثم وقع له عندي مال فأخذه مكان مالي الذي أخذه وأجحده وأحلف عليه كما صنع؟ فقال : إن خانك فلا تخنه فلا تدخل فيما عبته عليه.

(١) المصدر عن أبي بكر الحضرمي قال قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) : رجل كان له .

أية حال لهما «فتنة لكم وإمتحان» ، ف قد اختبرهم الله بالمخمصة ، وابتلاهم بالمجهدة ، وامتحنهم بالمخاوف ، ومخضهم بالمكاره ، فلا تعتبروا الرضا والسخط بالمال والولد جهلا بمواقع الفتنة والاختبار في موضع الغنى والاقتدار فقد قال سبحانه وتعالى : ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ﴾ فإن الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم (الخطبة ١٩٠).

ذلك ومن فتنة الخير الولد الصالحون ، وقد كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) يخطب على المنبر فجاء الحسن والحسين (عليهما السلام) وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) من المنبر فحملهما ووضعهما على يديه ثم قال : صدق الله حيث قال : ﴿أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[1].

و «انما» قد تحصرهما في امتحان ، وهما من الأمانات الربانية من أداها كما أمر وقرر فقد نجح ، ومن خانها فقد سقط ، ﴿وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ على الحسنات التي تقدمونها بأموالكم وأولادكم وسواهما ، فلتكن الأموال والأولاد ذريعة لكم إلى يوم المعاد.

ف ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ (٣ : ١٨٦). ﴿وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى﴾ (٣٤ : ٣٧) إلا ما تقدمونه في الله لأنفسكم ، ف ﴿نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ (٢ : ٢٢٣) ﴿تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ (٦١ : ١١).

. على رجل مال فجحده إياه وذهب به ثم صار بعد ذلك للرجل الذي ذهب بماله مال قبله أيأخذه منه مكان ماله الذي ذهب به منه ذلك الرجل؟ قال : نعم ، ولكن لهذا كلام يقول : اللهم إني آخذ هذا المال مكان مالي الذي أخذه مني وإني لم آخذ ما أخذت منه خيانة ولا ظلما.

(١) نور الثقلين ٢ : ١٤٥ في كتاب المناقب عن عبد الله بن بريدة قال سمعت أبي يقول : كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم).

أجل «وان المال والبنين حرث الدنيا ، والعمل الصالح حرث الآخرة وقد يجمعهما الله لأقوام» (الخطبة ٢٣ / ٦٩) وجمعهما أن تعمل صالحا فيهما.

«ولا حاجة لله فيمن ليس له في ماله ونفسه نصيب» (١٢٧ ح) ف «يا ابن آدم كن وصي نفسك في مالك ، واعمل فيه ما تؤثر أن يعمل فيه من بعدك» (٢٥٤ ح / ٦١٢) و «لكل امرئ في ماله شريكان الوارث والحوادث» (٣٣٥ ح).

ولا يقولن أحدكم : اللهم إني أعوذ بك من الفتنة. لأنه ليس أحد إلا وهو مشتمل على فتنة ، ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلات الفتن فان الله سبحانه يقول : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ ومعنى ذلك انه يختبرهم بالأموال والأولاد ليتبين الساخط لرزقه والراضي بقسمه ، وان كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم ، ولكن لتظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب والعقاب ، لأن بعضهم يحب الذكور ويكره الإناث وبعضهم يحب تثمير المال ويكره انثلام الحال (الحكمة ٩١).

فقد يفتن الإنسان في ماله : أنى لك هذا؟ وأين صرفته؟ وإلى م وجهتك أموالك؟ ولم ادخرتها؟ وكيف أنفقتها؟ وفيم صرفتها؟ أماهيه من فتن حول الأموال.

وكذلك الأولاد ، كيف رضاك عن ذكور دون إناث؟ أم إناث دون ذكور؟ أم جمعا بينهما وكيف ربيتهم؟ أم إلى م وجهتهم؟

فالأموال والأولاد أمانات ربانية يجب رعايتهما في سبيل الله دون التهاء بهما عما يرضاه الله ، فإلى تقوى الله في كل ما منحكم الله إياه أموالا وبنين وما أشبه ف :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(٢٩).

﴿إِنْ تَتَّقُوا اللهَ﴾ في أموالكم وأولادكم الفتنة ، وفي أنفسكم

﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً﴾ بين الحق والباطل ، والصالح والطالح ، والفالح والكالح ، نورا تمشون به في ظلمات الأرض فتهتدون إلى خيرات ، وإذا ما ابتليتم بسيئات فالتة أم خيرات فائتة ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

«فاتقوا الله عباد الله ، وفروا إلى الله من الله ، وامضوا في الذي نهجه لكم ، وقوموا بما عصبه بكم» (الخطبة ٢٤).

أجل ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ (٦٥ : ٣) فهنا على ضوء تقوى الله تقوى على إبصار الحق في خضمّ الباطل حيث يجعل الله لك مخرجا عن المضايق ، وفرقانا لمعرفة الحقائق : «ولو أن السماوات والأرضين كانتا على عبد رتقا ثم اتقى الله لجعل الله له منهما مخرجا» (الخطبة ١٢٨) وإلى الفلاح مبلجا.

وهنا فرقانان بين الحق والباطل ، فرقان بما نحاول كإتقان اللغة والأدب والبلاغة والفصاحة ثم التفكير والتدبر الصالح في القرآن ، وما هو إلا كعصمة بشرية لا تطلق الإنسان إلى الصواب إلّا القدر المحدّد المحدود بالطاقة البشرية.

وفرقان ثان نحصل عليه بتقوى الله بما يجعل الله : ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً﴾ وهو المنضم إلى الفرقان الأول يطلق صاحبه إلى الصواب الطليق في تفهم القرآن ، فكما العصمة الربانية حين تنضم إلى العصمة البشرية تتم العصمة وتطم ، كذلك الأمر في الفرقان الرباني المنضم إلى الفرقان البشري.

صحيح أنه ما لم يكن فرقان أوّل لا ينتج فرقان ثان النتيجة المطلوبة ، اللهم إلا عرفانا بالله وزائد الإيقان ، ولكنه هو المحور الأصيل الذي ليس عنه بديل في تكملة الفرقان الأوّل.

فلأن القرآن نور مطلق ، فلا يوصل إلى عمقه إلا بنور من الله وفرقان ، فهنالك مجمع فرقانين ، فرقان القرآن وفرقان الرحيم الرحمان لتفهّم القرآن ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

ففي مربع السلب والإيجاب لمسرح فرقان وفرقان ، نجد صاحب

الفرقانين حاصلا على البغية الصالحة ، الخليصة غير الخليطة ، ولصاحب الفرقان الأول قدر ما يتقن من وسيلة الوصول إلى الحق ، ولصاحب الثاني وصول أقوى ، ولفاقدهما خواء وبواء ، فطالما الفرقان الأول وسيلة غير طليقة ولكنما الثاني معه وصيلة طليقة كما وعد الله.

«واعلم أنه من يتق الله يجعل له مخرجا من الفتن ونورا من الظلم ، ويخلده فيما اشتهت نفسه ، وينزله منزل الكرامة عنده ، في دار اصطنعها لنفسه» (الخطبة ١٨١) . «ألا فصونوها وتصونوا بها ، وكونوا عن الدنيا نزاها ، وإلى الآخرة ولاها ، ولا تضعوا من رفعته التقوى ، ولا ترفعوا من رفعته الدنيا» (الخطبة ١٨٩) .

«أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله الذي ابتدأ خلقكم ، وإليه يكون معادكم ، وبه نجاح طلبتكم ، وإليه منتهى رغبتكم ، ونحوه قصد سبيلكم ، وإليه مرامي مفزعكم .

فإن تقوى الله دواء داء قلوبكم ، وبصر عمى أفئدتكم ، وشفاء مرض أجسادكم ، وصلاح فساد صدوركم ، وطهور دنس أنفسكم ، وجلاء عشا أبصاركم ، وامن مفزع جأشكم ، وضياء سواد ظلمتكم . فمن أخذ بالتقوى عزبت عنه الشدائد بعد دنوها ، واحلولت له الأمور بعد مرارتها ، وانفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها ، وأسهلت له الصعاب بعد انضبابها ، وهطلت عليه الكرامة بعد قحوطها ، وتحدبت عليه الرحمة بعد نفورها ، وتفجرت عليه النعم بعد نضوبها ، ووبلت عليه البركة بعد إرذاذها» (الخطبة ١٩٦) .

أجل فالتقوى هي الزاد ، عدة للطريق الملتوية الصعبة ، حيث تحيي القلوب وتوقظها وتستجيش فيها أجهزة الحذر والحيطة والوقاية ، كاشفة منحنيات الطريق ودروبه مدّ البصر والبصيرة ، دون غبش للشبهات الحاجبة للرؤية.

وإنها فرقان في كل خليط ، كاشفة منعرجات الطريق ، فطالما الهوى ينشر الغبش وتعمي المسالك وتخفي الدروب ، فالتقوى هي متراس ونبراس تنير الدرب على السالكين ، مزيلة كل غبش.

«فاتقوا الله تقية من سمع فخشع ، واقترف فاعترف ، ووجل

فعمل ، وحاذر فبادر ، وأيقن فأحسن ، وعبر فاعتبر ، وحذر فحذر ، وزجر فازدجر ، وأجاب فأناب ، وراجع فتاب ، واقتدى فاحتذى ، وأري فرأى ، فأسرع طالبا ، ونجا هاربا ، فأفاد ذخيرة ، وأطاب سريرة ، وعمر معادا ، واستظهر زادا ليوم رحيله ، ووجه سبيله ، وحال حاجته ، وموطن فاقته ، وقدم أمامه لدار مقامه .

فاتقوا الله عباد الله جهة ما خلقكم له ، واحذروا منه كنه ما حذركم من نفسه ، واستحقوا منه ما أعد لكم بالتنجز لصدق ميعاده ، والحذر من هول معاده .

فهل ينتظر أهل بضاضة الشباب إلا حواني الهرم ، وأهل غضارة الصحة إلا نوازل السقم ، وأهل مدة البقاء إلا آونة الفناء ، مع قريب الزيال ، وأزوف الانتقال ، وعلز القلق ، والم المضض ، وغصص الجرض ، وتلفت الإستغاثة بنصرة الحفدة والأقرباء ، والأعزة والقرناء ، فهل دفعت الأقارب ، أو نفعت النواحب ، وقد غودر في محلة الأموات رهينا ، وفي ضيق المضجع وحيدا ، قد هتكت الهوام جلدته ، وأبلت النواهك جدته ، وعفت العواصف آثاره ، ومحا الحدثان معالمه ، وصارت الأجساد شحبة بعد بضتها ، والعظام نخرة بعد قوتها ، والأرواح مرتهنة بثقل أعباءها ، موقنة بغيب أنباءها ، لا تستزاد من صالح عملها ، ولا تستعتب من سيء زللها .

أو لستم أبناء القوم والآباء وإخوانهم والأقرباء؟ تحتذون أمثلتهم ، وتركبون قدتهم ، وتطأون جادتهم ، فالقلوب قاسية عن خطها ، لاهية عن رشدها ، سالكة في غير مضمارها ، كأن المعني سواها ، وكأن الرشد في إحراز دنياها» (الخطبة ٨٢).

ذلك ، وليس «فرقانا» يختص بفرقان خاص ، فانه ككل ما يفرق بين الحق والباطل قرآنا ورسول القرآن وفاروق الأمة بعده وهو علي (عليه السلام).

فكما أن تقوى الله تستجلب فرقان الله بكل ما يعنيه ، كذلك

تستجلب فاروقا بعد النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) يفرق بين الحق والباطل في مضطرب الأحوال وتشتت الحال ، ولذلك سماه الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) فيما تواتر عنه «فاروقا» [١] وهكذا «من فارق عليا (عليه السلام) فقد فارق الله» [٢].

ومن غريب الوفق العددي بين «الفرقان» و «بني آدم» أن كلا مذكور سبع مرات في القرآن ، فنعرف مدى الوفق بين بني آدم والفرقان شريطة تقوى الله ، فكلما زادت التقوى زاد صاحبها فرقانا من الله وبرهانا مبينا.

وليس يختص «فرقان» لمن اتقى بحقل القرآن ، بل هو فرقان في كافة الحقول وهذه ميزة ثانية لفرقان الله بطليق مفعوله ، عن مصطلح الفرقان المختص بمعرفة معاني القرآن والسنة.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قالُوا اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٣٢)

---

(١) ملحقات إحقاق الحق ٤ : ٢٦ ـ ٣١ ، ٣٤ ـ ٣٥ ، ٢٨٤ ، ٣٣١ ، ٣٤٥ ، ٣٦٩ ـ ٣٧٠ ، ٣٨٦ و ٧ : ٣٧٢ و ١٥ : ٢٨٣ ـ ٢٨٦ ، ٢٩٢ ـ ٢٩٤ ، ٣٠٥ ـ ٣٠٨ ، ٤٣١ ، ٣٤١ ـ ٣٤٥ و ٢٠ : ٢٥٩ ـ ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٩٨ ، ٣٣٣ ، ٤٥٩ ، ٤٦٦ ، ٤٧٢ ، ٥٠٩ ، ٥٤٦ ـ ٥٤٨.

(٢) المصدر ٤ : ١٣٩ و ٥ : ٢٩١ و ٦ : ٣٩٥ ـ ٤٠٠ و ١٦ : ٦٠١ ـ ٦٠٥ و ٢١ : ٥٤٥ ـ ٥٤٩.

وما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَما لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَما كانُوا أَوْلِياءَهُ إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (٣٧) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ

الدّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(٤٠)

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ﴾(٣٠).

ذلك في دار الندوة ، مجلس الشورى لصناديد قريش حيث اجتمع فيه أربعون منهم أو يزيدون ، تشاوروا في أمر الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) كيف يعالجون موقفه الدعائي ، صدا عن دعاياته المستمرة المتخلخلة المتجلجلة بين الناس بتزايد بالغ يشكل خطرا حاسما على قبيل الإشراك.

وحصيلة الآراء الأولى هي ثالوث ﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾. ثم توافقت على «يقتلوك» ثم النتيجة الحاسمة لذلك التصميم «يخرجوك» حيث نبهه الله بما مكروه من قتلهم إياه فخرج إلى غار الثور وبات علي (عليه السلام) على فراشه ، ثم هاجر (صلّى الله عليه وآله وسلم) بعد ثلاثة أيام إلى المدينة.

وتلك الهجرة الهاجرة هي منقطعة النظير بين كل بشير ونذير بما فيها من خوارق عادات ، حيث خرج أمام المهاجمين ، آخذا بيده كفا من

تراب ، راميا إلى وجوههم بقوله : شاهت الوجوه ، كما فعله في بدر الكبرى ، متوجها إلى غار ثور ، وحفاظا عليه ، قطعا لاحتمال كونه فيه رغم ظاهر الأثر من أقدامه المباركة تؤمر العنكبوت أن يسدل ستارا ضخما على باب الغار ما يخيّل إلى الناظر أنه شغل سنين! وهكذا ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها﴾(٩ : ٤٠).

في ذلك المسرح المنقطع النظير ـ إلا ما كان بحق المسيح (عليه السلام) ـ نرى للرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) صاحبين بين أصحابه ، صاحب ينام على فراشه مضحيا بنفسه نفس الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) بما اختاره (صلّى الله عليه وآله وسلم) لتلك التضحية وهو الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) وقد نزلت بشأنه آية الشراء : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ﴾ (٢ : ٢٠٧) بصورة مستقلة.

وصاحب يصاحبه في الغار حالة الفرار من مكر الكفار ، ولا تنزل بشأنه إلا ﴿إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنا﴾ (٩ : ٤٠).

فلقد بات علي (عليه السلام) على فراش الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) والخطر هاجم ، وصاحبه أبو بكر إلى الغار والخطر ناجم ، ثم نجد عليا (عليه السلام) مقدما بكل بدّ لتلك التضحية دونما تخوف ، ولا نجد صاحبه في الغار إلّا متخوفا ومعه الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) وقد يأتي نبأ الموقفين حين نأتي على تفسير آية الغار.

هنا الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) وعلي (عليه السلام) يتعانقان ولا يرضي عليا (عليه السلام) إلّا أن تسلم نفس الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) بهذه التضحية ، وقد يروي عنه نظم في ذلك النظم :

وقيت بنفسي خير من وطئ الحصا ... ومن طاف بالبيت العتيق والحجر
محمد لما خاف أن يمكروا به ... فوقّاه ربي ذو الجلال من المكر
وبت أراعيهم متى ينشرونني ... وقد وطّنت نفسي على القتل والأسر
وبات رسول الله في الغار آمنا ... هناك وفي حفظ الإله وفي ستر
أقام ثلاثا ثم زمّت قائص ... قلايص يفرين الحصا أينما تفرى [1]

ولقد ذاق الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) والذين معه في أخريات سنيّه بمكة أشد ألوان الأذى بحجر أبي طالب سنين أربع ، ولما صمموا على قتله بدار الندوة بدأت الهجرة المباركة مزودة بتسليات لخاطره القريح وقلبه الجريح منذ دخوله الغار ﴿إِنَّ اللهَ مَعَنا﴾ ومن ثم ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ﴾ (٤٧ : ١٣).

ثم له وللذين هاجروا معه : ﴿وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ. الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١٧ : ٤٢).

ولكيلا يحزن على ذلك الهجران في هجرته الهاجرة ﴿يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٩ : ٥٦) ﴿وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾ (٧٣ : ١٠).

لقد اجتمعت قريش في دار الندوة مرتين بين اجتماعاتهم اللعينة ، هما ألعنها ، مرة للمعاهدة على حصره (صلّى الله عليه وآله وسلم)

---

(١) قال عبيد الله بن أبي رافع وقد قال علي (عليه السلام) يذكر مبيته على الفراش ومقام رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) في الغار ثلاثا وفي الدر المنثور بتفاوت يسير عن الحاكم عن علي بن الحسين عنه (عليهم السلام).

والذين معه في شعب أبي طالب [(١)] وأخرى إلى إثباته أو قتله أو إخراجه ثم اجتمعوا على قتله.

---

(١) بحار الأنوار ١٩ : ١ ـ ٤ ص : اجتمعت قريش في دار الندوة وكتبوا صحيفة بينهم ألا يواكلوا بني هاشم ولا يكلموهم ولا يبايعوهم ولا يزوجوهم ولا يتزوجوا إليهم ولا يحضروا معهم حتى يدفعوا إليهم محمدا (صلّى الله عليه وآله وسلم) فيقتلونه وإنهم يد واحدة على محمد يقتلونه غيلة أو صراحا ، فلما بلغ ذلك أبا طالب جمع بني هاشم ودخلوا الشعب وكانوا أربعين رجلا فحلف لهم أبو طالب بالكعبة والحرم والركن والمقام إن شاكت محمدا شوكة لاثبتن عليكم يا بني هاشم وحصن الشعب وكان يحرسه بالليل والنهار فإذا جاء الليل يقوم بالسيف عليه ورسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) مضطجع ثم يقيمه ويضجعه في موضع آخر فلا يزال الليل كله هكذا ويوكّل ولده وولد أخيه به يحرسونه بالنهار فأصابهم الجهد وكان من دخل مكة من العرب لا يجسر أن يبيع من بني هاشم شيئا ومن باع منهم شيئا انتهبوا ماله ، وكان أبو جهل والعاص بن وائل السهمي والنضر بن الحارث بن كلدة وعقبة بن أبي معيط يخرجون إلى الطرقات التي تدخل مكة من رأوه معه مرة نحوه أن يبيع من بني هاشم شيئا ويحذرون إن باع شيئا منهم أن ينهبوا ماله وكانت خديجة رضي الله عنها لها مال كثير فأنفقته على رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) في الشعب ، ولم يدخل في حلف الصحيفة مطعم بن عدي بن نوفل ابن عبد المطلب بن عبد مناف وقال : هذا ظلم وختموا الصحيفة بأربعين خاتما ختمها كل رجل من رؤساء قريش بخاتمه وعلقوها في الكعبة وتابعهم على ذلك أبو لهب وكان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) يخرج في كل موسم فيدور على قبائل العرب فيقول لهم : تمنعون لي جانبي حتى أتلو عليكم كتاب ربكم وثوابكم الجنة على الله وأبو لهب في أثره فيقول : لا تقبلوا منه فإنه ابن أخي وهو كذاب ساحر ، فلم يزل هذا حالهم وبقوا في الشعب أربع سنين لا يأمنون إلا من موسم إلى موسم ولا يشترون ولا يبايعون إلا في الموسم وكان يقوم بمكة موسمان في كل سنة : موسم العمرة في رجب وموسم الحج في ذي الحجة فكان إذا اجتمعت المواسم تخرج بنو هاشم من الشعب فيشترون ويبيعون ثم لا يجسر أحد منهم أن يخرج إلى الموسم الثاني وأصابهم الجهد وجاعوا وبعث قريش إلى أبي طالب قصيدته اللّامية فلما سمعوا هذه القصيدة أيسوا منه وكان أبو العاص بن الربيع ـ وهو ختن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) ـ يأتي بالعير بالليل عليها البر والتمر إلى باب الشعب ثم يصبح بها فتدخل الشعب فيأكله بنو هاشم وقد قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) : لقد صاهرنا أبو العاص فأحمدنا صهره ، لقد كان يعمد إلى العير ونحن في الحصار فيرسلها في الشعب ليلا ولما أتى على رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) في الشعب أربع سنين بعث الله على صحيفتهم القاطعة دابة الأرض فلحست جمع ما فيها.

ولقد باهي الله جبريل وميكائيل بتضحية علي (عليه السلام) ليلة المبيت في الأخوة المحمدية العلوية (عليهما السلام) [١] وقد يروى عنه

. من قطيعة وظلم وتركت «باسمك النهم» ونزل جبرئيل على رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فأخبره بذلك فأخبر رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) أبا طالب فقام أبو طالب ولبس ثيابه ثم مشى حتى دخل المسجد على قريش وهم مجتمعون فيه فلما أبصروه قالوا : قد ضجر أبو طالب وجاء الآن ليسلّم ابن أخيه فدنا منهم وسلم عليهم فقاموا إليه وعظّموه وقالوا : قد علمنا يا أبا طالب إنك أردت مواصلتنا والرجوع إلى جماعتنا وأن تسلّم ابن أخيك إلينا ، قال : والله ما جئت لهذا ولكن ابن أخي أخبرني ولم يكذبني أن الله تعالى أخبره أنه بعث على صحيفتكم القاطعة دابة الأرض فلحست جميع ما فيها من قطيعة رحم وظلم وجور وترك اسم الله فابعثوا إلى صحيفتكم فإن كان حقا فاتقوا الله وارجعوا عما أنتم عليه من الظلم والجور وقطيعة الرحم وإن كان باطلا دفعته إليكم فإن شئتم قتلتموه وإن شئتم استحييتموه فبعثوا إلى الصحيفة وأنزلوها من الكعبة وعليها أربعون خاتما فلما أتوا بها نظر كل رجل منهم إلى خاتمه ثم فكّوها فإذا ليس فيها حرف واحد إلا «باسمك اللهم» فقال لهم أبو طالب : يا قوم اتقوا الله وكفوا عما أنتم عليه فتفرق القوم ولم يتكلم أحد ورجع أبو طالب إلى الشعب.

في بحار الأنوار ١٩ : ٣٩ روى انهم ضربوا عليا وحبسوه ساعة ثم تركوه وأورد الغزالي في إحياء العلوم أن ليلة بات علي بن أبي طالب (عليه السلام) على فراش رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) أوحى الله تعالى إلى جبرئيل وميكائيل أني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بحياته؟ فاختار كل منهما الحياة وأحباها فأوحى الله تعالى إليهما : أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب (عليه السلام) آخيت بينه وبين محمد فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة ، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه فكان جبرئيل عند رأسه وميكائيل عند رجليه وجبرئيل ينادي بخ بخّ من مثلك يا بن أبي طالب؟ يباهي الله بك الملائكة فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ﴾.

(١) وفيه ٤٦ ك قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في جواب اليهودي الذي سأل عما فيه من علامات الأوصياء فقال فيما قال : وأما الثانية يا أخا اليهود فإن قريشا لم تزل تخيل الآراء وتعمل الحيل في قتل النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) حتى كان آخر ما اجتمعت في ذلك يوم الدار : دار الندوة ، وإبليس الملعون حاضر في صورة أعور ثقيف فلم تزل تضرب أمرها ظهرا لبطن حتى اجتمعت آراءها على أن ينتدب من كل فخذ من قريش رجل ثم يأخذ كل رجل منهم سيفه ثم يأتي النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) وهو نائم على فراشه فيضربونه جميعا بأسيافهم ضربة رجل واحد فيقتلوه فإذا قتلوه منعت قريش .

. رجالها ولم تسلمها فيمضي دمه هدرا ، فهبط جبرئيل (عليه السلام) على النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) فأنبأه بذلك وأخبره بالليلة التي يجتمعون فيها والساعة التي يأتون فراشه فيها وأمره بالخروج في الوقت الذي خرج فيه إلى الغار فأخبرني رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) بالخبر وأمرني أن اضطجع في مضجعه وأقيه بنفسي فأسرعت إلى ذلك مسرورا لنفسي بأن أقتل دونه فمضى (صلّى الله عليه وآله وسلم) لوجهه واضطجعت في مضجعه وأقبلت رجالات قريش موقنة في أنفسها أن تقتل النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) فلما استوى بي وبهم البيت الذي أنا فيه ناهضتهم بسيفي فدفعتهم عن نفسي بما قد علمه الله والناس ، ثم أقبل على أصحابه فقال : أليس كذلك؟ قالوا : بلى يا أمير المؤمنين.

وفيه ٥٢ شيء عن زرارة ومحمد بن مسلم عن أحدهما (عليهما السلام) أن قريشا اجتمعت فخرج من كل بطن أناس ثم انطلقوا إلى دار الندوة ليشاوروا فيما يصنعون برسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فإذا هم بشيخ قائم على الباب وإذا ذهبوا إليه ليدخلوا قال : أدخلوني معكم قالوا : ومن أنت يا شيخ ، قال : أنا شيخ من مضر ولي رأي أشير عليكم فدخلوا وجلسوا وتشاوروا وهو جالس وأجمعوا أمرهم على أن يخرجوه فقال : ليس هذا لكم برأي. إن أخرجتموه أجلب عليكم الناس فقاتلوكم ، قالوا : صدقت ما هذا برأي ، ثم تشاوروا فأجمعوا أمرهم على أن يوثقوه قال : هذا ليس بالرأي إن فعلتم هذا ومحمد رجل حلو اللسان أفسد عليكم أبناءكم وخدمكم وما ينفعكم أحدكم إذا فارقه أخوه وابنه أو امرأته ثم تشاوروا فأجمعوا أمرهم على أن يقتلوه ، يخرجون من كل بطن منهم بشاهر فيضربونه بأسيافهم جميعا عند الكتفين ثم قرأ الآية ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾.

وفيه في قصة المبيت قول الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) لعلي : إن الروح هبط علي بهذه الآية آنفا يخبرني أن قريشا اجتمعت علي المكر بي وقتلي وأنه أوحى إلي عن ربي عزّ وجلّ أن أهجر دار قومي وأن انطلق إلى غار ثور تحت ليلتي وانه أمرني أن آمرك بالمبيت على ضجاعي . أو قال : . مضجعي لتخفي بمبيتك عليه أثرى فما أنت قائل وصانع؟ فقال علي (عليه السلام) : أو تسلمن بمبيتي هناك يا نبي الله؟ قال : نعم فتبسم عليّ ضاحكا وأهوى إلى الأرض ساجدا شكرا لما أنبأه به رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) من سلامته فكان علي (عليه السلام) أوّل من سجد شكرا لله وأوّل من وضع جبهته على الأرض بعد سجدته من هذه الأمة بعد رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فلما رفع رأسه قال له : امض لما أمرت فداك سمعي وبصري وسويداء قلبي ومرني بما شئت أكن فيه كمسرتك واقع منه بحيث مرادك وان توفيقي إلا بالله وقال : وإن ألقي عليك شبه مني أو قال : شبهي ، قال : إن يمنعني نعم ، قال : فأرقد على فراشي واشتمل ببردي الحضرمي ثم إني أخبرك يا علي أن الله تعالى يمتحن أولياءه على قدر إيمانهم ومنازلهم من دينه فأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل وقد امتحنك يا ابن أم .

(عليه السلام) قوله في قصة المبيت : فأسرعت إلى ذلك مطيعا له مسرورا فالكتاب والسنة ـ كلمة واحدة ـ متجاوبان في أفضلية الموقف المشرّف لمبيت الإمام علي (عليه السلام) على موقف أبي بكر في الغار ، حيث المدار ليس هو الصحبة في المكان ، إنما هو التضحية في الحفاظ على الصاحب [1].

﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾(٣١).

هنا ﴿قَدْ سَمِعْنا﴾ تعني سمع الأذن دون القبول بسمع القلوب والعقول ـ رغم ما حققوه ب «قد» كأنهم واعون ما سمعوا ـ إنما هو سماع للهزء بما يسمعون كذريعة لقيلتهم الغيلة : «لو نشاء» ولحصرهم آيات الله المتلوة عليهم بأساطير الأولين ، وترفّعهم ـ بزعمهم ـ عن الأساطير ، يحيلون على أنفسهم أن يقولوا مثل هذا زغم إمكانيتهم ذاتيا لقوله كما يتقولون [2] وكأنهم يترفعون أن يعارضوا هذه الأساطير بأساطير أمثالها إذ لا يعتبرونها مما يعارض لضالتها ، وبعدهم عن الأساطير!

ـ وامتحنني فيك بمثل ما امتحن به خليله إبراهيم (عليه السلام) والذبيح إسماعيل (عليه السلام) فصبر صبرا فإن رحمة الله قريب من المحسنين ، ثم ضمه النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) إلى صدره وبكى إليه وجدا به وبكى عليّ (عليه السلام) جشعا لفراق رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) واستتبع رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) أبا بكر وهند بن أبي هالة.

(١) المصدر ٥٥ ما جماعة عن أبي المفضل معنعنا عن مجاهد قال : فخرت عائشة بأبيها ومكانه مع رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) في الغار فقال عبد الله بن شداد بن الهاد : وأين أنت من علي بن أبي طالب (عليه السلام) حيث قام في مكانه وهو يرى أنه يقتل؟ فسكتت ولم تحر جوابا.

(٢) في الدر المنثور ٣ : ١٨٠ عن السدي قال : كان النضر بن الحارث يختلف إلى الحيرة فيسمع سجع أهلها وكلامهم فلما قدم إلى مكة سمع كلام النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) والقرآن فقال : قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ، وفيه عن سعيد بن جبير قال : قتل النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) يوم بدر صبرا عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث وكان المقداد أسر النضر فلما أمر بقتله قال المقداد يا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) : أسيري فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) : كان يقول في كتاب الله ما يقول ، قال : وفيه أنزلت هذه الآية.

ف «لو» هنا صد عن السؤال : قولوا مثل هذا ، كما أن ﴿نَشاءُ لَقُلْنا﴾ هدم لصرح الربانية لهذه الآيات البينات ، وما أنحسه مواجهة لآيات الله ، وما أضله البسطاء الذين لا يعقلون!

وهنا يبقى سؤال ، هل إن إبطال هذه الآيات أحرى للعاقل في محكمة العقل كما تدّعون ، أو التورط فيما تستائون ـ زعم أنه من الأساطير ـ لذلك الإبطال حتى تتخلصوا عن عبء هذه الدعوة المتلاحقة ويتخلص الآخرون؟ إذا فهذه وتلك هي من الدعاوي الهاوية الخواء الغاوية البواء ، وليست الدعوى بمجردها مهما كانت براقة ، بالتي يواجه بها البرهان ، فهي هيه من أساطير الأولين ، دون آيات الله البينات التي تملك على صدقها من كافة البراهين ، وإنما السكوت عن ردهم فيما ادعوا لظاهر بطلان دعواهم دونما نكير ، حيث الدعوى المجردة ولا سيما هذه الطائلة الغائلة ليست بالتي ترد على آيات الله البينات التي هي بأنفسها أدلة لربانيتها مصدرا وصادرا.

ذلك ، وقد وصل العناد من هؤلاء الأنكاد الأوغاد لحد تطلبوا لأنفسهم من الله الهلاك ان كان هذا هو الحق :

﴿وَإِذْ قالُوا اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾(٣٢).

دعاء غريب يصور حالة راسبة من العناد ضد الحق المرام ، إيثارا للهلاك على الإذعان بالحق ، حيث فسدت جبلتهم بالكبرياء الجامحة ، وأخذتهم العزة بالإثم فحسبهم جهنم وبئس المهاد.

هنا ﴿إِنْ كانَ هذا﴾ لا تختص بمشار إليه خاص ، فقد تعني كافة المتعنتين القائلين هذا ، الغائلين ، سواء أكان في مسرح الآيات الربانية الإسلامية ـ ككل ـ أم سواها ، أم في مسارح خاصة في حقل الإسلام كولاية الأمر بعد الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) ، أنهم ـ ككل ـ ودون أيّة هوادة يرجحون عذاب الله على تصديق آية من الله لا يهوونها ، وهذه هي الخطوة الأخيرة الشيطانية التي يخطوهم بها الشيطان.

ذلك ، وجوابا عن أمثال هذه الشطحات الزور والغرور من أحابيل

الغرور :

﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(٣٣).

فكون الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) فيهم ـ رغم أنهم ناكروه ـ إنه صيانة لهم عن عذاب الله مقترحا وسواه ، وصيانة أخرى على طول الخط ـ كان فيهم الرسول أم لم يكن فيهم ـ ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ف «ليعذبهم» محطّ لسلب محدّد ب ﴿وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ ولكن «معذبهم» سلب طليق ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ سواء أكنت «أنت فيهم» أم لم تكن.

فتلك هي الرحمة المحمدية العالمية أن الله لا يعذب الكافرين به ما هو فيهم ، ثم يتوب عن ذلك ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فقد «كان في الأرض أمانان من عذاب الله سبحانه فرفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسكوا به ، أما الأمان الذي رفع فهو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأما الأمان الباقي فالاستغفار» [1] فقد كان مماته إلى حياته خيرا لنا [2] لهذين الأمانين.

---

(١) نور الثقلين ٢ : ١٥٣ وحكى أبو جعفر محمد بن علي الباقر (عليهما السلام) أنه قال : كان قال الله جلّ من قائل ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾.

(٢) المصدر ١٥١ في روضته الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم): إن لكم في حياتي خيرا وفي مماتي خيرا ، قال : فقيل يا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) أما حياتك فقد علمنا فما لنا في وفاتك؟ فقال : أما في حياتي فإن الله عزّ وجلّ يقول : وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم : وأما في مماتي فتعرض علي أعمالكم فاستغفر لكم.

وفي الدر المنثور ٣ : ١٨١ ـ أخرج الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم): أنزل الله علي أمانين لأمتي ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة.

وفيه ١٨٢ ـ أخرج أحمد والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي سعيد قال قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم): إن الشيطان قال : وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، قال الرب : وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني ، وفيه عنه (صلّى الله عليه وآله وسلم) قال : من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقة من حيث لا يحتسب.

وترى العذاب المنفي ﴿ما دُمْتُ فِيهِمْ﴾ هو مطلق العذاب الشامل لقتلهم؟

وقد قتل جمع منهم في غزوات! إنه عذاب الاستئصال كما لم يعذبوا به ما كان (صلّى الله عليه وآله وسلم) فيهم ، ثم ﴿ما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ﴾ تعم إلى عذاب القتال عذاب البرزخ والقيامة.

ذلك ، فقد يعذبون بعد ارتحال النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) عنهم وهم لا يستغفرون ، بعذاب الاستئصال وما أشبه ، الواقع على سالفة الأمم المتخلفة عن شرعة الله.

وليس عذاب القتال ينافي كونه (صلّى الله عليه وآله وسلم) رحمة للعالمين ، فان فسح المجال للمكذبين الفاتنين ينافي أصل الرحمة الأصيلة المحمدية حيث يستأصل دعوته ، وإنما هي الرحمة التي لا تشكل زحمة على الذين آمنوا.

أجل ، إنها رحمة ربانية ـ إكراما لمحمد (صلّى الله عليه وآله وسلم) ـ تشملهم فتمهلهم فلا يأخذهم الله عجالة بعذاب الاستئصال الاستعجال ، مهما يؤخذون بسائر العذاب قضية صدهم عن سبيل الله وعن المسجد الحرام ، فصدهم بقتال وسواه عما يصدون ، فليس ليصدهم عن ذلك العذاب ما يدعونه من كونهم ورثة إبراهيم وسدنة البيت الحرام ، أم لأنهم أولياء الله ، فإنهم أعداء الله وأعداء البيت الحرام ومغتصبوه ، وليس البيت الحرام ميراثا حتى لو كان ميراثا من إبراهيم ، بل هو البيت العتيق عن كل اختصاص بوجه خاص ، اللهم إلا لأولياء الله المتقين.

ذلك فقد يعذبهم الله دون هذين الشرطين دون عذاب الاستئصال ﴿وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ :

﴿وَما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَما كانُوا أَوْلِياءَهُ إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(٣٤).

فليس ـ فقط ـ لأنهم أميون ﴿أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ﴾ وهم لا يتقون ، ﴿وَما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ﴾ ولست أنت فيهم ولا هم يستغفرون الله «وهم» على كفرهم وتكذيبهم بآيات الله ﴿يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ دونما حق يحق لهم ذلك الصد.

ذلك! «و» الحال أنهم ﴿ما كانُوا أَوْلِياءَهُ﴾ الله ، ولا كانوا أولياء المسجد الحرام من قبل الله ﴿إِنْ أَوْلِياؤُهُ﴾ : الله ، والمسجد الحرام ﴿إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ فإنما لأولياء الله وأولياء المسجد الحرام من أولياء الله أن يصدوا من سواهم عن المسجد الحرام ، ف ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا﴾ (٩ : ٢٨).

فالصادّون عن المسجد الحرام ، المشركون بالله ، هم أصول الفتنة ضد الموحدين وشرعة التوحيد ، فلا يسمح لهم بذلك الصدّ ، بل ويعذبهم الله بأيدي المؤمنين حربا كما يعذبهم بما يشاء كيف يشاء حفاظا على العاصمة التوحيدية عن ذلك الصد الظالم الغاشم.

ذلك ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أنهم ﴿ما كانُوا أَوْلِياءَهُ﴾ و «لا يعلمون» أنهم معذبون و ﴿إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾.

أجل ، «ألا إن أولياء الله هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا إذا نظر الناس إلى ظاهرها واشتغلوا بآجلها إذا اشتغل الناس بعاجلها ، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم ، وتركوا منها ما علموا انه سيتركهم ، ورأوا استكثار غيرهم منها استقلالا ، ودركهم لها فوتا ، أعداء ما سالم الناس ، وسلم ما عادى الناس ، بهم علم الكتاب وبه علموا ، وبهم قام الكتاب وبه قاموا ، لا يرون مرجوا فوق ما يرجون ، ولا مخوفا فوق ما يخافون» (الحكمة ٤٢٢).

ذلك ، وحين يصد اعداء الله أولياءه عن المسجد الحرام ، فما هم فيه فاعلون؟

﴿وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾(٣٥).

تلك اللعينة هي صلاتهم بالله إشراكا به ، وبأهل الله صدا عن المسجد الحرام كفرا به ، وهذه صلاتهم عند البيت ﴿مُكاءً وَتَصْدِيَةً﴾ تصغيرا

وتصفيقا [١] هما من اللهو واللغو المناسبين لمسارح الفسق والرقص ، وفي أقدس مكان من أمكنة الوحي والعبادة ، وذلك ثالوث منحوس من مستحقات العذاب : تكذيب بآيات الله ، وصد عند المسجد الحرام ، ومكاء وتصدية فيه ﴿فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾(٣٦).

وهذه طبيعة الحال النحسة لقبيل الكفر أنهم يصرفون كل طاقاتهم ، و ﴿يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ صدا للمؤمنين بالله تضليلا لهم ، أم وصدا عن تطبيق أحكام الله كما يصدون عن المسجد الحرام ، وصدا للمستضعفين المتحرين عن الحق ، أو الحائرين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فكيانهم ككلّ هو الصد عن سبيل الله.

ذلك ﴿فَسَيُنْفِقُونَها﴾ فيما يهوون ويشتهون ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ في الدارين ، لا فقط «حسرة» بل ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ غلبا بعد الحسرة وقلة بعد الكثرة ، هنا وفي الأخرى ، ثم مصيرهم إلى النار ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾(٣٧).

﴿إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ مع بعضهم البعض متميزين عن أهل الجنة ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ في ذلك الحشر كما تميزوا يوم الدنيا عن الطيبين ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ﴾ ظلمات بعضها فوق بعض. ﴿فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً﴾ في ذلك الحشر الحاشد ، ثم ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ

---

(١) المصدر ١٨٣ ـ أخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له أخبرني عن قوله عز وجلّ ﴿إِلَّا مُكاءً وَتَصْدِيَةً﴾ قال : المكاء صوت القنبرة والتصدية صوت العصافير وهو التصفيق وذلك أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) كان إذا قام إلى الصلاة وهو بمكة كان يصلي قائما بين الحجر والركن اليماني فيجيء رجلان من بني سهم يقوم أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ويصيح أحدهما كما يصيح المكاء والآخر يصفق بيديه تصدية العصافير ليفسد عليه صلاته.

﴿أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾ أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، فذلك التعبير القرآني يجسم الخبيث كأنه كومة من الأقذار لهؤلاء الخبثاء الأقذار ، وعند ما يصل السياق إلى ذلك التقرير عن مصير الكفر ، يتجه بخطاب إلى الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) ليقول لهم قولة الرحمة إن تابوا وانتهوا :

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾(٣٨).

ضابطة فقهية كلامية هي بصيغة السنة : «الإسلام يجب ـ يهدم ـ ما ـ كان ـ قبله» [١] ومهما كانت هذه الرواية ضعيفة السند ومحدودة الدلالة ، فهذه الآية تجبر كسرها فيهما [٢].

هنا ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ طليقة تحلق على كل ألوان الكفر إلحادا وإشراكا وكتابيا ، ف «إن ينتهوا» تعني الانتهاء عن الكفر أيا كان بكل مخلفاته ، فهو الانتهاء المطلق دون مطلق الانتهاء ، حيث المتعلق للانتهاء هنا هو الكفر ، فان انتهى عن بعضه لم ينته عن كفره حيث الباقي أيضا كفر إذا فقد يعني الانتهاء عن الكفر بأسره وتمامه ، انتهاء نهائيا عن أسره ، ثم ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ﴾ تحلق الغفر على كل ﴿ما قَدْ سَلَفَ﴾ كتشجيع

---

(١) الدر المنثور ٣ : ١٨٤ ـ أخرج ابن أحمد ومسلم عن عمرو بن العاصي قال : لما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) فقلت : أبسط يديك لأبايعك فبسط يمينه فقبضت يدي قال : مالك؟ قلت أردت أن تشترط ، قال : تشترط ماذا؟ قلت : أن يغفر لي قال : أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وان الهجرة تهدم ما كان قبلها وإن الحج يهدم ما كان قبله.

(٢) أذكر حينما كنت بالنجف الأشرف في هجرتي إلى الله من شر الطاغوت : الشاه عليه لعنة الله ، وكنت أتردد إلى مجلس الاستفتاء للمرجع الديني الكبير السيد الخوئي ، مشاورة في مختلف الفتيا ، وأنا متكفل الجانب الفقهي القرآني إضافة إلى سواه ، ذكر فيما كان يحققه في أسناد الروايات أنني وجدت حديث الجب غير مسنود فلا يصح أن يفتي به ، فتلوت عليه هذه الآية قائلا : إذا كان حديث الجب ضعيفا فآية الجب قوية ، فاستطار حيرة وقال : حقا نحن بعيدون عن كتاب الله ، نفتش بعد ردح بعيد من الزمن عن سند حديث الجب ، غافلين أن هناك آية الجب هي أقوى دلالة وأظهر ، ولقد كانت أمثال هذه النبرات القرآنية مما يغيظ جمعا من الجاهلين بالقرآن ، التاركين إياه إلى سواه.

على إيمان ، وإمحاء لصدود قد تمنع عن الإيمان ، وهل إذا يغفر للكافر ما قد سلف فبأحرى المؤمن الفاسق إذ لا يحرم المؤمن عما يمنح الكافر ترغيبا إلى إيمان ، ولكن كفارات المؤمنين مقررة مفصلة ، ولا يقاس المؤمن بالكافر ، فالواجبات التي تركها حال إيمانه عليه أن يأتي بها ، ثم المحرمات أن يستغفر عنها ، والتعديات المالية والعرضية والنفسية أن يجبرها ، حيث التوبة لها حدود محددة في الكتاب والسنة.

وترى ﴿ما قَدْ سَلَفَ﴾ تشمل إلى حقوق الله حقوق الناس؟ والغفر عن حقوق الناس ظلم بحق الناس ﴿وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾!

هذا الغفر ليس إلّا قضية الرحمة الواسعة الربانية ، فقضيته ألا يشكّل زحمة للناس ، فقد يختص بما هو حق الله تعالى فحسب ، أم ويشمل حقوقا للناس لا سبيل للمنتهي عن كفره إلى إحقاقه ، إذا فالله هو الذي يغفر له إرضاء لصاحب الحق يوم الحساب [١].

فالأصل القرآني في حقل الانتهاء عن الكفر هو الغفر دون شرط ، اللهم إلا ما فيه ظلم بالناس و ﴿أَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

إذا ف ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ﴾ مخصصة بما يكون غفره ظلما بحقوق الناس ، وليست غاية ترغيب الكفار إلى الإيمان مما يبرر الوسيلة الظالمة ، اللهم إلا أن يحمّل المؤمنون الغفر عما لحقهم من الكفار حالة كفرهم من ظلم ، فلصالح الإيمان ترغيبا إليه يتحمل المؤمنون غفرهم؟ وهو محدّد بما يدل عليه بصورة قاطعة وبينة ، فإلى مظان هذه الأدلة ومقاطعها : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بالَهُمْ﴾ (٤٧ : ٢) وعلّ

---

(١) نور الثقلين ٢ : ١٥٤ في تفسير العياشي عن علي بن دراج الأسدي قال : دخلت على أبي جعفر (عليه السلام) فقلت له : إني كنت عاملا لبني أمية فأصبت مالا كثيرا فظننت أن ذلك لا يحل لي ، قال (عليه السلام) : فسألت عن ذلك غيري؟ قال : قلت قد سئلت فقيل لي : إن أهلك ومالك وكل شيء لك حرام ، قال : ليس كما قالوا لك ، قلت : جعلت فداك فلي توبة؟ قال : نعم توبتك في كتاب الله ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

من إصلاح بالهم ما يتكفله الله من جبر نقصهم فيما قصروا في حقوق الناس إلى حقوق الله.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (٥ : ٦٥) ولعل التكفير يختص بحقوق الله المتروكة ، فقد كانوا مكلفين بالفروع كما الأصول ، ولكن الإيمان يكفر كل تقصير في الفروع ما لم يكن ظلما بحقوق الناس.

ومن ذلك التكفير ما وعد جمع من المؤمنين : ﴿فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ثَواباً مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ﴾ (٣ : ١٩٥).

كما و ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ (٤ : ٣١) ، فالذي يؤمن بعد كفره «يغفر له ما قد سلف» بصورة طليقة اللهم إلّا ما يكون غفره ظلما بآخرين ، وهكذا الذي يقتل في سبيل الله ، ولكن الذي يجتنب كبائر المنهيات تكفر عنه ـ فقط ـ سيئاته ، ثم هنا ما يكفر من السيئات دون كلها : ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوها وَتُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢ : ٢٧١).

فمن الصالحات ما يكفر أسوء الأعمال : ﴿وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ. لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ. لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٩ : ٣٥).

ومنها ما يكفر كل السيئات كالإيمان وعمل الصالحات والتقوى والشهادة في سبيل الله : ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ﴾ (٨ : ٢٩)﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ﴾ (٦٤ : ٩).

ذلك ، ولكن تكفير السيئات عن المؤمن علّ نطاقه أضيق من ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ﴾ للكافر ، فالإيمان بعد الكفر يكفّر كل ما قد سلف ، اللهم إلا ما لا يغفر من حقوق الناس حتى يغفره صاحبه ، أو يحمله الله على ذلك الغفر ، والتقوى وترك كبائر المنهيات وفعل كبائر الحسنات والشهادة في نطاق الإيمان يغفر بها كل السيئات وهي الصغائر دون الكبائر ، وأما ﴿الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ ف ﴿لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ ثم ومن الحسنات ما تبدل السيئات حسنات وذلك فوق تكفيرها : ﴿إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً. وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتاباً﴾ (٢٥ : ٧١).

ذلك ، وبصورة عامة لا يعني غفر ما سلف ، وتكفير السيئات كلا أو بعضا إلا غفر ما يجوز غفره بميزان العدل والرحمة دون ما لا يجوز كحقوق الناس اللهم إلّا ما يجبره تعالى كما يراه هنا أم في الأخرى وهذا بحاجة إلى قاطع الدليل فلا تكفيه عمومات أو إطلاقات الغفر عما سلف أم تكفير السيئات.

فالآيات بالنسبة للذين ينتهون عن كفرهم إلى إيمان ، هي كلمة واحدة : ﴿نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ﴾ وما أشبه ، وأوسع من الكل ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ﴾ حيث تشمل كافة التقصيرات في ترك واجبات واقتراف محرمات ، ما يرتبط بحقوق الله ، لا وحقوق الناس حيث الغفر عنها دون رضاهم ظلم.

ثم بالنسبة للمؤمنين المتقين ـ الشهداء في سبيل الله ـ التاركين كبائر المنهيات ـ العاملين كبائر الواجبات ، لهم تكفير السيئات.

ثم لكامل التوبة حيث يتلوها العمل الصالح الذي أصلح ما أفسده تبديل لسيئاتهم حسنات.

وفي إعطاء الصدقات تكفير لبعض السيئات دون كلها ، وعلها السيئات المالية.

ذلك ، ولأن الذين انتهوا عن كفرهم ما كان تكليفهم بالفروع كما على المؤمنين ، ولكيلا يصدهم عن الإيمان عبء الإتيان بما سلف والجبران لما تخلف ، فالصالح في الرحمة الربانية وسياسة الجذب إلى الإيمان أن ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ﴾ ولكنه محدد بما ليس من حقوق الناس ، وان كان منها فبما يجبره الله حتى يرضي المهضومين في حقوقهم.

ثم وعلى كتلة الإيمان التنازل عن حقوقهم المهضومة فيما يؤمن الهاضمون إياها إكراما للإيمان ، وتنازلا عن مصالحهم الشخصية للمصلحة الجماعية لكتلة الإيمان.

ذلك ، وكضابطة في غفر الله أيا كان ولأي كان ، لا مجال له ككل إلا حقوق الله وأما حقوق الناس فلا إلا أن يدل دليل خاص عليه كأن الله يرضي المستحقين ، أو أنه يريد منهم أن يرضوا ، ولا نجد هذا أو ذاك بالنسبة لانتهاء الكفار عن كفرهم ، فإنما يغفر لهم ما قد سلف من واجبات متروكة أو محرمات مفعولة في حقل حقوق الله فقط.

هذا ، ومع كل ذلك فقد يحكم إطلاق ﴿ما قَدْ سَلَفَ﴾ شمولا لحقوق الناس ، استسماحا من الناس المؤمنين هنا وسماحا من الله في الأخرى كما يصح ويرضى ، فإن غفر حقوق الناس محظور إذا لم يكن إليه سبيل وإن محتملا ، وقد نجد مثله في مواضع كالتجهيز وولاية اليتامى ، والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما أشبه حيث المصلحة العامة العليا اقتضت هضم الحقوق المالية فيها رعاية للأهم الأعم ، فقد يكون هكذا الأمر وبأحرى بالنسبة للذين ينتهون عن الكفر ، فلا مقيد قاطعا لحقوق الناس في غفر ما سلف للذين آمنوا.

وحين يعمل مثلث ﴿تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً﴾ تبديل سيئات المؤمنين حسنات ، فبأحرى أن يغفر عن كل السيئات لمن انتهى عن كفره ترغيبا وتشويقا ، لا سيما وأن تكليف الكفار بالفروع أخف من تكليف المؤمنين بها ، فلتغفر لهؤلاء ما سلف بأحرى منهم.

الحرب الخطوة الخطوة على مد الزمن حتى تنتهي إلى زمن صاحب الزمن حيث يخطو الخطوة الأخيرة من ﴿قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ إزالة الفتنة أو إخماد نائرتها قدر المستطاع ، قتالا باردا صدأ عن الدعايات الكافرة ، وآخر حارا حينما لا تنفع الباردة أم لا تكفي ولا تكافئ فتنتهم.

فذلك تقرير حاسم دائم للحركة الإسلامية السامية على مدار الزمن في مواجهة الفتنة أينما كانت وكيفما حصلت لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

فليس يكفي ـ فحسب ـ أن تكون أنت مسلما والجو الفاسد بالدعايات المضللة يفتتن البسطاء عن الحق المرام.

لأن الله لا يكلف نفسا إلّا وسعها ، فلا تعني «قاتلوهم» إلا قدر المستطاع الصالح للكتلة المؤمنة.

فأما إذا فنوا أو ضعفوا بقتالهم ، أم يزول الأهم لهم بذلك وما أشبه من محاظير القتال ـ إذا ـ فلا قتال ، وكما لم يكن في العهد المكي.

ذلك ، فالمأمور بذلك القتال الحاسم الجاسم كل الكتلة المؤمنة على مدار الزمن الإسلامي حتى يأتي دور صاحب الأمر دائرة على يديه دولة الإسلام شاملة كل المعمورات.

ذلك ، ولأن ضمير الغائب في «قاتلوهم» راجع إلى ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فالقتال المفروض قدر الصالح والمستطاع يعم الكفار كلهم ، وهم غير المسلمين ككلّ.

ولأن القصد من مقاتلتهم هو استئصال الفتنة تحقيقا حقيقا للا

ذلك «إن ينتهوا» دون عود ﴿وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ﴾ في العائدين إلى كفرهم ﴿سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ فإنه ارتداد جاهر عن الدين ، وله حكمه كما تقتضيه الحكمة العادلة الربانية.

ذلك ، فعلى سواء أن يكون لحديث «الإسلام يجب ما قبله» سند صالح أم لا ، حيث يؤخذ منه ما يوافق الآية ولأن أصل الجبّ هو احتزال السنام من أصله فكأنه (صلّى الله عليه وآله وسلم) جعل الإسلام مستأصلا لكل ذنب تقدم الإنسان قبله حتى لا يدع له جناية يحذر عاقبتها ، ولا معرّة يسوء الحديث عنها ، بل تعفى على ما تقدم من السوءات ، وتحثوا على ما ظهر من العورات ، اللهم إلّا ما يحتاج العفو عنه إلى مكفر زائد.

﴿وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٣٩).

﴿وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٢ : ١٩٣).

إن القتال الإسلامي لا ينحو منحى تفتّح البلاد توسعيا قضية القدرة الغالبة ، والزهوة المتآلبة ، بل هو ـ فقط ـ دفاع سلبا لأيّة «فتنة» فإيجابا ل ﴿الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ فلا يهدف ـ إذا ـ إلا تحقيق كلمة ﴿لا إِلهَ إِلَّا اللهُ﴾.

ولأن «الفتنة» هي ﴿أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (٢ : ٢١٧) و ﴿أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (٢ : ١٩١) فهي بأحرى منه سماحا وفرضا للقتال دفاعا عن الفتنة إذا كانت فتنة عن الدين بمختلف حلقاته وحقوله.

ولا تعني «قاتلوهم» مقاتلين خصوصا في زمان أو مكان خاص إذ لا يمكن إزالة الفتنة ككل وإيجاب الدين كله لله لجماعة خاصة من المسلمين ، اللهم إلّا ما سوف يحصل بقوات صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف ، وأمر القتال هنا أمر الحال وان شمل المستقبل ، دون اختصاص بالاستقبال.

إذا فذلك أمر باستمرارية القتال على مدار الزمن الإسلامي كسياسة

إله» ثم تثبيت دولة الحق تحقيقا ل «إلا الله» إذا فلا تعني قتال الكفار إلا تحقيق كلمة ﴿لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾ بحقها.

فالعلم الأحمر للقتال في سبيل الله لا يتبدل بالأخضر المصالحة التامة حتى يتحقق ﴿لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾.

فأما إذا لم ينتج القتال إلّا مزيد الفتنة ، أم لا فتنة ولا سلب فتنة ، أم ﴿جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ أما في هذه الموارد فمواصلة القتال لا تبرّر بأيّ مبرر ، وكما في كتاب الإمام علي لمالك الأشترّ : «ولا تدفعن صلحا دعاك الله عدوك ولله فيه رضى ، فإن في الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك ، وأمنا لبلادك ، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه ، فإن العدو ربما قارب ليتعقل ، فخذ بالحزم ، واتهم في ذلك حسن الظن».

ذلك ليرى اعداء الإسلام أنه ليس شرعة تفتح وتغلب ، إنما هي شرعة رحمة وتطلب للحق ، لينة الأريكة لمن استلان ، وشديد المعركة على من يهاجم شرعة الله.

ثم القتال في سبيل الله إسلاميا غير مسموح إلا دفاعا عن النفس أو العقيدة ، فالفتنة النفسية ، ثم العقيدية التي هي أشد وأكبر من القتل ، هاتان الفتنتان هما اللتان يسمح فيهما بالقتال لزاما ، فلأن قتل من لا يقاتل ولا يفتتن عقيديا هو اعتداء دون مقابل ، أم بمقابل أقل منه ، فضابطة ﴿فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ﴾ تحصر سماح القتال في حقله بما فيه اعتداء بالمثل أم بأدنى كما في المقاتلين المفتتنين حيث «الفتنة أكبر ـ أشد من القتل».

إذا ف ﴿قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ لا تعني كل فتنة ، إنما هي فتنة إن القصد من قتالهم هو إزالة الفتنة آمنوا أم لم يؤمنوا ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾

عن ترك الفتنة فإنما عليكم ما حمّلتم قدر المقدور ، ثم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلاكُمْ﴾ حيث يتولى أمركم أمام الفاتنين ﴿نِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ فلا تكلفوا أنفسكم فوق طاقاتكم إحراجا.

نفسية أم عقيدية ، ثم ولا مجال للقتال في الثانية إلا ألا يكون سبيل إلّا هيه ، أن نرد عليهم فتنهم ، ولكن الفتنة العقيدية آخذة مجالاتها في البسطاء الذين ما تعرق الإيمان المتقن في قلوبهم ، وحتى المؤمنين الماكنين قد تأخذهم فتن عقيدية ماكرة حاكرة.

ذلك ، وأما سائر الفتن التي هي دون النفس والعقيدة ، فضلا عن الكفار غير الفاتنين ، فلا مبر إسلاميا لقتالهم ، حيث الحروب الإسلامية ـ ككل ـ هي كلها مصبوغة بصبغة الدفاع ، ومسوقة بصيغة في سبيل الله ، ولا تسمح سبيل الله والدفاع عنها بالقتال دون أي دفاع.

ثم ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ لا تعني في أي زمان أو مكان ألا يطاع إلّا الله ، فإن قسما من اليهود والنصارى حسب آيتي «أغرينا وألقينا» مستمرون إلى زمن صاحب الأمر (ع) وإلى يوم القيامة الكبرى ، فهل هم ـ بعد ـ دينهم دين الله؟

ثم ولا قتال الكتابيين ـ كما في آيتهم ـ إلّا المقاتلين منهم أو الفاتنين وقد اختصرت دركاتهم المسرودة في آيات البراءة ب ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ﴾ فلكي تخمد نار الفتنة عنهم لكيلا يسطعوا على إطفاء نور الله بأفواههم ، نور الإيمان ونور المؤمنين ، نقاتلهم ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ﴾ لم تبق لهم قوة لذلك الإطفاء بذلك الانطفاء ، إذا فقتالهم محدد لحد انطفاءهم عن فتنتهم مهما لم يؤمنوا.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(٤٠).

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَواعَدْتُمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ وَلكِنْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٤٢)

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٤١).

في هذه الآية مسائل عدة في تساءلات وإجابات كما يهدي إليها الكتاب والسنة ، وطالما قصرت الأقلام حولها أم طالت ، فقد يحق بنا حق التنقير حولها بحق التفسير كما نستطيع ، ابتداء بالاسئولة التالية :

١ هل الغنيمة هي التي تفوز به من مال أو حق من غير مشقة؟ [١] والغنم هو إصابة الغنم واستعمل في كل مظفور به [٢] كما ﴿فَكُلُوا مِمَّا

---

(١) كما في لسان العرب.

(٢) مفردات القرآن للراغب الأصبهاني.

﴿غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً﴾ (٨ : ٦٩) قد تعممها إلى مطلقها بمشقة أو دونها ، حيث إن سماح الأكل مما فزت به بمشقة أحرى ، فإن آية الأكل هذه آتية بعد آيات في القتال ، وغنائم دار الحرب الحاصلة بمشقة أحرى بالحل مما سواها!

ولكن مشقة الحرب ليست للغنيمة ، إلّا أن الغنيمة الحاصلة بها هي الحاصلة بمشقة ، سواء أكانت هذه الغنيمة منوية أم لم تكن.

أم هي خاصة بغنائم دار الحرب لورود آية الخمس موردها؟ ومورد الحرب لنزولها في منزلها ، حيث اللغة المستعملة في مورد من مواردها لا تتخصص به بذلك الاستعمال إلّا إذا حلّق استعمالها على كل الموارد ، ثم ﴿فَعِنْدَ اللهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ تعمم الغنيمة إلى كل فائدة ، فهي الفوز بفائدة في حرب وسواها ، بمشقة وسواها ، باكتساب وسواه ، بعلم أم سواه ، فهي كلما حصل عليه الإنسان من حق أو مال بحق في أي حقل من الحقول.

ذلك ، وكما «مانح كل غنيمة وفضل» (الخطبة ٨٢) ليست لتعني ـ فقط ـ غنيمة الحرب ، ثم و «من شيء» في استغراق الإيجاب تستغرق الغنيمة من كل شيء دونما استثناء ، وكذلك اللغة تشهد لطليق معناها في كل فائدة دونما اختصاص بحقل خاص.

فأصل الغنم هو الزيادة والنماء وفاضل القيمة [١] كما وهو إصابة الغنم والظفر به ، ثم استعمل في كل إصابة وكل مظفور به من عدو وغيره [٢].

إذا ف «ما ﴿غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ لا تختص الخمس بغنائم دار الحرب ، بل هي كل غنيمة وفائدة محلّلة تحصل عليها في أي محصل من

---

(١) كما في لسان العرب.

(٢) كما في مفردات القرآن للراغب الإصبهاني.

النزول ليس ليخصص الآية بنفسه ، والغنيمة لغويا لا تختص بها من دار الحرب ، فهل ﴿فَعِنْدَ اللهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ (٤ : ٩٤) تختص أيضا بحقل القتال ، ولا تعني ﴿إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها﴾ (٤٨ : ١٥) ﴿وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها﴾[١] و «تأخذونها» (١٩ و ٢٠) مما تختص المغانم بخصوص المحاصيل ، صناعة وزراعة وتجارة وهبة أو هدية أماهيه ، إلّا أن يدل قاطع الدليل على استثناء يتّبع.

وترى «ما غنمتم» تختص بما بقي من الفوائد بعد استثناء مصارف الحصول عليها ومؤنة السنة؟

استثناء المصارف الأولى هو طبيعة الحال من «ما غنمتم» حيث الغنيمة هي الفائدة الخالصة ، وهنا نصدق المروي أن الخمس بعد المؤنة.

ثم في استثناء المصارف الأخرى نظر فانها كالباقية مشمولة ل «ما غنمتم» والرواية القائلة : «إن الخمس بعد المؤنة» لا تعني إلا مؤنة الحصول على الفائدة كما في الموارد الستة الأخرى التي يجب فيها الخمس ، ولا نص على استثناء مؤنة السنة ، ولو كان لم يكن يصلح لتقييد «ما غنمتم» بجزء ضئيل قليل منه ، فحين تحصل على مائة ألف فائدة خالصة فتصرف تسعين ألفا منها في مؤنتك ثم تخمس الباقي فيطلع ألفين ، فكيف يناسب الألفان أن يعنى ب «ما غنمتم» وقد غنمت خمسين ضعفا منه؟

إذا فالأقوى أن الخمس كما الزكاة يتعلق بأصل الفائدة مع رعاية المؤنة المتعودة حتى لا يصبح بتخميس ماله فقيرا يحتاج إلى الخمس حيث ﴿يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ ومنه الزيادة ، وهي هنا الزيادة عن

---

(١) ولكن «وَعَدَكُمُ اللهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ» (٤٨ : ٢٠٠) هي نفس المغانم التي عند الله في «فَعِنْدَ اللهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ» (٤ : ٩٤) إلا أن شمول «مغانم كثيرة» ل «مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها» لا تجعل المغانم الثانية نفس الأولى.

المصارف المتعودة دون تبذير ولا إسراف ، فلا خمس إذا من أصل المؤنة إلّا عفوا لا تحتاج فيه إلى شيء من الخمس.

فإذا كانت فوائده شهرية فليصبر حتى آخر الشهر فإذا بقي شيء يحاسب الخمس من أصل الفائدة ، وإذا كانت سنوية أماهيه فليحاسب حسب الفائدة المراعاة فيها المؤنة.

٣ هل ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ هي نصاب من أنصبة الزكاة فليس الخمس علما لصنف خاص من الضرائب الإسلامية ، بل هو النصاب الأخير في واجب التأدية من كافة الغنائم ، وقد نسخت الأنصبة المذكورة في السنة من ربع العشر إلى نصف العشر وإلى العشر ، فهو الآن ضعف العشر كضابطة وقانون شامل ، ثم في الحاجات الضرورية لمصارف الزكاة يأتي دور الضريبة غير المستقيمة وهي كل زائدة عن الحاجة الضرورية المتعوّدة بناء على آية العفو : ﴿يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ (٢ : ٢١٩) كما في الخمس؟

أم إنه علم لمصطلح خاص لضريبة أخرى سوى الزكاة؟ [١] وذلك غير معروف لغويا ولا شرعيا ـ إلا عند المتشرعة قضية الفتاوى الشهيرة ـ وآية الخمس لا تصطلحه كضريبة خاصة لمكان ﴿أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾.

أجل ، قد يوحي اختلاف موارد الخمس عن موارد الزكاة في آية الصدقات ـ النازلة بعدها بسنين عدة ـ باستقلاله عنها كضريبة سواه ، ف ﴿إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَالْمَساكِينِ وَالْعامِلِينَ عَلَيْها وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقابِ وَالْغارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٩ : ٦٠) فإن الله ١ والرسول ٢ وذي القربى ٣ واليتامى ٤ المذكورين هناك غير مذكورين هنا ، والعاملين ١ عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب ٣ والغارمين ٤ وفي سبيل الله ٥ والفقراء ٦ هنا غير مذكورين هناك ، فالمشترك

---

(١) جامع الأحاديث ٨ : ٥٢٦ قوله (عليه السلام) ما من ذي مال ذهب ولا فضة يمنع زكوة ماله أو خمسه إلا جسه الله عزّ وجلّ بقاع قرقر وسلط عليه شجاع أقرع.

بينهما ليس إلا المساكين وابن السبيل.

وقد يقال إن «ابن السبيل» تشمل ـ وبأحرى ـ ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ لا سيما وأن «الله والرسول» هما ـ دون ريب ـ أصلان لسبيل الله ، والمساكين تشمل الفقراء بطريق أولى حيث الفقير أسوء حالا من المسكين ، و ﴿الْعامِلِينَ عَلَيْها وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقابِ وَالْغارِمِينَ﴾ مشمولون للسبيل كفروع ، و ﴿لِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى﴾ غير المساكين منهم علهما زيادة على السالف ذكرهم في آية الصدقات ، ولكنهما ـ أيضا ـ داخلان في ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾.

أو كما أن الأنصبة المقررة في السنة نسخت بآية الخمس ، كذلك مواردها تحولت بها؟ ولكن لم يثبت نزول آية الخمس بعد آية الصدقات حتى يثبت تناسخ في البين ، بل آية الصدقات نزلت بعدها حيث الأمر بأخذ الصدقات نزل في السنة التاسعة من الهجرة : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً﴾ (٩ : ١٠٣) وآية الصدقات هي في نفس السورة ، إذا فهي بعد آية الخمس بست سنين ، فنسخ آية الخمس بآية الصدقات أحرى ـ لو كان هناك نسخ ـ فإذا تصبح أنصبة الصدقات هي أنصبة الخمس ، ولكن دون إثباته خرط القتاد ، إلا أن يقال آية الصدقات نسخت من موارد الخمس.

وهنالك في السنة لمحات صارحة أو تصريحات صارخة أن الخمس غير الزكوة ونموذجا منها ما يروى عن الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) حيث قال : «إن القرآن أنزل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والأموال أربعة : أموال المسلمين فقسمها بين الورثة في الفرائض ، والفيء فقسمه على مستحقيه ، والخمس فوضعه الله حيث وضعه ، والصدقات فجعلها الله حيث جعلها» (٢٧٠ ح / ٦٢٠) إلا أن تعني الصدقات ما هو أعم من ضريبة الخمس ، فهي من ذكر العام بعد

الخاص.

ومما يؤيد أو يؤكد أن الخمس ضريبة بحيال الزكوة انه كان عادة جاهلية قبل الإسلام ، وآية الخمس هذه تقرر أصله وتصلح تقسيمه الذي كان جاهليا غير عادل [١].

---

(١) جاء في التاريخ والسير كتاريخ قم (٢٩١) أن أبا مالك الأشتري قسم الخمس قبل نزول الآية ، وفي (٢٧٨) منه أن مالك بن عامر المهاجري خمس قبل نزول الآية حيث غنم غنيمة في بعض الغزوات فقال له رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) اجعل منه نصيبا لله فقال مالك خمسة لله ، وفي بعض التواريخ أن أوّل خمس أدي قبل بدر ما أداه عبد الله بن جحش في سريته ، أداه للرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) (تاريخ أبو الفداء للواقدي وابن خلدون واليعقوبي).

ويقول القرطبي في تفسيره (٨ : ١٢) كانوا في الجاهلية يختصون ربع الغنيمة لقائد الجيش وكما يقول الشاعر الجاهلي :

لـــك المـــرباع منهـــا والصـــفايا وحلمـــك والنشـــيطة والفضـــول

وفي سيرة ابن هشام (٤ : ٢٢٤) عن ثابت بن قيس الشماس يذكر مفاخر قومه في الجاهلية قائلا :

منـــا الملـــوك وفينـــا تقســـم الربـــع وانا ابـــن الـــرابعين مـــن آل عمـــرو

وفرسان المنابر من خباب قول ابن هشام : كان من عاداتهم إذا غنموا أن يعطوا الرئيس ربع الغنيمة ويسمى المرباع ، وفيه ص ٢٣٠ من أشعار زبرقان بن بدر أنه قال إمام الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) :

وإن لنـــا المـــرباع في كـــل غـــارة نفـــير بنجـــد أو بأرض الأعـــاجم

وفيه (٢٤٦) في قصة وفود عدي بن حاتم : وكنت أسير في قومي بالمرباع ، وقال الأصمعي : ربع في الجاهلية وخمس في الإسلام وكان يأخذ بغير شرع ولا دين ربع الغنيمة ، وفي مسالك الافهام (٢ : ٩٥) كان في الجاهلية ان الرؤساء منهم كانوا يستأثرون الغنيمة لأنهم أهل الرئاسة والدولة والغلبة.

ذلك ، وقد قررت آية الخمس خلافا للقرار الجاهلي ما قررت.

وذلك وللغنائم الحربية سوابق رسالية كما في تثنية التوراة (٢٠ : ١٠٠٠) والتكوين (١٤ : ٢٠) ورسالة بولس للعبرانيين (٧ : ٤ وسفر الأعداد (٢١ : ٩ و ١١ و ١٨ و ٢٦ و ٣١ ، وفي أوّل تاريخ الأيام (٢٦ : ٢٦ - ٢٧).

إذا فالزكوة والخمس ضريبتان اثنتان مستقيمتان قد تكون أولاهما على كل الغنائم قبل المؤنة والخمس عليها بعد المؤنة إلا في أرباح التجارات وسواها ، فالعوائد . إذا . هي بين ضريبتين اثنتين مستقيمتين ، ثم الضريبة غير المستقيمة هي للحالات الطارئة من الحاجات الضرورية فردية وجماعية للكتلة المسلمة.

وأما أنصبة الزكوة الشاملة لكافة الأموال ، فالمقررة منها للبعض منها تقرّر لأشباهها ، فنصاب الغلات الأربع نصاب لكافة الغلات ، ونصاب الأنعام الثلاثة نصاب لكافة الأنعام ، ونصاب النقدين نصاب لسائر النقود والأموال ، حيث المنصوص من هذه الأنصبة لم تذكر إلا لنماذج من مواردها.

ذلك ، إلا أن يخص الخمس بغنائم دار الحرب ولا دليل عليه مهما قيل لإثباته قيلات ، فنحن نتابع النص ما لم ينسخه نص آخر يوازيه.

فقد يقال إن آية الخمس نزلت في غزوة بدر السنة الثانية من الهجرة ، وقد نزلت بشأن الغنائم الحربية المختلف فيها بين المقاتلين ، أو يقال انها نزلت بشأن غزوة أخرى ، ولكننا لسنا لنتابع شؤون النزول حيث الأصل هو أصل النص : ﴿أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ وهي أعم من الحرب ، فلو كان القصد إلى خصوص الحرب لجيء بخصوصها ك «في القتال» أماذا؟ لا سيما وانها الآية الوحيدة الآمرة بأداء خمس الغنيمة أمام عشرات من آيات الصدقات.

ذلك ، وهنا أربع من الضرائب المستقيمة على مختلف الأموال ، ف ﴿الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ : ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ﴾ (٨ : ١).

والفيء وهو هو لمستحقي الخمس : ﴿وَما أَفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ

فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ وَلكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. ما أَفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ (٥٩ : ٧).

فمقسم الخمس والفيء متشارك إلا في أربعة أخماس ، ومقسم الأنفال فقط الله والرسول ، وقد يجوز للرسول بسند الرسالة أن يقسمه بين مستحقي الخمس ، ومقسم الزكاة تلكم الثمانية ، ولا اشتراك بينها وبين ست الخمس إلا في المساكين وابن السبيل ، فتبقى ستة من مقسم الزكاة غير مذكورة في مقسم الخمس ، كما وأن أربعة من الخمس غير مذكورة في الزكاة ، فالمقاسم إذا ثلاثة في هذه الضرائب الأربع ، أو اثنان لدمج الفيء في الخمس [١] وقد يدخل الفيء والأنفال في ﴿**أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ**﴾ فإنهما من الغنائم الجماعية للمسلمين ، واختصاص الأنفال بالله والرسول لا ينافي أن للأربعة الباقية أنصبة منها.

والقول باختصاص الخمس بغنائم الحرب قد يستدل له بما يلي :

١ كون آية الخمس بين آيات القتال صراحة أو تلميحة أن «ما غنمتم» تعني في الحرب ، وان كانت الغنيمة لغويا تشمل كل فائدة ، كأن يقول صاحب الصيدلية ضمن كلامه حول الأدوية : كل ما حصلتم عليه فاجعلوه في مكان كذا ، حيث لا يفهم منه إلا ما يناسب الصيدلية من الأدوية ، فلا يدخل في فهم أو وهم أنه يشمل اللحوم والفواكه والأسرجة وما أشبه؟

ولكنه قياس فان مثله تعالى في قوله ﴿**أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ**﴾ إنما هو مثل من يبيع أو يشتري كل شيء ، فإذا كان يتحدث عن شيء خاص ثم قال ما حصلتم عليه من شيء فلا يعني الشيء الخاص ، فلو عناه لخص

---

(١) للاطلاع على أبعاد الفيء والأنفال راجع الفرقان ٢٨ : ٣٣٤ ـ ٢٤٠.

اسمه بالذكر ، وهكذا ـ وبأحرى ـ ما غنمتم من شيء ، لا سيما و ﴿فَعِنْدَ اللهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ تعمم الغنيمة ، ومما يبرهن على عموم الغنيمة أن القيد هو الذي يحدد موقفها ، ﴿فَعِنْدَ اللهِ مَغانِمُ﴾ يحولها إلى غير دار الحرب ، و ﴿إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها﴾ تختصها بدار الحرب ، وآية الخمس طليقة فتعم ما لدار الحرب إلى غيرها.

٢ عدم أخذ الخمس في أيام الخلافة والسلطة الإسلامية من قبل الخلفاء والسلاطين دليل اختصاصه بغنائم دار الحرب ، فلو عمت لكانوا أحرص عليه ممن سواهم؟

ولكن عدم أخذهم الخمس هو تعام عمليّ عن حق الخمس الخاص بأهل بيت الرسالة (عليهم السلام) ، وقد نجد أوامر الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) [1] والأئمة عليهم بالخمس بصورة طليقة دون اختصاص بغنائم دار الحرب ، وان هذه شيطنة مدروسة ضد الأئمة (عليهم السلام) أن يحرموا من خمسهم ، شيطنة مزدوجة في السلطتين الروحية والزمنية.

٣ الخمس لله دون اقتسام إلى ستة أقسام لقوله تعالى ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ ومهما أضيف الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) وغيره فإن الله لا يردف بخلقه في حق ، ثم الروايات متواترة في صيغة «خمس الله» [2].

---

(١) في كتابه (صلّى الله عليه وآله وسلم) إلى شرحبيل «وأعطيتم من المغانم خمس الله ، وإلى عمرو بن معبد الجهني واعط من المغانم الخمس ، وإلى مالك بن أحمد» وأدوا الخمس من المغنم ، وإلى عبد يغوث واعط خمس المغانم في الغزو ، وإلى جنادة وقومه «واعط الخمس من المغانم خمس الله».

في كتبه (صلّى الله عليه وآله وسلم) هذه إلى رؤوساء القبائل والمشايخ والولاة نجد الأمر بالخمس من المغانم وليس الاختصاص بالغزو إلا في واحدة.

(٢) فمن طريق السنة ما أخرجه أسد الغابة ٤ : ١٧٥ والإصابة ٣ : رقم ٦٩٦٠ وطبقات ابن سعد ١ : ٢٨٤ في كتابه (صلّى الله عليه وآله وسلم) إلى فجيع بن عبد الله زتهل : واعطى من المغنم خمس الله ، وكذلك في نفس المصادر كتابه إلى جدين الطائيين نفس.

ذلك ، ولكن لا يعني «الخمس لله» خلاف نص الآية ، إنما يعني انه يدفع في سبيل الله المقسمة في آية الخمس إلى ستة أقسام بأمر الله وجعل الله نفسه في عداد الستة لا يعني ردفه بهم ، فإنما ذكر اسمه أولا كمحور لمصرف الخمس ، ثم ذكر من يصرف الخمس وهم الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) وذووا القربى من عترة الرسول (عليهم السلام) ، ومن يصرف فيهم غير ما يصرف في الدعايات المثلثة وهم اليتامى والمساكين وابن السبيل.

أفليس صرف سهم من الخمس في سبيل تقوية الرسالة والخلافة لله ، أو ليس صرف سهام أخرى في اليتامى والمساكين وابن السبيل ، لله ، إذا فكله لله ، بما أمر الله وصرف فيما أمر الله.

ذلك وحين نقر بفرض الخمس للرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم)

. العبارة ، وكذلك في كتابه (صلّى الله عليه وآله وسلم) إلى أهل اليمن كما في رواية اليعقوبي ٢ : ٦٤ في تاريخه وطبقات ابن سعد ١ : ٢٦٤ ، وكذلك في كتابه إلى نهشل بن مالك الوائلي ، وإلى جنادة الأزدي وقومه برواية ابن سعد في طبقاته ١ : ٢٧٠ وكنز العمال ٥ : ٣٢٠ ، وتاريخ الطبري ٢ : ٣٨١ والبداية والنهاية لابن كثير ٥ : ٧٥ وفتوح البلدان ص ٨٢ وسيرة ابن هشام ٤ : ٢٥٨ ، وكذلك كتابه (صلّى الله عليه وآله وسلم) إلى عمر بن حزم حسب رواية الطبري ٢ : ٣٨٨ والبداية والنهاية ٥ : ٧٦ وفتوح البلدان ص ٨١ وسيرة ابن هشام ٤٣ : ٢٦٥ وكنز العمال ٣ : ١٨٦ وصبح الأعشى ١٠ : ١٠ والخراج لأبي يوسف ص ٧٢ ، وفي كتاب الأموال لقاسم بن سلام ص ١٩ كتابه إلى بني زهر بن حبش ، وفي كتاب الأموال ٤٢٧ يجيب (صلّى الله عليه وآله وسلم) عن السؤال حول الغنيمة : لله سهم ولهؤلاء أربعة.

وكذلك من طريق الشيعة في الفقيه كتاب الوصايا عن أمير المؤمنين (عليه السلام) الوصية بالخمس لأن الله عزّ وجلّ رضي لنفسه بالخمس ، وفي المستدرك ١ : ٥٥١ عن الجعفريات عنه (عليه السلام) انه كان يستحب الوصية بالخمس ويقول : إن الله تبارك وتعالى رضي لنفسه عن القسمة بالخمس.

وفي بصائر الدرجات عن الباقر (عليه السلام) قال : والله لقد يسر الله على المؤمنين أرزاقهم بخمسة دراهم جعلوا لربهم واحدا وأكلوا أربعة حلالا ، وفي الوسائل باب وجوب الخمس ح ١٢ عن علي (عليه السلام) في الآية فجعل لله خمس الغنائم.

والأئمة من عترته (عليهم السلام) فهل نقر أيضا به لليتامى والمساكين وابن السبيل للذرية؟ أم لهم ما لسائر المسلمين المحاويج؟ وجهان ، ومما يدل على عدم اختصاص الذرية أحاديث تحليل الخمس للشيعة زمن الغيبة [1].

٤ كيف تختص سهام ثلاثة من خمس غنائم دار الحرب بالثلاث من الذرية ويحرم غيرهم وليس يقابله من الزكوة شيء؟ ولا سيما على فرض اختصاص الزكوة بالتسعة على قيودها ، فكيف يختص الخمس على كثرته حسابا ونصابا بالذرية القليلة . ولا سيما المختصة بطريق الآباء . ثم الزكوة على قلتها حسابا ونصابا تختص بغير الذرية؟

٥ على فرض أن الخمس يتعلق بكل الفوائد ، فالسهام الثلاثة الأول راجعة إلى تحكيم عرى الإسلام توحيدا ورسالة وخلافة ، والثلاثة الأخرى طليقة بين يتامى المسلمين ومساكينهم وأبناء سبيلهم دون اختصاص بذرية الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) فإن ﴿لِذِي الْقُرْبى﴾ تعني ذريته ، والاستحقاق في الثلاثة الأولى عام لصالح المسلمين ، وفي الأخيرة خاص بالثلاثة ، وتقسيم هذه الستة ليس على سواء بل حسب الحاجة الحاضرة.

لذلك اختصت الثلاثة الأولى باللّام ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى﴾ دليلا على اختصاص خاص وهو الإختصاص بالكيان الإسلامي لا الاشتمال ، فليس الله ليحتاج إلى نصيب ولا الرسول إلا لرسالته ولا ذوو القربى إلا لخلافتهم ، والكل بأيدي رؤوساء الدولة الإسلامية الصالحين.

---

(١) مما يدل على التحليل كما في جامع أحاديث الشيعة ٨ : ٥٢٦ رواية ابن سنان قوله (عليه السلام) على كل امرء غنم أو اكتسب الخمس مما أصاب لفاطمة (عليها السلام) إلى أن قال . : «إلا من أحللناه من شيعتنا لتطيب لهم به الولادة انه ليس من شيء عند الله يوم القيامة أعظم من الزنا إنه ليقوم صاحب الخمس فيقول يا رب سل هؤلاء بما أبيحوا» وفيه رواية سليم بن قيس من باب (١) أن الخمس لله وللرسول ما يدل أن الله تبارك وتعالى فرض الخمس إكراما للرسول وأهل بيته (عليهم السلام) وفي رواية عمران قوله (عليه السلام) يسر الله على المؤمنين أرزاقهم بخمسة دراهم جعلوا لربهم واحدا وأكلوا أربعة أحلاء.

ومن الفارق بين مصاريف الخمس والزكاة ، أن نصف الخمس راجع إلى الثلاثة الأولى ، والنصف الآخر إلى الثلاثة الأخرى ، اثنان منها من ثمانية الزكاة ، فالزكاة إذا هي الأصل الأصيل في الضرائب المستقيمة وقد أمر بأخذها وتقسيمها إلى ثمانيتها.

ذلك ، والآية من ناحية الدلالة ، «ما غنمتم» فيها ، الحق أنها تشمل كل الفوائد والعوائد من مال أو حق ، وإنما جاءت هنا «غنمتم» الظاهرة في غنائم الحرب مهما شملت غيرها من الغنائم ، لأنها نزلت في حقل الحرب ، فبهذه المناسبة ناسبت «غنمتم».

ثم «فأن لله» ليست اللام فيها لام الملكية العرضية فإن الله مالك ذاتيا ، وإنما خوّلنا أموالا دون إخراج عن ملكه ، فإنما تعني هنا اختصاصا بصرفه في شؤون الألوهية ، كما «للرسول» في شؤون الرسالة ﴿وَذِي الْقُرْبى﴾ في شؤون الخلافة المعصومة ، إن عنت ذا قربى الرسول ، وإلّا فقد يكفي نصيب الرسالة للخلافة ، ثم ﴿الْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ تعم السادة وغيرهم ، وحذف اللّام عنهم لعدم وجود الإختصاص ، حيث قد يصرف مالهم في سائر سبل الله.

ثم هذه الأقسام ليست على حد سواء بل لكلّ قدر الحاجة.

وقد تلمح «ذي القربي» مفردة دون «ذوي القربى» ـ وأنها وجاه جموع ثلاثة ـ أنهم ذي قربى الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) كما ﴿آتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ﴾ (١٧ : ٢٦) و ٣٠ : ٣٨) و ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ (٤٢ : ٢٣) كما و ﴿بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَبِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ﴾ ٤ / ٣٦ ، ومما يدل على اختصاص «ذي القربى» بذي قربى الرسول آية الفيء : ﴿ما أَفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فإن «على رسوله» يخصص «ذي القربى» بذي قرباه ، ثم المعطي هنا هو الرسول فكيف يعني من ذي القربى غير ذي قرباه ، ثم الآية التالية لها تفسّر الثلاثة الآخرين أنهم من عموم المسلمين ﴿لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ

أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ ... وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمانَ﴾ وتؤيده أحاديثنا [(١)].

---

(١) ففي تحف العقول ٣٤١ عن الصادق (عليه السلام) «في الغنائم» وأما قوله لله فكما يقول الإنسان هو لله ولك ولا يقسم لله منه شيء فخمّس رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) الغنيمة التي قبض بخمسة أسهم فقبض منهم سهم الله لنفسه يحيي به ذكره ويورث بعده وسهما لقرابة من بني عبد المطلب وأنفذ سهما لأيتام المسلمين وسهما لمساكينهم وسهما لابن السبيل.

وفي روضة الكافي عن أبي حمزة عن الباقر (عليه السلام) أن الله جعل لنا أهل البيت سهاما ثلاثة دون سهام اليتامى والمساكين وابن السبيل فإنها لغيرهم.

وفي الفقيه ١٥٨ والتهذيب ٤ : ١٣٤ في آية الفيء عن الباقر (عليه السلام) فهذا بمنزلة المغنم كان أبي (عليه السلام) يقول ذلك وليس لنا فيه غير سهمين سهم الرسول وسهم القربى ثم نحن شركاء الناس فيما بقي.

وفي التهذيب ٤ : ١٢٨ والإستبصار ٢ : ٥٦ عن ربعي بن عبد الله بن الجارود في الصحيح عن الصادق (عليه السلام) قال كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) إذا أتاه المغنم أخذ صفوة وكان ذلك له ثم يقسم ما بقي خمسة أخماس ويأخذ خمسة ثم يقسم أربعة أخماس بين الناس الذين قاتلوا عليه ثم قسم الخمس الذي أخذه خمسة أخماس يأخذ خمس الله عزّ وجلّ لنفسه ثم يقسم الأربعة أخماس بين ذوي القربى واليتامى والمساكين وأبناء السبيل يعطي كل واحد منهم حقا وكذلك الإمام أخذ كما أخذ الرسول.

وفي مسند زيد بن علي بن الحسين (عليهما السلام) ٣٥٦ بيروت باب الخمس والأنفال سألت زيد بن علي بن الحسين عن الخمس قال : هو لنا ما احتجنا فإذا استغنينا فلا حق لنا فيه ألم تر أن الله قرننا مع اليتامى والمساكين وابن السبيل فإذا بلغ اليتيم واستغنى المسكين وأبى ابن السبيل فلا حق لهم وكذلك نحن إذا استغنينا فلا حق لنا.

وفي ملحقات إحقاق الحق ١٤ : ٦٥٤ عن الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ١٤ : ٦٥٣ بسند متصل عن علي (عليه السلام) في الآية قال : «لنا خاصة ولم يجعل لنا في الصدقة نصيبا كرامة أكرم الله تعالى نبيه وآله بها وأكرمنا عن أوساخ أيدي المسلمين». وفيه بسند متصل عن عكرمة عن فاطمة (عليها السلام) قالت : لما اجتمع علي والعباس وفاطمة وأسامة بن زيد عند النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) فقال : سلوني ، فقال العباس : اسألك كذا وكذا من المال ، قال : هو لك ، وقالت فاطمة : اسألك مثل ما سأل عمي العباس ، فقال : هو لك ، وقال أسامة : أسألك أن ترد عليّ أرض كذا وكذا ، .

فهنا «ذى القربى» في الفيء ليس إلا ذي قربى الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) فإنه هي المعطي للفيء الذي يختص به وبالله ، فلذي قربى الرسول من الخمس نصيب لا ميراثا وإنما خلافة للرسول كان للرسول نصيب.

فإن الخلافة الإسلامية هي استمرارية للرسالة ، وهكذا رؤوساء دولة الإسلام وتقسم الأسهام قدر الحاجة ، ثم هذه الجموع المحلّاة باللّام تدل على الاستغراق ، دون اختصاص بالهاشميين منهم ، وهم أقل بكثير من غيرهم ، وهم عادمون زمن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم).

وليست هنا روايات تدل على اختصاص نصف الخمس بالثلاثة من الذرية إلّا أحاديث ثلاث (١) وذرية الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) تعم المنتسبين إليه من الأمهات إلى المنتسبين إليه من الآباء.

أجل ، فلأن اختصاص الثلاثة الآخرين بالسادة ترجيح لهم على الآخرين بنصف الخمس وهم أقل منهم ، وأن صفوة المال خاصة بالصفوة

. أرضا كان انتزعه منه ، فقال : هو لك ، فقال لعلي (عليه السلام) سل ، فقال : أسألك الخمس فقال : هو لك ، فأنزل الله تعالى «واعلموا» فقال النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) : قد نزلت في الخمس كذا وكذا ، فقال علي (عليه السلام) : فذاك أوجب لحقي ، فأخرج الرمح الصحيح والرمح المكسر والبيضة الصحيحة والبيضة المكسورة ، فأخذ رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) أربعة أخماس وترك في يده خمسا.

(١) الوسائل ٣٥٥ : ١ و ٣٥٦ : ٢ و ٣٥٨ : ٨ فالثاني عن أحدهما (عليهما السلام) في الآية قال : خمس الله للإمام وخمس الرسول للإمام وخمس ذوي القربى لقرابة الرسول الإمام واليتامى يتامى الرسول والمساكين منهم وأبناء السبل منهم فلا يخرج منهم إلى غيرهم. والأول عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : فأما خمس الله عزّ وجلّ فللرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) يضعه في سبيل الله وأما خمس الرسول فلأقاربه وخمس ذوي القربى فهم أقرباءه وحدها واليتامى يتامى أهل بيته فجعل هذه الأربعة أسهم فيهم وأما المساكين وابن السبيل فقد عرفت أن لا نأكل الصدقة ولا تحل لنا فهي للمساكين وأبناء السبيل.

الطاهرة دون مطلق الذرية ، وأنه لا دليل يعتمد عليه على ذلك الإختصاص فهم أعم من السادة وسواهم.

ولأن الزكاة المأمور بأخذها إنما أمر بها بعد ستة أعوام ، فهل يعقل أن نصف الخمس يختص بالسادة وليس لغيرهم زكاة ولا خمس.

ولكن الزكاة كانت مفروضة قبل الخمس ، والأمر بها كائن منذ تشريعها بصيغ أخرى هي أوغل في الفرض ك ﴿وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ. الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ﴾ (٤١ : ٦).

والقول إن ذي القربى تشمل كل الذرية يطرد القول إن الثلاثة الأخرى منهم ، ثم القرابة لا تخصص نصيبا من مال الله لأشخاص خصوص بل هو نصيب المقام كما للرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) ، وكيف يصلح للرسول إلى العالمين أن يختص أموالا عامة بذريته إلى يوم القيامة مصرحا بذلك في أواسط عهده لما قويت شوكته ودولته في المدينة ، لا سيما وان غنائم دار الحرب لا تختص بالمحاربين من الذرية ، بل لم يكونوا موجودين بعد زمن نزول الآية إلّا قلة قليلة.

وكيف يصح لرسول يقول ﴿لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ أن يحمّل الأمة مالا لذريته الخصوص ، فهل هو أجر؟ أم هو أكل وإيكال بالباطل! ولأنه لم يكن من ذرية الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) زمنه يتامى ومساكين وابن السبيل كان نصيبهم قبل أن يولدوا.

والحق أن «ذي القربى» هنا هم ذوا القربى للرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) دون من يؤتى الخمس وكما في آية الفيء الذي هو لله وللرسول ولذي القربى و.

فإن كان ذو القربى في الخمس ذا قربى المسلمين أنفسهم فلذي القربى سهمان اثنان فيما إذا كان المؤتي والمؤتى ذا القربى مع بعضهم البعض فلهم سهمان اثنان.

ثم ذي القربى إذا كان فقيرا فداخل في المساكين ، أو يتيما ففي

اليتامى أو ابن السبيل ففيهم وليس عنوان ذي القربى بنفسه مما يستحق به الخمس اللهم إلا في الإيتاءات المستحبة أو الواجبة الأخرى ولذلك لا نراهم في الزكوة.

ذلك وكما أن ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ﴾ يختص بذي قرباه (صلّى الله عليه وآله وسلم) فإن ذي القربى للمسلمين يعمهم كلهم للقرابة بينهم كلهم.

وإليكم آيات ذي القربى :

الفيء للرسول كما في آيته - إذا - فلله وللرسول ولذي القربى : آيات الحشر.

أولوا القربى في كل موقف هم أولو قربى الواقع كحقل الإحسان : وبالوالدين إحسانا وذي القربى (٢ : ٨٣) وآتي المال على حبة ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكوة (٢ : ١٧٧) فالمال المؤتى هنا غير الزكوة.

وأما ذووا القربى الخاص : وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل (١٧ : ٣٦) لغير ذى قرباك لا ذا قربى المسلمين فإنه ليشملهم كلهم : ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ (٤٢ : ٢٣).

فلأن في آية الفيء المؤتي هو الرسول فذو القربى هم ذو قربى الرسول ، ثم الثلاثة الآخرون هم هنا كل المسلمين ، وكذلك آية ﴿ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ﴾ ، حيث يدل على الحق الخاص لهم ، والقربى عن الفعلى أي ذا الصلة القربى ، وهي هنا الصلة الروحية والنسبية المجموعتان في الثلاثة عشر فقط.

وأما أن الصدقة هي من أوساخ ما في أيدي الناس فلا تحل للذرية ، دون الخمس ففيه:

١ ألّا رجاحة لبني هاشم على غيرهم حتى يختص بهم الصفوة ثم الأوساخ لغيرهم ، فكيف للرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) المرسل

إلى العالمين أجمعين أن يختص صفوة المال بذريته ثم يعمم الأوساخ لغيرهم من المحتاجين ، وهذه كرامة خاصة لا تختص إلّا بالأتقى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾ فهل تحل الصدقة لأمثال سلمان وأبي ذر واضرابهم وهي وسخ ولا يحل لهم الخمس ، ثم يحل الخمس لسيد لا محل له من الإيمان والعلم والتقى؟

وليس فضل الرسول بالذي يرثه ولده إلّا أن يرثوا فضله واقعيا ، ثم انتقال الفضل لا يسبب انتقال فضل المال ، فهل يجوز أن يرث الوارث الأفضل أكثر من غيره وهما مسلمان؟!

فالقرآن ينص في آيات بينات ألا أولوية بالرسول لأحد إلا الأولى برسالته.

فلا نجد لمحة في القرآن تفضل أحدا على أحد في الضرائب الإسلامية مهما كانت التفاضلات للفضائل الروحية أو القرابات النسبية أو السببية ، وأما في المحاصيل الشخصية فلكلّ ما سعاه ، وأما الميراث فهو حق طبيعي للأقربين بالنسب والقريبين بالسبب دون تفاضل فيه بين الفاضل والمفضول.

ذلك في الأموال العامة والخاصة ، فكيف يعقل تقدم بني هاشم من طريق الآباء على سواهم رغم أنهم ليسوا على أكثر تقدير إلّا خمسة بالمائة من الفقراء وحقوقهم عشرة بالمائة من كل الإنتاجات.

ولكن لسواهم ٦ / ١٠٠ من تسعة أشياء فقط وهم ٩٥ / ١٠٠ من الفقراء ، وبهذا القياس يصبح نصيب كل فقير غير هاشمي لا شيء ، في حين أن نصيب كل هاشمي كل شيء.

فأين ٦ / ١٠٠ من حوالي ١٠ / ١٠٠ من الأموال ل ٩٥ / ١٠٠ بالمائة لغير السادة و ٢٠ / ١٠٠ من ١٠٠ / ١٠٠ من الأموال ل ٥ / ١٠٠ من السادة؟ وحتى إذا أصلحنا فحاسبنا الزكوة من كل الأموال والسادة أعم من طريق الأم فكذلك الأمر مع تنزل ، فهو ٦ / ١٠٠ من ١٠٠ / ١٠٠ من الأموال لحوالي ٣٠ / ١٠٠ من الفقراء مقابل ١٠ / ١٠٠ من ١٠٠ / ١٠٠

من الأموال لحوالي ٧٠ / ١٠٠ من الفقراء ، فتزيد سهام الفقراء السادة عمن سواهم دائما ، فإذا وجب دفع الزائد إلى غيرهم فالتقسيم في أصله ـ لو كان ـ فاسد.

فالأصل حسب القرآن والسنة والواقع المعاش المحتاج هو التقسيم بالسوية حسب الحاجة ، فسهم الإمام يصرف في صالح الدعوة الإسلامية ، ثم السهم الثاني المشهور بسهم السادة يضم إلى الزكوة ويقسم بين كل الفقراء سادة وسواهم مع احتساب ١ العاملين عليها و ٢ الغارمين و ٣ في الرقاب و ٤ في سبيل الله ٥ وابن السبيل ٦ واليتامى ٧ والمؤلفة قلوبهم.

فحين لا معصوم بيننا ظاهرا حتى تحرم عليه الصدقة فهذا هو التقسيم الصالح.

ولأن الأحاديث متضاربة في اختصاص النصف الآخر ببني هاشم وسواهم فلتعرض على القرآن النادي بعدم الإختصاص وهي الروايات الثلاث (٣٥٥ : ١ و ٣٥٦ : ٢ و ٣٥ : ٥ و ٣٥٨ : ٨) من الوسائل أبواب الخمس ، وفي الأخيرة وأما المنتسبون بالأمهات فقد قال الله : ﴿ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ﴾ وهم الأدعياء دون أبناء البنات وإلا لأصبح الحسنان (عليهما السلام) من أدعياء النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم)!

فهذا الحديث وأحاديث الأوساخ هي أوساخ وأدعياء مقحمة في أحاديثنا ، تفرّق بين المسلمين بفوارق الجاهلية ، أو لم يكن أئمة أهل البيت يشترون من هذه الأموال ، وهذه الأحاديث هي ٣٥٦ / ٤ ٣٥٧ / ٧ ٣٦٠ / ١٠.

وأما حرمة الصدقة فهي في ٣٣٧ / ٢ وهي تختص بأهل البيت دون كل السادة.

ثم إذا كان النصف الآخر ملكا للسادة فكيف وهب للشيعة منذ زمن الحضور إلى كل زمن الغيبة وكيف يحق للإمام أن ينسخ آية من القرآن اللهم إلا تأويلا كما بيناه.

وليس (حقنا) المكرر في روايات من الخمس إلا النصف الأول الذي

يصرف في الدعوة الإسلامية ، وليس تحليله إلا في الموارد التي لا يمكن إيصاله إليهم فلا يجوز دفعه إلى ولات الجور.

الخمس زكاة :

ومما يدل على أن الخمس نصاب للزكوة ح ٥ ص ٣٤٣ عن محمد بن علي بن أبي عبد الله عن أبي الحسن (عليه السلام) قال سألته عما يخرج من البحر من اللؤلؤ والياقوت والزبرجد وعن معادن الذهب والفضة هل منها زكاة فقال : إذا بلغ قيمته دينارا ففيه الخمس ورواه المفيد في المقنعة عن الصادق (عليه السلام) مرسلا نحوه ورواه الكليني عن محمد بن يحيي عن محمد بن الحسين ورواه الصدوق مرسلا ورواه في المقنع أيضا مرسلا وترك ذكر المعادن.

ذلك ثم الرسول الذي لم يسأل على رسالته أجرا إلا المودة في القربى كيف يسأل نصيبا أكثر من كل أحد لبني هاشم؟ ولو أن الصدقة محرمة على أولاد النبيين فكيف تطلب أولاد يعقوب من يوسف ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

٢ ولم يسبق للرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) ولا لأحد من الأئمة من آل الرسول أن يختصوا من الخمس الهاشميين أو أن يزيدوهم من بيت المال بشيء ، بل كان بيت المال فيه كافة الأموال المستحقة لكافة المستحقين تقسّم بينهم بالسوية قدر الحاجة.

فقد كانت له من ولده فاطمة ولم يفضلها على غيرها من فقراء المسلمين فضلا عن أن يختصها بنصف الخمس! ، فعن علي أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله : «إني نظرت في كتاب الله فلم أجد لولد إسماعيل على ولد إسحاق فضلا» [1].

---

(١) وفي شرح النهج لابن أبي الحديد عن علي بن محمد ابن أبي الحيّف المدايني عن فضيل بن جعدة قال : آكد الأسباب كان في تقاعد العرب عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أمر المال فإنه لم يكن يفضل شريفا على مشروف ولا عربيا على عجمي.

. ومن كلامه (عليه السلام) في عرض برنامج حكمه ألا وأيما رجل استجاب الله ورسوله وصدّق ملتنا واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده ، فأنتم عباد الله والمال مال الله يقسّم بينكم بالسوية ، لا فضل فيه لأحد على أحد ، وللمتقين عند الله غدا أحسن الجزاء وأفضل الثواب ، لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجرا ولا ثوابا وما عند الله خير للأبرار ومن كلامه في الفيء الخاص بالله وبالرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم): وأما هذا الفيء فليس لأحد على أحد أثرة فقد فرغ الله من تقسيمه وأنتم عباد الله المسلمون وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا.

وفيما اعترض عليه طلحة والزبير لماذا لم يفضلها على غيرهما يقول : والله لا استأثر عليكما ولا عبدا مجدعا بدرهم فما دونه لا أنا ولا ولدي هذين الحسن والحسين.

وفي الخطبة (١٢٥) من النهج ومن كلام له (عليه السلام) لما عوتب على التسوية على العطاء : أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن ولّيت عليه ، والله لا أطور به ما سمّر سمير وما أمّ نجم في السماء ولو أن المال لي لسويت بينهم فكيف وإنما المال مال الله.

وفي روضة الكافي (٣٤ والوسائل ٢ : ٣١) عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : لما وليّ علي (عليه السلام) صعد المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم قال : إني والله لا أرزئكم من فيئكم هذا درهما ما قام لي غدق بيثرب فلتصدقكم أنفسكم أفتروني مانعا نفسي وأعطيكم؟ فقام إليه عقيل فقال : والله لتجعلني وأسود بالمدينة سواء؟ فقال : اجلس أما كان هاهنا أحد يتكلم غيرك وما فضلك عليه بسابقة أو تقوى.

وفي البحار (٨ : ٣٩٣) خطب أمير المؤمنين (عليه السلام) فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أيها الناس إن آدم لم يلد عبدا ولا أمة وإن الناس كلهم أحرار وليكن خول بعضكم بعضا ، فمن كان له بلاء فصبر في الخير فلا يمن به على الله جل وعزّ إلّا وقد حضر شيء ونحن مسوّون فيه على الأسود والأحمر ، فقال مروان لطلحة والزبير ما أراد بهذا غيركما ، قال فأعطي كل واحد ثلاثة دنانير وأعطى رجلا من الأنصار ثلاثة دنانير وجاء بعد غلام أسود فأعطاه ثلاثة دنانير فقال الأنصاري يا أمير المؤمنين (عليه السلام) هذا غلام أعتقته بالأمس تجعلني وإياه سواء فقال (عليه السلام) إني نظرت في كتاب الله فلم أجد لولد إسماعيل على ولد إسحاق فضلا.

وفي البحار (٨ : ٣٦٧) ابن الأثير في كامل التواريخ في بيعته (عليه السلام) بعد مقتل عثمان : ولما أصبحوا يوم البيعة وهو يوم الجمعة حضر الناس وجاء علي (عليه السلام) وصعد المنبر فقال : يا أيها الناس من ملأ وأذن إنّ أمركم هذا ليس لأحد حتى إلّا من أمّرتم وليس لي أن آخذ درهما دونكم فإن شئتم قعدت لكم وإلّا فلا أحد على أحد.

ذلك ، وأما حرمة الصدقات على بني هاشم لأنها أوساخ ما في أيدي الناس فمما يستدل به لها :

. فقالوا نحن على ما فارقناك عليه بالأمس فقال : اللهم اشهد.

ثم يذكر قصة طلحة والزبير أنهما قالا بشأن التسوية له (عليه السلام) : خلافك عمر بن الخطاب في القسم إنك جعلت حقنا في القسم كحق غيرنا بخيلنا وظهرت عليه دعوتنا وأخذناه قسرا وقهرا ممن لا يرى الإسلام إلا كرها فقال (عليه السلام) : وأما القسم والأسوة فإن ذلك أمر لم أحكم فيه بادئ بدء قد وجدتكما ورسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) يحكم بذلك وكتاب الله ناطق به وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وأما قولكما جعلت فيئنا وما أمأذته بسيوفنا ورماحنا سواء بيننا وبين غيرنا : فقد بما سبق إلى الإسلام قوم ونصروه بسيوفهم ورماحهم فلا فضّلهم رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) في القسم ولا آثرهم بالسبق والله سبحانه موفّ السابق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم فليس لكما والله عندي ولا لغير كما إلّا بهذا.

وفي مناقب ابن شهر آشوب (٣ : ١١١) في رواية عن أبي الهيثم بن التيهان وعبد الله بن رافع أن طلحة والزبير جاءا إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) وقالا ليس كذلك كان يعطينا عمر قال : فما كان يعطيكما رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فسكتا ، قال : أليس كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) يقسم بالسوية بين المسلمين قالا نعم ، قال : فسنة رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) أولى بالاتباع عندكم أم سنة عمر؟ قالا سنة رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) ، يا أمير المؤمنين لنا سابقة وعناء وقرابة ، قال : سابقتكما أقرب أم سابقتي ، قالا : سابقتك قال : فقرابتكما أم قرابتي؟ قالا قرابتك ، قال : فعناءكما أعظم من عنائي؟ قالا : عناؤك قال : فو الله ما أنا وأجيري هذا إلّا بمنزلة واحدة وأومأ بيده إلى الأجير.

وفي نهج البلاغة (الخطبة ٢١٩): والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهدا والله لقد رأيت عقيلا وقد أملق حتى استماحني من بركم صاعا ورأيت صبيانه شعث الشعور غبر الألوان من فقرهم كأنما سوّدت وجوههم بالعظام وعاودني مؤكدا وكرّر عليّ القول مردّدا فأصغيت إليه سمعي فظن أني أبيعه ديني وأتبع قياده مفارقا طريقتي ، فأحميت له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها ، فضج ضجيج ذي دنف من ألمها ، وكاد أن يحترق من ميسمها ، فقلت له ثكلتك الثواكل يا عقيل أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه وتجرني إلى نار سجّرها جبارها لغضبه أتئن من الأذى ولا تئن من لظى؟.

في التهذيب (٤ : ٥٨) عن الصادقين (عليهما السلام) أن الصدقة أوساخ ما في أيدي الناس وأن الله حرم علي منها ومن غيرها ما قد حرمه.

ولكنها خاصة بالمعصومين (عليهم السلام) كما في الفقيه والتهذيب عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : أعطوا الزكاة بني هاشم من أرادها منهم فإنها تحل لهم وإنما تحرم على النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) وعلى الإمام الذي يكون بعده وعلى الائمة.

وفي المحاسن (١ : ١٤٥) عن عبد الله بن عجلان سألت أبا جعفر (عليهما السلام) عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ فقال : «هم الأئمة الذين لا يأكلون الصدقة لا تحل لهم».

هذه وأمثالها إنما تستثني أئمة أهل البيت (عليهم السلام) فقط من الصدقات وعلّها غير الزكوات فإنها كما الأخماس تخرج من مخرج واحد ، وأما الصدقات غير المفروضة ففيها مهانة لا تناسب ساحة أهل البيت وسماحتهم.

وقد تظافر النقل عند إخواننا أن «آل محمد لا يأكلون الصدقة» [1].

ذلك ، فأين حرمان الذرية ككل من الزكوات حتى لو أريدت من

---

(١) مفتاح كنوز السنة نقلا عن : بخ ـ ك ٢٤ ب ٥٧ و ٦٩ ، ك ٣٤ ب ٧٤ ك ٤٥ ب ٦ ، ك ٥١ ب ٧ ، ك ٥٦ ب ١٨٨ ، ك ٦٨ ب ١٤ و ١٧ ، مس ـ ك ١٢ ج ١٦١ ـ ١٦٧ بد ـ ك ٩ ب ٢٩ ، تر ـ ك ٥ ب ٢٥ ، نس ـ ك ٢٣ ب ٤ و ٧ و ٩٧ و ٩٨ ، ك ٢٧ ب ٢٩ ، ك ٣٤ ب ٥ ، مى ـ ك ٢ ب ٢ و ٤ ، ك ٣ ب ١٦ و ٣ ما ـ ك ٢٩ ح ٢٥ ك ٥٨ ح ١٣ ، عد ـ ج ١ ق ٢ ص ١٠٦ ، ج ١ ق ٢ ص ١٠٦ ج ٤ ق ١ ص ٤٠ و ٥٢ حم ـ أوّل ص ٧٨ و ٨٨ و ٩٤ و ٢٠٠ و ٢٠١ و ٢٢٥ قا ٢٨١ ، ثان ص ١٨٣ و ١٩٣ و ٢٧٩ و ٣٠٢ و ٣٠٥ و ٣١٧ و ٣٣٨ و ٤٠٦ ٢ و ٤٠٩ و ٤٤٤ و ٤٦٧ و ٤٩٢ ، ثالث ص ١١٩ و ١٣٢ و ١٨٤ و ١٩٢ و ٢٤١ و ٢٥٨ و ٢٩١ و ٤٤٨ و ٤٨٩ رابع ص و ١٦٦ و ١٨٦ و ١٨٩ و ٣٤٨ خامس ص ٢ و ٤ و ٥ و ٣٥٤ و ٤٣٩ و ٤٤٣ سادس ص ٨ و ١٠ و ٣٩٠ ط ـ ح ٩٧٢ و ١١٧٧ قا ١٣٣٦ و ١٩٩٩ و ٢٤٨٢ و ٢٦٠٠.

الصدقات حيث النصوص تختص بهم دون سواهم.

ذلك ، وهم يختصون نصف الخمس ببني هاشم ويختصون بني هاشم بالمنسوب من قبل الأب دون الأم فقط وهم قليلون جدا فكيف لهم نصف الخمس ولسائر الناس الزكوة ، والخمس عن كل العوائد والزكاة تخصها بالتسعة أشياء.

ولو اختصت ذرية النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) بالمنتسبين إليه بالأب فلا ذرية ـ إذا ـ للنبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) فإن ذريته كلهم من فاطمة (عليهما السلام) ، أو ليس الحسنان من ذرية النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) لانتسابهما إليه (صلّى الله عليه وآله وسلم) بالأم!

ذلك ، وحتى لو اختص بذريته (صلّى الله عليه وآله وسلم) من فاطمة من علي فكل ولد فاطمة هم من علي ، إذا فلا ذرية لرسول الله أبدا ، فقد يختص نصف الخمس ـ إذا ـ بولد هاشم من ناحية الآباء!

وهناك يظهر كالشمس في رابعة النهار أن اختصاص نصف الخمس بالسادة من طريق الآباء ، إنه خطة جاهلية تسربت فينا بشعر جاهلي ورواية جاهلية لا يميز مختلقها بين الأدعياء وأولاد البنات ، حيث يستند إلى آية الأدعياء ، مما يبرهن أن مختلقها كان نفسه من الأدعياء الأشقياء ، حيث ضم إلى نفسه أولاد البنات ، ويعارض بذلك كتاب الله حيث ينسب المسيح (عليه السلام) إلى إبراهيم من مريم ، وينسب الحسنين إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) في آية المباهلة ، وقديما كان الحوار بين أئمتنا والخلفاء الأمويين والعباسيين حيث كانوا يحتجون عليهم بهذه الآيات أنهم من ذرية الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم).

وكذلك حرمة الزكوة على هؤلاء الهاشميين الخصوص لأنها أوساخ ما في أيدي الناس ، رغم أن مصدر الخمس والزكوة واحد ، فكيف اختصت الزكوة بأنها أوساخ والخمس طاهر ، فحرم كل فقراء المسلمين عن سهم السادة إلا المنسوبين بالآباء إلى الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) وهو سهم غزير ، كما حرم السادة عن الزكاة وهو شيء زهيد ، فالكثير الكثير

لهم أولئك القلة القليلة لأنه طاهر ، والقليل القليل للكثرة الكثيرة لأنه من أوساخ ما في أيدي الناس ، قسمة ضيزى في بعدين اثنين!

وهكذا الأمر في اختصاص الزكوة بالتسعة الشهيرة ، وامتصاص الخمس كل الأموال ، ولأنه الطاهر الخاص بالمطهرين دون الزكوة الوسخة فهي للوسخين!.

شطحات جاهلية رغم قول النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم): «ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي» (١) حيث يقصد إذلال أمر الجاهلية وحط أعلامها ونقض أحكامها ، كما يستذل الشيء الموطوء الذي تدوسه الأخامص الساعية ، والأقدام الواطية ، فلا يبقى منه مرفوع إلا وضع ، ولا قائم إلا صرع.

لفتات هامة حول فلتات الخمس والزكوة :

١ لو اختصت الزكاة بغير بني هاشم الخصوص واختص الخمس بهم ، فلا يخلو من أن تكون الزكاة من كل الأموال وكذلك الخمس ، أم الزكوة من التسعة والخمس من الغنائم ، أو الزكوة من التسعة والخمس من الكل ، أو الزكوة من الكل والخمس من الغنائم ، أم هما ضريبة واحدة كيفما كانتا.

فاختصاص الزكاة ـ على أية حال ـ بغير بني هاشم واختصاص الخمس بهم ـ على أية حال ـ حتى إذا لم تختلف الأنصبة هو تفرقة بين فريقي المسلمين دون سبب ، أم بسبب أن الزكوة من أوساخ ما في أيدي الناس وهذا ظلم على غير بني هاشم.

ثم على فروض الاختلاف فهو ظلم على الناقص نصيبه هاشميا وسواه.

فإن كان الخمس ـ فقط ـ من الغنائم والزكاة من التسعة ، لقل نصيب

---

(١) المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي.

بني هاشم حيث الحروب قلة ، إلّا أن نشجع دوما عليها لكيلا ينقص نصيبهم.

وإن كان الخمس من كل شيء والزكاة من التسعة أم ومن كل شيء لقل نصيب غير بني هاشم وهم الأكثرية الساحقة ، ولا سيما إذا لم نحاسب المنسوب بالأم إليهم منهم.

فلا تخلو التفرقة بين فريقي المسلمين من الظلم على أية حال فكيف تفترى على الإسلام.

ثم الرسول الذي كان يسوى في القسمة من ماله نفسه فكيف يفضل بني هاشم من أموال المسلمين.

ولم يسبق وإن مرة يتيمة أن يقسم النبي أو أحد من الأئمة من دون تسوية ، اللهم إلّا أن يدفعوا من سهم أولي القربى لبعض السادة المحرومين عن حقوقهم.

ولقد نزلت آية أخذ الزكاة في السنة التاسعة من الهجرة [١] والخمس في الثالثة ، ولكن الزكوة كانت مفروضة منذ العهد المكي ، فهل كان بنو هاشم محرومين عن الزكاة حتى الثالثة من الهجرة ثم اختصوا به منذ نزول آيته فجبر نقصهم بمئات الأضعاف؟

ومما ظلم فيه بنو هاشم تحريم الزكاة عليهم كما تقوله الشيعة والسنة [٢].

---

(١) كما في السيرة لابن هشام ٤ : ٢٧١ وتاريخ الطبري ٢ : ٤٠٠ وتاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ١٩٩ وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٤٨ وناسخ التواريخ مجلدة الهجرة ٣٩٦.

(٢) في كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ١ : ٦٢٣ عن مالك بن أنس ، وفيه ٦٢٦ عن الشافعي أن من شروط أهل الزكوة عدم كونهم من بني هاشم ، وهذه سياسة شيطانية لتضعيف ساعد بني هاشم من قبل الفريقين ، أما أهل السنة فلأنهم لا يعتقدون في الخمس لكل الأموال ، ولا أن خمس الغنائم لهم ، وأما الشيعة فلأنهم يختصون بهم الخمس من كل الأموال تقوية زائدة لساعد بني هاشم ، فهم بين إفراط وتفريط.

ولقد كان اختصاص ذلك الخمس بهم من ردود الفعل غلوّا لهم حيث الحرمان المطلق.

تلخيصة حول آية الخمس:

فاعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه.

﴿فَأَنَّ لِلَّهِ﴾ اختصاص بالله كمحور في اتجاه الخمس مصرفيا ، ولأن الله ليس يحتاج إليه فقد ذكر مصرفان اثنان تقوية لساعد الدين والديّنين ، مصرف أوّل تقوية القيادة الإسلامية رسولية ورسالية : ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى﴾ ومصرف ثان مساعدة أصول المحاويج ﴿وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

ولأولى قربى الرسول وهم الأقربون إليه نسبيا وروحيا شأن هامّ في القرآن العظيم ، فكما الله قرر الأنفال لله وللرسول وكذلك الفيء ، كذلك وعلى ضوءه لخلفائه (صلّى الله عليه وآله وسلم) من بعده.

فآية عدم سؤال الأجر ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ من ناحية الودّ لهم روحيا ، فإنهم مدينة علم الرسول ، ثم ذكر حقهم الشامل للجانبين الروحية والمادية : ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ (١٧ : ٣٦) م و ٣٠ : ٣٨) فهنا حق خاص من الرسول إلى ذي القربى وهو الذي يكون من لوازم قيادتهم الروحية والزمنية.

ذلك وكما نجد اليتامى والمساكين وابن السبيل أصول المحاويج الأصليين في آيات ، فهنا أصلان اثنان يقتسم الخمس لهما على قدر الحاجة أو الكفاية.

فإفراد ذي القربى ، وأنه ليس لهم ككل ذي قربى المسلمين نصيب من الخمس وهنا احتمالات ثلاث في «ذي القربى» ١ ذي القربى

. المطبق كان على الهاشميين من قبل الحكومات الإسلامية ، ففي كتاب الولاة والقضاة للكندي ١٩٨ يذكر من أوامر الخليفة : لا يقبل علوي ضيعه ولا يركب فرسا ولا يسافر من فسطاط إلى طرف من أطرافها وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد وإن كان بين علوي وبين أحد من الناس خصومة فلا يقبل قول العلوي ويقبل قول خصمه بدون بينة (الامام الصادق ١ : ١٤٤).

للمؤتي الخمس ٢ ذي القربى المخصوصين بالرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) ٣ وذي القربى العامين للرسول ، والأوسط هو الصحيح.

نصيب ذي قربى الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) وهم ذي الصلة القربى به كرسول روحيا ، وكمحمد أبيهم وقريبهم نسبيا ، ذلك النصيب هو قضية قيادتهم الرسالية خلافة عن القيادة الرسولية وكما في تفسير القمي : يخرج الخمس ويقسم ستة أقسام (ص ١ / ١٧).

ذلك وأما ﴿الْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فليسوا هم فقط من الذرية ولا سيما المخصوصة بطريق الأب ، حيث نراهم في كافة الحقول للإيتاءات واجبة ومستحبة أن لهم حقا ، فهم يشاركون الوالدين في الإحسان : ﴿وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ ... وَآتُوا الزَّكاةَ﴾ (٤ : ٣٦) و ٢ : ٨٣) وكذلك في حقل الإيتاء ﴿وَآتَى الْمالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقابِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ﴾ (٢ : ١٧٧).

وفي الإنفاق : ﴿قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (٢ : ٢١٥).

وفي القسمة : ﴿وَإِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ (٤ : ٨).

وفي الفيء : ﴿وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (٥٩ : ٧).

ولا نجد ذوي القربى في الإيتاءات الواجبة زكاة وخمسا ، فلأن هؤلاء الثلاث يذكرون جمعا ، فما الذي يخصصهم ـ بعد ـ بالذرية ، ولا سيما التي هي بواسطة الأب؟!

رجعة أخرى إلى آية الخمس:

من مبعدات كون الخمس متعلقا بكل الأموال أن له آية واحدة وللزكوة التي هي أكثر نطاقا ولو تعلقت ـ فقط ـ بتسعة أشياء زهاء مائة آية بلفظ الزكوة والصدقات والإنفاقات والايتاءات ، وقد شملت آيات الزكوة العهدين منذ البداية إلى النهاية وآية الخمس نزلت ثالثة الهجرة.

فلو أن الخمس يعم كل الإفادات فهو أهم من الزكوة موردا لاختصاص الزكوة ـ كما يقال ـ بالتسعة ، وقدرا فانه ٢٠ / ١٠٠ ولكن الزكوة من ٥ ، ٥٢ و ١٠ / ١٠٠ والكسر المتوسط ٦ / ١٠٠.

ثم لو كان الخمس عاما فلما ذا ذكر بلفظ الغنيمة التي لم تأت في القرآن إلّا في حقل الحرب ، وفي اللغة هو الإفادة من غير مشقة ، فهو خاص بغنائم الحرب ، وليست مشقة الحرب محسوبة على الغنيمة إلّا إذا كانت لهدف الغنيمة وإذا ليست هي حربا إسلامية.

ثم القرآن لم يذكر الغنيمة إلّا في نطاق الحرب مما يرجح ـ لأقل تقدير ـ كونها ظاهرة في غنائم دار الحرب ، فلو كانت هي الأعم منها لبدلت إلى ما يفيده ك «ما أفدتم ـ أو فزتم به أما أشبه» والآيات الخمس التي فيها الغنيمة بصيغها تعني هي فيها غنائم دار الحرب.

ولم تأت الغنيمة في القرآن وإن مرة يتيمة لمطلق الفائدة وقوله ﴿فَعِنْدَ اللهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ ٤ / ٩٤ علها أو أنها المعنية بقوله تعالى : ﴿وَعَدَكُمُ اللهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ﴾ ٤٨ / ٢٠.

وإذا شملت الغنيمة كل الفوائد فما فزت به دون مشقة أخرى ، فقد تشمل الهبة والصداق والهدية والميراث دون ريب!

ثم لو كان الخمس مختصا بالذرية لكان معزولا حال أن بيت المال كان موحدا يرزق منه كل المحاويج دون عزل لبني هاشم عن غيرهم.

وعلى فرض أن الخمس يعم كل الفوائد أم غنائم دار الحرب فقط فليس تقسيم السته على السوية وإنما قدر الحاجة ، والحاجة الأولى هي إدارة شؤون الدولة الإسلامية ثم شؤون اليتامى والمساكين وابن السبيل.

وهل الثلاثة الأولى ترجع زمن الغيبة الى مراجع الدين؟ طبعا نعم حيث القيادة روحية وزمنية لا تختص بالمعصومين ، (عليهم السلام) ففي فرض دولة موحدة إسلامية بقيادة واحدة فهي راجعة إليه ، للمصالح المصالح الجماهيرية ، ثم ولا تختص بفقيه دون آخر.

فإنما يصرف النصف الأول في سبيل الدعوة الإسلامية ، والآخر في صالح المحاويج الثلاثة سادة وسواهم.

ولأن الخمس ضريبة ثابتة فلا يتحول إلى أقل أم إلى العدم على أية حال ، فالنواب العامون للإمام (عليه السلام) لهم أن يأخذوا حقهم ويصرفونه فيما يحق لهم ، في الدعوة الإلهية والدعوة إلى الرسالة والخلافة المعصومة ، وأما أن يصرفوه في الدعاية لمرجعيتهم فلا.

ومما لا بد منه أن يقتسم الخمس إلى هذه الست حسب الحاجة [1].

خلاصة البحث حول الخمس :

آية الخمس هي الآية الأولى النازلة في ذلك الكسر وموارد التقسيم والتسهيم ، ورغم أن آيات الزكوة نزلت قبلها وبعدها ، ولكنها لم يذكر فيها كسرها من الأموال التي يزكى منها.

وإنما أمهل المسلمون لحد الآن عن نصاب الزكوة فأهمل ، حيث الأوضاع الاقتصادية ما كانت بحد تتحمل كسرا للزكوة متعينا ، ولا أمرا بأخذها ، والمسلمون مهما كانت لهم أموال في مكة المكرمة فقد تركوها مهاجرين إلى المدينة ، والمسلمون الأنصار كان عليهم مساعدتهم للحد الأقصى فلم يكن هناك دور لكسر خاص للزكوة وأخذها بصورة رسمية ، مع أن الأنصار أيضا كانوا في الأكثرية الساحقة من الفقراء ، فأبو أيوب الأنصاري مضيف الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) لم يكن عنده إلّا بيت صغير فيه غرفتان فوق بعض ، سكن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) في الغرفة الفوقانية وهو وأمه في التحتانية ولم يكن للأنصار الأخر حالة مالية أحسن منه.

---

(١) كما في الوسائل ٣٦٢ : ١ وأحاديث الأوساخ أوساخ تخالف المحسوس والضوابط الإسلامية وما هي إلا ثلاث ٣٥٦ / ٤ و ٣٥٧ / ٧ و ٣٦٠ / ١٠.

وحرمة الصدقة والخمس بديلها ٣٣٧ / ٢ وأحاديث التحليل وهي ثلاثون مرفوضة إلا في دولة الباطل بالنسبة لسهم الإمام ، وأما سهم الثلاث الآخرين فكيف يوهب.

ولقد كانت جهازات المسلمين يوم بدر فرسان وسبعة سيوف وسبعة آبال ، وكان (صلّى الله عليه وآله وسلم) يدعو يوم بدر : اللهم إنهم حفاة فاحملهم اللهم إنهم عراة فاكسهم اللهم إنهم جياع فأشبعهم.

وقد يلمح اختلاف التعبير هنا في آية الخمس ب «واعلموا» وهناك في آيات الزكاة ب «آتوا» ثم ﴿خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ﴾ أن ليس الخمس على حد الزكوة في مدى الفرض القاطع.

ذلك ، ولأن الغنيمة قبل تقسيمها غير مملوكة لأحد فإنها مشاعة بين المقاتلين ، فإذا قسمت ملكت.

وقد تلمح «واعلموا» إعلاما لكسر الزكوة ، والزكوة تشمل كل ما يزكى الدافع والمدفوع إليه : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٩ : ١٠٣) فالزكوة تزكي الدافع عن نفسية البخل والحرص ، وتزكى المجتمع عن تضاد الطبقات ، وتزكى الدولة عن التضيق الاقتصادي ، وتزكي سائر المستحقين عن دنس الفقر والاستجداء ، أو ليس ذلك من فاعلية الخمس ، بلى بل هو أزكى لأنه أكثر مالا وأوسع مالا.

فكل إنفاق وإيتاء وإحسان وزكاة له فاعلية التزكية ، وليس الخمس إلّا ضريبة نهائية من ضرائب الزكوة.

وأما التعبير عن كل المنافع بالغنائم فلأنها تحصل نافعة للإنسان ، ونفس إضافة الغنائم إلى دار الحرب تدل على أنها أعم منها ، ولعل ذكر الغنيمة لكل تشمل غنائم دار الحرب ، فلو قال : أفدتم ، لخيّل إلينا أنها الفوائد المتعددة فتفلت غنائم دار الحرب عن الدور ، ذلك والأحوط الجمع بين سائر أنصبة الزكاة والخمس.

أو يقال : أن «ما غنمتم» تختص بما أفدته دون مشقة متعددة كالكنز والمعدن والغوص والحرام المختلط بالحلال وغنائم دار الحرب ، ثم تلحق بها أرباح التجارات بكل أشكالها.

ومهما استعملت لفظة الغنيمة في القرآن في خصوص غنائم دار الحرب [1] فليس هذا بالذي يصبح قرينة على أنها ـ فقط ـ معنى الغنيمة ، فإن لفظة دار الحرب مما تقيّدها بنفسها ، ففي إطلاقها الشمول لكل ما أفدته دونما استثناء ، ويتأيد ذلك بمتظافر السنة.

فقصة الزكوة قصة عملية على علم بنصابها ، ولكن قصة الخمس علمية اطلاعا على نصاب الزكوة الأخير ، وبيانا لمستحقيه ، ثم آية ﴿إِنَّمَا الصَّدَقاتُ﴾ تطوّر المصرف إلى طور أوسع مما كان حيث تمركزت قواعد الدولة الإسلامية قبل ارتحال الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) بأشهر.

ثم ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ﴾ تربط ذلك العلم بالإيمان ، حيث كان من الصعب ارتقاء الزكوة من أنصبتها الثلاث التي متوسطتها ٦ / ١٠٠ إلى

---

(١) وقد ذكر في الغنيمة اختصاصها بغنائم دار الحرب كما في التبيان ١ : ٧٩٧ على ضوء آية الخمس : أقول : «الغنيمة ما أخذ من أموال أهل الحرب من الكفار بقتال وهي هبة الله للمسلمين» وفي ٣ : ٦٦٦ منه : الغنيمة ما أخذ من دار الحرب بالسيف عنوة مما يمكن نقله إلى دار الإسلام وما لا يمكن نقله إلى دار الإسلام فهو لجميع المسلمين ينظر فيه الامام ومصرف ارتفاعه إلى بيت المال لصالح المسلمين.

وفي المجمع ٤ : ٥٤٣ : الغنيمة ما أخذ من أموال أهل الحرب من الكفار بقتال وهي هبة الله للمسلمين وهو المروي عن أئمتنا ، وهكذا نرى هذا المعنى في زبدة البيان حيث نقله عن المجمع وارتضاه وكذلك في مسالك الإفهام أن الظاهر منها غنائم دار الحرب.

والمجلسي في مرآة العقول ١ : ٤٤١ عن الأردبيلي أن المتبادر من الغنيمة ما هي لدار الحرب ويؤيد تفسير المفسرين.

وفي زبدة البيان ٢٠٩ والذي ينبغي أن يذكر هنا من مضمون الآية أنها تدل على وجوبه على غنائم دار الحرب إلى ما يصدق عليه شيء وأي شيء كان منقولا أو غير منقول.

وأيضا يقول : إن شمول الخمس جميع الأشياء تكليف شاق والزام شخصي بإخراج خمس جميع ما يملكه بمثله يشكل والأصل والشريعة السمحاء ينفيان والرواية غير صحيحة وفي صراحتها أيضا تأمل.

أقول وهي رواية كليم بن مؤذن عن كليم بن عابس قال قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) الآية قال : هما والله الإفادة يوما بيوم.

٢٠ / ١٠٠ وهي ثلاثة أضعافها.

ذلك ، ولأنه لم يثبت كون الخمس هو الزكاة نفسها اعتبارا بنسخ آياته كسور الزكاة ، كما لم يثبت اختصاصه بغنائم دار الحرب.

ثم لئن اختص الثلاث الأخيرة بالذرية ، وليست لتختص ، فلا اختصاص بهم من قبل الآباء ، حيث المنتسبين من قبل الأمهات هم ذرية كما هم على سواء ، وإلّا لم يكن الحسنان (عليهما السلام) من ذرية الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) ثم لم تكن ذرية للرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) فإنهم ليسوا إلا من فاطمة (عليها السلام)!

فالحق هو الحاق الخمس بالزكوة وتقسيمها حسب الحاجات الإسلامية بين المذكورين في آيتي الخمس والزكاة ، وهم متلائمون مع بعضهم البعض ، مهما كان تفصيل مستحقي الزكاة أوسع نطاقا ورفاقا من مستحقي الخمس.

ذلك ، ولأن اللام متكررة في الثلاثة الأولى : «لله ولرسوله ولذي القربى» دون الأخرى : ﴿وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ نتلمح بذلك الفارق بين الفريقين أن الأولين هم الأساس في هذه السهام ، ومن ثم الآخرون.

ثم «لله» ليست لتعني الملك الذاتي ، فإن كل شيء هوله ذاتيا دون جعل تكويني أو تشريعي ، فقد تعني ـ إذا ـ اختصاص نصيب من الخمس في سبيل الدعوة التوحيدية ، ثم «للرسول» دعوة لتحكيم عرى الرسالة الربانية ، ومن ثم ﴿لِذِي الْقُرْبى﴾ تحكيما لعرى السلطة المستمرة العادلة بعد الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم).

فهذه الأسهم الثلاثة ـ إذا ـ تصرف في تحكيم عرى الولاية الربانية والرسولية والرسالية ، فإنها أثافيّ أصيلة للدعوات الإسلامية على طول الخط.

ثم الأسهم الثلاثة الأخيرة لكل اليتامى والمساكين وابن السبيل سادة

وسواهم فضلا عن المنتسبين بالأمهات إلى الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) ، وتقسيم الخمس بين هذه الموارد الستة ليس إلّا حسب الحاجة والمصلحة الأخرى والأولى ، دون أن يكون على السوية ، كما أن الزكوة كذلك لا تقسم في مصارفها الثمانية بالسوية.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَواعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ وَلكِنْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٤٢).

﴿يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ﴾ وهو يوم بدر حيث فرق الله به بخارقة غلبة المسلمين على قلتهم عددا وعددا ظاهرية على المشركين بكثرتهم فيهما ، فرق الله بين الحق والباطل بصورة حسية ملموسة ، ومتى؟

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا﴾ هي شفير الوادي وفيها الجدب والأرض الرخوة الخوارة ﴿وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوى﴾ وهي علياه وفيها الماء والأرض الصلبة الفوارة «والركب» : العير الذي كان عليه أبو سفيان ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ وهو الأدنى من العدوة الدنيا ، فقد كنتم محاصرين في العدوة الدنيا بين ركبهم الأسفل منكم وسائرهم الأعلى منكم ، وأنتم في مثلث من هندسة الانهزام ، ثالثه موقعكم من العدو ، وقد تغلبتم عليهم بإذن الله.

﴿وَلَوْ تَواعَدْتُمْ﴾ أنتم على هندسة الحرب ، هذه التي تقضي بطبيعة الحال في التليكات الحربية عليكم ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ﴾ تجنبا عن السقطة الهائلة التي هي قضية طبيعية لهذه الحرب ، «ولكن» كان ذلك عملية قاصدة ربانية وأنتم غافلون ﴿لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً﴾ من غلبكم عليهم ﴿كانَ مَفْعُولاً﴾ على أية حال ، ولكن تحقيقا ليوم الفرقان و ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ ملموسة كهذه التي يعرفها كل ذو بصر مهما لم تكن له

بصيرة ، ﴿وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ كهذه الناصعة الناصحة لكتلة الإيمان ﴿وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ﴾ مقالهم ومقالكم «عليم» بحالهم وحالكم.

فقد كانت المعركة شاخصة بمواقع فريقي الكفر والإيمان ، شاهدة بالتدبير القاصد الخفي ، فقد خرج جيش الإيمان من المدينة ونزل بضفّة الوادي القريبة منها ، ونزل جيش الكفر بقيادة أبي جهل بالضفّة الأخرى البعيدة عنها ، وبين الفريقين ربوة تفصلهما وأمّا قافلة العير فقد مال بها أبو سفيان إلى سيف البحر أسفل من الجيشين ، موقع الجيشين كصدفة ولكنها قاصدة ربانية بتلك الدقة والضبط ﴿لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً﴾.

لقد هلك جيش الكفر عن بينة وكما قالوا لحليفهم الذي أراد أن يمدهم بالرجال وهم ذاهبون لوجه القتال : إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله مالنا بالله من طاقة وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة ، والله نرجع عن قتال محمد حتى نرد بدرا فنشرب فيها الخمور وتعزف علينا فيها القيان فإن بدرا موسم من مواسم العرب وسوق من أسواقهم حتى تسمع العرب بهذه الواقعة (١).

فحين يهلكون بهذه الذكرى بالكفر فقد هلكوا ـ إذا ـ عن بينة ، وهذه ضابطة ربانية أن كلا من الهلاك والحياة الروحيين هما عن بينة من الله وكما

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١٦ : ١٧٢ في قصة خروج المشركين من مكة لمقاتلة المسلمين : فلما وردوا الجحفة بعث الحقاف الكناني ـ وكان صديقا لأبي جهل ـ إليه بهدايا مع ابن له فلما أتاه قال : إن أبي ينعمك صباحا ويقول لك : إن شئت أن أمدك بالرجال أمددتك وإن شئت أن أزحف إليك بمن معي من قرابتي فعلت فقال أبو جهل : قل لأبيك جزاك الله والرحم خيرا إن كنا نقاتل الله كما يزعم.

قال الله : ﴿وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ﴾ مرتفع الخير والشر بأعلامهما البينة الباهرة.

أجل ولم يدع الخلق في بهم صمّا ولا عميا بكما ، بل جعل لهم عقولا ما مازجت شواهدهم وتفرقت في هياكلهم ، خفقها في نفوسهم واستعبد لها حواسهم ، فقرر بها على أسماع ، ونواظر أفكار ، وخواطر ألزمهم بها حجته وأراهم بها محجته ، وأنطقهم عما شهدته بألسن ذربة بما قام فيها من قدرته وحكمته وبين عندهم بها ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ شاهد خبير [١].

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَراً وَرِئاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَاللهُ بِما يَعْمَلُونَ

---

(١) نور الثقلين ٢ : ١٦٠ في مصباح شيخ الطائفة الطوسي خطبة لأمير المؤمنين.

مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَقالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ وَقالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٤٩)

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾(٤٣).

هنا وبالتأتي سرد لإعدادات روحية نوما ويقظة كسبب من أسباب هزيمة العدو العظيمة ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلاً﴾ على كثرتهم فانجر إلى رؤيتهم في يقظتك قليلا ﴿وَلَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً﴾ كما هم كثير «لفشلتم» في الأمر ﴿وَلَتَنازَعْتُمْ﴾ في الأمر : أمر الحرب ، لتثاقل الأقدام في الإقدام عليها قضية التكتيكة الحربية الظاهرة ﴿وَلكِنَّ اللهَ سَلَّمَ﴾ لكم العدو ، بما سلم لكم معدات الإنتصار ، فسلم لكم الغلبة الباهرة الخارقة للعادة ف ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾.

فحين أراهم الله في منامه قليلا فهو (صلّى الله عليه وآله وسلم) يخبر المؤمنين بما رآه تشجيعا لهم على الخروج ، فلو أراه إياهم كما هم فأخبرهم بما هم لفشلتم في التصميم ولتنازعتم في الصميم ولكن.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ

. (عليه السلام) خطب بها يوم الغدير وفيها «ولم يدع».

﴿لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾(٤٤).

وهنا قلتان ، قلة واقعية لكم في أعينهم لكي يستيهنوكم فلا يبالغوا في الاستعداد للمواجهة روحيا ، وفي سائر القوات فيقدموا على نضالكم برخوة واستهانة دون أية جدية ثم وقلة في الرؤية لهم في أعينكم لكي تستهينوهم فتقدموا على نضالهم دونما تخوف ، وقد تعني «يقللكم» تقليل العدد عما هو فهو أقل من واقعه ، أم وتقليل العدد عما هو ، فكذلك الأمر ﴿لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً﴾.

وهلّا تناحر بين ﴿يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ هنا وبين ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ (٣ : ١٣) إن كانت تعني بدرا كما عنته الأولى؟ كلّا حيث التقليل هنا ﴿إِذِ الْتَقَيْتُمْ﴾ وهو بداية الالتقاء ، ثم ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ بعدها ﴿لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً﴾.

فلقد كان في هذا التدبير الرباني ما حرّض الفريقين بخوض المعركة ، تشجيعا للمؤمنين بكل قواتهم ، وإغراء للكافرين ألا يستعدوا لجدية قاطعة في المواجهة ، فلقوة الروحية والتصميم عليها أثرها العظيم أمام ضعف الروحية والتصميم ، ولقد رأى المسلمون الكفار قليلين في استمرارية المعركة ورآهم الكفار كثيرين ﴿لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً﴾ كما قضاه ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ولا سيما هذا الذي قدر وسلم.

ذلك ، فليست الغلبة فقط بكثرة العدد والعدد ، بل وأهم منهما نصر الله ، والروحية القوية والتصميم في الصميم على لقاء العدو ، وهكذا كان المؤمنون ينتصرون ما كانوا متوكلين على الله ، مصممين على تحقيق أمر الله ، غير مستكثرين طاقاتهم وإمكانياتهم الحربية ، فأما إذا عكسوا الأمر كما في حنين : ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ فانهزامة عظيمة ، ومن ثم لما رجع الأمر إلى موقعه الصالح فغلبة عظيمة ، وهكذا يثبتنا الله تعالى في معارك الشرف والكرامة :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٤٥).

آيات عدة تأمر المؤمنين برعاية سلبيات وإيجابيات في الحروب

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وتفلجون أعداءكم :

فهنا ﴿إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ قضية الإيمان والمسؤولية الإيمانية حيث ترون لقاء العدو أمرا من الله «فاثبتوا» قرارا دون فرار ، ثباتا على إمضاء أمر الله ، فهو الذي ينصركم كما يشاء ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً﴾ في هذا اللقاء وسواه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فتفلجون عدوكم إن شاء الله.

وهل الأصل للمؤمنين لقاء العدو ، أو العافية التي فيها الأمن والدعة؟ إنه ليس لقاء العدو إلا دفاعيا واضطراريا وكما نسمع الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) يقول : «لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإن لقيتموهم فاثبتوا واذكروا الله كثيرا فإذا جلبوا وصيحوا فعليكم بالصمت» (١).

ولأن ذكر الله يطمئن القلوب ، والمؤمن في مهاوي الأخطار بحاجة ماسة إلى اطمئنان حتى لا يتزعزع ، لذلك افترض الله ذكره عند أشغل ما تكون عند الضراب بالسيوف.

وهل إن «فاثبتوا» ثابتة على أية حال؟ وآية التحرف لقتال أو التحيز إلى فئة تختصها بغيرها! ولكن الثبات لا ينافيه تولي الدبر لأشخاص من الجيش لإثبات أكثر مما كان ، إشخاصا لقوات إسلامية إلى أرض المعركة بأشخاص كأنهم يولون الدبر وهم في الحق مقبلون إلى حرب هي أقوى لهم وهي على العدو أنكى وأشجى.

وعلى أية حال فالثبات في اللقاء والإكثار من ذكر الله هما من مجالات الإفلاح ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا

---

(١) الدر المنثور ٣ : ١٨٩ ـ أخرج عبد الرزاق في المصنف وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) :

وفيه أخرج عبد الرزاق عن يحيى بن كثير أن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) قال : لا تتمنوا لقاء العدو فإنكم لا تدرون لعلكم ستبتلون بهم وسألوا الله العافية فإذا جاءوكم يبرقون ويرجفون ويصيحون بالأرض الأرض جلوسا ثم قولوا اللهم ربنا وربهم نواصينا ونواصيهم بيدك وإنما تقتلهم أنت فإذا دنوا منكم فثوروا إليهم واعلموا أن الجنة تحت البارقة.

إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(٤٦).

هنا بعد الأمر بالثبات عند اللقاء وذكر الله نؤمر بطاعة الله ورسوله ، فليكن لقاء العدو بشكليته كأصله بطاعة الله ورسوله ، دونما تخلف عن القيادة الحربية رسولية أو رسالية ، حيث الطاعة الصالحة في الحرب هي من أسباب الفلاح ﴿**وَلا تَنازَعُوا**﴾ في حرب وسواها ، فالتنازع في الحرب تشتت في القوات المسلحة والتصميمات الحربية الصالحة وفشل فيها وذهاب ريح «واصبروا» على كل حال حفاظا على أمر الله ولا سيما في الحرب ، هضما لأنفسكم عن أي تشتت ، وتبعثر ، حيث الوحدة في القتال وهو بأمر الله وقيادة الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) إنها رمز الغلبة والعزة.

ذلك ، ولقد خلف التخلف عن أمر قائد القوات المسلحة الرسولية يوم أحد ، خلّف انهزامه عظيمة في وسط المعركة ، إذ لم يثبت الرماة على قواعدهم التي قررهم الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) فعصوا الله وعصوا الرسول وتنازعوا في ذلك التخلف فذهبت ريحهم وما صبروا على المسؤولية المقررة لهم.

وهنا «ريحكم» هي ريح الإيمان وروحه وروحه ، وهي عز الإيمان وسيادته ، الريح التي تركم سحاب الرحمة وتمطر على المؤمنين ، وتجمع سحاب العذاب والزحمة فتمطر على الكافرين.

وصحيح أن المحور الأصيل هنا لهذه الأوامر والنواهي هو حالة الحرب ، ولكنها طليقة على أية حال ، فالثبات في إمضاء أمر الله ، وذكر الله كثيرا على كل حال ، وطاعة الله والرسول في كل حل وترحال ، وترك المنازعة بين المؤمنين ، والصبر على النوائب في سبيل الله ، وترك البطر ورئاء الناس والصد عن سبيل الله ، هذه الثمانية أمرا ونهيا ـ عدد أبواب الجنة الثمان ـ هي كلها من مفاتيح الرحمة والرضوان ﴿**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**﴾.

وهنا «لا تنازعوا» تحتل القمة الرئيسية بين زملائها ، حيث التنازع

والاختلاف بين المؤمنين يفصم طاقاتهم ، وتضعف قواتهم ، وتجعلهم شذ مذر ، مواطئ لأقدام الكفار ، ومجالات لإقدامهم على محقهم وسحقهم في كل أقدامهم.

والتنازع هو التفاعل في النزع وهو بين محظور ومحبور ، فمحاولة كلّ أن ينزع ما عند صاحبه من خير تحويلا له إلى نفسه أم إلى الفناء استئصالا فيهما أم استقلالا هو تنازع محظور.

ثم محاولة كلّ أن ينزع ما عند صاحبه من خير استغلالا دونما استئصال محبور ، فهما بين طرفي التضاد منهيا عنه أو مأمورا به ، ومن التنازع المحبور التشاور في معضلات الأمور إفادة واستفادة ، ومن المحظور التشاطر فيها أن يتبنّى كلّ شخصه وشخصيته دون ابتغاء للحصول على الحق المرام ، فالحق ما يقوله هو مهما كان باطلا ، والباطل ما يقوله سواه مهما كان حقا ، وإن جرى الحق على لسانه هو فهو الحق ، وان سبقه غيره فيه فمحاولة لإبطاله ، ومن مصاديق المحظور منازعة الرسول في الأمر : ﴿فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ﴾ (٢٢ : ٦٧) ومن المحبور ﴿يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَلا تَأْثِيمٌ﴾ (٥٢ : ٢٣) استرواحا بمزاح ، ثم عوان بينهما هو التنازع الذي ليس عن عداء ، بل هو طبيعة الحال لقصور في المعرفة ، فليردّ ـ إذا ـ إلى الله والرسول : ﴿فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾ (٤ : ٥٩).

وهنا بين الفشل والتنازع تفاعل التجاوب ، فالتنازع هو من عوامل الفشل كما هنا ، كما الفشل هو من عوامل التنازع : ﴿حَتَّى إِذا فَشِلْتُمْ وَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ﴾ (٣ : ١٥٢). فالفاشلون في العلم والمعرفة وصالح العقيدة هم المتنازعون ، كما المتنازعون هم الفاشلون.

ولأن المنازعة بين المؤمنين محرمة فيما يؤول إلى البغضاء والعداء دون حصول على حق ، فالمفروض ـ إذا ـ التجنب عن أسبابها والاتجاه إلى أسباب التآلف والوحدة.

وهنا كتاب الله وسنة رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) هما قمة الأسباب الرئيسية للوحدة والألفة ، طالما الأصول الأخرى التي لا أصل لها في كتاب أو سنة ، كالإجماع والشهرة والقياس والاستحسان والاستصلاح ، ودليل العقل مستقلا وجاه الكتاب والسنة ، إنها كلها من أصول التنازعات.

فالارتكان على أدلة العقول في الفروع الأحكامية وما أشبهها غير الكتاب والسنة ، إنه ارتكان إلى ركن سحيق محيق غير وثيق ، يخلف مختلف التنازعات بين المعتمدين عليها ، وهنا كلمة حاسمة لهذه التنازعات : ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾.

فالأصل الإيماني بين قبيل الإيمان ألا يتنازعوا على أية حال ، فإذا تنازعوا لقصور في البال أم قضية الحال فإلى الله في كتابه ، وإلى الرسول في سنته ، فإذا بقيت بعد بقية من الخلافات حسب مختلف الاجتهادات والاستنتاجات فلا تنازع بعد بل هو الإقرار لكلّ والاستقرار على ما أدى إليه رأيه دونما تنازع وعداء ، بعد تشاور وتحاور سليمين.

فالمحور الأول الذي يقضي على محور التنازع المحظور هو أن يطلب كل الحق المرام مهما كان عند منازعه ، وأن يرفض كلّ الباطل مهما كان عنده.

ثم الثاني أن يمحور كل فطرته وعقليته السليمة على ضوء كتاب الله وسنة رسوله (صلّى الله عليه وآله وسلم).

ومن ثم إذا بقيت خلافات فإلى شورى بينهم على ضوء هذين الأصلين الأصيلين ، فقد لا تبقى إذا خلافات إلا قليلة ضئيلة هي معفوة مغفورة لأنها من قضايا عدم العصمة العلمية والمعرفية.

ذلك ، فليست وجهات النظر المختلفة هي السبب الرئيسي للخلافات ، إنما هو حين تكون القيادة للأهواء والشهوات والإنيات والأنانيات ، وإنما هو وضع الذات في كفة محادة لكفة الحق أم غير محايدة لها أم قابلة للحق إذا اتبع هواه.

فإذا استسلم الإنسان لسليم الفطرة والعقلية بقيادة الله في كتابه ، ثم قيادة الرسول في سنته فقد انتفت الأسباب الرئيسية للتنازعات ، وبقيت بقية قليلة هي بالنهاية حصيلة عدم العصمة فاختلاف وجهات النظر رغم وحدة الأصل الصالح ورفض الأصل الطالح.

فإن كنت عادلا تتحرى عن الحق فلتكن عادلا في الإقبال إلى الحق وقبوله ، فحين ترى الحق عند منازعك فتقبله ولا تفتكر أنك ـ إذا ـ مغلوب ، بل أنت غالب على هواك في تقبّل الحق عند من سواك ، إنما المغلوب هو مغلوب الهوى ، والغالب هو الغالب على الهوى.

فحين يكون الحق هو المحور المبتغى فأنت الغالب على أية حال ، وحين تكون الهوى هي المحور المبتغى فأنت المغلوب على أية حال ، فلا بد للسالك في سبيل الحق من التصبّر والصمود أمام نزعات الهوى ونزعات الشيطان الذي يأمرها ، فهو الزاد العظيم مع الإيمان بالله في هذه الرحلة الطويلة المليئة بالأشلاء والدماء وحرمانات الهوى.

﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَراً وَرِئاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَاللهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾(٤٧).

هنا المعنيون بهؤلاء هم المنافقون الذين خرجوا مع المؤمنين بظاهرة الجهاد في سبيل الله ، ولكنهم خرجوا بثالوث منحوس من ﴿بَطَراً وَرِئاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾!

وهكذا المشركون الذين خرجوا في حرب المؤمنين «وذكر لنا أن نبي الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال يومئذ : اللهم إن قريشا قد أقبلت بفخرها وخيلاءها لتجادل رسولك ، اللهم إن قريشا جاءت من مكة بأفلاذها» [1].

---

(١) الدر المنثور ٣ : ١٩٠ ـ أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في الآية كان مشركو قريش الذين قاتلوا نبي الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) يوم بدر خرجوا ولهم بغي وفخر وقد قيل لهم يومئذ ارجعوا فقد انطلقت عيركم وقد ظفرتم فقالوا : لا والله حتى يتحدث أهل الحجاز بمسيرنا وعددنا وذكر لنا.

وهنا ﴿رِئاءَ النَّاسِ﴾ مما يؤيد أن المنافقين والذين في قلوبهم مرض هم من المعنيين مع المشركين الرسميين ، حيث المشرك يخرج قضية مبدءه فلا رئاء لخروجه ، وقد يعني مع المنافقين جماعة من الذين ظلوا بعد الهجرة في مكة رئاء الناس المشركين وكأنهم منهم ، أم خرجوا معهم في قتال المؤمنين كأنهم معهم.

ف «بطرا» هو الطغيان في النعمة ، فهو هنا بطر الخروج بكل رعونة وتفرّح وتفرّج تبديلا لنعمة الله نعمة ونقمة : ﴿وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ﴾ و ﴿رِئاءَ النَّاسِ﴾ لكي يراهم الناس وهو شرك خفي مع جلية للمشركين والمنافقين ، وخفي كما الجلي للذين في قلوبهم مرض من المؤمنين.

ثم ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ صدا ظاهرا جاهرا كالمشركين ، أم صدا منافقا خفيا كغيرهم من هؤلاء الخارجين ﴿وَاللهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

وهنا «بطرا و» لهؤلاء الأنكاد الأغباش تقابل ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً﴾ و ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا﴾ هناك ، ولا يخلو الخروج للقتال من كونه في سبيل الله أم في سبيل اللهو ، فثالوث ﴿بَطَراً وَرِئاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ هو سبيل اللهو ، ومثمّن «فاثبتوا ولا تكذبوا» هو سبيل الله ، وأين سبيل من سبيل؟

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَقالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ وَقالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾(٤٨).

هنا مسرح للشيطان صارح وهو صارخ ، قائلا لجنده المشركين : ﴿لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ وإنما قال ﴿وَإِنِّي جارٌ لَكُمْ﴾ حيث ظهر بصورة سراقة ولكي يصدقوه فيما يقول [(١)] وذلك قبل أن تراءى الفئتان ﴿فَلَمَّا

---

(١) الدر المنثور ٣ : ١٩٠ ـ أخرج الواقدي وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما تواقف الناس أغمى على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ساعة ثم سرى عنه فبشر الناس بجبرئيل (عليه السلام) في جند من الملائكة ميمنة الناس وميكائيل في جند آخر ميسرة.

تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ وَقالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ﴾ وهم جنود الملائكة ﴿إِنِّي أَخافُ اللهَ﴾ أن يعاقبني ويعجل في أجلي الموعود ﴿وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾.

فلقد ﴿زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ﴾ ومنها إعمالهم كافة قدراتهم لمواجهة المؤمنين ، زين بما ألقى في صدورهم ثم زوّده بقوله : ﴿لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ خلافا لما أري رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وقد يروى عنه (صلّى الله عليه وآله وسلم) قوله : ما رئي إبليس يوما هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ من يوم عرفة وذلك مما يرى

. وإسرافيل في جند آخر ألف وإبليس قد تصور في صورة سراقة بن جعشم المدلجي يجير المشركين ويخبرهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس فلما أبصر عدو الله الملائكة نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون فتشبث به الحارث وانطلق إبليس لا يرى حتى سقط في البحر ورفع يديه وقال : يا رب موعدك الذي وعدتني.

وفيه أخرج الطبراني وأبو نعيم في الدلائل عن رفاعة بن رافع الأنصاري قال : لما رأى إبليس ما يفعل الملائكة بالمشركين يوم بدر اشفق أن يخلص القتل إليه فتشبث به الحارث بن هشام وهو يظن أنه سراقة بن مالك فوكز في صدر الحارث فألقاه ثم خرج هاربا حتى ألقى نفسه في البحر فرفع يديه فقال : اللهم إني أسألك نظرتك إياي.

وفي نور الثقلين ٢ : ١٦١ عن المجمع بعد ذكر القصة : فلما قدموا مكة قالوا : هزم الناس سراقة فبلغ ذلك سراقة فقال : والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغني هزيمتكم فقالوا : إنك أتيتنا يوم كذا فحلف لهم فلما اسلموا علموا أن ذلك كان الشيطان . عن الكلبي وروى ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله (عليهما السلام).

وعن تفسير العياشي عن عمرو بن أبي مقدام عن أبيه عن علي بن الحسين (عليهما السلام) قال : لما عطش القوم يوم بدر انطلق علي (عليه السلام) بالقربة يستقي وهو على القليب إذ جاءت ريح شديدة ثم مضت فلبث ما بدا له ثم جاءت ريح أخرى ثم مضت ثم جائته أخرى كان أن يشغله وهو على القليب ثم جلس حتى مضى فلما رجع إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) أخبره بذلك فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) أما الريح الأول فيها جبرئيل مع ألف من الملائكة والثانية فيها ميكائيل مع ألف من الملائكة والثالثة فيها إسرافيل مع ألف من الملائكة وقد سلموا عليك وهو مدد لنا وهم الذين رآهم إبليس فنكص على عقبيه يمشي القهقري حين يقول : ﴿إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ﴾.

من تنزيل الرحمة والعفو عن الذنوب إلا ما رأى يوم بدر ، قالوا يا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وما رأى يوم بدر؟ قال : أما إنه رأى جبريل يزع الملائكة [(١)].

وقد تأبى نصوص من الآية أن يكون موقف الشيطان من المشركين في بدر كمواقفه الأخرى معهم بأن وسوس إليهم ، لمكان : «وقال لا غالب لكم اليوم ـ وإني جار لكم ـ إني بريء منكم ـ إني أخاف الله» حيث الوساوس الشيطانية عامة ليست فيها كهذه القالات الخاصة ، ثم كيف ينكص الشيطان على عقبيه وهو غير ظاهر ، فمم يخاف إذا حتى ينكص إلّا إذا كان ظاهرا في المسرح ، وبكل مصرح من قاله وفعاله.

وهل ترى للشيطان هذه القوة القاهرة أن يتصور بصورة الإنسان فيضلّه ويدلّه؟ إذا فله أن يجند جنوده كما الله يجند الملائكة فيهزم المؤمنين!

كلّا ، فإن الله لم يخوّله من ذلك شيئا ولن ، وهنا تصوّره بصورة الإنسان كان لطالح المشركين أن انغرّوا به ، ولصالح المسلمين أن تغلّبوا عليهم ، ثم هو حجة زائدة على المشركين حيث ظنوه سراقة ثم تبين أنه غيره ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

ولقد كانت هنا مقارنة في ثالوث : الشيطان ـ المشركين ـ والمنافقين :

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٤٩).

هنا المقابلة بين المنافقين والذين في قلوبهم مرض تعني ذكر العام بعد الخاص ، فالآخرون ـ إذا ـ هم المشركون ، والمنافقون غير الرسميين من ضعفاء الإيمان ، أم هؤلاء الذين أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم قائلين ﴿غَرَّ هؤُلاءِ﴾ المؤمنين «دينهم» إذ يقابلون على قلتهم عددا وعددا هؤلاء الكثرة القوية من المشركين ، والجواب كلمة واحدة

---

(١) رواه مالك في الموطأ بسند متصل عن طلحة ابن عبيد الله بن كريز.

وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقد ينصر هؤلاء القلة المؤمنة على هؤلاء الكثرة الكافرة كما فعل.

أجل والفئة الكثيرة غير المتوكلة على الله ليست لتتغلب على الفئة القليلة المتوكلة على الله ، ﴿فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ يعز المتوكلين عليه «حكيم» يضع النصرة مواضعها الصالحة ، فالمنافقون والذين في قلوبهم مرض هم مع المشركين ليسوا ليدركوا أسباب الإنتصار والهزيمة المستورة وراء الأستار ، وإنما يرون مظاهر دون أن تهديهم بصيرة إلى مسايرها ومصايرها ﴿يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ﴾ فلا جرم - إذا - يظنون المؤمنين في مسرح بدر وما أشبه مغرورين مخدوعين بالدين ، واردين موارد الهلكة بتعرضهم لقتال المشركين.

﴿وَلَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (٥١) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ (٥٢) ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ

ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٦٣)

﴿**وَلَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ** (٥٠) **ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾(٥١).

هنا ملائكة العذاب يتوفون الذين كفروا ، وهناك ملائكة الرحمة يتوفون الذين آمنوا : ﴿**الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (١٦ : ٣٢).

ثم وملائكة العذاب والرحمة يرأسهم كلهم ملك الموت ﴿**قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ**﴾ (٣٢ : ١١) ومن فوقهم كلهم هو الله ، ف ﴿**اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها**﴾ (٣٩ : ٤٢).

﴿**فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ. ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ**﴾ (٤٧ : ٢٨).

وهنا ضرب الوجوه استقبال لهم بذوق من عذاب البرزخ ، وضرب أدبارهم استدبار بآخر منه ، فهم بين الدنيا والبرزخ يدفعون إلى الموت بضرب الأدبار ، ويستقبلون فيه بضرب الوجوه ، فإنهم أدبروا عن الحياة الأخرى واتجهوا ـ فقط ـ إلى الحياة الدنيا ، فيقال لهم بعد الضربتين : ﴿**وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ**﴾ مما يدل ـ كما في عشرات من الآيات ـ على الحياة البرزخية ، إذ لا مجال ـ إذا ـ ل «ذوقوا» إلّا إذا كان عذاب الحريق حاضرا ، و «ذلك» الثالوث من عذاب الوجوه والأدبار وعذاب الحريق ﴿**بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾ من مستحق العذاب ﴿**وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾.

وهنا «الذين كفروا» كمصداق حاضر ، هم المشركون في بدر حيث ضربتهم الملائكة فتوفتهم ، وقد يروى أن رجلا قال للنبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) : إني حملت على رجل من المشركين فذهبت لأضرب فندر ـ سقط ـ رأسه ، فقال (صلّى الله عليه وآله وسلم) : سبقك إليه الملائكة [1].

---

(١) نور الثقلين ٢ : ١٦٢ عن مجمع البيان روى مجاهد أن رجلا.

ولماذا ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ﴾ وهو ليس ظالما أبدا؟ علّه لكي يستأصل خرافة الجبر ، أم وزيادة العذاب على المستحق فإنه ظلّامية في التعذيب ، ولأنه ﴿بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ فليس بظالم كما ليس بظلام للعبيد.

وترى «لو ترى» تمنيا لرؤيته (صلّى الله عليه وآله وسلم) ذلك المرئى ، أليس يجعل الله متمنيا والرسول غائبا عن ذلك المرئى؟ إن غياب الرسول عن ذلك المرئى كسائر الغيّب ليس عليه عيبا حيث الضابطة له ﴿وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ اللهم إلا ما يظهره عليه ربه ، ثم «لو ترى» من الله بيان لموقف التمني ، أنه مكانه ومجاله أن يرى الرسول إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة دون واقعه من الله.

وهكذا يكون دور الذين كفروا في مصيرهم لمسيرهم بما قدمت أيديهم ، فهم كما يصفهم :

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾(٥٢).

دأبان اثنان : دأبهم أنفسهم في الكفر فإضافة إلى الفاعل ، ودأب الله في جزاءهم الوفاق فإضافة إلى المفعول.

الدأب هو العادة المتعود عليها والسنة السائرة ، وهنا ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ دأب الذين كفروا ككل في أخذهم بذنوبهم ، ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وهم فرعون وأتباعه ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من فراعنة التاريخ ونماردته ﴿كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ﴾ آفاقية وأنفسية ، تكوينية وتشريعية ﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ هنا وفي الأخرى ، برزخا وأخرى ﴿إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ في موضع النكال والنقمة كما هو أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة.

ومن إمام المتقين علي أمير المؤمنين (عليه السلام):

«سبحانك خالقا ومعبودا بحسن بلاءك عند خلقك ، خلقت دارا ، وجعلت فيها مأدبة : مشربا ومطعما وأزواجا وخدما وقصورا وأنهارا وزروعا وثمارا.

ثم أرسلت داعيا يدعوا إليها ، فلا الداعي أجابوا ، ولا فيما رغّبت إليه رغبوا ، ولا إلى ما شوّقت إليه اشتاقوا.

أقبلوا على جيفة قد افتضحوا بأكلها ، واصطلحوا على حبها ، ومن عشق شيئا أعمى بصره ، وأمرض قلبه ، فهو ينظر بعين غير صحيحة ، ويسمع بأذن غير سميعة ، قد خرقت الشهوات عقله ، وأماتت الدنيا قلبه ، وولّهت عليها نفسه ، فهو عبد لها ولما في يده شيء منها ، حيثما زال زال إليها ، وحيثما أقبلت أقبل عليها ، لا ينزجر من الله بزاجر ، ولا يتعظ منه بواعظ ، وهو يرى المأخوذين على الغرّة . حيث لا إقالة لهم ولا رجعة . كيف نزل بهم ما كانوا يجهلون ، وجاءهم من فراق الدنيا ما كانوا يأمنون ، وقدموا من الآخرة على ما كانوا يوعدون .

فغير موصوف ما نزل بهم ، اجتمعت عليهم سكرة الموت وحسرة الفوت ، ففرّت لها أطرافهم ، وتغيرت لها ألوانهم ، ثم ازداد الموت فيهم ولوجا فحيل بين أحدهم وبين منطقه ، وإنه لبين أهله ، ينظر ببصره ويسمع بأذنه على صحة من عقله وبقاء من لبّه ، يفكر فيم أفنى عمره وفيم أذهب دهره ، ويتذكر أموالا جمعها ، أغمض في مطالبها ، وأخذها من مصرّحاتها ومتشابهاتها ، قد لزمته تبعات جمعها وأشرف على فراقها ، تبقى لمن وراءه ينعمون فيها ، فيكون المهنأ لغيره والعبء على ظهره ، والمرء قد غلقت رهونه بها ، فهو يعض يده ندامة على ما أضحر له عند الموت من أمره ، ويزهد فيما كان يرغب فيه أيام عمره ، ويتمنى أن الذي كان يغبطه بها ويحسده عليها قد حازها دونه ، يبالغ في جسده حتى خالط لسانه سمعه ، فصار بين أهله لا ينطق بلسانه ، ولا يسمع بسمعه ، يردد طرفه بالنظر في وجوههم ، يرى حركات ألسنتهم ولا يسمع رجع كلامهم ، ثم ازداد الموت التياطا ، فقبض بصره كما قبض سمعه ، وخرجت الروح من جسده فصار جيفة بين أهله ، قد أوحشوا من جانبه ، وتباعدوا من قربه ، لا يسعد باكيا ، ولا يجيب داعيا ، ثم حملوه إلى محط في الأرض فأسلموه فيه إلى عمله ، وانقطعوا عن زورته» (الخطبة ١٠٨).

﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٥٣).

﴿لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ

ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذا أَرادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ﴾ (١٣ : ١١).

فحين يغيّر المنعمون ما بأنفسهم وجاه الله ووجاه نعم الله ، تبديلا للنّعمة نعمة ، فقد يغير الله تلك النعمة نقمة ، فالنعمة ابتلاء ، إذا صرفت في مرضات الله ازدادت ونمت ، وإذا صرفت عن مرضات الله فندت ونفت ﴿أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ذلك وإن الله قضى قضاء حتما ألا ينعم على العبد فيسلبها إياه حتى يحدث العبد ذنبا يستحق بذلك النقمة [١] «وليس شيء أدعى إلى تغيير نعم الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم فإن الله سميع دعوة المظلومين وهو للظالمين بالمرصاد» [٢] ف «إياك والدماء وسفكها بغير حلها فإنه ليس شيء أدعى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها» [٣].

وليس فقط أن الله يغير النعمة نقمة إذا غيروا ما بأنفسهم كفرانا لنعمة ، بل ويغير النقمة نعمة إذا غيروا ما بأنفسهم شكرانا لنعمة أم جبرانا لكفران ، وأين غيار من غيار ، شرّ إلى خير جزاء وفاقا [٤].

فقد يملك الإنسان أن يستجلب نعمة الله لنفسه أو يستبقيها ويستزيدها

---

(١) نور الثقلين ٢ : ١٦٣ في أصول الكافي عن أبي عمرو المدايني عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال سمعته يقول : ...

(٢ ـ ٣). نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام).

(٤) المصدر عن الكافي عن الجزري قال سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول : إن الله عزّ وجلّ بعث نبيا من أنبياءه إلى قومه وأوحى إليه أن قل لقومك أنه ليس من أهل قرية ولا ناس كانوا على طاعتي فأصابهم فيها سراء فتحولوا عما أحب إلى ما أكره إلا تحولت لهم عما يحبون إلى ما يكرهون وليس من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على معصيتي فأصابهم فيها ضراء فتحولوا عما أكره إلى ما أحب إلا تحولت لهم عما يكرهون إلى ما يحبون ... وعن الإمام الصادق (عليه السلام): «ما دام العبد يعرف نعم الله عنده فإن الله لا ينزع منه نعمة حتى إذا جهل النعمة ولم يشكر الله عليها إذ ذاك حري أن ينزع منه» (مجلة الفرقان العدد الثالث المجلد ٦١ ص ٣٨٩).

إذا هو عرف وشكر ، كما يملك أن يزيلها عن نفسه أو ينقصها إذا هو أنكر ويطر ، وانحرفت نواياه فانجرفت خطاه.

فهنا نعم أنفسية هي الفطرة والعقلية الإنسانية والحس السليم والقلب السليم كما خلق الله ، فحين يغيّر هذه النعم الأنفسية إلى عليين فالله يغيرها إليه وأعلى مما يعنيه ، ويزداده نعما آفاقية تكوينية وتشريعية ، وإذا كانت له نعم آفاقية فغيّر ما بنفسه من نعمة ازداده الله فيها ، ويعاكسه إذا غير ما بنفسه إلى سفل فهو يسفله ويرذله كما فعل ، ومن ذلك الختم على القلوب والغشاوة على السمع والأبصار ﴿فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

وهذه سنة دائبة عادلة في التعامل بين الإنسان ونفسه وربه ونعمه ، حيث تنعكس عليه بكل خير أو شر في الأولى ثم الأخرى ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى﴾.

وتلك الضابطة الثابتة حقيقة كبيرة حقيقة بالتأمل التام في كافة الحقول الحيوية ، جانب عظيم من التصور القرآني لحقيقة الإنسان ، يبين تقديره عند العظيم القدير بذلك التدبير العادل الجدير ، وكما يبين فاعلية الإنسان بقابليته في مصير نفسه ومصير الأحداث حيث يبدو الإنسان من خلال كل المساير والمصاير عنصرا إيجابيا في صياغة ذلك المصير بإذن الله وتقديره وتقريره لكل مسير ومصير من خلال حركته الصالحة والطالحة على ضوء نيته وشاكلته.

فقد تنتفي عنه بذلك تلك السلبية الذليلة المفروضة عليه من المذاهب المادية ، حيث تتصوره وتصوره عنصرا سلبيا إزاء الحتميات الجبارة المتخيلة ، كحتمية الإقتصاد والتاريخ والتطور وما أشبه من سائر الحتميات المختلقة التي ليس للإنسان إزاءها حول ولا قوة ، فلا يملك أمامها إلا الخضوع الطليق كالرقيق ، ضائعا خائفا ذليلا ساقطا إلى مهوى سحيق.

وهكذا نتعرف إلى الإنسان أنه هو الذي يصنع التاريخ دون جبر ولا تفويض ، وإنما هو أمر بين أمرين أمرّين ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى. وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى. ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى﴾ ﴿وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ قالاتهم «عليم» حاجياتهم.

ذلك ، ومن أنعم النعم الربانية نعمة القرآن العظيم والذكر الحكيم ،

فلما غيرنا ما بأنفسنا وجاه القرآن فنبذناه وراءنا ظهريا ، سلب عنا التوفيق في دراسته وحراسته فأصبحنا عنه بعيدين بعد الأرض من السماء ، لحد خيل إلينا وإلى حوزاتنا بزعمائها وعلماءها أن ليس القرآن كتاب دراسة وتعلم ، فقد زين لنا الشيطان أحوالنا وأعمالنا لحد حسبنا كل دراسة حوزية هي صالحة لتبني الحوزات الإسلامية وإصلاح المسلمين إلا دراسة القرآن.

فلا وخزة أخرى ولا أخذة أقضى من رفع القرآن من بيننا ونحن أمة القرآن ، لذلك لا نجد نعمة المعرفة والإيمان بيننا الأقلة قليلة لتلك القلة العليلة أمام القرآن حيث اتخذناه مهجورا بكل مواضعه ومواضيعه اللهم إلا قراءة بأجرة ودونها على الأموات أم استخارة أم تيمنا وتبركا في الأعراس والبيوت.

وقد تناسب هذه الآية القاصعة قصعة من الخطبة القاصعة تبينا أمينا لقصص من الأمم الماضية :

«واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال وذميم الأعمال ، فتذكروا في الخير والشر أحوالهم ، واحذروا أن تكونوا أمثالهم ، فإذا تفكرتم في تفاوت حاليهم فالزموا كل أمر لزمت العزة به شأنهم ، وراحت الأعداد له عنهم ، ومدّت العافية فيه عليهم ، وانقادت النعمة له معهم ، ووصلت الكرامة حبلهم ، من الاجتناب للفرقة ، واللزوم للألفة ، والتحاضّ عليها ، والتواصي بها ، واجتنبوا كل أمر كسر فقرتهم ، وأوهن منّتهم ، من تضاغن القلوب ، وتشاحن الصدور ، وتدابر النفوس ، وتخاذل الأيدي.

وتدبروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلك كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء ، ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباء ، وأجهد العباد بلاء ، وأضيق أهل الدنيا حالا ، اتخذتهم الفراعنة عبيدا فساموهم سوء العذاب ، وجرّعوهم المرار ، فلم تبرح الحال بهم في ذل الهلكة ، وقهر الغلبة ، لا يجدون حيلة في امتناع ، ولا سبيلا إلى دفاع ، حتى إذا رأى الله سبحانه جدّ الصبر منهم على الأذى في محبته ، والاحتمال للمكروه من خوفه ، جعل لهم من مضايق البلاء فرجا ، فأبدلهم العز مكان الذل ، والأمن مكان الخوف ، فصاروا ملوكا حكاما ، وأئمة أعلاما ، وقد بلغت الكرامة من الله

لهم ، ما لم تذهب الآمال إليه بهم ، فانظروا كيف كانوا حيث كانت الأملاء مجتمعة ، والأهواء مؤتلفة ، والقلوب معتدلة ، والأيدي مترادفة ، والسيوف متناصرة ، والبصائر نافذة ، والعزائم واحدة ، .

ألم يكونوا أربابا في أقطار الأرضين ، وملوكا على رقاب العالمين؟ فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أمورهم حين وقعت الفرقة ، وتشتت الألفة ، واختلفت الكلمة والأفئدة ، وتشعبوا مختلفين ، وتفرقوا متحاربين ، قد خلع الله عنهم لباس كرامته ، وسلبهم غضارة نعمته ، وبقي قصص أخبارهم فيكم عبرة للمعتبرين منكم .

فاعتبروا بحال ولد إسماعيل وبني إسحاق وبني إسرائيل ، فما أشد اعتدال الأحوال ، وأقرب اشتباه الأمثال ، تأملوا أمرهم في حال تشتتهم وتفرقهم ، ليالي كانت الأكاسرة والقياصرة أربابا لهم ، يختارونهم عن ريف الآفاق ، وبحر العراق ، وخضرة الدنيا إلى منابت السيح ، ومهافي الريح. ونكد المعاش ، فتركوهم عالة مساكين ، إخوان دبر ووبر ، أذل الأمم دارا ، وأجدبهم قرارا ، لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها ، ولا إلى ظل ألفة يعتمدون على غرها ، فالأحوال مضطربة ، والأيدي مختلفة ، والكثرة متفرقة ، في بلاء أزل ، وأطباق جهل ، من بنات موءودة ، وأصنام معبودة ، وأرحام مقطوعة ، وغارات مشنونة .

فانظروا إلى مواقع نعم الله عليهم حين بعث إليهم رسولا ، فعقد بملته طاعتهم ، وجمع على دعوته ألفتهم ، كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها ، وأسالت جداول نعيمها ، والتفّت الملة بهم في عوائد بركتها ، فأصبحوا في نعمتها غرقين ، وفي خضرة عيشها فكهين ، قد تربعت الأمور بهم في ظل سلطان قاهر ، وآوتهم الحال إلى كنف عز غالب ، وتعطفت الأمور عليهم في ذرى ملك ثابت ، فهم حكام على العالمين ، وملوك في أطراف الأرضين ، يملكون الأمور على من كان يملكها عليهم ، ويمضون الأحكام فيمن كان يمضيها فيهم ، لا تغمز لهم قناة ، ولا تقرع لهم صفاة . ألا وإنكم قد نفضتم أيديكم من حبل الطاعة ، وثلمتم حصن الله المضروب عليكم بأحكام الجاهلية ، وان الله سبحانه قد أمتن على جماعة

هذه الأمة فيما عقد بينهم من حبل هذه الألفة التي ينتقلون في ظلها ، ويأوون إلى كنفها ، بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة ، لأنها أرجح من كل ثمن ، وأجل من كل خطر.

واعلموا أنكم صرتم بعد الهجرة أعرابا ، وبعد الموالاة أحزابا ، ما تتعلقون بالإسلام إلا باسمه ، ولا تعرفون من الإيمان إلا رسمه ، تقولون : النار ولا العار ، كأنكم تريدون أن تكفئوا الإسلام على وجهه ، انتهاكا لحريمه ، ونقضا لميثاقه الذي وضعه الله لكم حرما في أرضه ، وأمنا بين خلقه ، وإنكم إن لجأتم إلى غيره حاربكم أهل الكفر ، ثم لا جبرائيل ولا ميكائيل ولا مهاجرون ولا أنصار ينصرونكم ، إلا المقارعة بالسيف حتى يحكم الله بينكم.

وإن عندكم الأمثال من بأس الله وقوارعه ، وأيامه ووقائعه ، فلا تستبطئوا وعيده جهلا بأخذه ، وتهاونا ببطشه ، ويأسا من بأسه ، فإن الله سبحانه لم يلعن القرن الماضي بين أيديكم إلا لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلعن الله السفهاء لركوب المعاصي ، والحلماء لترك المناهي.

ألا وقد قطعتم قيد الإسلام ، وعطلتم حدوده ، وأمّتم أحكامه».

«وأيم الله ما كان قوم قط في غض نعمة من عيش فزال عنهم إلا بذنوب اجترحوها ، لأن الله ليس بظلام للعبيد ، ولو أن الناس حين تنزل بهم النقم ، وتزول عنهم النعم ، فزعوا إلى ربهم بصدق من نياتهم ، ووله من قلوبهم ، لرد عليهم كل شارد ، وأصلح لهم كل فاسد» (١٧٦). و «إن لله عبادا يختصهم بالنعم لمنافع العباد فيقرها في أيديهم ما بذلوها ، فإذا منعوها نزعها منهم ثم حولها إلى غيرهم» (٤٢٥ ح).

ومن ختام المسك هنا قوله (صلّى الله عليه وآله وسلم) لبعض نساءه : «أحسني جوار نعم الله فإنها قل ما نفرت عن قوم فكادت ترجع إليهم» [1].

---

(١) المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي (١٣٩).

أجل ، والنعم المتفاضلة على الإنسان بمنزلة الضيف النازل والجار المجاور الذي يحب أن يعد قراه ، ويكرم مثواه ، وتصفى مشاربه ، وتؤمن مساربه ، فإن أخيف سربه ورنق شربه وضيعت قواصيه واعتميت مقاربه كان خليقا بأن ينتقل وجديرا بأن يستبدل.

فكذلك النعم إذا لم يجعل الشكر قرى نازلها ، والحمد مهاد منزلها ، كانت وشيكة بالانتقال ، وخليقة بالزيال.

ذلك ، وفي خبر آخر عنه (صلّى الله عليه وآله وسلم): «أحسنوا جوار نعم الله فإنها وحشية» [1] ، وهنا يشبّه النعم بأوابد الوحش التي تقيم مع الإيناس ، وتنفر مع الإيحاس ، ويصعب رجوع شاردها إذا شرد ، ودنوّ ناخرها إذا بعد.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كانُوا ظالِمِينَ﴾(٥٤).

ترى كيف يتكرر ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ بفاصل آية واحدة والمضمون نفس المضمون باختلاف يسير في تلحيقة التعبير؟

من مبررات ذلك التكرار اختلاف الموقفين كما تتكرر آية واحدة في «الرحمن» لمختلف المواقف ، ف ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ في الأولى تنظير لهم ب «الذين كفروا» و ﴿ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ حيث ﴿فَأَغْرَقْناهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً﴾ (١٧ : ١٠٣) وفي الثانية «ب ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ﴾ مع اختلاف يسير في التعبير قضية اختلاف في الموقف يسير.

ففي الأولى ﴿كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ﴾ قضية أصل الألوهية ، وفي الثانية ، ﴿كَذَّبُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ﴾ قضية ما غيروا بأنفسهم وجاه النعم الربانية ، ثم العذاب في الأولى : ﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ قضية نفس الألوهية ، وفي الثانية : ﴿فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ قضية ربوبيات منه إليهم في نعمه ، اقتضت إهلاكهم ، بصيغة المتكلم مع الغير حيث تعني جمعية صفات الجلال

---

(١) المصدر.

المقتضية لجمعية الإهلاك ، ثم في الأولى ﴿إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ بنفس القضية ، عقابا شاملا للذين من قبلهم آل فرعون ، وفي الثانية ﴿وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ تصريحا بنوعية العقاب لخصوص آل فرعون.

وأخيرا هنا ﴿وَكُلٌّ كانُوا ظالِمِينَ﴾ هؤلاء الذين كفروا بهذه الرسالة ، وآل فرعون والذين من قبلهم.

فهذه الثانية تأكيدة مع تفصيلة للأولى مع اختلاف الموقع وهامة الموضوع حيث يقتضي بنفسه التكرار فضلا عما بيناه وما أشبه من مبررات التكرار.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾(٥٥).

وترى كيف تتفرع «لا يؤمنون» على «كفروا» وهما سيان في عناية عدم الإيمان؟

«كفروا» تعني : ستروا ، كما ستروا الحق عن أنفسهم وكما يقول ﴿أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ (١١ : ٦٨) فقد يعني «كفروا» الطليقة. هنا عن أي متعلّق. ثالوث الكفر ، إذ : كفروا أنفسهم عن درك الحق ، وكفروا الحق عن أن يدرك ، وكفروا بالله.

ذلك ، وقد تترجم هذه الآية آية أخرى هي : ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ (٨ : ٢٢) إذا فقد ﴿كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ حيث السد لمنافذ الإيمان صد عن الإيمان فهم بطبيعة الحال «لا يؤمنون» بما ختموا على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة فختم الله عليها.

وهنا يعرف أن القصد من الكفر هو الكفر المطلق دون مطلقه ، فقد يؤمن الكافر إذا لم يتعرق الكفر في نفسه ، فالكافر المتحير غير المعاند للحق. فضلا عن متحريه. قد يؤمن حين تصله دلائله ، ولكن المعاند المتعمد المتجرئ على الحق لا يرجى خيره ، فالواجب إزالته حفاظا على كرامة الإيمان عن أن ينصدم بضلاله وإضلاله لمكان الفتنة التي هي أكبر وأشد من القتل.

فمن الدواب ما هي شرّيرة خلقة وقصورا ، ومنها ما هي شريرة تقصيرا دون أن يحلّق الشر عليها فقد يرجى أن تبوء إلى خير ، ولكن الدابة المقصّرة التي حلّق الشر العاند العامد على كيانه ككل ، فهذه هي ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ﴾ : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

ليس هؤلاء متجردين عن الخصيصة الفطرية الإنسانية فحسب ، بل وعن الفطرة البهيمية أيضا ، فالبهيمة تنطلق على بهمها لو لا القيود المفروضة عليها وهم منطلقون رغم كل قيد وعهد :

﴿الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ﴾(٥٦).

فليس ـ فقط ـ انهم لا يؤمنون بالله ، بل ولا يؤمنون بعهودهم التي عاهدوها معكم حيث ﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ ـ ﴿عاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ ألا يبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بسوء ﴿وَهُمْ لا يَتَّقُونَ﴾ : أيّة تخلفة ، وانطلاقة عن أية عهود وقيود ، فلا يربطهم عن شماسهم أي رباط منكم ولا منهم أنفسهم في عهودهم ، فلا علاج عن بأسهم إلا نقض عهودهم هذه التي هم ينقضونها في كل مرة ، وإلا قتالهم واستئصالهم حتى يخلوا جو الإنسانية من بأسهم وتعسهم.

فإنما العهد الملتزم هو المستقيم الذي يطمئن ، دون المنزلق المنحلق ﴿فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ معاملة معهم بالمثل ، فإن لم يستقيموا لكم فلا تستقيموا لهم ، حيث الاستقامة مع غير المستقيم اعوجاج ، والخداع فانخلاع عن الأمنة إلى شفا جرف الهلكات.

وهنا قواعد حربية مستفادة من آيات عدة نحن أمامها ، نعد منها عشرا :

١ الكفار الذين يعاهدون المعسكر الإسلامي معاهدات ثم تنقضون عهدهم في كل مرة ، إذا :

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾(٥٧).

فملاحقتهم على حذق إذا مفروضة لمقتاتلتهم حيث الثقف فضلا عن أكيده التثقيف هو الملاحقة اليقظة الحاذقة اللازقة دون فتور فظفر وإدراك بسرعة وحذق ﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ﴾ بعد تشريدهم أنفسهم «من خلفهم» فحين تشردهم قويا صارما دفعا عن أخطارهم قتلا لهم أم نفيا إياهم إلى البعيد ، فقد شردت بهم من خلفهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ألا مجال لاختلاق الدوائر ضد المجموعة المؤمنة.

وهنا «تثقفن» تأكيد لواجب تثقيف العدو وتضييق كل المجالات عليه.

فهؤلاء الذين لا يستطيع أحد أن يطمئن إلى عهدهم ، إنما جزاءهم هنا هو حرمانهم من كل ما حرموا غيرهم من الأمن ، فتخويفهم وتشريدهم والضرب على أيديهم لحد يرهب معهم من خلفهم من المتسامعين بهم.

وانها الضربة المروعة المرهبة للهروب والشرود اتقاء عن أذاهم ، كأقل ما يعامل معهم ، ومن ثم قتالهم وقتلهم باستئصالهم عن بكرتهم.

٢ خوف الخيانة من المعاهد الذي تكررت منه حلّ المعاهدة فلا التزام بها بعد :

﴿وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ﴾(٥٨).

وهنا «تخافن» تأكيد للخوف ، أن الخوف المتأكد المرتقب أكيدا من هؤلاء الخونة الناقضين عهودهم ، ذلك الخوف يحل عقد معاهدتهم ، فكما نبذوا إليكم عهدهم فتخافنهم ، كذلك ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ عهدهم «على سواء» نبذا كنبذهم دونما تعدّ طوره ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ﴾ فكيف يصح لكتلة الإيمان أن تأتمنهم في عهدهم المنقوض كل مرة.

أجل ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ عهدهم إلقاء إليهم بإعلام الإلغاء ، فإن في اجتماع نقض العهد في كل مرة وتخوّف الخيانة من جرّاءه خطرا حاسما جاسما على المؤمنين ، فلينبذ إليهم عهدهم كما نبذوا ، إعلانا جاهرا بالقتال.

ذلك ، فلا يجوز نقض عهدهم ما لم ينقضوا ولا تخافن منهم خيانة ﴿فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ وكما أن نقضهم عهدهم خيانة ، كذلك نقضكم عهدهم قبل نقضهم ، أم نقضكم ولما ينقضوا ، وهم دائبون في النقض على تخوف من خيانتهم ، إلّا أن تنبذ إليهم على سواء ، فنقض عهدهم دون نبذ وإعلام بالنقض خيانة ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ﴾ كفارا كانوا أم مؤمنين.

وقد نزلت الآية في بني قريظة حيث خوفته (صلّى الله عليه وآله وسلم) خيانتهم وهم ينقضون عهدهم في كل مرة [1] وقد عاهدوا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) ، وهنا لك حقل ﴿إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً﴾ بعد نقض منافق للعهد ، وأما النقض الجاهر فقد يترقب به نقض جاهر مثله ، فلا مورد إذا للإعلام بنقضه ، إنما المحتاج إليه ما لم ينقض جاهرا ، وقد قاتل رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) أهل مكة لما نقضوا عهدهم جاهرا بقتل خزاعة وهم من ذمة النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم).

وهنا «على سواء» برهان قاطع لا مرد له أن النبذ إليهم ليس إلّا بعد نبذهم وتخوّف خيانتهم ، فلكل نبذ نبذ مثله على سواء ، دون أن يبرّر نبذ ولما ينبذ العدو مهما كان ينبذ في كل مرة ، فانظر إلى السماحة الإسلامية

---

(١) الدر المنثور ٣ : ١٩١ ـ أخرج أبو الشيخ عن ابن شهاب قال : دخل جبريل (عليه السلام) على رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فقال : قد وضعت السلاح وما زلنا في طلب القوم فأخرج فإن الله قد أذن لك في قريظة وأنزل فيهم ﴿وَإِمَّا تَخافَنَّ﴾ وفيه عن علي بن الحسين (عليهما السلام) قال : لا تقاتل عدوك حتى تنبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ، وفيه أخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن سليم بن عامر قال : كان بين معاوية وبين الروم عهده وكان يسير حتى يكون قريبا من أرضهم فإذا انقضت المدة أغار عليهم فجاءه عمرو بن عبسة فقال : الله أكبر وفاء لا غدر سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) يقول : من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقده ولا يحلها حتى ينقضي أمرها أو ينبذ إليهم على سواء.

السامية ألا تسمح للمؤمنين نقضا عمليا لعهد الناقض عهدهم ، إلّا بإلقاء الإلغاء ، دونما حيلة وغيلة ومباغتة ، اللهم إلا حيلة بحيلة وغيلة بغيلة.

وهنا نسمع عليا أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول في حديث له طويل : فقدمت البصرة وقد اتسقت إليّ الوجوه كلها إلا الشام فأحببت أن أتخذ الحجة وأقضي العذر وأخذت بقول الله : ﴿وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ﴾ فبعثت جرير بن عبد الله إلى معاوية معذرا إليه ، متخذا للحجة عليه ، فرد كتابي ، وجحد حقي في دفع بيعتي [1].

﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ﴾(٥٩).

ليس الكفر ليسبق الإيمان ولا الكافرون ليسبقوا المؤمنين في ميادين السباق الحيوية ، اللهم إلا بظاهر من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ، و ﴿إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ﴾ الله ولا رسل الله ولا المؤمنين بالله ، فليس الباطل أيا كان ليعجز الحق مهما كان له جولة ، فإن للحق دولة : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ (٢٩ : ٤) فمهما نجوا من القتل في حرب وسواها متخلفين عن شرعة الله ، فليس سبقا لهم ف ﴿لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ (٣ : ١٧٨) فهل تراهم ـ إذا ـ سابقين في ذلك الميدان الميدان؟

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (٧ : ١٨٣)! فقد خسروا السباق بكل الرفاق ، والله هو السابق وعباده الصالحون.

فلا هم سابقون مشيئة الله في التكوين مهما تخلفوا عنها في التشريع إذ لن يضروا الله شيئا ، ولا هم سابقوه في أي سباق آخر إعجازا له وإحجازا إياه عما يشاء.

٣ إنه يجب على المؤمنين إعداد المستطاع من كافة القوات والإمكانيات أمام أعدائهم:

---

(١) نور الثقلين ٢ : ١٦٤ في كشف المحجة لابن طاووس عنه (عليه السلام).

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾(٦٠).

«وأعدوا» خطاب هام عام موجّه إلى المؤمنين في الطول التاريخي والعرض الجغرافي على مدار الزمن الرسالي الإسلامي ، كما و «لهم» تعني ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ﴾ وهم الكفرة الناقضون لعهودهم ـ إن كانت لهم عهود ـ الذين تخافن منهم خيانة على الهيكل الإسلامي السامي.

وقد تعني «لهم» ـ دون عليهم ـ أصل المواجهة ، أن اعدوا لمواجهتهم ، بما أن في هذه القوات الحربية صالحهم حيث تصدهم عن مهاجمة المؤمنين فلا يقتلون ولا يستحقون عظيم النكال أم هم يؤمنون.

ثم ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ خطرا وخيانة ، أو معرفة بهم فيهما ﴿لا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فالأصل هو الحصول على القوة الرهيبة الإرهابية العادلة في كافة الميادين الحيوية ، ثقافية وعقيدية واقتصادية وسياسية وحربية أماهيه من قوات يحاول أعداءنا أن يسبقونا فيها سنادا لسيادتهم وسيطرتهم علينا.

ف «من قوة» تحلق على كافة القوات ، مهما أشارت ﴿رِباطِ الْخَيْلِ﴾ وفسرت الروايات [1] تلك القوة بقوات الحرب ولا سيما السابقة ، حيث

(١) الدر المنثور ٣ : ١٩٢ عن عقبة بن عامر الجهني قال سمعت النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) يقول وهو على المنبر ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ ألا إن القوة الرمي ، قالها ثلاثا عنه قال : سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) يقول : أن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه الذي يحتسب في صنعته الخير والذي يجهز به في سبيل الله والذي يرمي به في سبيل الله ، وقال : ارموا واركبوا وأن ترموا خير من أن تركبوا ، وقال : كل شيء يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا ثلاثة : رميه عن قوسه وتأديبه فرسه وملاعبته أهله فإنهن من الحق ومن علم الرمي ثم تركه فهي نعمة كفرها.

وفيه أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) مر على ناس ينتضلون فقال : حسن اللهم مرتين أو ثلاثا ارموا وأنا مع ابن الأدرع فأمسك القوم قال : ارموا وأنا معكم جميعا فلقد رموا عامة يومهم ذلك ثم تفرقوا على السواء ما يضل بعضهم بعضا.

المدار هو طليق «قوة» تعم كافة القوات الإيمانية.

وقد يروى عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) قوله في القوات الحربية : من تعلم الرمي ثم تركه فقد عصاني [1] و «من تعلم الرمي ثم نسيه فهي نعمة جحدها» [2].

ومهما كان الرمي يومئذ بالنبال قضية الظروف والإمكانيات ، فهو اليوم ـ وبعد توسع الأسلحة ـ يعم كل رمي بري وبحري وجوي بمختلف وسائله المستطاعة أتوماتيكية وسواها ، حيث القصد هو رمي العدو إرهابا وقضاء عليه ، فكيف يكتفى برميه بما هو مجهز بأقواه فإنه أغواه!

ولأن الأكثرية الساحقة أو المطلقة من البشرية سائرة سيرا كالسا فالسا معاكسا لشرعة الله ، فهم ـ إذا ـ يعارضونها جهلا أو تجاهلا وعداء بمختلف أساليب المعارضة كيلا يقعوا في ذلك الفخ أم لا يصطدموا به ، لذلك فعلى المجموعة المؤمنة إعداد قوات إرهابية ولا سيما الحربية المكافحة للحفاظ على كيانها وكونها ، وكيف تختص «من قوة» بقوة الأسلحة الحربية والحاجة إلى سائر القوات أكثر حيث الفتنة أشد من القتل وأكبر ، فهل يؤمر المسلمون بإعداد القوة الحربية دون الأخرى منها والأهم حفاظا على كيان الإسلام في المسلمين؟ ، ومجرد وقوع الآية بين الآيات الحربية لا يحصر آية القوة الطليقة فقط بتلك القوة مهما كانت هي البارزة منها في المظهر ، ولكن غيرها ولا سيما العقيدية هي البارزة في المحضر ، المفروضة للحفاظ على الكيان الإسلامي.

ومن مخلفات هذه القوة الإرهابية العادلة ـ الأصيلة ـ امام الإرهابات الباطلة إرهاب عدو الله وعدوكم ، فلا يجرءون على الميل إليكم والنيل

---

(١) وفيه أخرج القراب عن عقبة بن عامر قال : لا أترك الرمي أبدا ولو كانت يدي مقطوعة بعد شيء سمعته من رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) يقول : من تعلم الرمي ثم تركه فقد عصاني.

(٢) وفيه أخرج البزاز عن أبي هريرة أن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) قال : .

منكم ، ولا إعانة سائر الكفار عليكم حيث يعيشون يأسا من الغلب عليكم فتعيشون أنتم على رغد الأمن والكرامة.

وكما ترهبون به الأعداء الرسميين المعروفين ، كذلك ﴿آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ من منافقين أم سائر الكافرين.

فإعداد ما في الطوق من الطاقات الذاتية وسواها فريضة دائبة على كل المجموعة المؤمنة ، طمأنة للذين يدخلون في دين الله ، وترغيبا لمن يحيدون عنه ، وترهيبا لمن يتربصون به الدوائر ، فلا يفكروا يوما في الوقوف في وجه المدّ الإسلامي ، ولكي ينطلق لتحرير الإنسان عن عبودية العباد إلى عبودية خالق العباد.

ذلك ، وكما على المؤمنين برسالة السماء أن يعدوا ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل حفاظا على الثغور والأقطار الإسلامية ، كذلك وبأحرى عليهم أن يعدوا ما استطاعوا من قوة الثقافة الحيوية والعقيدة الإيمانية والأخلاق الحميدة والسياسة الصالحة والإقتصاد الصالح والحضارة السليمة ، حتى لا ينغرّ جاهلون بما عند الكفار من مظاهر ، فليجدوا في المؤمنين قوات من كل الحيويات مكافحة صالحة للسيطرة على ما عند الكافرين.

فأعداء المسلمين بكل الطاقات الحيوية المكافحة فرض جماهيري ، سدا لكافة المنافذ التي ينفذ منها الكفار ، تسربا إلى المجموعة المسلمة فترسبا فيها فتحويلا لها عن الحيوية الإسلامية إلى غيرها.

أجل إن القوة المكافئة ضرورة لا محيد عنها للمسلمين ، ولكن القوة المكافحة هي التي تجعلهم سادة الأمم وقادتها ، بيدهم أزمة أمورهم وأمور الناس وكما يفعله الإمام المهدي (ع).

إذا فهذه الآية ترسم مسيرا حيّا للحياة الإسلامية تضم في خضمّه كافة الصالحات ، التي هي رسوم صالحة لصالحة الحياة في كل النشآت ، فرضا لما يصلحها ويفلحهم فيها ، ورفضا لطالحها التي تفلجهم فيها.

وهنا ﴿عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ له عوان هو عدو محمد وعترته المعصومين

(عليهم السلام) وكما يروى متواترا عنه (صلّى الله عليه وآله وسلم) قوله : «عدوي عدو الله» [١] و «عدوه عدوي» [٢] و «من عاداه فقد عادى الله» [٣] «اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» [٤].

ولأن أعداء الطاقات المكافحة بحاجة إلى أموال وما أشبه كما هي بحاجة إلى سائر الاستعدادات ، فليكن المؤمنون على نبهة ويقظة دائمة أن الإنفاق في هذه السبيل مفروض قدر الحاجة المكافحة ، وهو يوفّى إليهم عاجلا هنا وآجلا في الأخرى : ﴿وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ أيا كان ذلك الشيء ، من شيء المال والثقافة والعقلية الإيمانية أماهيه ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ فمادة الإنفاق ـ إذا ـ أيّا كان هي منكم وإليكم على أية حال.

ذلك إعلان المحاربة من الضفة الإيمانية إلى الضفة الكافرة بكامل الإعدادات إن هوجموا نفسيا أو عقيديا ، فالحرب الإسلامية ـ إذا ـ ليست إلا وقائية دفاعية ولذلك :

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٦١).

فإذا جنح فريق من الكفار إلى مسالمة المعسكر الإسلامي وموادعته فإن على القيادة الإسلامية أن تجنح لها :

أجل «ولا تدفعن صلحا دعاك إليه عدوك ولله فيه رضى فإن في الصلح دعة لجنودك وراحة من هومك وأمنا لبلادك ، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه ، فإن العدو ربما قارب ليتغفل ، فخذ

---

(١) ملحقات إحقاق الحق ٤ : ٤٩ و ٦ : ٤٠٦ و ١٦ : ٦١٣ ـ ٦١٤ و ٢٠ : ٢٢٦.

(٢) المصدر ٤ : ٤٩ ـ ٥٠ ، ٢٩٥ ـ ٢٩٧ و ٦ : ٤٠٦ ـ ٤١٧ و ١٦ : ٦١٣ ـ ٦١٤ و ٢٠ : ٢٢٦.

(٣) المصدر ٥ : ٤١.

(٤) المصدر ٢ : ٤٢٦ ـ ٤٦٥ و ٣ : ٣٢٢ ـ ٣٢٧ و ٦ : ٢٢٥ ـ ٣٠٤ و ٧ : ٥٣ ـ ٥٦ و ١٦ : ٥٥٩ ـ ٥٨٧.

بالحزم ، واتهم في ذلك حسن الظن ، وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة فحط عهدك بالوفاء ، وارع ذمتك بالأمانة ، واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت ، فإنه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد عليه اجتماعا مع تفرق أهواءهم وتشتت آراءهم من تعظيم الوفاء بالعهود» [١].

والجنوح هو الميل ، والسّلم هو الصلح السليم و «إن جنحوا» هؤلاء الكفار الخونة «للسّلم» معكم ، تركا للصّدام نفسيا وعقيديا ، وتركا لأية فتنة ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ كما جنحوا دونما تعلل وتخلخل وتململ بما هو طبيعة الحال من مخابئ الخيانات للكافرين الذين ليس لهم مبدء سليم يسندون إليه ، وهم ينقضون عهودهم في كل مرة ، مجرّبون في نقض العهد ، فحقل الاعتداء والسلم لا يعامل فيها إلّا بالمثل.

وإن خطر لك خاطر من هذا القبيل من كذبهم ونقضهم ف ﴿تَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ في تطبيق أمر الله ، ولكي يعرف العدو ويعرف معه آخرون أن ليس الأصل في كتلة الإيمان المقاتلة والاستئصال لأعداء الدين ، إنما هو الدفاع عن النواميس والحفاظ على كيان الإيمان ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ قالات الأعداء وقالاتكم «العليم» بكل الحالات ، فإن لم تجنحوا للسّلم عند ما جنحوا فقد تتطاول ألسنتهم عليكم أنكم تؤججون نيران الحروب التوسعية ولا تريدون سلما إضافة إلى ظاهرة التخلف عن الاعتداء بالمثل ، فإن رفض الجناح للسّلم رغم جناحهم للسلم نقض لقاعدة الاعتداء!

أجل ، والصبغة الإسلامية وصيغتها السليمة هما السّلم ما سلم المسلمون عن كيد الكفار وميدهم ، فليس لهم إلا الدفاع عن نواميسهم الخمسة دون أي هجوم بدائي لتفتّح البلدان ، اللهم إلّا تفتحا للقلوب بالحكمة والموعظة الحسنة وجدالهم بالتي هي أحسن ، ثم إذا شكّلوا

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٢٩٢ فيما أمر به أمير المؤمنين (عليه السلام) مالك الأشتر النخعي لما ولاه مصر.

خطرا على الضفّة المؤمنة فالدفاع الذي هو حق لكل حي عن حياته وحيويته.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٦٣).

«إن يريدوا» لأسوء الاحتمالات في جنوحهم للسّلم فجنوحك لها ﴿إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ﴾ وليس هو قوتك واستمرارك للحرب دون تقبّل للسّلم المتوقّع ، ﴿حَسْبَكَ اللهُ﴾ الذي يأمرك بذلك الجنوح ف ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ﴾ دون سبب ظاهر في بدر وحنين وسواهما ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ الصامدين مثل علي أمير المؤمنين (عليه السلام) [١] ومن أشبه ، وهم من السبب الظاهر ، نصر حاضر ملموس «بالمؤمنين» ونصر غائب بملائكة أم دونهم ، كما ﴿وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمى﴾ و ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ في ذلك التأليف الأليف ﴿ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ حيث القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء لما يشاء ، فطالما النعمة تكفّر والرحم يقطع ، ولكن

---

(١) الدر المنثور ٣ : ١٩٩ ـ أخرج ابن عساكر عن أبي هريرة قال : مكتوب على العرش : لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي محمد عبدي ورسولي أيدته بعلي وذلك قوله : هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين.

وفي ملحقات إحقاق الحق ٣ : ١٩٤ الكنجي في كناية المطالب (١١٠) بسند متصل عن أبي هريرة مثله ، وفيه عنه روى أبو نعيم الحافظ بسنده عن أبي هريرة عن أبي صالح عن ابن عباس عن جعفر الصادق رضي الله عنه في هذه الآية قالوا : نزلت في علي (عليه السلام) وان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) قال : وروى مثله ، وفيه عنه روى في كتاب الشفا روى ابن قانع القاضي عن أبي الحمراء مثله ، وفيه ١٤ : ٥٨٥ ورواه الحسكاني في شواهد التنزيل ١ : ٢٢٣ بعدة طرق عن أنس وجابر وأبي الحمراء عنه (صلّى الله عليه وآله وسلم).

الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء ، ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ ﴿وَلكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ فيما يفعل «حكيم» لا يغفل ولا يجهل.

ذلك ، وهذا التأليف الأليف كان بالرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) مهما لم يكن من الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) فحين تؤلف قلوب بنصيب من الزكاة للمؤلفة قلوبهم فبأحرى منها النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) أن يؤلف الله به القلوب :

فقد «بلغ رسالات ربه فلم به الصدع ورتق به الفتق وألف بين ذوي الأرحام بعد العداوة الواغرة في الصدور ، والضغائن القادحة في القلوب» (١).

ف «المؤمن غر كريم والفاجر خبث لئيم وخير المؤمنين من كان تألفه للمؤمنين ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف» (٢).

ذلك ، ولأن الدار هي دار التزاحم ، ولكلّ طموحات غير محدودة تقتضي التحسد على أصحاب النعم التي هو يفقدها ، فلا يمكن إزالة البغضاء والعداء اللذين هما الخلفية الطبيعية ، أن تزال بما في الأرض من نفس هذه النعم ، اللهم إلّا بعناية ربانية على ضوء الإيمان بالله مهما كانت بسبب أرضى كالأموال ، أم سماوي كالرسول (صلّى الله عليه وآله

---

(١) نهج البلاغة قال (عليه السلام): «وبلغ رسالات ربه».

(٢) نور الثقلين ٢ : ١٦٦ في أمالي الشيخ الطوسي باسناده إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) قال : سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) يقول : المؤمن غرّ كريم ، قال (عليه السلام) : وسمعت رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) يقول : شرار الناس من يبغض المؤمنين وتبغضه قلوبهم المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون للناس العيب أولئك لا ينظر الله إليهم ولا يزكيهم يوم القيامة ثم تلا (صلّى الله عليه وآله وسلم) ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

وسلم).

فطالما حاول كثير من أولي النعمة أن يؤلفوا قلوب المعدمين بأموال فازدادوا بغضاء وعداء ، إذ لا صلة لهذه العطيات بمرضات الله وعناياته الخاصة ، فالرحمة الربانية هي الأصيلة في أية وسيلة هي وصيلة للتأليف : ﴿وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (١١ : ١١٩).

فهنا تأييدان اثنان ربانيان : ١ ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ﴾ الخاص دون أسباب ظاهرة ، سواء أكان بالملائكة أم دون أي سبب خلقي ، ٢ ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم من الأسباب الظاهرة ولكن شرط تأليف قلوبهم ، وليس هو أيضا إلا من الله ، إذا فالنصر واحد هو من عند الله دون فارق في أصله أنه من عند الله.

فلقد وقعت المعجزة الربانية التي لا يقدر عليها إلّا الله ، أن استحالت هذه القلوب النافرة المستنفرة ، وهذه الطباع الشّموس المستنكرة ، استحالت إلى هذه الكتلة المتراصّة المتآخية الذّلول ، المتحاثّة بعضها بعضا في تحكيم الألفة والمحبة بذلك المستوى المنقطع النظير في تاريخ أي بشير ونذير.

إنها بالفعل عجيبة أن تستحيل قلوب متنافرة إلى مزاج عريق من الحب والألفة الإيمانية التي تليّن جاسيها ، وترقق حواشيها ، وتندي جفافها ، فإذا نظرة العين ولمسة اليد ونطق اللسان وخفقة القلب ، هي ترانيم من التعارف والتعاطف الوطيد العتيد والسماحة والهوادة ، التي لا يعرف سرها إلا الذي ألف بينها.

ولمثل هذه القلوب يقول الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم): إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى ، قيل : يا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) تخبرنا من هم قال : هم قوم تحابوا بروح الله بينهم على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها ، والله أن وجوههم لنور وإنهم لعلى نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس [1].

---

(١) أخرجه أبو داود عنه (صلّى الله عليه وآله وسلم).

وترى حين لا يتمكن رسول الهدى (صلّى الله عليه وآله وسلم) أن يؤلف بين قلوبهم وهم مؤمنون ولو بأن ينفق ما في الأرض جميعا ، فما هو دور المؤلفة قلوبهم في حقل الزكوة؟

الجمع هنا أن ليس الإنفاق بالذي يؤلف بين القلوب إن لم يشأ الله ، ثم الله يؤلف بين القلوب بمؤلفات ومنها الزكاة.

ثم هنا التأليف بين قلوب المؤمنين وهناك تأليف قلوب الكافرين إلى الإيمان ، فالمؤلفة قلوبهم إلى الإيمان هم الذين تكمكت الدعوة الصالحة لهم إلى الإيمان ، ثم تزوّد جاذبية الدعوة بذلك الإنفاق فيؤلّفون إلى الإيمان بإذن الله.

ف ﴿الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى الإيمان هم الذين ألفت قلوبهم قبل الإنفاق ، ثم يكمل للدخول في ربع الإيمان بالإنفاق.

وأما المؤمنون المختلفون فقد يؤلف بين قلوبهم بما يريد الله وبصالح الدعوة الرسالية.

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ

ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ
مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا
وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ
عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ
لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ
آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ

يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٧٥)

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٦٤).

﴿حَسْبُكَ اللهُ﴾ أصلا في كل حسب وحساب ، ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بأمر الله ونصره لهم ، فهم أيضا من حسب الله حسب أمر الله وتقديره ، وحساب الله وتدبيره.

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾(٦٥).

تكتيك عددي حربي إلى عدد لها عرفناها من ذي قبل :

«وأعدوا» وهو أمر مرحلي في ظروف حاسمة خطرة تقتضي مواجهة الواحد من المؤمنين بعشرة من الكافرين ، قضية كثرتهم أولاء وقلتهم هؤلاء و «بأنهم» أولاء ﴿قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾.

فقد أمر المؤمنون القلة أمام الكافرين الكثرة أن يقاتلوهم ويغلبوهم وهم معشارهم : «عشرون صابرون يغلبوا مأتين ـ و ـ مائة يغلبوا ألفا».

وترى إذا كان القصد من العشرين أمام مأتين واجب تحمل المعشار من المؤمنين أمام عشرة أضعافهم من الكافرين ، فلما ذا ـ إذا ـ البداية ب «عشرين»؟

لأن المعشار غير مفروض فيما دون العشرين وقد كافت سرايا الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) لأقل تقدير العشرين ، ولأكثرها قد تكون مائة فلذلك إن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا ، تأكيدا لواجب المعشار وتبينا للحالة الحاضرة ، كما وقد ابتدأ في الآية الثانية بالمائة مما يلمح أن المائة حينذاك كان أقل تقدير في أكثرية الأحيان ثم الألف.

لأن الفقه هو التوصل بعلم حاضر إلى علم غائب والكفار لا يعلمون غائب الكون بحاضره لا مبدء ولا معادا ولا ما بين المبدء والمعاد ، وإنما ﴿يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ﴾ (٣٠ : ٧) فهم لا يبصرون بالدنيا ما وراءها وإنما يبصرون إليها كأصل وختام للحياة ، فهم ـ إذا ـ حريصون على الحياة الدنيا ، والمؤمنون حريصون على الآخرة ، فهم أولاء يضحون في سبيل الله ولا يبالون أن يقتلوا فيها ، والكافرون حريصون على الدنيا حائطون عليها بكل حائطة ، وطبيعة الحال بين هؤلاء وهؤلاء ، الصابرين في سبيل الله والذين لا يفقهون إلا اللهو ، أن يغلب الأولون على الآخرين ، اللهم إلّا إذا تخلف فريق عما شرط له أو عليه.

ذلك ، فالمؤمن الفقيه الصابر إنما يقدم في الجهاد قضية إيمانه الفقيه الصابر ، وهو هو القوة التي لا قوة فوقها يساميها أم مثلها فيساويها ، فالشجاعة والجرأة والاستقامة والطمأنينة والثقة بالله وأنه يتربص إحدى الحسنيين ، هي التي تعدل ـ لأقل تقدير ـ عشرا من القوات الكافرة الخاوية

عن تلكم القوات الإيمانية.

فحينما المؤمن يطير ويستطير بهذه القوى ، ليس الكافر ليطير إلا بالهوى ، فما اتفق الكافر وغايته الغاوية الهاوية وهي الحفاظ على الحياة الدنيا وزينتها ، فهو مقدام عليه دون أية هوادة ، فأما أن يموت في سبيل هذه الحياة فلا ، ولكن المؤمن يموت في سبيل حياة هي أحيي وأبقى ﴿وَما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقى﴾.

فالصبر والفقاهة المستصحبان للإيمان هما رمز الغلبة على أصحاب الفشل والسفاهة المستصحبان للّاإيمان ، وهذه سنة مستمرة بين المتناحرين ، أن الأقوى منهم روحية وتصميما وغاية هو الأقوى في النضال على أية حال.

فمعشار المؤمن من الكفار مغوار يقتل عشرة منهم بطبيعة الحال ، ف ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها﴾ تقرر أقل تقدير لغا علية الحسنة ، فلأن الجهاد حسنة فمجاهد واحد بجهاده في سبيل الله له عشر أمثاله من قبيل الكفر أن يغتالهم أو يقتلهم أو يغلبهم دونما تزعزع وفتور.

ثم «يغلبوا» مرتين في النص هي بصورة الجزاء خبرا عن الشرط ولكنه أمر لأمور عدة : منها أن في كونها خبرا كذبا حيث غلبوا ويغلبون مرارا وتكرارا ، ومنها أن التخفيف لا مجال له في الخبر إلا كذبا و ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ﴾ تخفيف من المعشار المغوار إلى ضعف في واجب القرار ومحرم الفرار.

ذلك ولكن الإخبار هنا معني بضمن الإنشاء وبينهما فارق تحليق عناية الإنشاء على كافة الموارد كضابطة ، ولكن صدق الإخبار يكفيه حصول المخبر به بطبيعة الحال ، ومهما تخلف أحيانا فإنه لملابسات مضادة لشروط الغلبة.

وهنا «يغلبوا» دون يقاتلوا دليل واجب الغلبة بواجب المعشار فضلا عما فوقه ، ولأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ، فإذا فلت فالت دون تقصير من معشار المؤمنين فلا بأس به.

فإيجابية العدد المعشار في المؤمنين هي لأمور منها أنهم «صابرون» وسلبية القوة للكافرين بأضعافهم العشرة ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ فما هي الصلة بين عدم الفقه وأنهم يغلبون؟

﴿الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(٦٦).

ترى ولماذا يعبر هنا عن المعشار والنصف بهذه الطائلة المفصلة ، وما هو اختصاص «عشرون ومائة وألف وألفان»؟

علّه كما أسلفناه . لأن سراياه ما كانت تقل عن عشرين ولا هي أكثر من مائة [١] فقضية واقع الحال أن يعبر عما هو ، فقد فرض عليها الاصطبار حتى الغلبة في نطاق معشار المؤمنين من الكفار ، ثم ولم يكن المعشار إلا في نطاق العشرين وما زاد ، فلا يجري الحكم في الأقل من العشرين ، كما لا يجري في الأقل من المأتين في الحكم الثاني [٢].

---

(١) في تفسير الفخر الرازي ١٦ : ١٩٤ روى أنه (صلّى الله عليه وآله وسلم) كان يبعث العشرة إلى وجه المائة بعث حمزة في ثلاثين راكبا قبل بدر إلى قوم فلقيهم أبو جهل في ثلاثمائة راكب وأرادوا قتالهم فمنعهم حمزة وبعث رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) عبد الله بن أنيس إلى خالد بن صفوان الهذلي وكان في جماعة فابتدر عبد الله وقال يا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) صفه لي فقال : إنك إذا رأيته ذكرت الشيطان ووجدت لذلك قشعريرة وقد بلغني أنه جمع لي فأخرج إليه واقتله ، قال : فخرجت نحوه فلما دنوت منه وجدت القشعريرة فقال لي : من دخل؟ قلت له من العرب سمعت بك وبجمعك ومشيت معه حتى إذا تمكنت منه قتلته بالسيف وأسرعت إلى الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) وذكرت أني قتلته فأعطاني عصا وقال : أمسكها فإنها آية بيني وبينك يوم القيامة.

(٢) نور الثقلين ٢ : ١٦٦ في تفسير العياشي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يقول في آخره : وقد أكره علي بيعة أبي بكر مغضبا اللهم انك تعلم أن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) قد قال لي : إن تموا عشرين فجاهدهم وهو قولك في كتابك : إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مأتين وسمعته يقول : اللهم فإنهم لم .

ذلك ، ولما شق على المؤمنين ذلك التكليف قلة في اصطبارهم وعلة في قرارهم ضعفا في كثير منهم مهما صمد القليل ، خفف الله عنهم المعشار إلى الضعف [1] قضية الضّعف.

وترى ذلك الضعف هو في العدة والعدة الحربية؟ ولا يسبب هذا الضعف تخفيفا عن التكليف حيث الفرض فيه واقع ذلك الضّعف!

إنه ضعف في الفقه والاصطبار أمام العدة والعدة الزائدة للعدو ، وهو قضية الحال وطبيعتها حين يكثر المؤمنون والصادقون فيهم ـ بالطبع ـ قلة ، وفي الكثرة علة ، وهذا مما تعنيه : ﴿فِيكُمْ ضَعْفاً﴾ دون أنتم ضعفاء ، إنما فيكم ، في ظرف الكثرة العددية يكون لأكثركم ، ضعفا في الإيمان بفقهه وصبره.

وهنا «علم» بين علم حاضر لحضور وحدوث معلومه أن حدث فيهم ذلك الضعف ، وبين علم سابق معه بسابق ضعفهم وأنهم سوف لا يتحملون ذلك التكليف العضال.

ف «الآن» وهو بطبيعة الحال بعد ردح من زمن التكليف الأول وتطبيعه فيه ﴿خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ﴾ غور المعشار «و» حال أنه «علم» بأحد الوجهين أم كليهما ﴿أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً﴾ لا يجبر لضعف الفقه والصبر في الأكثر.

ف ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها﴾ وحينما الأكثر في الأكثر ليس لهم

ـ يتموا عشرين حتى قالها ثلاثا ثم انصرف ، أقول : استدلاله (عليه السلام) بالآية مما يدل على أنها غير منسوخة بالثانية نسخا رسميا ، إنما هو نسخ أحيانا حسب مختلف الإعدادات والاستعدادات الإيمانية والملابسات الحربية.

(١) قال عطاء عن ابن عباس : لما نزل التكليف الأول ضج المهاجرون وقالوا : يا رب نحن جياع وعدونا شباع ونحن في غربة وعدونا في أهليهم ونحن قد أخرجنا من ديارنا وأموالنا وأولادنا وعدونا ليس كذلك. وقال الأنصار : شغلنا بعدونا وواسينا إخواننا فنزل التخفيف ، وقال عكرمة : إنما أمر الرجل أن يصبر لعشرة والعشرة لمائة حال ما كان المسلمون قليلين فلما كثروا خفف الله تعالى عنهم.

ذلك الصبر والصمود الذي كان في القلة المؤمنة الصابرة ، إذا فليخفف في التكليف.

ذلك ولا حاجة إلى تأويل العلم هنا بما تعوده المتأولون من خلاف الظاهر الباهر ، إنما هو العلم بما هو حاصل من المعلوم بعد تحويل القلة إلى الكثرة ، فقد كان يعلم من القلة الصابرة القوة فكلفهم كما يستطيعون ، ثم كان يعلم من الكثرة غير الصابرة ضعفا في الصمود والثبات المقدام فخفف المعشار إلى النصف.

أجل وان الله تعالى عالم السر من ضمائر المضمرين ونجوى المتخافتين ، وخواطر رجم الظنون ، وعقد عزيمات اليقين ، ومسارق إيماض الجفون ، وما ضمنته أكنان القلوب وغيابات الغيوب ، وما أصغت لاستراقه مصائخ الأسماع ، ومصايف الذرّ ، ومشاتي الهوامّ ، ورجع الحنين من المولهات ، وهمس الأقدام ، ومنفسح الثمرة من ولائج غلف الأكمام ، ومنقمع الوحوش من غير ان الجبال وأوديتها ، ومختبأ البعوض بين سوق الأشجار وألحيتها ، ومغرز الأوراق من الأفنان ، ومحطّ الأمشاج من مسارب الأصلاب ، وناشئة الغيوم ومتلاحمها ، ودرور قطر السحاب في تراكمها ، وما تسقي الأعاصير بذيولها ، وتعفو الأمطار بسيولها ، وعوم بنات الأرض في كثبان الرمال ، ومستقر ذوات الأجنحة بذرى شناخيب الجبال ، وتغريد ذوات المنطق في دياجير الأوكار ، وما أوعبته الأصداف وحضنت عليه أمواج البحار ، وما غشيته سدفة ليل ، أو ذرّ عليه شارق نهار ، وما اعتقبت عليه أطباق الدياجير وسبحات النور ، وأثر كل خطوة ، وحس كل حركة ، ورجع كل كلمة ، وتحريك كل شفة ، ومستقر كل نسمة ، ومثقال كل ذرة ، وهما هم كل نفس هامّة ، وما عليها من ثمر شجرة ، أو ساقط ورقة ، أو قرار نطفة ، أو نقاعة دم ومضغة ، أو ناشئة خلق وسلالة ، لم يلحقه في ذلك كلفة ، ولا اعترضته في حفظ ما ابتدع من خلقه عارضة ، ولا اعتورته في تنفيذ الأمور وتدابير المخلوقين ملالة ولا فترة ، بل نفذهم علمه ، وأحصاهم عدده ، ووسعهم أعدله ، وغمرهم فضله ، مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله (الخطبة ٨٩).

ذلك ولقد خرق علمه باطن غيب الستزات ، وأحاط بغموض عقائد السريرات ، (١٠٦).

«كل سر عنده علانية ، وكل غيب عنده شهادة» (١٠٧).

وترى أنها تنسخ الأولى لمكان ﴿خَفَّفَ اللهُ﴾؟ والحكمان تابعان لموضوعيها وهما القوة والضعف في الإيمان ، فلا نسخ ـ إذا ـ وإنما هو التخفيف الأحيائي حين يفقد الموضوع الثاني شرط الأول ، ولضعف الإيمان ـ بعد ـ مرزءته ومسئوليته [1].

فالمسئولية العامة الهامة أولا وأخيرا هي ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ حيث تعني إلى جانب القوات الحربية الظاهرة ، قوات التصبّر والإيمان والفقه الباهرة ، ولكي تتحقق ـ لأقل تقدير ـ المكافحة : لا غالب ولا مغلوب ، ولكنه كفرض دائب : غالب ولا مغلوب ، اللهم إلّا إذا خرج عن المستطاع ف ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً﴾.

والأصل في النسبة هنا يتراوح بين عشر ونصف في قبيل الإيمان [2] رعاية لمختلف حالات الضعف والقوة في مختلف المجالات ، ثم الأصل الثابت الضابط في هذا البين واجب إعداد القوة قدر المستطاع فرادى وجماعات ، ولكي يترجح كفة الإيمان وضفته على ضفة الكفر بكفته ، تترجح ولا تتأرجح ، رغم الأقلية الدائمة لقبيل الإيمان ، والأقلية الفقيهة

---

(١) راجع إلى حاشية (٢) من ص (٢٨٨)

(٢) نور الثقلين ٢ : ١٦٧ في الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه : أما علمتم أن الله عزّ وجلّ قد فرض على المؤمنين في أول الأمر أن يقاتل الرجل منهم عشرة من المشركين ليس له أن يولي وجهه عنهم ومن ولاهم يومئذ دبره فقد تبوء مقعده من النار ثم حولهم رحمة منه لهم فصار الرجل منه عليه أن يقاتل رجلين من المشركين تخفيفا من الله عزّ وجلّ للمؤمنين ففسح الرجلان العشرة. وفي تفسير العياشي عن الحسين بن صالح قال : سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول : كان علي (عليه السلام) يقول : من فر من رجلين في القتال من الزحف فقد فر من الزحف ومن فر من ثلاثة رجال في القتال من الزحف فلم يفر.

الصابرة فيهم أنفسهم.

فآية العشرين - إذا - برزخ بين كونها منسوخة وثابتة ، فليست منسوخة بمعنى النسخ المصطلح حيث قد تفرض الملابسات الحربية والإعدادات والاستعدادات الإيمانية واجب غلبة المعشار من المؤمنين على الكافرين ، ولا ثابتة على أية حال حيث سمح للنقلة إلى الصف حين يضعف المؤمنون في إيمانهم وصبرهم وفقههم رغم واجب الاستمرار في مثلث : الإيمان الفقيه الصابر.

﴿ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٦٧).

«ما كان» هنا كما فيما أشبه تضرب إلى أعماق الماضي الرسالي ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى﴾ يأسرهم ﴿حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ إغلاظا على العدو وسيطرة عليه : ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها﴾ (٤٧ : ٤).

فليس التكليف إذا رسوليا - فحسب - بل هو رسالي موجّه إلى كافة القيادات الحربية والقوات المسلحة الإسلامية ، ألا يأسروا من عدوهم حتى يثخنوا في أرض المعركة ، ويذلوا العدو ، فهنا لهم أن يكون لهم أسرى ، فالأسر قبل الغلبة ممنوع بأسره ، وهو بعدها أسر بحصر علامة الغلبة ، وتقليلا من قوات العدو ، ولكنه قبلها اشتغال عن أصل الحرب فاشتغال للعدو وأكثر بها.

ذلك ، فأما الذين يريدون عرض الدنيا العارض المعترض ، فهم عاجلون في الآجل ، فيأسرون استرقاقا وغنما قبل وصوله أجله ، وفيه فت لعضد الحرب وثلّم في صميم التصميم عليها ، اشتغالا بأسرى وغنائم قد ينحي إلى أسرهم أنفسهم بحصرهم وغلبهم بعد ما غلبوا شيئا يسيرا دونما إثخان للعدو في أرض المعركة.

«تريدون» أنتم المستعجلون لأخذ الأسرى قبل أوانه ، «عرض

الدُّنْيا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ» فالأصل في الحرب هو الغلبة ، وليس الأسر والغنم إلا بعدها وإلا فسوف تغلبون وكما حصل في أحد لما ترك الرماة قواعدهم ناحين منحى الغنائم ولما يحن حينها.

وهنا يبرز أن جماعة من المسلمين تطلبوا إلى الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) أن يكون له أسرى وغنم قبل أن يثخن في الأرض بغية الحياة الدنيا ، فاستأصلت هذه الآية تلك البغية الباغية عن كل الرسل والرسالات ، فاتهام النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) نفسه بتلك البغية اقتحام عليه بالتخلف عن السنة الرسالية الثابتة كضابطة ، ثم :

﴿لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾(٦٩).

ف ﴿فِيما أَخَذْتُمْ﴾ نص على أن جمعا منهم أخذوا أسرى وغنيمة قبل الإثخان في الأرض وكما حصل في أحد ، وهنا ﴿كِتابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ﴾ دليل على أنهم كانوا لو لا كتاب من الله «لمسهم عذاب عظيم».

وهكذا نعلم أن أخذ الأسرى قبل الإثخان في أرض المعركة هو من كبائر المنهيات في شرائع الله كلها ، حيث إن «ما كان ـ و ـ عذاب عظيم» شاهدان اثنان على أهمية ذلك الحكم الحاسم في حقل الحروب.

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٦٩).

﴿مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ ليست لتختص بغنائم دار الحرب ، مهما كان الدور هنا دورها ، ف «الحلال ما لا يعصى الله فيه ، والطيب ما لا ينسى الله فيه» [١].

---

(١) مجلة العرفان العدد الثالث المجلد ٦١ ص ٣٨٩ عن الصادق (عليه السلام).

ثم وهذه الخاصة هي الغنيمة المحلّلة الخاصة بما بعد الإثخان في الأرض ، وأما الغنيمة قبل الإثخان فمحظورة غير محلّلة ومن الغنيمة غير المحظورة إضافة إلى سائر غنائم الحرب أخذ الفداء من الأسرى وكما خيّر النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) في آية محمد ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً﴾ وليس قتل الأسرى واردا في شرعة الله ، بل هم داخلون بعد الأسر في مدرسة داخلية إسلامية هي بيوت المسلمين ، يعاملون فيها كما يعامل سائر الأهلين ليلمسوا الخلق الإسلامية المجيدة فينجذبوا إليه ، فرواية التخيّر في قتلهم أو فداءهم لا تصدّق ، لا سيما وأنها تخالف التخير بين المن والفداء ، إذا فالله ورسوله من أمثال هذه الروايات براء!

ذلك ، ومما يشهد صراحا لحظر قتل الأسرى الخطاب التالي :

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧٠).

ف «الأسرى» هنا كل أسرى الحرب من كافة الكفار مشركين وأهل كتاب ، قل لهم : ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً﴾ وهو نور الهدى الفطرية غير المستورة بعد ، القابلة للاهتداء إلى الحق في هذه المدرسة الداخلية الإسلامية السليمة ، مما يدل أن خيرا في قلوب الأسرى الكفار يبشرهم بخير من الله فكيف ـ إذا ـ يقتلون.

ف ﴿خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ هو الهدى والمال ، فقد أخذت منهم أموال فيؤتيهم الله أموالا بعد إيمانهم هنا وفي الأخرى ، وأخذت منهم حريتهم الكافرة فيؤتيهم الله بعد إيمانهم حرية مؤمنة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١].

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١٦ : ٢٠٤ قال ابن عباس نزلت هذه الآية في العباس وعقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحرث. كان العباس أسرا يوم بدر ومعه عشرون أوقية من الذهب أخرجها ليطعم الناس وكان أحد العشرة الذين ضمنوا الطعام لأهل بدر فلم تبلغه التوبة حتى أسر فقال العباس : كنت مسلما إلا أنهم أكرهوني فقال (صلّى الله عليه وآله.

ذلك ، ومن أدنى الخير في قلوبهم ألّا يحاربوا المسلمين بعد ، فهم ضيوفهم في بيوتهم على كفرهم ، فقد أوتوا خيرا مما أخذ منهم فلا يبتلون بعد بمزيد الكفر والإثم بمحاربتهم.

فهم بعد أسرهم آمنوا أم لم يؤمنوا قد أوتوا خيرا مما أخذ منهم من أموال وحريات ، وهذه طمأنة لهؤلاء الأسرى تخفيفا لهم عن عبء الأسر والعسر إلى راحة ويسر مهما ظلوا كافرين.

وهنا ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللهُ﴾ تعني أن كان في قلوبكم خير ، فإن علم الله والواقع هما سيان لا يتخلف أحدهما عن الآخر ، فإنه بكل شيء عليم ، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، بل هو أوسع من الواقع في كل حال حيث كان يعلم قبل حصوله كما يعلمه بعد زواله.

فهذه لمسة لقلوب الأسرى المنكسرة تحيي فيها الرجاء ، وتطلق فيها الأمل ، وتشيع فيها النور تعليقا بمستقبل هو خير مما مضى ، انفتاحا لنور الإيمان بعد نير الإثخان ، رحمة إسلامية سامية منقطعة النظير في تاريخ الإحسان بالإنسان في حالة الحصر والأسر.

وسلم) : إن يكن ما تذكره حقا فالله يجزيك فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، قال العباس : فكلمت رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) أن يرد ذلك الذهب علي فقال : أما شيء خرجت لتستعين به علينا فلا ، قال : وكلفني رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فداء ابن أخي عقيل بن أبي طالب عشرين أوقية وفداء نوفل بن الحرث فقال العباس تركتني يا محمد أتكفف قريشا فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) : أين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها : لا أدري ما يصيبني فإن حدث بي حادث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل ، قال العباس : وما يدريك؟ قال : أخبرني به ربي قال العباس : فأنا أشهد أنك صادق وأن لا إله إلّا الله وإنك عبده ورسوله والله لم يطلع عليه أحد إلا الله ولقد دفعته إليها في سواد الليل ولقد كنت مرقابا في أمرك فأما إذا أخبرتني بذلك فلا ريب ، قال العباس : فأبدلني الله خيرا من ذلك ، لي الآن عشرون عبدا وإن أدناهم ليضرب في عشرين ألفا وأعطاني زمزم وما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة وأنا انتظر المغفرة من ربي.

فلا يعني استبقاء الأسرى بأيدي المسلمين في شرعة الإسلام تسخيرهم استغلالا واستذلالا لهم انتقاما ، وإنما يعني ليلمس قلوبهم مكامن الخير والرجاء والصلاح فالإصلاح ، وليوقظ في فطرهم أجهزة الاستقبال للهدى في مدرسته الداخلية العالية.

وهنا «الأسرى» لا تختص بآسرة القرابة مهما نزلت بشأن بعض منهم [1] ، حيث النص ليس ليختص ببعضه ، إنما هو «الأسرى» الشاملة لكل أسرى الحرب الإسلامية على مدار الزمن الإسلامي إلى يوم الدين.

هنا ، وعلى ضوء الآيتين (٧٠ ـ ٧١) ينقسم الأسرى إلى من يعلم الله فيهم خيرا ومن يريدون الخيانة ، والأسر للأولين خير لهم إذ ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ فقد أخذت عنهم الحرية في الكفر وغنائم ، وخير منهما الحرية في الإيمان وأموال تؤتى لهم في حقل الإيمان ، على ضوء التربية المتواصلة في المدارس الداخلية الإسلامية.

ثم الأسر للآخرين صد عن مواصلتهم في محاربة المسلمين ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أسرهم ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ والإمكان منهم في أسرهم أمكن منه قبل أسرهم.

وهكذا يعامل الإسلام مع الأسرى رعاية لمصلحة الجانبين ، حتى بالنسبة لمن يريدون الخيانة حيث يصد عليهم سبيل الخيانة الجاهرة ، ويمكن منهم حين تظهر منهم الخيانة ، ومن الطبيعي أن الخيانة على هذه الرقابة المحلّقة البيتية ، وعلى ضوء التربية الإسلامية المتواصلة ، هي أقل

---

(١) نور الثقلين ٢ : ١٦٨ في قرب الإسناد للحميري عن أبي جعفر عن أبيه (عليهما السلام) قال : أتي النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) بمال فقال للعباس أبسط ردائك وخذ من هذا المال طرفا فبسط ردائه فأخذ منه طائفة ثم قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) : هذا من الذين قال الله تبارك وتعالى ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى.﴾.

بكثير من الخيانة في حرية الكفر بجوه وعند أهليه.

وهنا إجابة عن سؤال : كيف يسمح الإسلام أو يفرض استرقاق الأحرار مهما كانوا من الكفار فضلا عن المسلمين؟

نقول : لا يعني الاسترقاق إسلاميا إلّا الاسترفاق للطرفين ، لهم أنفسهم لكيلا يستمروا في حربهم إذا ظلوا في أمة الكفر ، وللمسترقين ، علّهم في الحياة المنزلية الإسلامية ينتبهوا فيصبحوا مسلمين ، أم يقل ضلالهم عما كان بما قرر من حسن المعاملة معهم.

وهنا نسأل ما هو قضية العدل والفضل من قبل الجيش الغالب لمن غلبوا؟ هل يتركهم كما هم دون نيل من أنفسهم وأموالهم وقواتهم فيرجعوا لجديد الحرب وعلّها أقوى مما كان وأغوى؟

أم يأخذوا منهم أسرى رجالا ونساء ثم يبيدوهم ، أو يسجنوهم ، أو يعطوهم كمال الحرية الطليقة في الوسط الإسلامي ، وهذا ثالوث لا يرضاه العدل الإسلامي ومصلحية الحفاظ على الأصلح ، فالإبادة مع رجاء الإصلاح ظلم ، والسجن تعطيل للطاقات دونما مصلحة ، إلا ثقلا وحملا على بيت مال المسلمين ، وضغطا على الأسرى فيرجعون إلى كفر أقوى وعداء أعدى وأغوى ، وإعطاء الحرية لهم سماح للإفساد في الوسط الإسلامي وهو أخطر من بقاءهم بين أهليهم.

وهنا طريقة خامسة هي المثلى ، والصالحة للأسرى والوسط الإسلامي ، هي فرض الثقافة الصالحة في المدارس الداخلية الإسلامية وهي بيوت المسلمين الذين يسترقون هؤلاء الكفار ، ففيها يغربلون فيقتسمون إلى مؤمنين أم قريبين للإيمان : ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ

﴿خَيْراً﴾ ، أم يظلوا كفارا معاندين . لأقل تقدير . : ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ﴾.

ففي العشرة الإسلامية السليمة ، الخليقة البارعة ، إن فيها لتأثيرا عظيما في الأكثرية الساحقة من الكفار الأسرى ، حيث يعاملون في هذه المدارس الداخلية كما يعامل مع سائر الأهلين بكل حنان ومحبة ، في رعاية ورقابة كاملة شاملة.

ذلك ، ولما تخرجوا مثقفين بالخلق والعقيدة والأعمال الإسلامية فهنا يأتي دور تحريرهم فرضا أو ندبا حسب مختلف المناسبات والملابسات ، ومنها فرض الزكاة وسائر الإنفاقات ويجمعها النص : ﴿وَفِي الرِّقابِ﴾ وكذلك في ديات وكفارات.

فلا يعني الاسترقاق في النظام الإسلامي عبودية إنسان لإنسان ، وإنما هو النظام الإجباري الثقافي الصالح في هذه المدارس الداخلية الصالحة ، سردا للثقافات وطردا للجهالات ، ولذلك لا يسمح لأي حرّ أن يبيع نفسه ، وإنما يسمح لاسترقاق أسرى الحرب استرفاقا بهم وبأنفسهم ، صدا عن الشر والضر ، وحملا إلى الخير والبر.

ولأن للمالكين حقوقا على هؤلاء الرقيق أولا وأخيرا ، فلهم من الناحية الاقتصادية حق الإبقاء عليهم دون تحرير وإن تحولوا مسلمين ، اللهم إلا فرضا أو ندبا في مواردهما المسرودة في الكتاب والسنة.

ذلك ، ومن المساحة الإسلامية التسوية في الحاجيات المعيشية بين الرقيق وسائر الأهلين ، ففي حقل الإحسان : ﴿وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَبِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَالْجارِ ذِي الْقُرْبى وَالْجارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ﴾ (٤ : ٣٦).

ثم إذا آمنوا يرغب في زواجهم : ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَإِمائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٤ : ٣٢). كما وينهى عن ظلمهم فيما يروى عن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم): «من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه».

ويخاطب صاحبا له عيّر مسلما بأنه ابن أمه : «أعيرته بأمه؟ إنك امرء فيك جاهلية ، إخوانكم خولكم ـ عبيدكم ـ جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان إخوة تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يفلهم فإن كلفتموهم فأعينوهم».

ويسأله (صلّى الله عليه وآله وسلم) عبد الله بن عمر قائلا : يا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) كم نعفو عن الخادم إذا أساء؟ فصمت برهة ثم قال : أعفو عن الخادم كل يوم سبعين مرة.

وقال (صلّى الله عليه وآله وسلم): «إذا أتى أحدكم خادمه بطعام فليجلسه وليأكل معه ، كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته».

فلا تعني شرعة الرق في الإسلام إلا التثقيف إجباريا للأسرى الكفرة في بيوت المسلمين ، وإلا التجنب عن الفوضى السياسية والدينية إن ظلوا أحرارا فأضلوا كما ضلوا.

ذلك ، فالاستعباد في النظام الإسلامي لا يعني الاستبداد والملكية الظالمة وسلب الحرية الصالحة ، إنما يعني تحرير الإنسان الكافر من عبودية الأصنام والطواغيت ، كما أن المدارس الداخلية التي تسلب حرّية ليست بحريّة للإنسان لتعطيه حرّية هي له حريّة أن يتعرف إلى ما يصلح له ويصلحه.

أجل ، وإن الرقية في الإسلام استعباد لله خروجا عن عبودية العباد ، وأحسن به حرية حريّة بالإنسان أن يخرج من ظلمات الجهالات والرجعيات فيعيش عيشة عالمة عارفة حريّة في التدرج إلى مدارج الإنسانية العالية الغالية.

ذلك ، في حين نرى من هؤلاء الناقدين على الاسترقاق في الإسلام ، أنهم يسترقون ويستعبدون جماهير الضعفاء والمستضعفين أمما بأجمعهم ، مسيطرين عليهم في كل نواميسهم بكل الأبواب السبع الجهنمية : استكبارا واستعمارا واستثمارا واستحمارا ، واستبدادا ،

استضعافا واستخفافا ، إفضاء للمستضعفين عن كافة الميزات الإنسانية بل والحيوانية دون أية إفاضة ، بين إبادة لهم وتشريد وإجاعة وسائر ألوان الظلم الساحق الماحق.

ذلك ، وهنا حل وسط لمشكلة الأسرى تحلها آية محمد : ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها﴾(٤).

فمثلث الملابسات الحربية ، المركّز على ﴿فَشُدُّوا الْوَثاقَ﴾ يقتضي إحدى هذه الزوايا الثلاث ، فأول الأدواء لداء الكفر في الأسرى هو المنّ ، أن تمنوا على جنود الكفر فتحرروا أسرى منهم علّهم يفيقوا عن غفوتهم ، وينتبهوا عن غفلتهم بما يرون فيكم من هذه السماحة المنقطعة النظير ، وذلك إذا لم يشكّل تحريرهم خطرا على الجماعة المؤمنة ، وكما حصل في فتح مكة المكرمة بما قاله الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) «اذهبوا فأنتم الطلقاء» بل ولم يأسرهم أو يحصرهم بعد الفتح المبين الأمين ، لأنه محمد الأمين.

وثانيها هو الفداء ، أن تحرروهم بفدية نفسية من أسراكم عندهم ، أم فدية مالية ، رعاية لنفس الحائطة.

وثالثها الاستمرار في أسرهم حين لا سبيل أصلح منه ، سدا لكل ثغور الخطر ، وتثقيفا لهم في المدارس الداخلية المنزلية.

ذلك ، ففي مسبع الطرق عند إثخان العدو ، هذه الثلاث هي المحبورة حسب الترتيب المصلحي ، المركز على إصلاحهم وسد الإفساد منهم ، وتلك الأربع محظورة إذا لا تأتي بخير إلا شرا وفسادا.

ذلك ، ولكي يأمن خيانة جمع من الأسرى فلا يبادر ببادرة عاجلة فيهم ف :

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٧١).

فالأسرى الخونة لا يفلحون أو يفلحون حيث يمكّن الله منهم فيمكّن

من النقمة منهم ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ بما يحكم «حكيم» فيما يحكم ، ومن علمه وحكمته أمر النصح بشأن الأسرى ، باحتمال التأثير فيهم وفتح منفذ من الهدى إليهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٧٢).

هنا الولاية المتقابلة مفروضة بين المؤمنين المهاجرين بإيمانهم المجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وكذلك المؤدين والمناصرين لهم بإحسان ، وهي في نفس الوقت غير مفروضة ككلّ بينهم أولاء وبين المؤمنين غير المهاجرين حتى يهاجروا ، وهذه المهاجرة بطبيعة الحال هي المستطاعة غير المحرجة ، فالمؤمنون الذين لا يهاجرون بإيمانهم في سبيل الله ، تفضيلا لراحة الوطن والشغل والمال والعيال على صالح الإيمان ﴿ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا﴾ ولكن مع الوصف ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ حيث الإنتصار للدين فرض المؤمنين على أية حال ، ﴿فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ لهم أولاء اللهم ﴿إِلَّا عَلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ﴾ فلا تنصروا هؤلاء المؤمنين غير المهاجرين عليهم فيما فيه نقض ميثاق اللهم إلا ما فيه نقض إيمان أو نقصه ، إذ لا يصح ميثاق بين المؤمنين والكفار فيه نقض أو نقص للإيمان ﴿وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ذلك ، فلا استنصار لهم فيه واجب النصر فيما يخالف صالح الميثاق كأن يستنصروهم في حرب بادءة من المستنصرين ، وأما الحرب المعتدية المفروضة عليهم من الكفار فليست النصرة فيها مما يخالف الميثاق ، إذ إن ميثاق متاركة الحرب وعدم المهاجمة طليقة بالنسبة لكل المسلمين ، ولا يحق لجماعة من المسلمين أن يعاهدوا محاربهم في متاركة حرب خاصة بينهم ، حتى إذا حاربوا سائر المسلمين كانت نصرتهم باستنصاركم مخالفة لذلك الميثاق.

فا الإستنصار في الدين يفرض النصرة على أية حال ، وقد يصح

القول ـ إذا ـ إن الاستثناء في ﴿إِلَّا عَلى قَوْمٍ﴾ منقطع عن المستثنى منه ﴿اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ فإذا كان الإستنصار في الدين فالنصرة محتمة على أية حال ، وإذا لم يكن في الدين فلا نصرة فيما يخالف الميثاق.

ذلك ، وليست المهاجرة المأمور بها في القرآن لتختص بزمن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) فإن كل الزمن هي زمن الرسول في تحقيق رسالاته كلها.

أفترى ﴿قالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها﴾ (٤ : ٩٧) ردا على ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ تختص بالمهاجرة زمن الرسول؟ والآية تندد بكافة المستضعفين المقصرين في ترك المهاجرة بإيمانهم.

فلا يتبلور الإيمان بشروطه وظروفه ومعداته إلا بالحركة المهاجرية ، أن يهاجر المؤمن بإيمانه ، حفاظا عليه ، أم دعوة أوسع مما فيه إليه.

وترى ما هي هذه الولاية المثبتة بالمهاجرة الإيمانية ، المنفية في غير مهاجرة؟ هل هي ولاية المحبة والإيمان ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (٩ : ٧١)! أم ولاية النصرة والأمان؟ ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾!

إنها بعد ما لم تكن من هاتين ، هي ولاية الوراثة إذ كانت قبل الهجرة بالإيمان ، وبعدها بالهجرة والإيمان ، ومن ثم ثبتت بأولي الأرحام في حقل الإيمان كما فصلناها في آيات الميراث.

فقد اختصت ولاية الميراث هذه بالمهاجرة ترغيبا فيها وترعيبا عن تركها ومن ثم تركزت وثبتت في أولي الأرحام كما هنا وفي آية النساء [1]

---

(١) الدر المنثور ٣ : ٢٠٥ ـ أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) آخى بين المسلمين من المهاجرين والأنصار فآخى بين حمزة بن عبد المطلب وبين زيد بن حارثة وبين عمر بن الخطاب ومعاذ بن غراء وبين الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود وبين أبي بكر وطلحة بن عبيد الله وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع وقال لسائر أصحابه : تآخوا وهذا أخي يعني علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال : فأقام المسلمون على ذلك حتى نزلت سورة الأنفال وكان مما شدد الله به عقد نبيه (صلّى الله عليه وآله وسلم) قول الله تعالى : إن الذين آمنوا وهاجروا فأحكم الله تعالى بهذه الآيات العقد الذي عقد رسول الله (صلى الله عليه.

وذلك بعد فتح مكة إذ لم تبق للمهاجرة دور حتى تدور معها الوراثة.

ذلك ، والإستنصار في الدين كما المحبة فيه لهما دور ثابت جلي في حقل الإيمان وان لم يهاجر المؤمن ، اللهم إلّا على قوم بينكم وبينهم ميثاق فليس هنا على المؤمنين المهاجرين أن ينصروا المؤمنين غير المهاجرين في مال وما أشبه ، وأما في الدين فهو ثابت لا مردّ له ، حيث النصرة الدينية لا ينقضها أو ينقصها ميثاق ، بل ولا يعقد ميثاق يناحر واجب النصرة في الدين ، حيث الدين ليس لينقض نفسه أو ينقص من نفسه بإقرار قرار يعارضه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾(٧٣).

هنا موالات الكافرين وهناك موالات المؤمنين وبينهما برزخ الموالاة بين المؤمنين المهاجرين وغير المهاجرين ، وكل ذلك حسب العقيدة والعملية الطالحة أو الصالحة أو العوان بينهما ، وهنا ﴿إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ في كل هذه ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسادٌ كَبِيرٌ﴾ إذ يخرج عن الإسلام غير المهاجرين الذين هم من المسلمين مهما قصروا في الهجرة ، وهذه فتنة وفساد كبير ، كما «وإن لم تفعلوا» في ولاية الميراث ما أمرتم به ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسادٌ كَبِيرٌ﴾ لمكانة المهاجرة الهامة قبل الفتح ، مهما اختلف فساد عن فساد قضية مختلف التخلفات عن هذه الفروض.

هذا ، فضمير الغائب في ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ راجع إلى كل ما مضى من أمر أو نهي في حقل الولاية والميثاق والنصرة ، ولا سيما استنصار المؤمنين غير المهاجرين في الدين.

ـ وآله وسلم) بين أصحابه من المهاجرين والأنصار يتوارثون الذين تآخوا دون من كان مقيما بمكة من ذوي الأرحام والقرابات فمكث الناس على ذلك العقد ما شاء الله ثم أنزل الله الآية الأخرى فنسخت ما كان قبلها فقال : والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام والقرابات ورجع كل رجل إلى نسبه ورحمه وانقطعت تلك الوراثة.

﴿وَالَّـذِينَ آمَنُـوا وَهـاجَرُوا وَجاهَـدُوا فِي سَـبِيلِ اللهِ وَالَّـذِينَ آوَوْا وَنَصَـرُوا أُولئِـكَ هُـمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾(٧٤).

فالذين لم يهاجروا من المؤمنين أو لم يأووا وينصروا فما أولئك بالمؤمنين حقا مهما كانوا من المؤمنين ، ثم :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٧٥)

فالإيمان والمهاجرة والمجاهدة في سبيل الله هي الإيمان حقا من قبل ومن بعد ، ثم ﴿وَأُولُوا الْأَرْحامِ﴾ من هؤلاء المؤمنين حقا ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ﴾ . ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً﴾.

فهنا وفي النساء نسخت آية ﴿أُولُوا الْأَرْحامِ﴾ آيات الميراث بالأخوة والمهاجرة الإيمانية ، فقد كان الميراث قبل الهجرة بالأخوة الإيمانية ، ثم بدل بعد الهجرة بالمهاجرة مع الإيمان ، ثم بعد فتح مكة بدل بالأرحام مهما بقيت الأخوة الإيمانية في الوارث على حالها ولكن شرط أن تكون في حقل الأرحام الأقرب فالأقرب إلى الميت [1] وقد يروى عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) قوله : «لا هجرة بعد الفتح» إذ أصبحت مكة المكرمة بعد الفتح دار الإسلام ، ولكن بقيت الهجرة ـ على طول الخط ـ من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام لها أحكامها إلّا ما يستثنى.

وهنا بعد استقرار الوجود الفعلي للإسلام وبعد فتح مكة المكرمة يعود الميراث إلى أولوية أولي الأرحام داخل النطاق الإسلامي العام ، إلغاء شرط المهاجرة إذ لم يبق لها دور أم مضى دوره الهام ، وكذلك شرط المجاهدة في سبيل الله ، حيث يلبي تركيز الميراث على الأرحام جانبا فطريا عريقا عريفا في كل الحقول والعقول ، فما دامت لا تعارض تلبية

---

(١) الدر المنثور ٣ : ٢٠٧ ـ أخرج الطيالسي والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : آخى رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) بين أصحابه وورث بعضهم من بعض حتى نزلت هذه الآية ﴿وَأُولُوا الْأَرْحامِ﴾ فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب.

الفطرة أهم منها من تكاليف الكيان الإسلامي ، فالفطرة تلبّى دون معارض.

ذلك ، وفي واجهة أخرى لآية ﴿أُولُوا الْأَرْحامِ﴾ وهي ولاية الأمر كما فصلناها على ضوء آية النساء نجد هذه الولاية ناصة خاصة في الأئمة الاثنى عشر (عليهم السلام).

ومن ذلك قوله (صلّى الله عليه وآله وسلم): «ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) حصن الله» [١] و «هو الصراط المستقيم» [٢] ومن القول الثابت ولاية علي (عليه السلام)[٣] وإن الناس لا يضلون ولا يهلكون وهم في ولاية علي (عليه السلام) [٤] و «من لم يوال عليا لم يشم رائحة الجنة» [٥] «فليتمسك بولاية علي (عليه السلام)» [٦] و «أوصي من آمن بي وصدقني من جميع الناس بولاية علي بن أبي طالب (عليه السلام)»[٧] و «ولايته ولايتي وولايتي ولاية الله» [٨] و «تمام دين الله ولاية علي (عليه السلام) بعدي»[٩] و «من لقى الله وهو جاحد لولاية علي لا يقبل الله من أعماله شيئا» [١٠] وهو «إمام أوليائي» [١١] و «إمام أولياء ربي» [١٢] ف «علي ولي الله» [١٣] و «ولي رسول الله» [١٤] و «ولي كل

(١) ملحقات إحقاق الحق ٧ : ١٢٣ و ١٤ : ٥٢٢.

(٢) المصدر ٧ : ١٢٥ و ١٤ : ٤٨٧.

(٣) المصدر ١٤ : ٤٠٢.

(٤) المصدر ١٦ : ٤٣٩.

(٥) المصدر ٧ : ١٧٧ ـ ١٧٨ و ١٧ : ١٨٣ و ٢١ : ٣٦١ ـ ٣٦٢.

(٦) المصدر ٤ : ٣٣١ و ٥ : ١٠٨ ـ ١١١ و ٧ : ٣٨٦.

(٧) المصدر ٦ : ٤٣٥ ـ ٤٣٦ و ١٦ : ٦١٩ ـ ٦٢٠ و ٢١ : ٣١٣ ـ ٣١٤.

(٨) المصدر ٢ : ٣٣٥ و ٦ : ٤٣٦ و ١٧ : ٩٦ ـ ٩٧ ، ٣٢٢ و ٧ : ١٢٢ و ١٦ : ٦١٩ و ٢١ : ٣٦٠.

(٩) المصدر ٥ : ٣٥.

(١٠) المصدر ٦ : ٤٠٩.

(١١) المصدر ٢٠ : ٢٤٦ ، ٣٤٣ ـ ٣٤٤ و ١٥ : ٨١ ـ ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٦ ـ ٨٧ ، ١٩٠.

(١٢) المصدر ٢٠ : ٣٢٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٤.

(١٣) المصدر ٤ : ١٢٨ ـ ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٤٤ ـ ١٤٨ ، ٢٨٧ ، ٢٨١ ، ٣٥٧ ، ٤٨٩ و ٥ : ٤ و ٦ : ٤٤٢ و ٧ : ٣٨٥ و ١٥ : ٨٨ ـ ٩٢ و ٢٠ : ٢٥٠ ـ ٢٥١ ، ٣٢٨ ، ٣٩١ ، ٤٣٥ ـ ٤٣٦.

(١٤) المصدر ٤ : ٦٤ ـ ٦٥ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ٣٣٠ ، ٣٥٧ و ١٥ : ١١٤ ، ١٢٣ و ١٧ : ٣٠٧.

مؤمن» [١] و «من كنت وليه فعلي وليه» [٢] «من كنت نبيه فعلي وليه» [٣] «فهو أولي الناس بكم بعدي» [٤] و «من كنت أولى به من نفسه فعلي أولى به من نفسه» [٥] و «من آمن بي فليتول عليا وذريته» [٦] و «من كنت مولاه فعلي مولاه» [٧].

سورة التوبة

مدنية وهي

﴿بَراءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكافِرِينَ (٢) وَأَذانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى

. و ٢٠ : ٣٤٥ ـ ٣٤٧.

(١) المصدر ٤ : ٧٩ ، ٩٩ ، ١٢١ ، ١٣٥ ـ ١٣٩ ، ٢٣٠ ، ٢٧٧ ، ٣٣٠ ـ ٣٣١ ، ٣٥٨ ـ ٣٥٩ ، ٣٨٧ و ٥ : ٣٥ ، ٣٧ ، ٤١ ـ ٤٢ ، ٥٨ ، ٩٨ ، ٢٨٨ ، ٣٠٤ ، ٣٠٩ ، ١٥ : ٩٢ ـ ١١٤ و ١٦ : ١٥١ ـ ١٥٢ ، ١٦٥ و ٢٠ : ٣٤٨ ، ٣٦٢ ، ٥٥٣ ، ٤٩٤.

(٢) المصدر ٤ : ٤٣٧ و ٦ : ٣٦٩ ـ ٣٨٠ و ١٧ : ٣٢٥ و ١٦ : ٥٧٧ ـ ٥٧٨ ، ٥٨٤ و ٢٠ : ٣٥٣ ، ٣٥٦ و ٢١ : ٣٩٨.

(٣) المصدر ٦ : ٣٨٠.

(٤) المصدر ١٥ : ١٢٤ ـ ١٢٥ و ٤ : ٣٨٨.

(٥) المصدر ٢ : ٣٦١.

(٦) المصدر ٦ : ٤٣٦ و ١٧ : ٩٦ ـ ٩٧ ، ٣٢٢ و ٢١ : ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

(٧) المصدر ٢ : ٤٢٦ ـ ٤٦٥ و ٣ : ٣٢٢ ـ ٣٢٧ و ٤ : ٢٩٢ ٤٠٨ ـ ٤١٠ ، ٤٣٧ ـ ٤٤٣ ، ٤٤٧ ـ ٤٥٠ و ٥ : ٤٣ ، ٦٠ ، ٧٢ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٩ ، و ٦ : ٢٢٥ ـ ٣٠٤ و ١٦ ٥٥٩ ـ ٥٨٧ و ٢١ : ١ ـ ٩٣.

النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ
فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلاَّ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ
يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ
وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ
ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ (٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ
عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ
وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا

فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَتَأْبى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآياتِ اللهِ
ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً
وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ
الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ
الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) أَلا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْراجِ
الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قاتِلُوهُمْ
يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ
قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ
الَّذِينَ جاهَدُوا

مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾(١٦)

إنها «سورة التوبة» والبراءة ، براءة ببازغة البراءة فيها ﴿مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وتوبة أمرا لهم ولأضرابهم بها ، وتقبّلا ـ بشروطها ـ لها ، ولأن البراءة قد تبوء إلى التوبة ، دون التوبة الصالحة حيث لا تبوء إلى براءة ، فقد سميت بالتوبة تغليبا لها على البراءة ، مهما بزغت تأليبا بالبراءة ، ولذلك نراها تبدء دون بسملة ، فإنها لكل أمر ذي بال ولا بال للبراءة إلا إذا آلت إلى توبة ، وقضية الأمر بين أمرين ترك البسملة وأن تسمى بالتوبة وقد فعل.

نزلت تاسعة الهجرة بعد الفتح وبعد ما رجع النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) من غزوة تبوك إنذارا للمشركين حتى يحسبوا كل حساباتهم بعد طائل هذه الهجرة الهاجرة وبعد عمرة الجعرانة.

والتشكيك في أنها والأنفال سورتان أم واحدة لا مجال له ، وقد جاءت فذّة بعد الأنفال في كافة القرائين [١] ، إضافة إلى العديد الجديد للآيات ، وهو دليل سديد على استقلالها عن الأنفال ، وهكذا تواتر الروايات عن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) وأئمة أهل بيته (عليهم السلام) بصيغة «سورة التوبة» أو «البراءة» [٢] ولا تسمى شطر سورة سورة.

وقد أصفق الفريقان [٣] دون اختلاف على نقل وتصديق رواية البراءة

---

(١) في الدر المنثور ٣ : ٢٠٨ عن عسعس بن سلامة قال قلت لعثمان يا أمير المؤمنين ما بال الأنفال وبراءة ليس بينهما «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» قال : كانت تنزل السور فلا تزال تكتب حتى تنزل «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» فإذا جاءت «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» كتبت سورة أخرى فنزلت التوبة ولم تكتب «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» وفيه عن أبي عطية الهمداني قال كتب عمر بن الخطاب تعلموا سورة براءة وعلموا نساءكم سورة النور.

(٢) المصدر أخرج الطبراني في الأوسط عن علي (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم): المنافق لا يحفظ سور هود وبراءة ويس والدخان وعم يتساءلون.

(٣) قد أخرج حديث البراءة فيمن أخرج ـ أن عليا (عليه السلام) هو المبعوث باذان البراءة ـ ثلاث وسبعون من أئمة الحديث وحفاظه بعدة طرق ذكرهم العلامة الاميني في الغدير كما يلي : ثم وآخرون ذكرهم في ملحقات إحقاق الحق (٥ : ٣٦٨ ـ ٤٦٨) و (١٦ : ٢٢١

. ٢٣٦ و ٢ : ٦٢ و ٣ : ٤٢٧ و ١٤ : ٦٤٤) مما يبلغهم إلى نيف ومائة :

١ . أبو محمد إسماعيل السدي الكوفي المتوفى (١٢٨) ٢ . ابن هشام البصري (٢١٨) ٣ . محمد بن سعد الزهري (٢٣٠) ٤ . الحافظ أبو بكر ابن أبي شيبة العبسي الكوفي (٢٣٥) ٥ . الحافظ أبو الحسن ابن أبي شيبة العبسي (٢٣٩) ٦ . الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١) ٧ . الدارمي صاحب السنن (٢٥٥) ٨ . ابن ماجة صاحب السنن (٢٧٣) ٩ . الترمذي صاحب الصحيح (٢٧٩) ١٠ . ابن أبي عاصم الشيباني (٢٨٧) ١١ . النسائي صاحب السنن (٣٠٣) ١٢ . محمد بن جرير الطبري (٣١٠) ١٣ . ابن خزيمة النيسابوري (٣١١) ١٤ . النيسابوري صاحب المسند (٣١٦) ١٥ . البغوي صاحب المصابيح (٣١٧) ١٦ . أبي حاتم التميمي (٣٢٧) ١٧ . ابن حبان التميمي (٣٥٤) ١٨ . الطبراني (٣٦٠) ١٩ . أبو الشيخ (٣٦٩) ٢٠ . الدار قطني (٣٨٥) ٢١ . الحاكم النيسابوري صاحب المستدرك (٤٠٥) ٢٢ . ابن مردويه (٤١٦) ٢٣ . أبو نعيم الإصبهاني (٤٣٠) ٢٤ . البيهقي صاحب السنن (٤٥٨) ٢٥ . ابن المغازلي (٤٨٣) ٢٦ . البغوي (٥١٦) ٢٧ . النسفي السمرقندي (٥٣٧) ٢٨ . جار الله الزمخشري (٥٣٨) ٢٩ . القرطبي صاحب التفسير (٥٦٧) ٣٠ . موفق بن أحمد الخوارزمي (٥٦٨) ٣١ . ابن عساكر (٥٧١) ٣٢ . الأندلسي (٥٨١) ٣٣ . الإمام الرازي (٦٠٦) ٣٤ . أبو السعادات ابن الأثير الشيباني (٦٠٦) ٣٥ . أبو الحسن ابن الأثير الشيباني (٦٣٠) ٣٦ . ضياء الدين المقدسي (٦٤٣) ٣٧ . النصيبي (٦٥٢) ٣٨ . ابن الجوزي (٦٥٤) ٣٩ . ابن أبي الحديد (٦٥٥) ٤٠ . الكنجي (٦٥٨) ٤١ . البيضاوي (٦٨٥) ٤٢ . محب الدين الطبري (٦٩٤) ٤٣ . إبراهيم الحموي (٧٢٢) ٤٤ . التبريزي صاحب مشكاة المصابيح (٧٣٧) ٤٥ . علي بن محمد الخازن صاحب تفسير الخازن (٧٤١) ٤٦ . أبو حبان الأندلسي صاحب التفسير (٧٤٥) ٤٧ . الذهبي (٧٤٨) ٤٨ . النيسابوري صاحب التفسير (٧٤٨) ٤٩ . ابن كثير الدمشقي (٧٧٤) ٥٠ . الهيثمي (٨٠٧) المقريزي (٨٤٥) ٥٢ . العسقلاني (٨٥٢) ٥٣ . الصباغ المكي (٨٥٥) ٥٤ . العيني (٨٥٥) ٥٥ . السخاوي (٩٠٢) ٥٦ . جلال الدين السيوطي (٩١١) ٥٧ . القسطلاني (٩٢٣) ٥٨ . الشيباني (٩٤٤) الديار بكري صاحب تاريخ الخميس (٩٦٦) ٦٠ . ابن حجر الهيثمي (٩٧٤) ٦١ . القرشي الهندي (٩٧٥) ٦٢ . المناوي (١٠٣١) ٦٣ . العيدروس الحسيني (١٠٤١) ٦٤ . أباكثير المكي (١٠٤٧) ٦٥ . الزرقاني (١١٢٢) ٦٦ . البدخشي (١١٢٢) ٦٧ . الصنعاني (١١٨٢) ٦٨ . محمد بن الصبان (١٢٠٦) ٦٩ . الشوكاني (١٢٥٠) ٧٠ . الآلوسي صاحب التفسير (١٢٧٠) ٧١ . القندوزي (١٢٩٣) ٧٢ . أحمد زيني دحلان (١٣٠٤) ٧٣ . السيد مؤمن الشبلنجي صاحب نور الأبصار (١٣٠٤).

حيث يبعث رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) بالعشر الأولى من آي البراءة مع أبي بكر أذانا من الله تعالى ومنه (صلّى الله عليه وآله وسلم) إلى أهل مكة بما فيها من الأحكام المحدّدة إياهم ، المهددة لهم ، ألّا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا ، فلما غادر أبو بكر المدينة إلى مكة دعى (صلّى الله عليه وآله وسلم) عليا فقال : أدرك أبا بكر فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه ورجع أبو بكر فقال : يا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) نزل فيّ شيء؟ قال : لا ، ولكن جبرئيل جاءني فقال : لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك (١)
.

أجل. فلما غادر أبو بكر المدينة إلى مكة جاء جبرائيل الأمين إلى الرسول الأمين (صلّى الله عليه وآله وسلم) قائلا : إن العلي الأعلى يقرؤك السلام ويقول لك يا محمد! : لا يؤدي عنه إلا أنت أو رجل منك. فابعث عليا (عليه السلام) ليتناول الآيات فيكون هو الذي يقرء الآيات ، يا محمد! ما أمرك ربك بدفعها إلى علي ونزعها من أبي بكر سهوا ولا شكا ولا استدراكا على نفسه غلطا ، ولكن أراد أن يبين لضعفاء المسلمين : أن المقام الذي يقومه أخوك علي لن يقومه غيره سواك يا محمد ، وإن جلت في عيون هؤلاء الضعفاء مرتبته من أمتك (٢).

«فلما رجع أبو بكر إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) جزع. يبكي. (٣)» وقال يا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) : إنك أهّلتني

---

(١) المصدر أخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند وأبو الشيخ وابن مردويه عن علي (عليه السلام) قال : لما نزلت عشر آيات من براءة على النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) دعى أبا بكر ليقرأها على أهل مكة ثم دعاني فقال لي أدرك أبا بكر ورواه أنس وسعد بن أبي وقاص وأبو هريرة وابن عمر وأبو سعيد الخدري وأبو رافع وابن عباس وجابر وعروة.

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) البحار ٣٥ : ٢٩٧ ح ٢١ ولقد أخرج حديث البراءة (٧٣) من الحفاظ وأئمة الحديث كما في الغدير (٦ : ٣٣٨. ٣٥٥).

(٣) أخرجه ابن عساكر باسناده عن الحرث بن مالك.

لأمر طالت الأعناق فيه فلما توجهت رددتني عنه؟ فقال (صلّى الله عليه وآله وسلم) : الأمين هبط إلي عن الله عزّ وجلّ أنه «لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك وعلي مني ولا يؤدي عني إلا علي» (١).

وجملة المروي عن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) في سبب عزله أبا بكر عن هذه المهمة التي تمد إليها الأعناق جوابا عن سؤاله : هل نزل في شيء؟ أنه : «لن تؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك» (٢).

«ولكني أمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي» (٣).

«إنه لا يبلغه إلا أنا أو رجل مني» (٤).

«إنه لا ينبغي أن يبلغ عني إلا رجل من أهلي» (٥) «من أهل بيتي» (٦).

---

(١) رواه الطبري والبلاذري والترمذي والواقدي والشعبي والسدي والثعلبي والواحدي والقرطي والقشيري والسمعاني وأحمد بن حنبل وابن بطة ومحمد بن إسحاق وأبو يعلي الموصلي والأعمش وسماك بن حرب في كتبهم عن عروة بن الزبير وأبي هريرة وأنس بن أبي رافع وزيد بن نقيع وابن عمر وابن عباس.

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند والحافظ أبو الشيخ وابن مردويه والسيوطي في الدر المنثور ٣ : ٢٠٩ وكنز العمال ١ : ٢٤٧ والشوكاني في تفسيره ٢ : ٣١٩ والرياض النضرة ٢ : ١٤٧ وذخائر العقبى ٦٩ وتاريخ ابن كثير ٥ : ٣٨ ومناقب الخوارزمي ٩٩ وفرائد السمطين للحمويني ومجمع الزوائد ٧ : ٢٩ وشرح صحيح البخاري للعيني ٨ : ٦٣٧ ووسيلة المال لابن كثير وشرح المواهب اللدنية للزرقاني ٣ : ٩١ وتفسير المنار ١٠ : ١٥٧ . أخرجوه عن علي (عليه السلام) عن طريق زيد بن يشيع.

(٣) تفسير الطبري ١٠ : ٤٦ وتفسير ابن كثير ٢ : ٣٣٣ وخصائص النسائي ٢ والأموال لأبي عبيد ١٦٥.

(٤) مسند أحمد ١ : ٣ وابن خزيمة وابن عوانة والدار قطني في الأفراد كما في كنز العمال ١ : ٢٤٦ والكنجي في الكفاية ١٢٥ نقلا عن أحمد وأبي نعيم وابن عساكر وابن كثير في تاريخه ٧ : ٣٥٧.

(٥) الترمذي في جامعه ٢ : ١٣٥ والبيهقي في سننه ٩ : ٢٢٤ والخوارزمي في مناقبه ٩٩ وابن طلحة في مطالب السئول ١٧ والشوكاني في تفسيره ٢ : ٣١٩ وابن أبي حاتم والحكم وابن مردويه والبيهقي ، وابن حجر في فتح الباري ٨ : ٢٥٦.

(٦) رواه أحمد بن محمد بن إسحاق الدينوري بسند متصل عن أنس عنه (صلّى الله عليه وآله .

«إنه لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني» [١].

«إنه لا يؤدي عني إلا أنا أو علي» [٢].

«لا يذهب بها إلا رجل هو مني وأنا منه» [٣] . «علي مني وأنا من علي ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي» [٤].

ذلك ، وفي حوار بينه وبين الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) في سبب عزله وانتصاب علي (عليه السلام) يقول (صلّى الله عليه وآله وسلم): «كيف تؤديها وأنت صاحبي في الغار» [٥] لا! أنت صاحبي في الغار ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي ، مما يحث على التساءل كيف أخره صحبته مع الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) في الغار! وأصحابه

. وسلم) وأحمد بن حنبل من طرق جماعة منها عن أنس عنه (صلّى الله عليه وآله وسلم) وأبو الشيخ وابن مردويه عن علي (عليه السلام) وجماعة آخرين.

(١) رواه محمد بن جرير الطبري بسند متصل إلى حارث بن مالك وأبو الصباح الكنائي عن الصادق (عليه السلام) والحارث بن مغيرة النصري عنه وحريز عنه (عليه السلام) وأحمد بن حنبل في مسنده مرفوعا إلى أبي بكر عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) والثعلبي في تفسيره وابن مردويه عن أبي رافع عنه (صلّى الله عليه وآله وسلم) وابن أبي حاتم عن حكيم بن حميد عن علي بن الحسين (عليهما السلام) وابن مردويه وابن حبان عن أبي سعيد الخدري عنه (صلّى الله عليه وآله وسلم).

(٢) لقد تواتر النقل فيما يؤدي هذا المعنى أخرجه أرباب الصحاح والسنن ، راجع (محمد وعلي وبنوه الأوصياء) لنجم الدين الشريف العسكري رحمه الله.

(٣) رواه ابن عباس وأخرجه كثير من أئمة الحديث وحفاظه في المسانيد بإسناد صحيح رجاله كلهم ثقات.

(٤) مطالب السؤل ١٨.

(٥) رواه حسن بن أشناس في كتابه بسند متصل عن جعفر بن محمد عن أبيه (عليهما السلام) (البحار ٣٥ : ٢٨٧ ، وأخرجه الطبري كما في فتح الباري للعسقلاني ٨ : ٢٥٦ ويدل عليه من الروايات المتواترة ما ورد في حديث البراءة من قول الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم): أنت صاحبي في الغار ، ورواه أكثر من روى حديث البراءة ونص الحديث هكذا ، يا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) ما كنت ترى أني مؤد عنك هذه الرسالة؟ أبى الله أن يؤديها إلا علي بن أبي طالب ، كيف ذلك يا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم)؟ كيف تؤديها وأنت صاحبي في الغار؟

ينادونه «صاحب الغار» كفضيلة كبرى وافتخار.

فهناك يختص الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) جدارة هذه الرسالة بنفسه أو عليّ لأنه منه ، وهنا يقتسم صحبة بين الغار وبين أمثال هذه الرسالة التي لا يحملها إلا الرسول نفسه امن هو منه ، أفلا يدل ذلك على خلافته الرسالية بعده (صلّى الله عليه وآله وسلم) بعد ما هو خليفته معه؟!

ذلك الأمر المؤكد لعلي (عليه السلام) أن يركب ناقته الغضباء ويلحق أبا بكر بسرعة فيجده في العرج أو في ذي الحليفة أو ضجنان أو جحفة ، وحين يرجع أبو بكر غضبان أسفا يسمع الجواب كلمة واحدة : «لا يؤدي عني إلا أنا أو علي» وما أشبه ، وأخرى «كيف تؤدي عني وأنت صاحبي في الغار» ثم وحين يعزل أبو بكر عن هذه الرسالة فمن هو أبو هريرة في روايته اليتيمة حتى يبلغ ذلك البلاغ؟!

هذه وتلك مع هذه الملابسة الهامة هي ذات الدلالة العامة على محتد الإمام علي (عليه السلام) من الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) أنه هو ـ فقط ـ المبلغ عنه بعده في حياته ، أفلا يكون مبلغا عنه ـ إذا ـ بعد مماته؟!

وترى ما هو القصد من قوله (صلّى الله عليه وآله وسلم) «كيف تؤدي عني وأنت صاحبي في الغار» ألأن صحبته في الغار افتخار؟ فليؤد عنه لذلك! أم إنه عار؟ فلا يؤدي عنه.

وهل الجمع بين المنصبين محظور عدلا في التقسيم؟ فكيف جمع لعلي (عليه السلام) رسالة الأداء عنه إلى مقامه ليلة المبيت مقامه (صلّى الله عليه وآله وسلم) وهو أعلى محتدا لصحبة الغار وكما يقول الله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ﴾ (٢ : ٢٠٧) فالذي يضحي بنفسه إيّاه (صلّى الله عليه وآله وسلم) دونما تخوف ، هو أحرى أن يؤدي عنه من صاحبه في الغار فرارا أم أنسا للغار على تخوّفه ، ولا سيما في هذه الهامة العظيمة التي هي بحاجة إلى قوة في القلب وقمة

في الإيمان ، فصاحب المبيت لم يخف عن الخطر الهاجم ، وصاحب الغار خاف عن الخطر الناجم ، وهو يرى كيف سدل ستار العنكبوت على باب الغار ، وقد نهاه النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) عن حزنه : ﴿لا تَحْزَنْ﴾ ثم «أنزل ﴿سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ لا عليهما! وصاحبه كان أحوج إلى السكينة ، وقد «أنزل ﴿اللهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٨ : ٢٦) ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ﴾ (٩ : ٢٦) أو لم يكن صاحبه في الغار مؤمنا فتشمله السكينة النازلة على الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) ﴿إِذْ هُما فِي الْغارِ﴾؟ أم لم يكن بتلك الدرجة من الإيمان حتى يقرن بالرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) في تلقي السكينة ، إذا فليفرد بسكينة بعد الرسول كما قد أفرد المؤمنون بعد ما جمعوا معه ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً﴾ (٤٨ : ٤) . ﴿فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾ (٤٨ : ١٨).

إذا ف «كيف تؤدي عنه وأنت صاحبي في الغار»؟ «إنما يؤدي عني أنا أو رجل مني» . «رجل هو مني وأنا منه» وكما تواتر عنه (صلّى الله عليه وآله وسلم): «علي مني وأنا منه» [1].

---

(١) لقد تواتر عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) هذا الحديث بألفاظ عدة منها : «علي مني وأنا منه ولا يؤدي عني إلا أنا وعلي» رواه حبشي بن جنادة وأخرجه عنه تسعة وثلاثين من أعاظم المحدثين.

والثاني حديث جابر رواه عنه جماعة من الأعاظم ، والثالث حديث أبي رافع عن عشرة ونصه قال : لما قتل عليّ أصحاب الألوية يوم أحد قال جبرئيل يا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) إن هذه لهي المواساة فقال له النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) : إنه مني وأنا منه فقال جبرئيل : وأنا منكما يا رسول الله . أخرجه أحمد في المناقب ، والرابع حديث بريدة رواه عنه خمسة عشر من الأعاظم ، قال فيه (صلّى الله عليه وآله وسلم): لا تقع في علي فانه مني وأنا منه وهو وليكم بعدي ، والخامس حديث عمران بن حصين عن إحدى وأربعين وفيه ما لهم ولعلي إن عليا مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي ، والسادس حديث زيد عن ستة وفيه قال (صلّى الله عليه وآله وسلم) لعلي (عليه السلام): أما أنت يا علي فختني وأبو ولدي وأنا منك وأنت مني ، والسابع حديث هبيرة بن بريم عن علي (عليه السلام) عن ثمانية وفيه : وأما أنت يا علي فمني وأنا منك .

ولا يعني «رجل مني» فقط نسبة النسب أو السبب ، فإن مكانة الرسالة الربانية لا تعرف نسبا ولا سببا ولا حسبا وما أشبه ، فإنما «مني» هو من عقيلتي الرسالية حتى يؤدي عني ما أنا مؤديه كرسول ، ومما يشهد له «وأنا منه» وصحبة الغار ـ ولا سيما مع ذلك العار ـ ليست لتصحب معها الأداء عنه (صلّى الله عليه وآله وسلم) ، فمجرد «لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني ـ أو علي ـ فإنه مني» يكفي في أفضليته على أبي بكر ومن سواه ، فأما «كيف تؤدي عني وأنت صاحبي في الغار» فعلى كافة الاحتمالات تدل على عدم جدارته لذلك البلاغ [1].

ـ والثامن حديث حسن بن علي عن ثلاثة وفيه : أما أنت يا علي فمني وأنا منك وأنت ولي كل مؤمن بعدي ، والتاسع حديث عمر بن الخطاب عن ثلاثة وفيه قال النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) لعلي (عليه السلام): أنت مني وأنا منك ، وقال عمر : توفي رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وهو عنه راض ، والعاشر حديث البراء عن تسعة وعشرين ، ثم وحديث أبي ذر وأم سلمة وابن عباس وغيرهم رواه عنهم جماعة.

ذلك وقد تواتر أيضا هذا الحديث ضمن حديث الأداء ومنه حديث حبشي بن جنادة والبراء بن عازب وعمران بن حصين وأسامة بن زيد وأبي رافع وبريدة وعلي (عليه السلام) وجابر وأنس ورافع بن أبي خديج ويتحد الكل في معنى (علي مني وأنا من علي ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي أم بإسقاط ذيله ، والقسم الأول ذكره المرجع الديني السيد شهاب الدين المرعشي في ملحقات إحقاق الحق ٥ : ٢٧ ـ ٣١٧ ، والقسم الثاني ذكره في ١٦ : ١٣٧ ـ ١٦٧ ، والمجموع ٧٣ صفحة فيها اسماء المخرجين والرواة والكتب ومتون الحديث المتقاربة المعني.

(١) فهنا احتمالات تالية : ألا يحق الجمع بين منصبين اثنين لصحابي واحد؟ والإمام جمع هنا بين هذا الأداء وأفضل من صحبة في الغار! أن صحبة في النار هي أفضل من هذا الأداء؟ و «لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل من أهلي» يفضل ذلك الأداء على كل المناصب ، إن هذه الصحبة وهذا الأداء سيان؟ فلما ذا يحرم بعد نصبه عن منصب هو مثل صحبته في الغار! فلم يبق أن هذه الصحبة سلبت عنه تلك الجدارة ، أو ليس الأجدر بالرسول في مثل تلك الرسالة في حياته أجدر به باستمرارية رسالته بعد مماته؟!

أقول : ولا يعبأ باختلاف الروايات في أن المؤدي ـ بالأخير ـ كان هو أبا بكر أم وأبو هريرة بأمره ، أم وحتى علي (عليه السلام) كان يؤدي تحت قيادته ، حيث المتواتر الذي ـ

وجوابا عن السؤال : كيف بعث أبا بكر أولا ثم عزله بعلي وهو ﴿وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى﴾؟ نقول : كان بعثه إياه وعزله كلاهما بوحي من الله ، تدليلا على أنه لا يصلح مؤديا عنه بعد مماته حين لا يصلح أن يؤدي عنه في حياته ، تذكارا للغافلين الذين سوف يرتئون خلافته لكونه صاحبه في الغار أم لكبر سنه وما أشبه من حجج داحضة.

وقيلة البعض من المتعصبين لأبي بكر أن عادة العرب جارية في مثل هذه المواقف أن يبعثوا من أهليهم دون الغرباء ، هي غيلة على الرسول

. لا شك فيه عزل أبي بكر ، فكيف يأمر المعزول أبا هريرة أم عليا الذي هو المأمور بأخذ البراءة عنه؟

ولقد تشوشت الروايات قصدا أم إهمالا حتى يضل الحق في هذا البين ، ففي عدد الآيات المبعوثة بين تسع وعشر وست عشرة وثلاثين وثلاثا وثلاثين وسبعا وثلاثين وأربعين وتمام البراءة ، اختلافا سداسيا فيها في عدد الآيات المبعوثة ثم في قصة بعث البراءة منها المتواترة أنه عزل واسترجع أبا بكر وبعث عليا مكانه فتساءل لماذا عزلتني فقال : «لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني ـ أو علي ـ كيف تؤدي عني وأنت صاحبي في النار» ، ومنها اليتيمة الدالة على أن أبا بكر ذهب لوجهه أميرا على الحاج ، فأمر عليا وأبا هريرة أن يأذنا بما أرسل! خلافا للتواتر الأول!

أجل ، وكيف يبعث أبو بكر في هذه المهمة وهو صاحب الغار حيث هو المختار له في الأخطار ، وكما تظافر النقل أن أبا بكر وعمر فرّا من بعض الغزوات كما عن تسعة من فطاحل العامة ، فقد روي أن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) اختار أبا بكر وأعطاه الراية يوم خيبر فرجع منهزما ، وفي أخرى أنه (صلّى الله عليه وآله وسلم) بعد فراره أختار عمر وهو اختار الفرار على القرار حتى فتح الله على يد الحيدر الكرار وقد صرح بمثل ذلك جماعة من الأعلام مثل أبو داود الطيالسي في مسنده (٨ : ٢٦٤) ينقل فرار عمر وعثمان ، والطبري في تفسيره (٢ : ١٩٩) ينقل فرار عمر في غزوة أحد والهيثمي في مجمع الزوائد (٩ : ١٢٣) ينقل فرار أبي بكر وعمر وان عمر كان يجبن أصحابه ، وشارح المواقف (٢ : ٤٧٥) ينقل فرارهما في غزوة حنين ، وابن قتيبة في كتاب المعارف (٥٤) والكاشفي في المعارج الركن الرابع (٣٧٠) والترمذي في المناقب المرتضوية (٤١٠) والمتقي الهندي في منتخب كنز العمال المطبوع بهامش مسند أحمد بن حنبل (٤٤) ينقل فرارهما في غزوة خندق ، والطبري يحكي فرار عثمان في تفسيره (٢ : ٢٠٣) وفرار عمر في غزوة خندق (٢ : ٣٠٠)

(صلّى الله عليه وآله وسلم) انه ترك أولا هذه العادة ثم عاد يحققها ، وفيه تزييف لموقف الرسول وأبي بكر معا ، تخطئة للرسول كيف بدأ بالغريب ، ولأبي بكر كيف عزله بعد نصبه ، ثم ولم تكن للعادات الجاهلية موقف في هذه الرسالة السامية حتى يوقف رسالة أبي بكر لها عن قصة البراءة ، وقد كان ينسخ يوميا العادات الجاهلية وكما قال يوم فتح مكة عند الكعبة المباركة : «ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج» ثم ولو كانت هي عادة عربية صالحة الإتباع في هذه الرسالة فلما ذا تناساها ثم ذكرها وفيه فضح أبي بكر على رؤوس الأشهاد ، ولما يتساءل النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) لا يسمع جوابا أمثال هذه المختلقات المتعصبة ، بل هو كلمة واحدة «لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني».

ذلك ، ولأن المخرجين قصة حديث البراءة هم فوق التواتر طول القرون الإسلامية ، والمخرج عنهم منهم علي (عليه السلام) وأبو بكر وابن عباس وجابر بن عبد الله الأنصاري [1] وأنس بن مالك وأبو سعد الخدري وأبو رافع وسعد بن أبي وقاص وأبو هريرة وعبد الله بن عمر وحبشي بن جنادة وعمران بن حصين وأبو ذر الغفاري ، في المسانيد ، وعشرات أضعافهم في المراسيل ، فلا محيد ـ إذا ـ عن تصديقه وتقبّل معناه ومغزاه ولو كره الفاسقون.

ولقد ناشد الإمام علي (عليه السلام) ـ فيما ناشد ـ القوم حجاجا

---

(١) عن جابر بن عبد الله الأنصاري أن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) حين رجع من عمرة الجعرانة بعث أبا بكر على الحج فأقبلنا معه حتى إذا كنا بالعرج ثوب بالصبح فلما استوى للتكبير سمع الرغوة خلف ظهره فوقف عن التكبير فقال : هذه رغوة ناقة رسول الله الجدعاء لقد بدا لرسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) الحج فلعله أن يكون رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فنصلي معه فإذا علي (عليه السلام) فقال له أبو بكر : أمير أم رسول؟ قال : لا بل رسول أرسلني رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) ببراءة أقرؤها على الناس في مواقف الحج أخرجه جماعة ذكرناهم فيما سبق من الهوامش.

لإمرته بحديث البراءة دون نكير ، وفي حديث ابن عباس [١] وأضرابه تصديقه ، وكما تواتر أيضا عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) حديث المناشدة يوم الشورى وسواه ، فذلك إطباق من أئمة الإسلام ومعظم الرواة والمصنفين والمفسرين على قصة حديث البراءة ، فهم براء كلهم ممن تبرء من مضمونه.

وذلك كله دليل على الهامة المتميزة لرسالة البراءة إلى المشركين ، فما كانت هي رسالة يصح أو يسمح لحملها غير الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) أو من هو منه ، فمادة رسالة البراءة كانت أحكاما جديدة جادة لما تبلّغ إلى من يجب تبليغها إليه ، وهذه تختلف عن الدعوة العامة إلى الإسلام ، أو الكتابات المرسلة إلى الملوك والرؤساء ، فالفارق بينهما أن رسالة البراءة رسالة أصيلة غير مسبوقة بإعلام فهي من اختصاصات الرسول أو من هو منه ، وتلك وما أشبه هي رسالات عامة يحملها كل من يصلح لحمل الرسالات العامة المسبوقة بالإعلام ، ولقد كفت «لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني» دلالة على ميزة رسالة البراءة هذه ، ولا ينكرها إلا نكير عقله وضميره.

على أية حال لقد أدى الإمام علي (عليه السلام) هذه الرسالة الهامة يوم الحج الأكبر ، بازغا ب ﴿بَراءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ أذانا من الله ورسوله يوم الحج الأكبر ﴿أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ مهددا إياهم بالعتل بعد الأشهر الحرم ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.

---

(١) أخرج ابن عساكر باسناده من طريق الحافظ عبد الرزاق عن ابن عباس قال : مشيت وعمر بن الخطاب في بعض أزقة المدينة فقال : يا ابن عباس أظن القوم استصغروا صاحبكم إذ لم يولده أموركم ، فقلت : والله ما استصغره رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) إذ اختاره لسورة براءة يقرأها على أهل مكة ، فقال لي : الصواب تقول والله لسمعت رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) يقول لعلي بن أبي طالب : من أحبك أحب الله ومن أحب الله أدخله الجنة مدلا(كنز العمال ٦ : ٣٩١ وشرح ابن أبي الحديد ٣ : ١٠٥).

ومن ذا الذي يجرأ على أداء هذه الرسالة في وسط من الإشراك ـ مهما فتحت مكة ـ دونما تخوف ومجارات إلّا الذي بات على فراش الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) في وسط المشركين المهاجمين ، دون الذي صاحبه في الغار عدة للفرار وهو مع ذلك خائف لحد يستحق النهي!

تنزل هذه السورة قبل المائدة وبعد الفتح ، معدة للمشركين أن يستعدوا للإسلام أو الاستسلام ، بما تتضمن أحكاما نهائية في صلات وعلاقات بين كتلتي الإيمان والكفر ، كما تضمنت تصنيف كلّ من الضّفتين.

فالسورة ـ إذا ـ ذات أهمية في بيان المنهج الحركي للإسلام ، والتكتيكي لارتجاع عاصمة الإسلام كاملة بعد ما فتحت وبعد تأسيس دولته بعيدا عن العاصمة ، وذلك بكل حسم ومرونة ، حسما في مجاله ومرونة في مجالته.

وهذه السورة بطبيعة حالها بعد الكل وقبل الأخيرة ، هي في عرض الأحكام بين مرحلية ونهائية ، مرحلية هي نهائية للمرحليات السابقة ، وبدائية طليقة للمائدة.

نجد مقاطع ستة للسورة في دراسة عنها خاطفة ، هي في الحق عرض لأخطر المواقف للدولة الإسلامية أمام أهليها بمختلف من فيها وما فيها من أوساط حرجة مرجة لتخلخل جموع من مختلف الطوائف في هذا الدين الجديد ، جادّين أم منافقين أم عوان بينهما.

في المقطع الأول ـ وهو ثمانية وعشرون من آيها ـ عرض لتحديد العلاقات النهائية والوقائية بين المعسكر الإسلامي وجموع المشركين ، فإنها قوية التحضيض والتأليب على قتالهم ، لما في المرونة معهم عرونة للهيكل الإسلامي السامي.

والمقطع الثاني يضمن تحديدا وتجديدا للعلاقات النهائية بين المسلمين وأهل الكتاب بصورة عامة ، من ﴿قاتِلُوا الَّذِينَ ـ إلى ـ

﴿فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾(٣٥).

فهي في مواجهة أهل الكتاب لما كان في نفوس مؤمنة من تهيّب وتردّد ، ولا سيما الروم بما فيه من بأس وبؤس وسمعة تاريخية عريقة بين أهل الجزيرة.

وفي المقطع الثالث وهو من الآية (٣٦) إلى آية الغار (٤٠) والنفر (٤١) يبدأ بالتنديد بالمتثاقلين المتكاسلين في الغزو ، المتعاضلين عن واجب الدفاع والنضال بقية على الحوزة الإسلامية.

وفي المقطع الرابع ـ وهي أطول مقاطعها ـ المستغرق زهاء نصفها ، إلى ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ﴾ عرض عريض لفضح المنافقين المتغلغلين في الصف الإسلامي بمختلف محاولاتهم وحيلهم المنافقة ، تعريضا عريضا عليهم وتحريضا للمؤمنين أن يأخذوا حذرهم منهم ، صونا عن تلاشي الهيكل الإسلامي بعد الفتح حيث عاد النفاق بعده بصورة أخرى متلفقة متلاحقة للأولى ، فأصبح ركاما خطرا على الجماعة المسلمة.

وفي المقطع الخامس تصنيف للجماعة المسلمة إلى درجاتها ، مؤمنة مخلصة ، إلى بسيطة ، وإلى مسلمة غير مؤمنة مفلسة وإلى منافقة كالسة ، وذلك إلى آية الضرار والتقوى (١٠٨).

والمقطع السادس والأخير يقرر طبيعة البيعة الإسلامية جهادا في سبيل الله ، وواجب إتباع رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) ، قائدا رسوليا للقوات المسلحة ، وواجب المفاصلة مع المشركين والمنافقين.

ذلك ، والأحكام التي وردت في هذه السورة لحقل الجهاد والسياسة الإسلامية تجاه الأعداء ، هي ـ بوصفها آخر ما نزل من هذه الأحكام ـ تمثل قمة الخط الحركي للمنهج الإسلامي.

فللحركة القرآنية ككلّ سمات وبصمات ، كالواقعية الجديدة في منهجها ، والواقعية الحركية ذات المرحلية حسب مؤاتية الظروف والملابسات ، وأن هذه الحركة ذات البركة الدائبة ، بوسائلها ومسائلها

المتجددة الجادة ، ليست لتخرج هذه الشرعة عن قواعدها الأساسية المحدّدة لها ، وعن أهدافها المستمرة الثابتة المرسومة المرسولة فيها ، ومن ثم الضبط التشريعي الدقيق لكل العلاقات في مختلف الحقول بين الكتلة المسلمة وسائر الكتل.

فهذه قواعد أربع لصرح الإسلام ، صارحة صارخة في كافة الميادين ، وثابتة لا تتزعزع.

ذلك ، وفي تقدمة ذلك الأذان البراءة إلى المشركين بعد الفتح وقبل حجة الوداع تعبيد لسبيل طهارة البلد الأمين عن هؤلاء المشركين ، لكيلا يراهم المسلمون يؤدون المناسك الدخيلة الجاهلية مع المناسك الأصيلة الإسلامية ، تخليصا لمناسك الإسلام بأصحابه ، وتقليصا لمناسك الكفر وأصحابه ، وكما يروى عنه (صلّى الله عليه وآله وسلم) قوله : «إنه يحضر البيت مشركون يطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك» [١].

﴿بَراءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١).

هذه «براءة» صارخة أيها المؤمنون «من الله» إخبارا ومن «رسوله» إخبارا إلى إنشاء يعني أنها براءة مفروضة على الرسول ، حاصلة بفرضها عليه قضية العصمة الرسالية ، ﴿إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أم «براءة» مبتدءة موصوفة ب ﴿مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ وخبرها ﴿إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ﴾ وتنوين التنكير تهويل في هذه البراءة «براءة» حيث نقضوا عهودهم وظاهروا عليكم ، فليست البراءة هذه فوضى ومن دون مبرر ، إنما هي لنقضهم فنقصوا إذا من أصل المعاهدة ﴿إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[٢] وقد روي أن النبي (صلى الله عليه

---

(١) تفسير في ظلال القرآن ٤ : ١١٨.

(٢) الدر المنثور ٣ : ٢١١ عن الزهري في الآية قال : نزلت في شوال فهي الأربعة أشهر شوال وذو القعدة وذوا الحجة والمحرم.

وآله وسلم) لما خرج إلى غزوة تبوك وتخلّف المنافقون وأرجفوا بالأراجيف جعل المشركون ينقضون العهد فنبذ رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) العهد إليهم [(١)].

ذلك ، وهذه البراءة التي من قضاياها ملاحقتهم وقتالهم أينما كانوا وأيان ، ليست إلا بعد أربعة أشهر.

﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكافِرِينَ﴾ (٢).

سماح بعد البراءة أن يأخذوا حريتهم في مكة المكرمة وسواها خلال أربعة أشهر ـ فقط ـ وعلّها ﴿الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ ، شوال ، ذوا القعدة ، ذوا الحجة ـ محرم ، فإنها الأربعة الحرم المعروفة الثابتة ، مما قد يدل على أن هذه الآيات نزلت قبل شوال.

ولأن ذلك الأذان كان ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ فقد تكون هذه الأربعة بادئة من يوم الحج الأكبر : الأضحى أم عرفة فعشرون من ذي الحجة ، وتمام المحرم وصفر وربيع الأول وعشرة من ربيع الثاني ، فهذه أربعة أشهر؟ [(٢)]

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١٦ : ٢١٧.

(٢) نور الثقلين ٢ : ١٨٢ عن تفسير القمي حدثني أبي عن محمد بن الفضل عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) قال : قال أمير المؤمنين (عليه السلام) أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) أمرني عن الله أن لا يطوف بالبيت عريان ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد هذا العام وقرأ عليهم «برائة» فأجل الله المشركين الذين حجوا تلك السنة أربعة أشهر حتى يرجعوا إلى مأمنهم ثم يقتلون حيث وجدوا ، وفيه روى عاصم بن حميد عن أبي بصير عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال : خطب علي (عليه السلام) واخترط سيفه فقال : لا يطوفن بالبيت عريان ولا يحجن البيت مشرك ومن كانت له مدة فهو إلى مدته ومن لم تكن له مدة فمدته أربعة أشهر وكان خطيب يوم النحر فكان عشرون من ذي الحجة ومحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشر من ربيع الآخر ، وفيه عن العياشي عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله (عليه السلام) مثله ، وعنه عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : نزلت هذه الآية بعد ما رجع رسول الله (صلّى الله عليه وآله.

إلا أن الأشهر الحرم المعروفة علّها هي المعنية بطبيعة الحال ، ثم ولا يعبر عن أضغاث أيام من أشهر بأشهر! وليس ﴿أَذانٌ مِنَ اللهِ﴾ هو بداية الإعلان ، إنما هو استمرارية البيان على رؤوس الأشهاد حتى لا تبقى أية حجة.

فقد يجوز أن آية ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ المحددة سيحهم المهددة إياهم قرأت عليهم قبل شوال أم أوله ليأخذوا عدّتهم إما إيمانا فأمانا أم سواه فسواه.

ثم قرأت آية الأذان يوم الحج الأكبر وهو على الأظهر يوم الأضحى أو عرفة.

. وسلم) من غزوة تبوك في سنة تسع من الهجرة ، قال : وكان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) لما فتح مكة لم يمنع المشركين الحج في تلك السنة وكانت سنة من العرب في الحج أنه من دخل مكة وطاف بالبيت في ثيابه لم يحل له إمساكها وكانوا يتصدقون بها ولا يلبسونها بعد الطواف فكان من وافى مكة يستعير ثوبا ويطوف فيه ثم يرده ومن لم يجده عارية ولا كرى ولم يكن له إلا ثوب واحد طاف بالبيت عريانا ، فجاءت امرأة من العرب وسيمة جميلة فطلبت ثوبا عارية أو كرى فلم تجده فقالوا لها : إن طفت في ثيابك احتجت أن تتصدقي بها فقالت : كيف أتصدق وليس لي غيرها؟ فطافت بالبيت عريانة وأشرف لها الناس فوضعت إحدى يديها على قبلها والأخرى على دبرها وقالت شعرا :

اليـــــوم يبـــــدو بعضـــــه أو كلـــــه   فمــــا بــــدا منــــه فــــلا أحلــــه

وكانت سيرة رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) قبل نزول سورة براءة أن لا يقابل إلا من قد قاتله ولا يحارب إلا من حاربه وأراده وقد كان أنزل عليه في ذلك ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ فكان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) لا يقاتل أحدا قد تنحى عنه ومن لم يعتزله إلا الذين قد عاهدهم رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) يوم فتح مكة إلى مدة منهم صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو فقال الله عزّ وجلّ : «براءة أربعة أشهر» ثم يقتلون حيثما وجدوا بعد هذه أشهر السياحة عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشرا من ربيع الآخر ، فلما نزلت الآيات من سورة براءة دفعها رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) إلى أبي بكر وأمره أن يخرج إلى مكة ويقرأها على الناس بمنى يوم النحر فلما خرج أبو بكر نزل جبرئيل على رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فقال : يا محمد لا يؤدي عنك إلا رجل منك ...

وقد تقتضي قضية الحال في ذلك الإعلام والأذان العام أن يكون يوم الحج الأكبر ، حيث يجتمع فيه المشركون مع المسلمين من كل أنحاء الجزيرة - أم وسواها - دون أوّل رجب أم قبله ، ولتتم الحجة على المشركين ، فهذه الأربعة الحرم - إذا - هي غير الأربعة الشهيرة حيث يحرم فيها القتال ، وقد يؤيده ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أولا منكرة ، ثم وظاهرها التتابع ولا تتابع بين الأربعة الشهيرة ، وإن لحقتها ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ حيث تعنيها منذ يوم الحج الأكبر.

ولأن «الشهر» هي حسب المتعود ثلاثون يوما ، فالأربعة الحرم هنا مائة وعشرون يوما منذ عرفة أو الأضحى إلى العاشرة أو الحادية عشر من ربيع الثاني.

ثم الأربعة الحرم المعروفة لها حكمها على طول الخط لكافة المكلفين ، دون هذه الأربعة الخاصة بذلك الموقف المخصوص بذلك الأذان.

إذا فالأرجح - على الأشبه - هو الأربعة الحرم البادءة - هنا - من يوم الحج الأكبر ، دون الحرم العامة وهي «رجب - شوال - ذو القعدة - ذو الحجة».

ف «رجب» خاصة لخاصة العمرة والثلاثة الباقية للحج ، أم «المحرم» بديلا عن «شوال» ولكل رواية وعلى أية حال ف «تلك أربعة حرم» ظاهرة في المتواصلة وهي الأربعة الأخيرة.

فهذه الأربعة الحرم ، أمان على طول الخط ، اللهم إلا للذين حاربوا فيها فواجب الدفاع قدره ، وتلك أمان مؤقت لتلك الأربعة في تلك السنة الخاصة.

«فسيحوا» أيها المشركون الناقضون للمعاهدة «في الأرض» : العاصمة وسواها حرما وسواه ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ ثم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ﴾ فيها أم في سواها ﴿وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكافِرِينَ﴾ حيث لا يفلت عنه قالت ولا يفوت عنه فائت.

﴿وَأَذانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾(٣).

تلك البراءة كانت موجهة ـ فقط ـ إلى المشركين الناقضين ، وهذا الأذان إعلام عام «إلى الناس» موحدين ومشركين لكي يعرف كلّ واجبه ويحسب حسابه.

فما هو ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾؟ ﴿الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ علّه هو الذي بعد العمرة احتسابا لها بالحج الأصغر ، وكما يروى عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) قوله : العمرة الحج الصغرى [١] ، أم ولأن في ذلك الحج اشترك لمرة أخيرة المسلمون والمشركون معا [٢] ، ثم اختص الحج بالمسلمين على طول الخط.

ولأن الحج لم يسمّ بالأكبر إلّا هنا ، ثم هو «الحج» مع العمرة في ﴿أَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ﴾ (٢ : ١٩٦) مهما كان ﴿حِجُّ الْبَيْتِ﴾ (٣ : ٩٧) وما أشبه حيث تأتي دون عمرة تشملها معه.

إذا فالحج الأكبر قد يعني ذلك الحج المشترك بما فيه من موقف خاص وملابسات هامة قد تنجر إلى حرب بين الفريقين ، ويومه ـ ككل ـ يوم عرفة أو الأضحى [٣] ولكن من البعيد جدا أن يوصف الحج بالأكبر

---

(١) ايات الأحكام للجصاص ٣ : ٩٩.

(٢) نور الثقلين ٢ : ١٨٥ في العلل عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال قال أمير المؤمنين (عليه السلام) كنت أنا الأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر .. وإنما سمي الأكبر لأنها كانت سنة حج فيها المسلمون والمشركون ولم يحج المشركون بعد تلك السنة.

(٣) المصدر (١٨٥) عن معاني الأخبار عن أبي عبد الله (عليه السلام) يقول : الحج الأكبر يوم النحر.

وفي مفتاح كنوز السنة عنه (صلّى الله عليه وآله وسلم) نقلا عن بخ ـ ك ٥٨ ب ١٦ ، مس ـ ك ١٥ ح ٤٣٥ ، بد ـ ك ١١ ب ٦ ، تر ـ ك ٧ ب ١١٠ ، ك ٤٤ سورة ٩ ح ٣ و ٤ ، عد ـ ج ٢ ق ١ ص ١٣٢ ، حم ـ ثالث ص ٤٧٣ ..

لمشاركة المشركين فيه ، إذا ففي منعهم بعد عامهم هذا يصبح الحج هو الأصغر ، فالحج الأكبر هو الذي يقابل العمرة ، ويومه البارز هو بين عرفة ويوم النحر ، ولأن «الحج عرفة» ومن فاتته فقد فاته الحج دون يوم النحر ، فالأشبه أن ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ هو عرفة.

هذا وقد سمي الإمام علي (عليه السلام) ـ بين أسماءه ـ بالأذان لأنه كان حامل ذلك الأذان كما في روايات عدة.

﴿فَإِنْ تُبْتُمْ﴾ عن الإشراك بالله توحيدا لله ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ يقابل شرا لكم ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن التوبة ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ﴾ بإشراككم ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إشراكا وسواه ﴿بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة ، وإذا كانت هذه بشارة لهم فما هو ـ إذا ـ إنذارهم؟

وترى لماذا «رسوله» رفعا وهو معطوف على «الله» المنصوب ب «أن»؟

لأن «رسوله» جائز الوجهين أدبيا عطفا على المحل فرفعا أو اللفظ فنصبا ، والرفع أولى معنويا رفعا لساحة الربوبية في تلك البراءة ، وجعلا لبراءة «رسوله» على الهامش وكما فصل «رسوله» عن الله بالخبر وظرفه ، لذلك فالأرجح هنا كما هو رفع «رسوله». فلا بد ـ إذا ـ من الاستكفاء بالقرآن :

ـ وفي تفسير الفخر الرازي ١٥ : ٢٢١ يوم الحج الأكبر يوم عرفة وهو قول الشعبي والنخعي والسدي وإحدى الروايتين عن علي وقول المغيرة بن شعبة وسعيد بن جبير ، وعن علي (عليه السلام) أن رجلا أخذ بلجام دابته فقال ما الحج الأكبر ، قال : يومك هذا وعن ابن عمر ان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وقف يوم النحر عنه الجمرات في حجة الوداع فقال : هذا يوم الحج الأكبر ، وعن المسور بن مخرمة عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) انه قال : خطب رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) عشية عرفة فقال : أما بعد فإن هذا يوم الحج الأكبر.

وفي ملحقات إحقاق الحق ٤٢٧ ـ ٤٣٩ ـ أخرج حديث الأذان لعلي (عليه السلام) عن ستة وأربعين من إخواننا السنة فراجعه.

و «من استكفى بالله من القرآن من المشرق إلى المغرب كفي إذا كان بيقين» [١].

ذلك ، وحين يسأل رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) : حدثنا بما لنا فيه نفع ، يقول : «إن أردتم عيش السعداء ، وموت الشهداء ، والنجاة يوم الحشر ، والظل يوم الحرور ، والهدى يوم الضلالة فادرسوا القرآن ، فإنه كلام الرحمن ، وحرز من الشيطان ، ورجحان في الميزان» [٢].

و «يقول القرآن ـ يوم القيامة لأهله ـ : أنا الذي أسهرت ليلك وأنصبت عيشك ، سمعت الأذى ورجمت بالقول في ، ألا وإن كل تاجر قد استوفى تجارته وأنا وراءك اليوم»[٣].

و «حملة القرآن ، المخصوصون برحمة الله ، الملبسون نور الله ، المعلمون كلام الله ، المقربون عند الله ، من والاهم فقد والى الله ، ومن عاداهم فقد عادى الله» [٤].

و «إن أهل القرآن في أعلى درجة من الآدميين ما خلا النبيين والمرسلين ، فلا تستضعفوا أهل القرآن حقوقهم بأن لهم من الله لمكانا عليا» [٥] و «فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه» [٦].

---

(١) مشكلات الأخبار (٢ : ٢٦٠) عن أبي إبراهيم (عليه السلام).

(٢) المصدر (٩) عن معاذ بن جبل قال : كنا مع رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) في سفر فقلت : حدثنا.

(٣) المصدر (١٠) عن الكافي ٢ : ٤٣٦ عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال : تعلموا القرآن فإن القرآن يأتي يوم القيامة في أحسن صورة نظر إليها الخلق والناس صفوف عشرون ومأة ألف صف ، ثمانون ألف صف أمة محمد (صلّى الله عليه وآله وسلم) وأربعون صف من سائر الأمم.

(٤) المصدر (٢٥) الوسائل ٤ : ٨٣١ ـ الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) في تفسيره عن آباءه عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) :

(٥) المصدر (٢٥) عن الكافي ٢ : ٤٤١ عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) :

(٦) المصدر (٢٧) المستدرك ١ : ٢٨٨ عن شهر بن حوشب قال قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) :

وآيات القرآن خزائن العلم فكلما فتحت خزانة ينبغي لك أن تنظر ما فيها [١].

ذلك هو القرآن الذي نؤمر باتباعه على مدار الزمن ، وما أظلمه وأجهله من يفترى عليه التحريف والتجديف ، وإليكم رواية عن عالمين علمين ينقلان قصة رثّة مزرءة عمن ألف كتابا حول تحريف القرآن وعوذا منه ومن أضرابه بالله ما أجهلهم وأغفلهم عن ناموس الإسلام وعصمته [٢].

---

(١) المصدر (٦٤) عن الكافي ٢ : ٤٤٦ عن حفص بن غياث عن الزهري قال سمعت علي بن الحسين (عليهما السلام) يقول :

وفيه (٦٦) عن الشهيد الثاني في أسرار الصلاة قال قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) لابن مسعود : اقرأ علي ، ففتحت سورة النساء فلما بلغت : ﴿**فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً**﴾ رأيت عيناه تذرفان من الدمع فقال لي : حسبك الآن وقال (صلّى الله عليه وآله وسلم): «اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ولانت عليه جلودكم فإذا اختلفتم فلستم تقرؤنه».

(٢) أحدهما المرجع الديني السيد شهاب الدين المرعشي النجفي دام ظله ، قال لي : إن المرحوم حيدر قلي خان المعروف ب «سردار كابلي» وهو من أعاظم العلماء الجامعين بين الدراسات الإسلامية والعصرية ، طلب منه المغفور له المرجع الأعظم السيد البروجردي أن يأتي إلى قم ليستفاد منه في الحوزة حول العلوم العصرية والكتب السماوية وما أشبه فأجابه ، وفي يوم من أيامه الأولى أتى إلى بيتي ، ولأنه كان من تلامذة الحاج ميرزا حسين النوري صاحب مستدرك الوسائل ، بهذه المناسبة سألته ، ماذا حمل أستاذكم على تأليف كتابه : (فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب) الذي هو مزرءة مخجلة بالكتاب العزيز ، وذريعة للنقد والتهجم عليه من قبل المعاندين؟ فمكث هنيئة يبكي ، فقلت له : هل أسأت الأدب في سؤالي هذا؟ قال : لا ، ولكن خطر ببالي خاطرة خطيرة مزعجة عن سبب تأليف هذا الكتاب ، وهي أنني كنت ممن يساعد الشيخ في جمع المسانيد لكتابه: مستدرك الوسائل ، فإذا حضر سيد معمم هندي وسلم عليه وقال : أيها الشيخ الجليل هل كان اسم إمامنا أمير المؤمنين (عليه السلام) في القرآن؟ قال : نعم ولكنهم حذفوه عنه ، قال : أفهكذا يظلم إمامنا وأنتم ساكتون؟ أترجّى منكم بكل إصرار أن تكتبوا لي كل يوم صفحة مما جرى على ضوء رواياتنا حول ما نقص عن القرآن حتى تثلج صدورنا بما كان .

. فيه من فضائله (عليه السلام) ونزداد له حبا ، فأجابه الشيخ وكان يأتيه كل يوم ويأخذ صفحة مما كان يجمع الشيخ من موارد التحريف ويستنسخها ويرد الأصل إليه حتى تم الكتاب باسم «فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب» ثم غاب ولم يرجع ، واتفق لي أنني راجعت السفارة البريطانية في بغداد لأخذ تأشيرة السفر إذ كانت العراق يومذاك تحت السلطة البريطانية ، فرأيت واحدا من أعضاء السفارة ينظر إلي نظرة قاصدة متكررة ، فأصبحت أنظر إليه وتلمّحت أنني رأيته من ذي قبل ، فسلّم علي وقال لي : أتعرفني؟ قلت : لا ، قال : أنا السيد الهندي الذي كنت آتي بيت الشيخ وآخذ منه يوميا صفحة من كتاب ﴿فَصْلَ الْخِطابِ﴾ قلت : كيف غيرت زيّك وملابسك ، قال : أنا بريطاني أشتغل في السفارة البريطانية كما تراني وقد كنت مأمورا بما حصلت عليه من الشيخ فحصل المقصود تماما ،

يقول السردار كابلي : ولما أنتشر خبر هذا الكتاب . وقد أخذه الشيخ رضا المكتبي المسجد شاهي في سفرته إلى النجف ليطبعه . أخذت الهجمات تتوارد على الشيخ بكل تشنيع وتقبيح من علماء العراق وإيران ، وقد طبع الكتاب وقتئذ ، فاضطر الشيخ أن يطلب من رئيس الوزارة الإيرانية وقتذاك «أتابك» أن يمنع عن نشره وفور وصول الخبر أمر أتابك أن تحبس نسخ الكتاب في غرفة وتسكّر حتى يفنيها عن آخرها ، فصادف بعد أيام أن قتل أتابك ثم اغتنم الشيخ رضا الكتبي الفرصة ففتح الغرفة بحيل ورشى فنشرها ، حرصا على متعة الحياة الدنيا.

وثانيهما المغفور له صاحب «الذريعة إلى تصانيف الشيعة» الشيخ آغا بزرگ الطهراني وهو من أكابر العلماء المحدثين ، سألته يوما ما . حيث كنت أراجعه في بيته لاستعارة كتب حول التفسير وغيره عند ما نزلت النجف الأشرف بعد ما تخلصت عن السجن المكي عام ١٣٤ . فقلت ماذا حمل أستاذكم على تأليف كتاب «فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب» وكان مما استعرته منه نفس الكتاب بخط الشيخ النوري؟ قال : وأنا ممن سألته عن ذلك فأجاب : رأيت روايات أهل البيت (عليهم السلام) منتشرة في مختلف الكتب فأحببت أن أجمعها في مؤلف واحد رغم أنني لا أتأكد تحريف الكتاب ، قلت : كيف يجمع الشيخ ما لا يتأكد من صحته ، فهل كان يسمح الشيخ لنفسه أن لو انتشرت بين الناس فرية على زوجته أن يجمعها في مؤلف يطبع وهو لا يتأكد ، بل ويتأكد من أن هذه الفرية؟! ثم قلت : أنه كرس شطرا من عمره في جمع هذه الأحاديث من مثل بستان المذاهب وسواه من المختلقات الزور ، واجتهد في نقل متونها بأسانيدها والكتب المنقولة هي عنها ، ولكنه لا يستدل بآية الذكر ردا على من يستدل بها بصيانة القرآن عن التحريف يكتبها هكذا ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ ثم يقول : من الذكر المنزل الرسول لقوله .

﴿إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾(٤).

تلكم البراءة الربانية والرسولية خاصة بالذين نقضوا عهدهم من المشركين ، أما القائمون بعهدهم إلى مدتهم ، غير الناقضين له ولا المظاهرين عليكم عدوا ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ومن التقوى أن يتقى نقض عهد غير منقوض مع المشركين فضلا عمن سواهم!

إذا فمن الطغوى نقض العهد أو نقصه ، فالعهد الصالح أيا كان لا ينقض ولا ينقص من قبل المؤمنين مهما بلغ الأمر فيه ، ما لا ينقضه أو ينقصه المعاهد : ﴿فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ فمن الخيال الخاوي والاستهواء الواهي سماح نقض العهد منّا مع المسلمين لصالح الدولة الإسلامية! فهل من صالح الإسلام أن ينقض حكم من أحكامه وفيه انقضاض ظهره وانفضاض المدعوين إليه عنه؟!

فالعهد الإسلامي محترم على أية حال مع غير المسلمين فضلا عن المسلمين ، وهو محترم مع الذين ينقضون عهدهم ف ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ

. تعالى : ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَسُولاً﴾ رغم أن الآية هي ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ تأكيدات تسع حول الحفاظ على الذكر المنزّل ـ لا المنزل ـ إذ إن «نزلنا» تعني تدريجية النزول فلا تعني الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) نفسه بل هو القرآن حيث تدرج نزوله عليه؟ قال : نعم ، ولكنه لم تكن له فرصة تتيح له أن يراجع القرآن ، قلت : أجل كانت فرصة متاحة لجمع هذه الأساطير نقضا لعصمة القرآن ، فلم تبق له فرصة لمراجعة القرآن حتى ينقل الآية التي يعني نقض دلالتها على صيانة القرآن كما هي في القرآن!!!

قال صاحب الذريعة فهو على أية حال ما كان قائلا بتحريف القرآن وقد كتب كتيّبا حول صيانة القرآن عن التحريف وذكر فيه انني ما أرضى أن يطالع ﴿فَصْلَ الْخِطابِ﴾ قبل إلا أن يطالع رده ، فقلت له : وا فضيحتاه من اعذار الشيخ وأفاعيله!.

﴿فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ﴾ (٨ : ٥٦).

وكل عهد على ضوء شرعة الله هو عهد الله ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ. وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (١٦ : ٩٢). ﴿وَما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ﴾ (٧ : ١٠٢).

ولأن ذلك الاستثناء راجع إلى «براءة» ـ أوّلا ـ المستثنى منه ، إذا فلا براءة إلى المعاهدين غير الناقضين ولا غير المظاهرين علينا عدوا ، وأما غير المعاهد فتشمله البراءة مهما كانت أخف من المعاهد الناقض ، والنص هذا يختص البراءة هذه ـ الخاصة ـ ب ﴿الَّذِينَ عاهَدْتُمْ﴾ إعلانا جاهرا بحرب ضارية لا مردّ عنها.

وقد يعم ذلك الاستثناء كلا من «براءة ـ فسيحوا ـ واعلموا ـ وأذان» فالمشرك المعاهد المتعهد خارج عن كل هذه الأربعة ، فلا براءة من الله إليه ، ولا سيح محدودا في الأرض أربعة أشهر عليه ، ولا تنديد به ولا إخافة وإنذار ، وإنما ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ﴾ و ﴿فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾.

ثم و ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ يختص بناقضي العهد المظاهرين ، أم ويعم غير المعاهدين أيضا إذا أصروا على مواصلة الكفر الضاري المفتتن.

وترى النقض المستنكر المهدّد به هنا يختص بنقض الصلح أن يحاربوهم صراحا؟ و «شيئا» بعد «عاهدتم» تستغرق التهديد بأي نقض لأي جزء من العهد ، حربا أم تخلفا آخر كدعاية ضد الإسلام وهي أنقض النقض ، واستمرار لتطبيق سنن الجاهلية في البيت الحرام.

ومظاهرة عدو كنقض عهد تشمل كافة ألوان المظاهرات ، حربية ودعائية أماهيه من مظاهرات تضعف ساعد الإسلام أو مساعده.

إذا فقد ينقض العهد بنقض أو نقص شيء منه مما قل منه أو كثر ، حيث يدل على عدم الالتزام بالهدنة المقررة.

﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥).

هناك «إلى مدتهم» تحدد سلبية البراءة للمعاهدين ، فمن مدتهم ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ المقررة لهم ، كما منها المدد الأخرى التي علّها كانت مقررة لهم ، ولكن ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ﴾ تختص المدة المقررة بالأشهر الحرم.

﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ وهم أعم من المعاهدين إلى مدة ناقضين وغير ناقضين ، ومن غير المعاهدين ، حيث ﴿الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ هي المدة المقررة لهم أجمع ، ولأنهم كانوا ملزمين منذ الفتح بالإسلام استسلاما وسواه ، إذا فبارز الإشراك بالله بعد الفتح محظور يهدد صاحبه بالقتل بعد انسلاخ الأشهر الحرم.

وهنا حصار مربع عليهم في حقل التضييق عليهم لا لفتة عنها ولا فلتة منها :

﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ في الحرم وسواه مهما كان كونهم في الحرم أحرم.

«وخذوهم» حين يفلّون عن المآخذ ، ثم ٣ «واحصروهم» في المحاصر لكي تقتلوهم ، وأخيرا ٤ ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ تضييقا عليهم كافة مجالات الحرية ولا سيما في البلد الحرام ، وكل ذلك إلزاما عليهم بما التزموا به منذ الفتح من إسلامهم ثم نقضوه ، ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ عن إشراكهم بالله وإن في ظاهر الحال ، ثم ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ كقمة من الصلات مع الله قضية ظاهرة التوحيد ، ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ صلة مع أهل الله في الصدقات ، إذا ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ دونما نقمة عليهم لما سبق منهم ، ف ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ لهم «رحيم» بهم ، حيث القصد من هذه التضييقات هو توبتهم إلى الله وقد حصلت ، مهما كانت توبة إسلام الاستسلام نفاقا ، أم لما يدخل

الإيمان في قلوبهم ، فضلا عن داخل الإيمان ، حيث إن سبيل الإيمان هي الخطوة الخطوة.

ذلك ، ولقد هددهم رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) حيث «افتتح مكة ثم انصرف إلى الطائف فحاصرهم ثمانية أو سبعة ثم ارتحل غدوة وروحة ثم نزل ثم هجر ثم قال : أيها الناس إني فرط لكم وإني أوصيكم بعترتي خيرا موعدكم الحوض والذي نفسي بيده لتقيمن الصلاة ولتؤتن الزكوة أو لأبعثن عليكم رجلا مني أو كنفسي فليضربن أعناق مقاتلهم وليسبين ذراريهم فرأى الناس أنه يعني أبا بكر وعمر فأخذ بيد علي رضي الله عنه فقال : هذا» (١).

إذا فإقام الصلاة وإيتاء الزكاة هما أصلان أصيلان من فروع الدين ، بعد أصوله الأصيلة ، فكما لا يخلى سبيل المشرك عن ضابطة «اقتلوا و» كذلك تارك الصلاة أو الزكوة ، فقد «حرمت هذه دماء أهل القبلة» (٢) وقد يأتي نبأه الفصل بعد حين.

هنا ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ وهناك ﴿قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ (٢ : ١٩٣) تحكمان بأن هنا للإسلام سيفا «شاهرة لا تغمد حتى تضع الحرب أوزارها ولن تضع الحرب أوزارها حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت الشمس من مغربها أمن الناس كلهم في ذلك اليوم» (٣).

---

(١) الدر المنثور ٣ : ٢١٣ ـ أخرج الحاكم وصححه عن مصعب بن عبد الرحمن عن أبيه قال : افتتح رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) مكة وفيه أخرج ابن سعد عن عبد الرحمن بن الربيع الظفري وكانت له صحبة قال : بعث رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) إلى رجل من أشجع تؤخذ صدقته فجاءه الرسول فرده فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) : اذهب إليه فإن لم يعط صدقته فاضرب عنقه.

(٢) المصدر أخرج أبو الشيخ عن الحسن ﴿فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ﴾ قال : حرمت وفيه أخرج أبو الشيخ عن قتادة في الآية قال : فإنما الناس ثلاثة نفر ، مسلم عليه الزكوة ومشرك عليه الجزية وصاحب حرب يأتمن بتجارته إذا أعطى عشر ماله.

(٣) نور الثقلين ٢ : ١٨٧ في تهذيب الأحكام عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : سأل.

أجل «اقتلوا» حين لا علاج لهؤلاء المفتتنين إلّا القتل ، فآخر الدواء الكي ، قتلا عاقلا عادلا للحفاظ على الأهم في قسطاس الحق بين الجماهير ، و «حيث» هنا تعم قتلهم إلى كل مكان حتى الحرم ، وكل زمان حتى الأشهر الحرم المعروفة.

ذلك ، وفي الحق لا يعني القتال في حقل الإسلام إلا الدفاع عن الحق والوقاية له ، رعاية لعادلة السنة الإسلامية في القتال ، فقد «كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا أراد أن يبعث سرية دعاهم فأجلسهم بين يديه ثم يقول : سيروا بسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا تغلوا ولا تمثلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا شيخا فانيا ولا صبيا ولا امرأة ولا تقطعوا شجرا إلا أن تضطروا إليها وأيما رجل من أدنى المسلمين أو أفضلهم نظر إلى رجل من المشركين فهو جار يسمع كلام الله فإن تبعكم فأخوكم في الدين وإن أبى فأبلغوه مأمنه واستعينوا بالله عليه» (١).

ثم وليس قتال المشركين إلّا بعد الدعوة الظاهرة الجاهرة المقنعة لحدّ تقطع الأعذار ، فإن تمنّعوا عن قبول الدين الحق فهم ـ إذا ـ معاندون مفتتنون ، فهنالك الدفاع عن الحق ذودا عن الفتنة المعاندة.

ـ رجل أبي عن حروب أمير المؤمنين (عليه السلام) ـ وكان السائل من محبينا ـ فقال له أبي : إن الله تعالى بعث محمدا (صلّى الله عليه وآله وسلم) بخمسة أسياف ثلاثة منها جاهرة لا تغمد إلى فيومئذ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا ، وسيف منها ملفوف وسيف منها مغمود سلّه إلى غيرنا وحكمه إلينا ، فأما السيوف الثلاثة الشاهرة فسيف على مشركين العرب قال الله تبارك وتعالى ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ... فَإِنْ تابُوا﴾ يعني فإن آمنوا فإخوانكم في الدين ، فهؤلاء لا يقبل منهم إلّا السيف والقتل أو الدخول في الإسلام ، وما لهم في ذراريهم سبي على ما أمر رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فإنه سبى وعفا ، وقبل الغداء.

(١) المصدر في الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن معاوية بن عمار قال : أظنه عن أبي حمزة الثمالي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : كان نور رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم):

وليست الحروب الإسلامية ـ على أية حال ـ لتعني تفتّح البلاد ، أو حمل أهليها إكراها على الدين ، إذ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ هي ضابطة عامة لا تستثنى ، وإنما تعني تفتّح القلوب ، أو الذود عن فتنة المؤمنين بالله أو المستضعفين ، «والفتنة أكبر ـ أشد ـ من القتل» فالفتنة التي هي أشد وأكبر من القتل هي من حقوق الدفاع ، وبأحرى من فتنة القتل.

ومن وصايا الإمام علي (عليه السلام) في سنة الحرب : «لا يحملنكم شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم» (الخطبة ٢٥١) و «لا تقاتلوهم حتى يبدءوكم ، فإنكم بحمد الله على حجة ، وتركك إياهم حتى يبدءوكم حجة أخرى لكم عليهم» (٢٥٣) ولقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه ، وقلبت ظهره وبطنه ، فلم أر لي فيه إلا القتال أو الكفر بما جاء به محمد (صلّى الله عليه وآله وسلم) ، (٤٣) ـ «فو الله ما دفعت الحرب يوما إلا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي ، وتعشو إلى ضوئي ، وذلك أحب إلي من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها» (٥٥).

ويقول لابنه الحسن (عليه السلام): «لا تدعون إلى مبارزة ، وإن دعيت إليها فأجب ، فإن الداعي باغ والباغي مصروع» (٢٣٣ ح) [1].

ذلك ، وهنا ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ مشروط بمثلث التوبة وإقام الصلاة وإيتاء الزكوة ، إذا فهلا نخلّي سبيلهم عن القتال إن تابوا ولم يصلوا أم لم

---

(١) ويكتب إلى أهل الأمصار إعذارا لقتال في صفين : «وكان بدء أمرنا أنا التقينا والقوم من أهل الشام ، والظاهر أن ربنا واحد ونبينا واحد ودعوتنا في الإسلام واحدة ، ولا نستزيدهم في الإيمان بالله والتصديق برسوله ولا يستزيدوننا ، الأمر واحد إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان ونحن منه براء ، فقلنا : تعالوا نداو ما لا يدرك اليوم بإطفاء الثائرة وتسكين العامة حتى يشتد الأمر ويستجمع ، فنقوى على وضع الحق مواضعه ، فقالوا : بل نداويه بالمكابرة ، فأبوا حتى جنحت الحروب وركدت ، ووقدت نيرانها وحمست ، فلما ضرستنا وإياهم ووضعت مخالبها فينا وفيهم أجابوا عند ذلك إلى الذي دعوناهم إليه فأجبناهم إلى ما دعوا ، وسارعناهم إلى ما طلبوا ، حتى استبانت عليهم الحجة وانقطعت منهم المعذرة» (٢٩٧).

يزكوا؟ وقتال تارك الصلاة أو الزكوة غير وارد في الإسلام على المسلمين.

قد تكون الصلاة والزكوة ـ وهما ركنان ركينان بين فروع الدين ـ أمارتين لصادق الإيمان ، حيث القصد من التوبة هو صالحها وواقعها دون الإقرار ـ فقط ـ بالشهادتين.

إذا فهل نخلّي سبيل التائب التارك لهما حين نتأكد التوبة؟ وهذا خلاف النص المقيّد تخلية سبيلهم بكل هذه الثلاثة! أم نقاتله؟ وهو غير وارد إسلاميا!

وقد يقال إن ملاحقة التائب التارك لهما أو لأحدهما هي قضية مفهوم الشرط ولا حجة فيه؟ ولكنه ـ أولا ـ إذا كان مفهوما فهو حجة لكونه مفهوما من وجه الخطاب ، ثم «اقتلوا» لم تستثن إلا في وجه ذلك المثلث ، فهو إذا تمسك بالعموم لا المفهوم.

ولكن ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ تضيّق نطاق القتل بحالة الإشراك ، فإذا تابوا عنه فلا إشراك حتى يعمه «اقتلوا» ، إذا ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ بعد الشرطين الأخيرين هي التخلية الكاملة ، ألا تتعرضوا لهم بشيء ، فهي دونهما تقتسم حسب انقسام الثلاثة ، تخلية عن قتلهم بالتوبة عن إشراكهم ، ثم تخلية عن سائر التعرض لهم إن ﴿أَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ﴾.

فقد نلاحقهم لا فقط لإشراكهم ، بل ولتركهم هامة الفروع ، فلنخل سبيلهم عند التوبة في ملاحقة القتل ، ثم سائر السبيل عند إقام الصلاة وإيتاء الزكوة في سائر الملاحقات المحلّقة على تاركي المفروضات وفاعلي المرفوضات.

فقد انقسمت تخلية سبيلهم حسب أقسام التوبة ، تخلية لسبيل الحياة بالتوبة ، وتخلية لسائر الحرية فيها بالأخيرين ، فإن تركوا الأخيرين أو أحدهما تبقى الملاحقة لغرض الحمل عليهما باقيا ، فهذه الثلاث بالنسبة لمن ظل مشركا ملاحقة للقتل ، ثم لمن تاب وهو تارك للعمودين ملاحقة

لسائر المضايقات حملا عليهما من باب الأمر بالمعروف المفروض بمراتبه.

ثم وقتل المسلم لتركه الصلاة أو الزكوة يحتاج إلى قاطع الدليل (١)

---

(١) الدر المنثور ٣ : ٢١٣ . أخرج ابن سعد عن عبد الرحمن بن الربيع الظفري وكانت له صحبة قال : بعث رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) إلى رجل من أشجع تؤخذ صدقته فجاءه الرسول فرده فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) اذهب إليه فإن لم يعط صدقته فاضرب عنقه ، وفي آيات الأحكام للجصاص ٣ : ١٠١ روى معمر عن الزهري عن أنس قال لما توفي رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) ارتدت العرب كافة فقال عمر يا أبا بكر أتريد أن تقاتل العرب كافة ، فقال أبو بكر إنما قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) إذا شهدوا أن لا إله إلّا الله وأن محمدا رسول الله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكوة منعوني دماءهم وأموالهم ، والله لو منعوني عقالا مما كانوا يعطون إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) لقاتلتهم عليه ، وفيه روى مبارك بن فضالة عن الحسن قال : لما قبض رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) ارتدت العرب عن الإسلام إلا أهل المدينة فنصب أبو بكر لهم الحرب فقالوا : نشهد أن لا إله إلّا الله ونصلي ولا نزكي ، فمشى عمر والبدريون إلى أبي بكر وقالوا : دعهم فإنهم إذا استقر الإسلام في قلوبهم وثبت أدوا ، فقال : والله لو منعوني عقالا مما أخذ رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) لقاتلتهم عليه وقاتل رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) على ثلاث : شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكوة وقال الله تعالى : ﴿فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ والله لا أسأل فوقهن ولا أقصر دونهن ، فقالوا له : يا أبا بكر نحن نزكي ولا ندفعها إليك ، فقال : لا والله حتى آخذها كما أخذ رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وأضعها مواضعها ، وروى حماد بن زيد عن أيوب عن محمد بن سيرين مثله ، وفيه روى الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن أبي هريرة قال : لما قبض رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) واستخلف أبو بكر وارتد من ارتد من العرب بعث أبو بكر لقتال من ارتد عن الإسلام فقال له عمر يا أبا بكر ألم تسمع رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) يقول : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : ﴿لا إِلهَ إِلَّا اللهُ﴾ فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله؟ فقال : لو منعوني عقالا مما كانوا يؤدونه إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) لقاتلتهم عليه.

وفيه ١٣ عن أنس بن مالك قال قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم): من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته وحده لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكوة فارقها والله عنه راض.

وليس ، وقد يبعده ـ إضافة إلى ذلك ـ أن أهل الكتاب غير داخلين في «اقتلوا» وهم تاركوا الصلاة والزكوة وكل الواجبات الإسلامية؟ فكيف يقتل المسلم لتركه إياهما؟

ولكن المرجو من المسلم غير المرجو من غيره كتابيا وسواه ، إلا أنا نجدد السؤال بالنسبة لمن هو مسلم يقيم الصلاة ويؤتي الزكوة ثم يتركهما فهل يقتل بذلك؟ ودون إثباته خرط القتاد!

ذلك ، وقد يعني ﴿وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ﴾ بعد أن «تابوا» الإعتقاد بوجوب الصلاة والزكوة ، ثم وتطبيقهما دليل ذلك الإعتقاد ، فالذي يتوب عن الإشراك ثم لا يقيم الصلاة ولا يؤتي الزكوة ، لا يعلم منه أنه ـ حقا ـ تاب ، إذ ليست لفظة التوبة هي التوبة ، إنما هي الرجوع عن عقيدة الإشراك ، ثم يعلم ذلك الرجوع بإمارة هامة لتلك العقيدة هي إقام الصلاة وإيتاء الزكوة كرأسين أصليين لزوايا الإيمان عمليا.

فقصارى المستفاد من الآية وجوب قتال المشركين ، ومن تاب عن إشراكه هو خارج عن «المشركين» فلا قتل إياه ، ثم ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ المشروط «بإقام الصلاة وإيتاء الزكوة» لا يختص بالتخلية من قتلهم ، بل وسائر المذكورات معه ك ﴿خُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ فهذه الثلاثة الأخيرة هي أعم في التائب التارك للصلاة والزكوة ، من القتل ، فيستثنى القتل لخروجه عن الإشراك ، ويبقى الباقي لترك العمودين ، حيث المفروض أخذ تاركهما بكل مأخذ وحصره وقعود كل مرصد له حتى يقيم الصلاة ويؤتي الزكوة ، فإنّ ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ تعني تحريرهم عن كل ما ذكر ، فلم يقل «لا تقتلوهم» حتى تختص التخلية بترك قتلهم ، إنما هو تحريرهم طليقا ، وليس يحرّر طليقا تارك الصلاة والزكوة أيا كان.

ثم وهذا النص قصاراه أنه كان يواجه واقعا متميزا في مشركي الجزيرة يومذاك ، فما كان أحدهم ليعلن توبته ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة إلا وهو يعني الإيمان بالإسلام كله ، إذا فالتارك لهذين العمودين.

حينذاك ـ مع ظاهرة التوبة ، لم يك يعرف منه صالح التوبة ، فقد يكون نفاقا أم وفاقا غير صالح.

إذا فالأشبه أن ترك الصلاة والزكوة دون هذه الملابسات التي تدل على نكرانهما لا يبرّر قتل تاركهما على أية حال ، وما يروى من قتال تاركي الصلاة والزكاة محمول على مواضع النكران لهما ، دون تركهما على إيمان وتصديق تساهلا فيهما وتكاهلا.

ذلك ، ثم المشركون الأفراد الذين لا يجمعهم تجمع جاهلي تصديا للإسلام وتعرضا بأهله قتلا أم إضلالا ، لا يتصدى لهم الإسلام حرب إبادة ، بل ويكفل لهم الأمن ترغيبا لهم ليسمعوا كلام الله ثم يبلغوا مأمنهم تروّيا يمنعهم عن التردي ، وكما يأمر الله سبحانه رسوله بمثل الأمر التالي :

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾(٦).

هنا استجارة المشرك المرفوع عنه الأمان عند الملاحقة للقتال هي موضوع لواجب الإجارة ، لا فحسب ، بل و ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ﴾ حيث الاستجارة قد تلمح بأنه متجرّ عن الحق المرام ، ولا فحسب أيضا بل ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ عند أهليه وربعه ، وطبعا في غير المعسكر المعادي فإنه ليس مأمنا ، و «ذلك» المثلث من الرحمة الرحيمة للمشركين المستجيرين ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾ فعن جهل هم مشركون وان كان جهلا مقصّرا ، والجهل القاصر المطلق لا يتصور في الإشراك بالله ولذلك ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ (٤ : ٤٨) ثم الجهالة العامدة ممن ﴿جَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا﴾ غير مغفور هناك ولا معذور هنا فلا يشمله «استجارك» حيث الإجارة هنا إجارة لعاند عامد لا يرجى منه خير ، اللهم إلّا إذا احتمل خيره أم ـ ولأقل تقدير ـ دفع شره ، فهو أيضا داخل في الإجارة.

وحين تجب إجارة أحد من المشركين عند استجارته ، فبأحرى استجارة المجموعة الشركية ، ولأن «استجارك» طليقة ، فكذلك «أجره

حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه ما منه».

فلا تفتكر أنه قد يخدعك باستجارتك كاذبا فلا تأجره ، بل تأسره ، اللهم إلّا بأكيد الكيد الخطر اللعين المكين ، حيث يعني خطرا على الصف المسلم ، فالأصل ـ إذا ـ هو الإجارة بالاستجارة ، إلا فيما يستثنى حفاظا على الأهم من صالح المجموعة المسلمة.

ولكن ﴿أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أيا كان ، وهو في إجارة قيادة القوات المسلحة ، لا يخشى منه خطر على فرد فضلا عن المجموعة ، فلكي تكون حجة الحق هي العليا قد نجيره لما يستجير ، آمنين عن كيده وميده ، ثم ﴿أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ حيث الموضوع هو طليق الاستجارة فله طليق الإجارة وإبلاغ المأمن.

ذلك ، فاحتمال أن أحدا من المشركين يستجير لكي يستنير يمنع عن ملاحقته ، حيث القصد منها دفع نائرة الفتنة القاطعة ، فحين يرجى زوالها جرا إلى الإيمان والرحمة فلما ذا بعد استمرار الملاحقة (١) ، بل وإذا لا نحتمل فعلّ الواقع الخارج عن الاحتمال يحتمل تحرّيه أو تنبّهه ، بل وإذا نتأكد ألّا خير فيه ولا شرّ.

وهنا ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ﴾ قد تفسر المعني من هذه الاستجارة أنها تقصد التحري عن الحق المرام ، ولكن ﴿حَتَّى يَسْمَعَ﴾ ليس جزاء للشرط ، إنما هو من الغايات الصالحة للجزاء.

ثم إذا يسمع كلام الله لا ينتظر منه فور الإيمان ، بل ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ ليجيد التفكر ويعيد النظر إجالة له دون عجالة حتى يرتكن الإيمان في قلبه ، وهذه العناية الأدبية هي غاية ما يمكن رعايته منها ، تحريا عن

---

(١) في تفسير الفخر الرازي ١٥ : ٢٢٦ نقل عن ابن عباس انه قال : إن رجلا من المشركين قال لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) : إن أردنا أن نأتي الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) بعد انقضاء هذا الأجل لسماع كلام الله أو لحاجة أخرى فهل نقتل؟ فقال علي (عليه السلام) : لا ـ إن الله يقول : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ﴾.

مواضع الاسترشاد فالرشاد ، دون رفض للمستجير زعم أنه كاذب أو محتال ، فالأصل ـ على حائطة ـ صدق المستجير ، ما فيه محتمله ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ﴾.

وهل هذه الإجارة تختص بالرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم)؟ أم ومن يخلفه في القيادة الحربية؟ أم تعم كل المؤمنين المحاربين حين تكون الإجارة صالحة لا تحمل خطرا على جيش الإسلام.

«أجره» بعد خطابات جامعة تصلح خطابا لكل فرد فرد من المؤمنين وكما يروى عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) قوله : «من استجاركم فأجيروه» [(١)] و «يجير على المسلمين أدناهم» [(٢)] حتى «النساء والعبيد» [(٣)].

وهنا ﴿كَلامَ اللهِ﴾ الطليق في صيغته ، لا يعني طليقا منه في محتواه ، إنما هو ﴿كَلامَ اللهِ﴾ الذي يهديه هديا صالحا إلى الله ، فتلاوة آيات الطلاق والعدة وما أشبه ليست لتنفع المشرك ، إنما هي الآيات المبرهنة لتوحيد الله وصدق هذه الرسالة ، حاملة الحكمة والموعظة الحسنة ، فإن لكلّ مجال مقالا ولكل مقال مجال.

فقد خصصت هذه الآية ـ آية : ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ وخصتها بالمعاندين الذين ليسوا ليسمعوا كلام الله تحريا عن الحق ، فإنما هم فاتنون ضالون مضللون صادّون عن سبيل الله حيث يبغونها عوجا ، ولأن الفتنة أكبر وأشد من القتل ف ﴿قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ (٢ : ١٩٣) وعلى ضوء هذه الآية تعرف الحقائق التالية :

١ السمع الصالح لكلام الله للتحري عن الحق يكفي حجة

---

(١) مفتاح كنوز السنة نقلا عن حم ـ ثان ص ٩٩.

(٢) المصدر عن حم ـ ثان ص ٢١٥ و ٣٦٥ ، رابع ص ١٩٧ ، خامس ص ٢٥٠ ، هش ـ ص ٤٦٩ ، قد ـ ص ٣٣٩.

(٣) المصدر بعنوان «إجارة النساء والعبيد» عن بخ ـ ك ٥٨ ب ٩ ، بد ـ ك ١٥ ب ١٥٥ ، تر ـ ك ١٩ ب ٢٦ ، مى ـ ك ١٧ ب ٥٨ ، عد ـ ج ٨ ص ٢١.

للحق ، مما يدل على حجة القرآن البالغة ، الدالة على ربانية آياته ، وأنها دون أي مساعد آخر يرشد السالكين المتحرين عن الحق إليه ، فقيلة أن القرآن لا يفهم إلّا بدلالة وتفسير السنة كأصل ، إنها غيلة وحيلة على القرآن الذي هو بيان للناس ، ولأن المعدات والقابليات مختلفة فعلى القيادة الحربية إسماعه كلام الله لحدّ يقنعه تماما دون أي خفاء لكيلا يبقى له عذر في رفض الحق.

٢ الاستجارة لسمع الحق تفرض على أهله عندها الإجارة الصالحة له ، وإتاحة الفرصة بعده حتى يتروى فيما سمع . كما تشير له «ثم» المراخية لإبلاغه مأمنه . مما يبرهن على أن معرفة أصول الدين ليست إلّا بالاجتهاد قدر الجهد والإمكانية الذاتية ، ثم الاستعانة الاستجارة بمن يعرف الحق بصورة مقنعة ، فلا تعني الاستجارة هنا فقط فسح المجال بين المستجير وبين سماع كلام الله لمكان القصور الذاتي أو الحالي للبعض من المستجيرين ، فعلى أهل الله أن يبينوا كلام الله قدر ما يقنع المستجير.

٣ وبطبيعة الحال لا تعني ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ﴾ مجرد السماع لمجرد الكلام وإن لم يفهم معناه ومغزاه كالذي لا يعرف لغة القرآن ، أو يعرفها ولكنه لا يعرف مغازي الكلام لحد تنتجه صالح النتيجة.

٤ ولأن هذه الآية تحمل فرضا فطريا عقليا صالحا للدعوة الربانية الصالحة التي لا مرد لها ولا حول عنها ، لذلك فلا تتحمل النسخ حيث ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ ولا ملاحقة قبل بيان الحجة وتمامها ، فليست أمثال ﴿قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ مما تنسخ هذه الآية.

٥ ولأن الخطاب هنا يخص الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) في ﴿اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ فقد نتلمح قرن البيان الرسولي إلى بيان القرآن ، الرسالي ، ولمكان ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ﴾ مما يفرض المحاولة الصالحة المقنعة لكامل السمع لكلام الله ، دون مجرد الكلام أيّا كان ومن أيّ كان مهما يحمل كل القرآن ، إنما هو ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً

بَلِيغاً يبلغ إلى شغاف أنفسهم ، فعلى قيادة الجيش الإسلامي هذه الرعاية الشاملة الكاملة الكافلة لإسماع حجة الحق على ضوء كلام الله.

٦ ولأن «استجارك» تفرض السماح لسماع كلام الله ، فكذلك في بدء القتال والملاحقة من المفروض الدعاء الحق قبله بما يقنع ثم القتال ، ف ﴿**إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ الذين لم يسمعوا إلى كلام الله ، أم سمعوا والتهوا ، أم على أية حال لم يقتنعوا أم تمنّعوا عن سماعه ثم استجاروا «فأجره» حيث القصد من القتال توجيههم إلى الله بداية أم نهاية وعلى أية حال ، ف ﴿**لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى**﴾.

ذلك ، فمجرد احتمال أن المشرك في طريق التحري ، ليس فقط ليحرم ملاحقته قتلا أو حصرا ، بل ويسمح للاستغفار له وكما فعله إبراهيم لما سمع آزر يقول ﴿**وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا**﴾ فاستفاد من ذلك أنه يعني مهلة للتفكير فاستغفر له ، ف ﴿**ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ. وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ**﴾ (٩ : ١١٤).

ذلك ، وهل تختص هذه الاستجارة بما تعني سماع كلام الله لمكان ﴿**حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ**﴾؟ طليق «استجارك» يطلقها إلى غير هذا المعنى ، فقد يعني ذلك الإطلاق اغتنام الفرصة في هذا المجال لإسماعه كلام الله ، حيث الاضطرار يحمل الناكر للحق أيا كان ليسمع كلام الله حفاظا على صالحه المقصود من استجارته ، فإذا سمع كلام الله سمع التدبر لا الإدبار ﴿**ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ**﴾ إذ لا يعني من «يسمع» إلّا سمع التفكر والاهتداء دون سواه من سمع لا يغني سامعه شيئا حيث لا يعني الاستنارة به.

فالمشرك المستجير عند الملاحقة يجار على أية حال ﴿**حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ**﴾ سواء أكانت استجارته لذلك أم لسواه ، فإنما القصد هنا

اغتنام هذه الفرصة المتيحة لنا لنسمعه كلام الله ، فإن سمع مؤمنا فإلى جيش الإسلام ، وإن سمع مترددا متروّيا «فأبلغه مأمنه» وإن سمع غير سامع فلم تحصل. إذا. الغاية المعنية من إجارته وهي ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ﴾ فلا إبلاغ إلى مأمنه ، بل هو كسائر المشركين غير المستجيرين ، اللهم إلا إذا لا يشكل خطرا على الصف الإسلامي ، فمجرد استجارته يفرض إجارته.

فالحملة الإسلامية على المشركين ليست حملة إبادة ، بل هي حملة هداية ما وجدت إليها سبيلا ، أم إيقافا لفتنة المشركين.

ذلك ، فقد تشمل ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ المستجير الذي سمع كلام الله ولم يؤمن ، ولكنه لا ينوي محاربة المسلمين على أية حال ، فهذا أيضا ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ فإنما هنا مسرح واحد لقتالهم هو قتالهم أو اغتيالهم أو تضليلهم المسلمين ، وإلّا فلا ملاحقة إلا لاهتدائهم إلى الحق ، وإلا فلا سلب. إذا. معهم ولا إيجاب ، حيث القتال إنما يعني إزالة الفتنة ، نفسية ودعائية ، ولو عني من الاستجارة الاستهداء أم مجال التحري لجيء بلفظه الخاص ، دون الاستجارة العامة ، فمجرد الاستجارة لأي هدف كان إلا الحيلة الخطرة على المسلمين ، إنه موضوع واجب الإجارة ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ﴾.

فيا لهذه الإجارة الرحيمة من قمة عالية وهمة غالية ، حراسة على المشرك لحد إبلاغه إلى مأمنه وهو بعد مشرك ، ما لم يشكّل خطرا على كيان الإسلام والمسلمين ، سواء سمع كلام الله سمع قبول فإيمان ، أو سمع التحري والتروي ، أو سمع الخوف دون تقبل وتروّ ، ولكنه بهذه الاستجارة يعني ابتعاده عن كافة الحزازات ضد الحوزة الإسلامية ، وكل ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾ فالعالمون حق الإسلام المعارضون إياه لا إجارة لهم.

ثم مبدء الإشراك من قضاياه ورزاياه عدم الالتزام بالعهد ، فعلى المسلمين أن يأخذوا حذرهم منهم حالة الصلح كما في حالة الحرب حتى لا يؤخذوا على غرّة.

﴿كَيفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾(٧).

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ عليكم ﴿عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ دون أن تعاهدوهم، وليس لهم مبدء صالح يلزمهم على عهد صالح لصالح المسلمين، اللهم ﴿إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ حاسبين حسابكم في معاهدتهم، وهنا ﴿فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ﴾ في تلك المعاهدة ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ معاملة بالمثل عادلة، قضية تطبيق المعاهدة الإسلامية السليمة ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ إياه عن أية تخلفة في معاهدة وسواها، فلا يحب ـ إذا ـ الناقضين عهودهم وإن مع المشركين القائمين بشروطات المعاهدة، المستقيمين لكم فيها.

فحين يعهد المشركون لكم عهدا أنتم غير قابليه فلا عهد لهم عند الله وعند رسوله، فضلا عما لا يعهدون، وأما إذا عاهدتموهم ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ أم سواه، فاستقيموا لهم ما استقاموا ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وهنا ضمير الجمع راجع إلى «المشركين» دون خصوص ﴿الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ لأن ﴿فَمَا اسْتَقامُوا﴾ ضابطة لا تنحصر في الآخرين، وأن الأولين هم ركن الكلام.

وغير صحيح أن غيرهم إذا استقاموا لم تجب الاستقامة لهم لأن معاهدتكم إياهم ليست عند المسجد الحرام، فلا أن صالح المعاهدة يختص بالمسجد الحرام، ولا أن رعاية العدالة خاصة بهؤلاء المعاهدين في ذلك المكان الخاص، وهنا المقصود صلح الحديبية فقد عنى المسجد الحرام كله.

ذلك ومن قبل ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ يسلب الاستقامة لعهدهم حين لا يستقيمون، ثم يفرضها حين يستقيمون كالذين عاهدتم عند المسجد الحرام، فالعهد المستقيم لزامه الاستقامة قدرها دون حول عنها أيا كان ومن أي كان.

وترى ﴿فَمَا اسْتَقامُوا﴾ تتجزء في أقدار الاستقامة بأجزائها؟ ففيما يستقيمون فاستقيموا وفيما ينقضون فانقضوا إذا كان للمعاهدة بنود.

ولكن ﴿إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ قد تنافي التجزؤ، اللهم إلّا أن «أتموا» وجاه ﴿لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً﴾ جمع قبال جمع، فإذا أتموا أتموا، ثم «ما ﴿اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ كما وأنه قضية العدالة والمقابلة بالمثل، ثم قد تعمم ﴿فَمَا اسْتَقامُوا﴾ فرض «فاستقيموا» وإن بعد موتهم، حيث الأصل لسماح أو فرض قتالهم هو فتنتهم، فحين يستقيمون بعهد ودون عهد فواجب الاستقامة لهم قائم، بل وبأحرى بعد تمام مدتهم، حيث إن الالتزام بالمعاهدة بعد تمام مدتها أدل على سلمهم طيلة المدة.

إذا ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ﴾ قد تعني إلى مدة عهدهم مدة الالتزام بالمعاهدة، أم لا مفهوم له أن قاتلوهم بعد تمام المدة وإن كانوا ملتزمين بما التزموه في نفس المدة.

وهنا «ما» في ﴿فَمَا اسْتَقامُوا﴾ إما شرطية مضمّنة الزمان وهي الأشبه، أم زمانية، وعلى أية حال ف «ما» تطلق شرط الاستقامة بجزاءها إلى مدتهم بعد موتهم.

ثم ترى بعد ﴿إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ حصر للوفاء بالمعاهدة فيهم؟ ولا حصر واقعيا فيهم! ذلك حصر فيمن يستقيمون، وهؤلاء كانوا مثالا للاستقامة لمكان ﴿فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ﴾ فليس للمسجد الحرام والذين عاهدوكم عنده ميزّة في ذلك الاستثناء إلّا مصداقية بارزة لهم دون حصر، فما هذا الاستثناء استثناء بموضوع يفيد الحصر، بل بمصداق بيّن منه كما في الإيمان عند رؤية الناس: ﴿فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ﴾ (١ : ٩٨).

ثم وضابطة ﴿فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ محكّمة لكل هؤلاء

الذين يستقيمون في عهودهم ، سواء أكانوا من المعاهدين عند مسجد الحرام أم سواه.

فالمبدأ الأول للمشركين أنه ليس لهم عهد عند الله وعند رسوله ، فإنهم ناقضوا عهد الله بإشراكهم به ، وناقضوا عهد رسول الله بنكرانهم له ، فكيف يكون ـ إذا ـ لهم عهد عند الله وعند رسوله للجماعة المؤمنة بالله وبرسوله ، فذلك استفهام إنكاري يوقظ المسلمين بأن الأصل فيهم أولاء الأنكاد الأنكاث هو نقض العهود فلا يوثق بهم أبدا ، فعليهم اليقظة الدائمة أمامهم حياطة على النقض المرتقب منهم دائما.

ذلك لأنهم كأصل يكمنون لكم العداء العارم دون رغبة فيكم ولا رقابة عليكم ، فالأصل في معاهدة المسلم المحارب عدم النقض فإذا نقض انتقض ، ثم الأصل في معاهدة المشرك المحارب النقض ، فإذا لم ينقض لم ينتقض ، فلا تجوز بدار النقض منا لعهد المشرك قبل نقضه ، فإنه ـ إذا ـ حجة علينا واعتداء بغير مثل.

وهكذا يلزمنا الإسلام بالوفاء بالعهود مع المشركين فضلا عن المسلمين ، ولكن علينا أن نحتاط أمام المشركين المعاهدين إذ ليس لهم عند الله ولا عند رسوله عهد.

وإذا كانت الاستقامة للمعاهدات الإسلامية مع المشركين بهذه المثابة فما ذا ترى في المعاهدات الإسلامية مع بعضهم البعض ، فهل يجوز نقضها من طرف واحد بأي سناد؟ كلّا وحتى الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) ليس له ذلك النقض فضلا عمن سواه مهما بلغ به الأمر.

فلا يبرّر نقض العهد إلّا نقضه قدره ، دون أي مبرر آخر دونما استثناء.

وهنا (عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ) قد يعني إلى صلح الفتح بمكة صلح الحديبية إذ لم يسبق لهم معاهدة قبل الفتح إلا فيها مما يوسع نطاق المسجد الحرام إلى الحرم كله ، و «عند» هنا لأن الحديبية هي على أشراف الحرم وشفيره فإن بعضها في الحرم وبعضها في الحل.

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَتَأْبى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ﴾(٨).

«كيف» يكون لهم عهد وهم لا يراعون عهدا عاطفيا إنسانيا بقرابة وما أشبه فلا يرقبون ﴿فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً﴾ عهدا بمعاهدة ، فهم خلو عن كل عهد «إلّا» بقرابة و «ذمة» بقرار ، فكيف يوثق بهم وهم لا عهد لهم من هذا وذاك.

فالإل هو كلما يقابل الذمة مما تجب رعايته ورقابته من ١ تحديد فطري أو عقلي أو عرفي ، ٢ أم صفاء ولمع إنساني ، أم ٣ جوار أم ٤ قرابة نسب أو سبب ، فقد جاء الإل بمعاني عدة لا تناسب هنا إلا هذه الأربعة ، وأما العهد فهو المعني ب «ذمة» ثم «الله» ليس ليعبر عنه بالإل ، وأما «ذمة» فهي العهد الذي يذم على نقضه ، فهو العهد اللزام المذموم نقضه.

إذا ف «لا يرقبون» حراسة ورقابة ﴿فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا﴾ قرابة أم صفاء ولمعا إنسانيا ، أم فطرة أو عقلية أو عرفية أماهيه من رقابات أصيلة هي قضية أصل الإنسانية ، ثم «ولا ذمة» بمعاهدة وذمام ، فهو ـ إذا ـ خواء عن أية مراقبة لمؤمن فكيف يكون لهم عهد؟!

فقد فسدت إنسانيتهم وكسدت حيث حجبت فطرهم وعقولهم وحلومهم وعلومهم عن لمس الحقائق فهم إذا شر الدواب الصم البكم الذين لا يعقلون.

«يرضونكم» في إل أو ذمة «بأفواههم» مداهنة لا مهادنة حيث ﴿تَأْبى قُلُوبُهُمْ﴾ عن أية رقابة لأي إلّ أو ذمة ، وعلى الجملة كأصل ﴿أَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ﴾ متخلفون عن كل وثاق ووثيقة ، مهما كان لأقلهم إلّ أو ذمة كالذين عاهدتم عند المسجد الحرام.

ف ﴿أَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ﴾ هنا لا يعني مطلق الفسوق فإن كلهم فاسقون عن طاعة الله وشرعته ، فإنما حكم الأكثرية هنا يختص بحقل رقابة إلّ أو ذمة.

فهؤلاء لا يسالمونكم أو يعاهدون إلا مضطرين ﴿وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ غلبا في المعركة أم في القوة «لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأكثرهم فاسقون» خارجون عن أي إل أو ذمة.

فهم ـ إذا ـ لا يقفون في التنكيل بكم لحد حتى المتعارف في أية بيئة إنسانية ، متجاوزين كافة الحدود والأعراف ، وهم أولاء الأنكاد الأغباش :

﴿اشْتَرَوْا بِآياتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٩).

﴿اشْتَرَوْا بِآياتِ اللهِ﴾ أنفسية وآفاقية ، رسولية ورسالية ، هذه الآيات المرئية لهم المعروضة عليهم ، اشتروا بها ﴿ثَمَناً قَلِيلاً﴾ من متعة الحياة الدنيا ، وكل ثمن أمام آيات الله قليل.

وبالنتيجة ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أنفسهم وسواهم ، فأصبحوا في قالهم وحالهم وفعالهم صدا عن سبيل الله على أية حال ، في كل حلّ وترحال ، فهم يحملون أصول الفتن وأثافي المحن والفتنة أكبر وأشد من القتل ، فقاتلوهم يعذبهم الله ﴿إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

هناك «لا يرقبون فيكم» اللامحة لخصوص المؤمنين الحضور ، وهنا «في مؤمن» طليقة تشمل كل مؤمن على مد الزمن إلى يوم الدين ، انتقالا عن خاص إلى عام كيلا يخيّل إلينا أن هذه العداوة خاصة بجماعة خصوص من المؤمنين.

هنا ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وأمثالها لها نطاق واسع يعم إلى «الذين ﴿اشْتَرَوْا بِآياتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ كل هؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله ، وأفضل سبل الله هو القرآن وعلى ضوءه رسول القرآن.

فقد يصد عن القرآن تكذيبا له وتزييفا لموقفه ، وهذا هو الكفر الجاهر المستهتر ، أم يصد عنه بطرق ملتوية تنقبا بنقاب الحفاظ على حرمة القرآن ، والحياد عن المسّ من كرامة القرآن كالقيلات الغيلات التالية :

١ القرآن ظني الدلالة وقطعي السند ، والحديث قطعي الدلالة وظني السند.

٢ في أن ظواهر القرآن حجة أم لا اختلاف بين العلماء ، فكيف يستدل بما فيه خلاف.

٣ آيات القرآن مجملات هي بحاجة إلى تبيان بالحديث ، فالأصل هو الحديث حيث يفسر القرآن!

ذلك وما أشبه من هرطقات تعني أن القرآن ليس بيانا ولا تبيانا ، بالرغم من أنه في أعلى قمم الفصاحة والبلاغة ، فهو يحمل أبين بيان وأفضل تبيان ، ف : ﴿هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٣ : ١٣٨). ﴿فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْها سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ﴾ (٦ : ١٥٧).

أو ليس نكران أن القرآن بياس للناس ، وجعله في بوتقة النسيان ، وإبعاده عن أمته وحوزته ، أليس ذلك صدفا عنه أن يجعل في زاوية منعزلة عن ناسه بأساسه.

ثم وكتمان أن القرآن بيان للناس وتبيان يستجر لعنة ربانية على الكاتمين ف ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالْهُدى مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (٢ : ١٥٩).

فليس يختص كتمان الآيات البينات أن تكتم عن بكرتها ، بل وكتمان أنها بينات بدعايات كالتي سلفت وما أشبه ، إنه كتمان كسائر الكتمان مهما اختلفت دركاته.

فالقرآن بنفسه بينة قضية قمة الفصاحة والبلاغة البيانية ، المنقطعة النظير ، ثم ويصرح في آيات أنه بينة من الله كافية ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وَما يَكْفُرُ بِها إِلَّا الْفاسِقُونَ﴾ (٢ : ٩٩).

فكما أن الكفر بهذه الآيات فسق كافر ، كذلك الكفر بكونها بينات مع الاعتراف بكونها آيات ، إنه كما هو فسق فاسق ، مهما اختلف فسق عن فسق ، ﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ (٢٢ : ١٦) ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

(٢٤ : ٣٤) ﴿فَاتَّقُوا اللهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً. رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللهِ مُبَيِّناتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾ (٦٥ : ١١).

إذا فهؤلاء الذين يفصلون بين القرآن وبين حوزته وأمته ، انهم ﴿يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ وهم «الفاسقون» والصادون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، وهم الظالمون :

ف ﴿لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً﴾ (١١ : ١٩) وهم أولاء في ضلال بعيد : ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ (١٤ : ٣) ﴿وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ﴾ (٢٨ : ٨٧).

أجل ، إن كتمان أن القرآن بيان كتمان للقرآن ، و ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ ما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ (٢ : ١٧٤).

﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾(١٠).

«أولئك» ١ الذين ليس لهم عهد عند الله ورسوله ٢ ﴿وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا﴾ ٣ ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَتَأْبى قُلُوبُهُمْ ٤ وَأَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ﴾ ٥ ﴿اشْتَرَوْا بِآياتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ ، ٦ ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ٧ ﴿وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾.

هؤلاء الأنكاد البعاد عن كل شؤون الإنسانية ، الحاصلون على هذه الدركات السبع الجهنمية ، كأنهم ﴿هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ فقط لا سواهم ، حيث ركزت فيهم جذور الاعتداء ، واستأصلت جذور الاهتداء ، فكيف يكون ـ إذا ـ لهم عهد عند الله وعند رسوله؟

وهم على هذه الأوصاف النكدة علّهم لهم منفذ إلى رحمة الله حيث تستقبلهم بشارة الله :

﴿فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(١١).

فطالما الأخوة في الدين هي التي بين المؤمنين ، فقد تشمل هؤلاء المشركين شريطة التوبة ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكوة كما فصلناها من ذي قبل ، وهي الأخرى بين المؤمنين وأدعيائهم غير المعروف آباءهم : ﴿وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ... ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوالِيكُمْ﴾ (٣٣ : ٥) ثم لا رابع إلّا اليتامى ، ولكنهم لأنهم صغار غير مكلفين لم يصرح لهم بالأخوة في الدين : ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ﴾ (٢ : ٢٢٠) ولكن نسبتهم إلى المؤمنين في الأخوة قد تجعلهم إخوة في الدين ، ما تتطلبه هذه الأخوة وراء التكاليف الخاصة بالمكلفين ، فعليهم أن يراعوهم بأخوة في الدين ، وليس عليهم أولاء لصغرهم فرض في حقل الأخوة الدينية ، اللهم إلّا ما يفرض على أولياءهم من تأديبهم وتدريبهم على الدين.

وحين تثبت الأخوة في الدين بين المؤمنين ككل [1] وحتى بالنسبة للقاصرين فهلّا تثبت بين فريقي المسلمين شيعة وسنة أماهيه من الفرق ، وهم ككل حاصلون على هذه الثلاثة ، وحتى التاركين منهم للصلاة والزكوة ، المصدقين لهما ، هم غير خارجين عن هذه الأخوة الشاملة ربع الإيمان ، فقد تثبت حرمة اغتيابهم بعضهم بعضا بنص آية الحجرات منضمة إلى هذه الآيات ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ و ﴿وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.

فقيلة حلية اغتياب أهل السنة غيلة على وحدة الأخوة الإسلامية ، وحيلة لوهدتها أعاذنا الله من سوء الفهم والعصبية الجاهلة العمياء! ، فإنما ﴿نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) في تفسير العياشي جابر عن أبي جعفر (عليهما السلام) ﴿فَإِنْ تابُوا﴾ يعني فإن آمنوا فإخوانكم في الدين.

فحين يصبح المؤمنون الجدد ـ على سوابقهم المزرية ـ ثم الأدعياء غير المعروف آباءهم ، حين يصبح هؤلاء وهؤلاء ومعهم يتاماهم إخوانا لهم في الدين ، أفلا يكون سائر المسلمين إخوانا لنا نحن الشيعة الإمامية ، زعم أن الإيمان فالأخوة الإيمانية تختص بنا ، ويكأن آيات الإسلام والإيمان والأخوة الإيمانية تخاطبنا فحسب دون سوانا؟! وهكذا الغلطة المغلّظة بين جمع من إخواننا السنة حيث يرفضون إخوتنا الإيمانية ، أم ويفضلون اليهود والنصارى علينا!

وهكذا نزغ شيطان الاستعمار والاستحمار بيننا لحد جعلنا شذر مذر ، تاركين لوحدة الاعتصام بحبل الله هابطين لوهدة الانقسام عن حبل الله ، عاملين على بث الخلافات وحثّها فيما بيننا ، وهذه هي بغية أعداءنا لكي يكونوا علينا ـ المتفرقين المفترقين ـ ظاهرين قاهرين!

والقول إن إخواننا فاسقون في عقيدة الدين متجاهرين ، فهم ممن يحل اغتيابهم؟ غول من القول ، حيث الفسق المتجاهر به في حقل حلّ الاغتياب هو الذي يعترف صاحبه بأنه فسق ، ثم لا يبرّر سائر الفسق المستور أن يغتاب فاسد العقيدة فيه ، والأكثرية المطلقة من إخواننا قاصرون وإن كان عن تقصير ، فليسوا هم يعاندون الحق فينكرونه لعنادهم ، بل هم حسب بيئتهم وملابساتهم ظلوا في تلكم العقائد ، وعلى الدعاة إلى الله أن يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلوهم بالتي هي أحسن.

ولو حلت الغيبة بين فرق المسلمين لفرقت بينهم أكثر مما هم متفرقون ، وهم مأمورون بالوحدة قدر المستطاع ، اعتصاما بحبل الله جميعا دون تفرق وتمزق ، فكيف يجوز اغتيابهم فيما هم غير متجاهرين من فسوق ، أم هم غير مقتنعين أنه فسوق ، فمن شروط الأمر والنهي ثم جواز الاغتياب ، أن يكون الواجب والمحرم واضحين للمأمور والمنهي وضح النهار ، فإن تخلف بعد فأمر أو نهي ، ثم إن أصر وجاهر فإصرار في الحمل على شرعة الله وجهار في عرض مآسيه عله ينتهي.

﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ

الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾(١٢).

هنا نكث اليمين والطعن في الدين يردفان عطفا مما يدل على أن ذلك العهد المؤكد باليمين كان على المحايدة تجاه الدين ، ألا يحاربوا المؤمنين في الدين ، ولا يطعنوا طعنة أخرى في الدين كالدعاية ضده أو مظاهرة عدو على المؤمنين ، فعند نكثهم وطعنهم ﴿**فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ**﴾ الناكثين الطاعنين ، ﴿**إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ**﴾ قاتلوهم ﴿**لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ**﴾ عن كفرهم ، أم ـ لأقل تقدير ـ عن نكثهم وطعنهم.

وهنا تبرز من ملامح الحرب الإسلامية أنها فقط حرب دفاعية أمام الهجمة الكافرة على نفوس المؤمنين أم على عقائدهم وسائر نواميسهم ، فحين ينتهون عن الطعن في الدين فلا قتال ، كما لا قتال حين لا يقاتلونكم.

ولأن الأصل في نكث اليمين والطعن في الدين بين جموع الكافرين ، هو من أئمة الكفر دون المأمومين لهم ، لذلك ﴿**فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ**﴾ وطبعا بمن يساندهم من هؤلاء الأتباع الأغباش ﴿**لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ**﴾ والقصد الأصيل في ذلك القتال ليس هو الانتقام ، بل الانتهاء عن النكث والطعن في الدين ، ثم علياه هي الانتهاء عن الكفر.

وقد تشمل ﴿**أَئِمَّةَ الْكُفْرِ**﴾ ـ جريا ـ كل من يحمل راية الضلالة والمتاهة كأصحاب الجمل ومن أشبه حيث يشكّلون على الإسلام خطرا علّه أخطر ممن سواهم من الكفار الرسميين (١).

---

(١) نور الثقلين ٢ : ١٨٨ في قرب الإسناد للحميري عن حنان بن سدير قال سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول : دخل علي أناس من أهل البصرة فسألوني عن طلحة والزبير فقلت لهم : كانوا من أئمة الكفر ، إن عليا (عليه السلام) يوم البصرة لما صف الجمل قال لأصحابه لا تعجلوا على القوم حتى أعذر فيما بيني وبين الله وبينهم فقام إليهم فقال : يا أهل البصرة هل تجدون علي جورا في حكم؟ قالوا : لا ، قال : فحيفا في قسم؟ قالوا : لا ، قال : فرغبة في دنيا أخذتها لي ولأهل بيتي دونكم فنقمتم علي فنكثتم بيعتي؟ قالوا : لا ، قال : فأقمت فيكم الحدود وعطلتها في غيركم؟ قالوا : لا ، قال :

ذلك ، ففرض قتال أئمة الكفر طليق على أية حال ، فإنهم بطبيعة حالهم الشريرة يؤمّون الكفر بكل بنوده السلبية للإيمان والإيجابية لنفسه ، قتلا للأنفس وطعنا في الدين بكل ما يملكونه أو يمّلكون من طاقات وإمكانيات في مؤاتية المجالات.

فالقادة الأئمة هم بين أئمة الإيمان وأئمة الكفر ، فلا بد لأئمة الإيمان بربعهم أن يقاتلوا أئمة الكفر بربعه : ﴿وَلَوْ لا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ﴾ (٢ : ٢٥١) ف ﴿أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ هنا ظاهرة بديل ضمير : «فقاتلوهم» عبارة قاصدة لموضوعية إمامة الكفر لفرض القتال مهما لم يكن نكث لأيمان وسواها.

وهنا ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ تعني ـ لأقل تقدير ـ الانتهاء عن إمامة الكفر

ـ فما بال بيعتي تنكث وبيعة غيري لا تنكث ، إني ضربت الأمر أنفه وعينه فلم أجد إلا الكفر أو السيف ، ثم ثنى إلى أصحابه فقال : إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه : ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ ، فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : والذي فلق الحبة وبرء النسمة واصطفى محمدا (صلّى الله عليه وآله وسلم) بالنبوة إنهم لأصحاب هذه الآية وما قوتلوا منذ نزلت ، ورواه العياشي عن حنان بن سدير عنه (عليه السلام) أقول : مغتصبو الخلافة هم من أهل هذه الآية ولكن الملابسات منعت الإمام عن القيام بالسيف أمامهم. وفي أمالي المفيد باسناده عن أبي عثمان مؤذن بني قصي قال سمعت علي بن أبي طالب (عليه السلام) حين خرج طلحة والزبير على قتاله : عذرني الله من طلحة والزبير ، بايعاني طائعين غير مكرهين ثم نكثا بيعتي من غير حدث أحدثته ثم تلا هذه الآية ، ورواه العياشي في تفسيره عن أبي عثمان المؤذن وأبي الطفيل والحسن البصري مثله ، ورواه الشيخ في أماليه عن أبي عثمان المؤذن وفي حديثه قال بكير : فسألت عنها أبا جعفر (عليهما السلام) فقال : صدق الشيخ هكذا قال علي هكذا كان وفيه عن العياشي عن الحسن البصري قال : خطبنا علي بن أبي طالب (عليه السلام) على هذا المنبر وذلك بعد ما فرغ من أمر طلحة والزبير وعائشة ، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) ثم قال : يا أيها الناس والله ما قاتلت هؤلاء إلا بآية تركتها في كتاب الله ، إن الله يقول : ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ﴾ أما والله لقد عهد إليّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وقال : يا علي لتقاتلن الفئة الباغية والفئة الناكثة والفئة المارقة.

فتنة وإفسادا على المؤمنين وسائر المستضعفين ، ثم انتهاء عن أصل الكفر ، وإذا فهم إخوانكم في الدين.

ثم ﴿لا أَيْمانَ لَهُمْ﴾ بعد ﴿إِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ﴾ تعبير قاصد إلى أن أيمانهم لم تكن أيمانا قاصدة صادقة ، فإن طبيعة حال الأيمان هي الوفاء دون النكث ، فالأيمان المنكوثة ليست في الحق بأيمان ، وإنما هي قالتها دون حالتها وفعالتها ، وصرف القالة في اليمين قالة غائلة.

هؤلاء أئمة الكفر وهم دركات ، كما وأئمة الايمان درجات علياها الأئمة من آل الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) ، الأعزة عند الرسول وعلى حد تعبيره (صلّى الله عليه وآله وسلم): «لا يزال الإسلام عزيزا إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش» (١) و «الأئمة من المهاجرين» (٢).

وترى «إن نكثوا» تختص واجب قتال أئمة الكفر ـ فقط ـ بما إذا نكثوا وطعنوا ، فغير المعاهد الطاعن لا يقاتل؟ ﴿أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ موضوعا ل «قاتلوا» تكفي دليلا أن لها الموضوعية التامة الطامة في حكم واجب القتال ، فسواء في ذلك المعاهد الناكث وغير المعاهد ما دام الطعن في الدين بإمامة الكفر قائما ، فذلك ـ إذا ـ حكم يحلق على كافة أئمة الكفر الطاعنين في الدين للطول التأريخي والعرض الجغرافي.

ذلك ، ومن أبرز النكث للإيمان فالطعن في الدين هو نكث يمين الإيمان المدعى ارتدادا عنه جاهرا ، مما يفت عضد الدين ويضعف ساعد اليقين حيث يخيّل إلى بسطاء المؤمنين أنهم ارتدوا عنه بما وجدوا فيه من خلل فجحدوه لهذه العلل وما نجدوا ، وهو طعن في الدين وقلوب الديّنين ، طعنا عمليا يعمل في إضلال البسطاء سراعا ، ودليلا باهرا على الشمول إضافة إلى ظاهرة العموم ، أن «نكثوا» هنا بعد ﴿فَإِنْ تابُوا﴾

---

(١) مفتاح كنوز السنة بخ ـ ك ٩٣ ب ٥١ ومس ـ ك ٣٣ ح ٥ ـ ١٠ وتر ـ ك ٣١ ب ٤٦ وحم أول ص ٣٩٨ قا ٤٠٦ ، خامس ص ٨٦ و ٨٧ و ٩٣ و ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ و ٩٧ و ٩٨ و ٩٩ و ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٦ و ١٠٧ و ١٠٨ وط ـ ح ٧٦٧ و ١٢٧٨.

(٢) المصدر ط ـ ح ٩٢٦ و ٢١٣٣.

فهو في الأصل نكث بعد التوبة ، ثم يشمل كل نكث ، ثم كل إمامة للكفر ، وقد سبق ذلك النكث ما يعممه تماما ، فسابق ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ مع «إن تابوا» مرتين ، دليل باهر لذلك التعميم.

فلا تختص ﴿أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ بمن يطعنون في الدين وهم كفار جاهرين ، بل وأنحس وأنكى منهم كبراء بزعم الناس ، يظهرون الإيمان مضمرين الكفر ثم يرتدون ، وذلك كاف في زعزعة إيمان البسطاء المستضعفين.

إذا فنكث الأيمان يشمل نكث الإيمان ـ وبأحرى ـ لأنه أيضا يمين من الأيمان ، بل وأحرى مما سواه من أيمان ، فقضية طليق ﴿أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ بنقض الأيمان والطعن في الدين هي وجوب قتال كل من يحمل مشعل الضلالة والطعن في الدين ، ملحدا أو مشركا أو كتابيا أم ومسلما يحمل ما يحملون بل هو أخطر وأنكى ، فأصحاب البدع الجاهرة ، الذين يدعون خلاف الضرورة من شرعة الحق هم من أئمة الكفر ، وترى إذا انتهى المرتد عما فعل وأبرز الإيمان ، فهل يثبت قتاله بعد أم لا؟ ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ حيث تنهي قتالهم لغاية انتهاءهم ، دليل نفيه عندئذ ، اللهم إلّا أن يدل قاطع الدليل على استثناء المرتدين.

وهل للكافر يمين لمكان ﴿نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ﴾ حيث النكث لها دليل واقعها؟ أم لا ـ ل ﴿إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ﴾؟ إن لهم يمينا ما لم ينكثوا ، فحين نسمع منه يمينا لا نتأكد كذبه فقد نعامله معاملة صادق اليمين على حذر لأنهم ـ كأصل ـ لا أيمان لهم ، إذ لا مولى لهم به يحلفون.

﴿أَلا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(١٣).

هذه الآية بما بعدها تواجه ما حاك في نفوس ضعيفة لم يتعرق الإيمان بعد فيها ، من تردد وتهيّب للإقدام على هذه الخطوة الحاسمة الجاسمة القاصمة ، ومن تعلل ورغبة وتعلّة في أن يفيء المشركون الباقون إلى الإسلام دون اللجوء إلى القتال الشامل ، ومن خوف على نفوسهم

ومصالحهم ، ركونا إلى أيسر وسائلهم في مسائلهم.

فالقرآن يواجه هذه المشاعر بملابساتها الملبّسة على أصحابها ، والتعلّات والمخاوف المحلقة عليها ، استجاشة لقلوب المؤمنين بذكريات وأحداث ورغبات صالحة ، تذكرة بنقض المشركين عهودهم بعد إبرامها وسائر ما افتعلوه بحق الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) والذين معه.

وهنا سرد مختصر غير محتصر لثالوث أئمة الكفر : ﴿نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ﴾ . ﴿وَهَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ﴾ ﴿وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وكل واحدة من هذه الثلاثة تكفي في فرض قتالهم فضلا عن الثالوث كله.

و ﴿أَلا تُقاتِلُونَ﴾ استفهام إنكاري ممن يتهاون ولا يتعاون في قتال هؤلاء الناكثين البادئين في الحرب وقد ﴿هَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ﴾ مما يدل على مدى تعرق الكفر في نفوسهم النحيسة البئيسة.

١ ﴿نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ﴾ مع الرسول ـ كما هو شيمتهم الشنيعة ـ : نقضا لعهد الحديبية ف «إن بني بكر الذين كانوا دخلوا في عقد قريش وعهدهم وثبوا على خزاعة الذين دخلوا في عقد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعهده ليلا فقاتلوهم للضغن على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)» [(١)] وكان (صلّى الله عليه وآله وسلم) قد قبل من

---

(١) الدر المنثور ٣ : ٢١٥ ـ أخرج ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة قالا : كان في صلح رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) يوم الحديبية بينه وبين قريش أن من شاء أن يدخل في عقد النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) وعهده دخل فيه ومن شاء أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل فيه فتواثبت خزاعة فقالوا : ندخل في عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر فقالوا : ندخل في عقد قريش وعهدهم فمكثوا في تلك المداهنة نحو السبعة عشر أو الثمانية عشر شهرا ثم إن بني بكر الذين كانوا دخلوا في عقد قريش وعهدهم وثبوا على خزاعة الذين دخلوا في عقد رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وعهده ليلا بماء لهم يقال له الوتير قريب مكة فقالت قريش : ما يعلم بنا محمد (صلّى الله عليه وآله وسلم) وهذا الليل وما يرانا أحد فأعانوهم عليهم بالكراع والسلاح فقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وركب عمر وابن سالم عند ما كان من أمر خزاعة وبني بكر بالوتير حتى قدم.

شروطهم ما حسبه الخليفة عمر قبولا للدنية!

ثم وفى لهم أحسن الوفاء وأدقّه ، ولكنهم نقضوا عهده (صلّى الله عليه وآله وسلم) وخاسوا به بعد عامين لأول فرصة سانحة.

٢ ﴿وَهَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ﴾ مرات عدة ، يوم الندوة ، ويوم الشعب ، وليلة الفراش التي انتهت إلى الهجرة ، ثم وكل أيامهم كانت تحمل هما بالغا قالا وحالا وفعالا لإخراج الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) عن عاصمة الدعوة ، وذلك أنحس وأنكى ما حصل منهم طول هومهم بخصوصهم وعمومهم ، ثم ولم يكونوا يكتفون إخراجه بإخراجه عن مكة ، بل وهموا بإخراجه أيضا عن المدينة لما أقدموا عليه من المشورة والاجتماع على قصده بالقتل ، فهمهم لإحراجه في المدينة همّ لهم لإخراجه عنها كما أخرجوه عن مكة المكرمة.

٣ ﴿وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بدء بالقتال والنكال منذ بزوغ الدعوة ، ومن ثم بعد الهجرة خلال بضع أشهر ، في حرب بدر التي أصبحت ـ خلاف قصدهم ـ بادرة القوة الإسلامية ضدّهم.

ـ المدينة على رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) بأبيات أنشده :

اللهم إني ناشد محمدا	حلف أبينا وأبيه الا تلدا
كنا والدا وكنت ولدا	ثمت اسلمنا ولم نزع يدا
فانصر رسول الله نصرا اعتدا	وادعوا عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا	إن شئتم حسنا فوجهه بدر بدا
في فيلق كالبحر يجري مزبدا	إن قريشا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا	وزعموا أن ليس تدعو أحدا
فهم أذل وأقل عددا	قد جعلوا لي بكداء رصدا
هم بيتوا لنا لهجير هجدا	وقتلونا ركعا وسجدا

فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) : نصرت يا عمرو بن سالم فما برج حتى مرت غمامة في السماء فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) : إن هذه السحابة لتشهد بنصر بني كعب وأمر رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) الناس بالجهاد وكتمهم مخرجه وسأل الله أن يعمي على قريش خبره حتى يبغتهم في بلادهم.

فلقد بيتوا عليه في بيت الله الذي يأمن فيه القاتل والسارق ، فمحمد (صلّى الله عليه وآله وسلم) لا أمان له في ذلك البيت الأمين لأنه يدعو إلى الهدى ، ويردهم عن الردى ، بيتوا عليه على حريته وعلى دمه دونما تحرّج ولا تذمم ، وبكل تهرّج ، حتى أخرجوه عن مكة بعد كل ما أحرجوه ، ثم أصروا على إبادته في مهجره بقيادة أبي جهل في بدر ، ثم قاتلوهم بادئين في أحد والخندق ، ثم جمعوا لهم في حنين ولا يزالون وكما قال الله : ﴿وَلا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا﴾ مما يبين الطبيعة الشركية النكدة اللئيمة.

وكما هم بدءوكم في قصة خزاعة ، والبادئ بالقتال يحق قتاله على أية حال.

﴿أَلا تُقاتِلُونَ﴾ هؤلاء الأنكاد البعاد؟ «أتخشوهم» أنتم ﴿فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ فأتمروا بأمره ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ به ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٣ : ١٣٩).

و «من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء» ، فلا يخاف في سبيل الله أيّ مخيف إلا الله الذي يأمرنا أن نسلك سبيله دون خوف ممن سواه.

﴿قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٥).

هنا ﴿يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ دون «صدوركم» أو «صدور المؤمنين» ككل ، مما يلمح بنزول الآية بشأن ناقضي عهد الحديبية حيث إن بني بكر وثبوا على خزاعة الداخلين في عقد رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) واثخنوهم قتلا وجرحا وتشريدا.

أجل «قاتلوهم» أولاء الناقضين ، وبالنتيجة ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ القوية بالإيمان ، وقلوبكم الندية بالإيمان ثم «ويخزهم» كما أخزوا فريقا من المؤمنين ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ بصورة قاطعة لا قبل لهم بها ، ثم

﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ مظلومين مهضومين ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ الغائظة على تلك الحالة المخزية المزرية ﴿وَيَتُوبُ اللهُ عَلى مَنْ يَشاءُ﴾ منكم مقاتلين ومن هؤلاء المظلومين المقتص لهم ، ثم ومن الناقضين الذين قد يتوبون إلى الله عما نقضوا وأبغضوا الله ورسوله حين يرون نصرا كمؤمنين ، إحساسا لهم أنهم منصورون بغير ظاهرة القوة الحربية ، فتفتح بصيرتهم على الهدى.

﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ بكل ما حصل ويحصل وما هو صالح أم طالح لكم ولمن سواكم «عليم» بالعواقب المخبوءة وراء هذه التقدمات ، «حكيم» فيما يأمر وينهى ويقضي ويقدر ، «حكيم» يقدر نتائج الأعمال والحركات والنيات.

ذلك ، فطبيعة الحال تقضي بأن المؤمنين تغيظ قلوبهم بما يلمسون من مثل ذلك الكبت الشديد والنقض العنيد ، فذلك العذاب بأيديكم المؤمنة والخزي للناقضين ونصرتكم عليهم ، إن فيها لشفاء لصدورهم عما جرحت وضيقت وحرجت ، وإذهابا ـ بالنتيجة ـ لغيظ قلوبهم.

ولقد تجري هذه الآية فيمن يدعي الإسلام ، وهو ناقض لعهده مفض يديه منه حيث يعامل المسلمين كما يعامل الكافرون (١).

---

(١) نور الثقلين ٣ : ١٩٠ عن تفسير العياشي عن علي بن عقبة عن أبيه قال : دخلت أنا والمعلى على أبي عبد الله (عليه السلام) فقال : ابشروا أنكم على أحدي الحسنيين شفى الله صدوركم وأذهب غيظ قلوبكم وأنا لكم على عدوكم وهو قول الله ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ وإن مضيتم قبل أن يروا ذلك مضيتم على دين الله الذي رضيه لنبيه (صلّى الله عليه وآله وسلم) ولعلي (عليه السلام) ، وفيه عنه أبي الأغر اليمني قال : إني لواقف يوصفني إذا نظرت إلى العباس ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب شاك في السلاح على رأسه مغفر وبيده صفيحة يمانية وهو على فرس أدهم إذ هتف به هاتف من أهل الشام يقال له عرار بن أدهم يا عباس هلم إلى البراز ، قال : ثم تكافى بسيفهما مليّا من نهارهما لا يصل واحد منهما إلى صاحبه لكمال لأمته إلى أن لاحظ العباس وهيا في درع الشامي فأهوى إليه بالسيف فانتظم به جوانح الشامي وخرّ الشامي صريعا بخده وأمّ في الناس وكبر الناس تكبيرة ارتجت لها الأرض فسمعت قائلا يقول : ﴿قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ﴾ .

وترى «يعذبهم» لا تنافي ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ وان الدنيا دار عمل ولا حساب والآخرة دار حساب ولا عمل؟

العذاب المسلوب كما قدمناه هو عذاب استئصال وما أشبه بيد القدرة الربانية دون سيط الإنسان ، ثم العذاب هنا ليس حسب الحساب المخصوص بالأخرى ، إنما هو شطر ضئيل منها تتقدم هنا لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

والقتل والحصر والتشريد وما أشبه ، كما الحدود والتعزيرات ، هي عذابات مأمور بها بأيدي المؤمنين على المتخلفين عن شرعة الله تأديبا لهم وتأنيبا وردعا وتقليلا للفساد.

ذلك «وقاتلوهم» هذا قد يمتد أمره إلى فتح مكة التي تجمع كل هذه المواصفات ، فسائر الحروب الفاتحة لم تكن تحمل منها إلا يسيرا قصيرا ، وإنما فتح مكة هو الذي حمل كل هذه المواصفات لقبيل الإيمان.

وهنا ﴿غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ في إذهابه رحمة عليهم خروجا لقلوبهم عن التغيظ التضيق بما أصيبوا من مكائد الكفار ، فهي رحمة صالحة لهم ، وهناك غيظ آخر في ذهابه رحمة عليهم وعلى الآخرين الذين يجب كظم الغيظ عنهم لكونهم مؤمنين ، وهذا مجال قول النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم): «ما من جرعة يتجرعها الإنسان أعظم أجرا عند الله من جرعة غيظ في الله» [(١)].

والقصد من جرعة الغيظ هنا الصبر عند الاهتياج ، واللظم عند الانزعاج ، وترك إتباع نوازع النفس إلى ما تدعوا إليه في تلك الحال من شفاء غيظ ، أو تنفيس كرب ، أو إطلاق عقال ، أو فعل مراقبة لله سبحانه

. الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء فالتفت فإذا هو أمير المؤمنين (عليه السلام) والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.

(١) المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي (٩٦).

تنجزا لثوابه ، واحتجازا عن عقابه ، فشبه (صلّى الله عليه وآله وسلم) تلك الحال بالجرعة ، كأن الإنسان بالكظم لها والصبر عليها قد ضاق بها مرارة ، وأساغ منها حرارة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾(١٦).

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ﴾ (٢٣ : ١١٥) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ (٢ : ٢١٤) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (٣ : ١٤٢).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ كحالكم دونما ابتلاء وإمتحان وتمحيص ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ علما وعلامة بواقع الجهاد الذي هو علامة النجاح ، كما أن تركه علامة السقوط ، فلهذه المجاهدات المفروضة أبعاده ، منها تميّز المجاهدين الواقعيين عن المدعين الجهاد «يقولون في المجالس كيت وكيت فإذا جاء الجهاد فحيدي حياد».

و «جاهدوا» الطليقة هنا تعم الجهاد الأنفسي إلى الآفاقي والآفاقي إلى الأنفسي ، وجهاد النفس هو أعظم ، وهو أتم مهاد لجهاد سائر الأعداء ، ولا يعني جهاد النفس قتل النفس الأمارة بالسوء ، إنما هو جعلها سليمة أمام العقلية الإيمانية ، خارجة عن طيشها وعيشها المتخلف عن شرعة الله ، فتفسير جهاد النفس بقتل النفس غلط رائج دارج لا يعبأ به!

﴿جاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا﴾ أية وليجة تلج في صفوفكم وصنوفهم ﴿مِنْ دُونِ اللهِ وَلا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ فالوليجة الربانية هي المعرفة التقية ، والتقوى المعرفية أماهيه ، الوالجة في قلوبهم والحاكمة في صفوفهم ، ثم من الوليجة الرسولية تقبل قيادته العليا من الله ، ومن ثم الوليجة الإيمانية ولوج المؤمنين بعضهم في بعض ، مندغمين مع بعضهم

البعض صفا كأنهم بنيان مرصوص ، وليس ذلك الامتحان ليعلم الله الذين جاهدوا منكم إلّا علما لا علما ﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾.

ف «يا معشر الأحداث اتقوا الله ولا تأتوا الرؤساء ، دعوهم حتى يصيروا أذنابا ، لا تتخذوا الرجال ولائج من دون الله أنا والله خير لكم» [١] و «إياكم والولايج فإن كل وليجة دوننا فهي طاغوت ـ ند» [٢].

وهكذا فإن كل سبب ونسب وقرابة ووليجة وبدعة وشبهة منقطع إلّا ما أثبته القرآن [٣] ولأن «المؤمنين» درجات فأولج الولايج منهم وأبهج المناهج هم ولاة الأمر المعصومون (عليهم السلام) ، فإنهم استمرارية كاملة شاملة لكيان الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) بينهم [٤].

فكما الوليجة الرسولية هي ـ فقط ـ «رسوله» كذلك الوليجة الرسالية بعده ولوجا قياديا بينهم ليسوا إلّا خلفاءه المعصومين (عليهم السلام) ، ومن ثم الدرجات التنازلية لسائر المؤمنين قضية صالح الملابسات والمناسبات.

فمما لا مرية فيه أن الإنسان أيا كان لا يقدر أن يعيش عيشة صالحة بشخصه مهما كان شخيصا محيصا ، اللهم إلّا بوليجة ربانية تلج قلبه وفكره ، مرشدا أو مناصرا ليكون على بصيرة ومسيرة فمصيرة صالحة لأمره في حياته.

فالمجاهدون من المؤمنين في مختلف حقول الجهاد هم الذين لا يتخذون وليجة في جهادهم وجهودهم إلّا «الله ـ ورسوله ـ والمؤمنين»

---

(١) نور الثقلين ٣ : ١٩١ في تفسير العياشي عن ابن أبان قال سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول : ثم ضرب بيده إلى صدره.

(٢) المصدر عن أبي الصباح الكنائي قال قال أبو جعفر (عليهما السلام) :

(٣) المصدر عن أصول الكافي عن أحمد بن محمد بن خالد مرسلا قال قال أبو جعفر (عليهما السلام) :

(٤) المصدر عن أصول الكافي عن أبي جعفر (عليهما السلام) في الآية يعني بالمؤمنين الأئمة (عليهم السلام) لم يتخذوا الولايج من دونهم.

فوليجة الله ـ كالإخلاص له فيه ـ دائبة لا تنفصل إلا بانفصال الإيمان ، وطالما الوليجة الرسولية منفصلة بانفصاله عنا ولكنها الوليجة الرسالية مستمرة معنا ، في كيانه الرسالي بسنته (صلّى الله عليه وآله وسلم) والآخر المتمثل في عترته (عليهم السلام) ، ومن ثم الوليجة الإيمانية من المؤمنين على كتاب الله وسنة رسوله ، فمتخلفة الولايج من المؤمنين مرفوضة ، والصالحة منها مفروضة ، ولتكون هذه الولايج النيرة الربانية زادا صالحا في هذه السفرة الشاقة البعيدة المليئة بالأشلاء والدماء ، كما أن «في سبيل الله» راحلتهم التي ترحلهم.

فكما أن جهاد المؤمن محصور في سبيل الله ، محسور عما سواها وسواه ، كذلك وليجته في جهاده هي وليجة الله ابتغاء رضاه ورجاء لطفه تعالى في غناه ، ثم وما يرضاه من الرسول والمؤمنين ، وذلك هو الجهاد الصالح دون سواه ، فقد انتقشت كلمة لا إله إلّا الله في زادهم «في سبيل الله» لا سواه ، وراحلتهم ﴿وَلِيجَةً وَاللهُ﴾ لا سواها.

وعبارة أخرى عن «وليجة» هي «بطانة» ف ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ وَما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٣ : ١١٨).

ذلك «وقد أخبرك الله عن المنافقين بما أخبرك ووصفهم بما وصفهم به لك ، ثم بقوا بعده فتقربوا إلى أئمة الضلالة والدعاة إلى النار بالزور والبهتان ، فولوهم الأعمال ، وجعلوهم حكاما على رقاب الناس ، فأكلوا بهم الدنيا ، وإنما الناس مع الملوك والدنيا إلا من عصم الله» [(١)].

فعلى المؤمن أن يتزود في قلبه ونيته وليجة الله ، وفي كيف يجاهد؟

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٢٠٨ عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام).

وليجة رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فإنه الذي يدل إلى صالح الجهاد بوحي الله ، ثم وليجة المؤمنين بالله شرط الموافقة للأوليين كتابا وسنة ، تعاونا معهم في سبيل الله ، وذلك المثلث يرسم له هندسة صرح الجهاد الصالح ، فلا نكسة فيه ولا ركسة بإذن الله.

﴿ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللهِ شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خالِدُونَ (١٧) إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨) أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوانٍ وَجَنَّاتٍ

لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خالِدِينَ فِيها أَبَداً إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (٢٤)﴾

﴿ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللهِ شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خالِدُونَ﴾(١٧).

«ما كان ل» حظر حظير في موقف حذير سلبا للأهلية عن قالة أو حالة أو فعالة ، كلما ذكرت فيه منها ، وعمارة المساجد من هذه المحظورات للمشركين ﴿شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ هنا «الكفر» يعمم التحريم من المشركين إلى سائر الكافرين ، فذكر «المشركين» إذا يعني أنحس مصاديق الكفر.

وعمارة المسجد الحرام في ثالثة الآيات ك ﴿مَساجِدَ اللهِ﴾ هنا تعم إلى عمارة بنيانه عمارة الحضور فيه تطبيقا لطقوس كافرة أم أي حضور وكما يروى عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) قوله : «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان قال الله : ﴿إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ

بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[١].

و «المشركين» هم أنحس مثال في ذلك الحظر ، دون اختصاص له بهم ، وقد يؤيده إضافة إلى «بالكفر» ﴿**أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ**﴾ حيث الحبط يعم المشركين إلى كل الكافرين ، فلا يسمح لهم ككل في عمارة مساجد الله ككلّ ، إضافة إلى الحصر : ﴿**إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللهِ**﴾ مهما كان حصرا في أرجح السماح لعمارة المساجد.

﴿**أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ**﴾ في الدنيا والآخرة ، فكما ليست لهم أعمال ينفعهم في الآخرة ، كذلك ليست لهم أعمال تسمح لهم بعمار المسجد الحرام وسائر مساجد الله ، ولا لهم أعمال في مساجد الله تنفعهم ، بل وهي تضرهم لأنها تخلفات عن شرعة الله الحاضرة الناسخة لما سواها ، ف :

﴿**إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ**﴾ (١٨).

إن بيوت الله خالصة لله ، خاصة بعباد الله في عبادة الله ، فكيف يعمرها من لا يعمر قلوبهم بتوحيد الله ، فما هي الصلة بين من يسجد للأصنام ومسجد الله لعباد الله؟! أم يسجد للمسيح أم سواه زعم أنه عبادة الله؟ فلا يصلح غير المؤمن بالله أن يعمر مساجد الله ، وإنما ﴿**مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَ**﴾ هم الصالحون لهذا الصدد المسدّد ، ثم وأولئك الأنكاد هم الطالحون ، إذا فما هو دور المؤمنين الفاقدين لهذه الشروط الثلاثة؟ إن عمارتهم للمساجد لا محظورة ـ إذ ليسوا بكافرين ـ ولا محبورة إذ ليسوا هكذا مؤمنين ، فهم عوان بينهما ، مسموحا لهم عمارة المساجد دون تشجيع.

---

(١) الدر المنثور ٣ : ٢١٩ ـ أخرج أحمد وعبد بن حميد والدارمي والترمذي وحسنة وابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن خزيمة وابن حبان وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) :

فالموقف الأوّل لعمارة المسجد الحرام وسائر مساجد الله إنما هو لمن جمع بعد الإيمان بالله مثلثة الشروط [١] ، ثم لمن آمن وجاء بالأهم منها ، ومن ثمّ لمن هو خاو عنها كلّها ، درجات حسب الدرجات.

و ﴿إِنَّما يَعْمُرُ﴾ هي بين إنشاء وإخبار ، إخبارا أن طبيعة حال المؤمن الحامل لهذه الشروط أن يعمر مساجد الله بنيانا وحضورا لإقام الصلاة ، وإنشاء : ليعمر هكذا مؤمن مساجد الله في بعدي العمار دون سواه ، فقضية الإيمان بالله والخشية من الله ثم إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، هي عمارة مساجد الله ، وبأحرى منها كلها ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾.

ف «عمار بيوت الله هم أهل الله» و «من ألف المسجد ألفه الله» [٢] و «من أدمن الاختلاف إلى المسجد أصاب أخا مستفادا في الله وعلما مستظرفا وكلمة تدعوه إلى الهدى وكلمة تصرفه عن الردى ويترك الذنوب حياء وخشية ، أو نعمة أو رحمة منتظرة» [٣] و «من توضأ في بيته ثم أتى المسجد فهو زائر الله وحق على المزور أن يكرم الزائر» [٤].

وإذا كانت عمارة المسجد في بنيانه هي قضية الإيمان [٥] ، فالحضور

(١) ملحقات إحقاق الحق (١٤ : ٤٨٢) ذكر الجبري الكوفي في تنزيل الآيات (١٢) مخطوط قال : نزلت في علي بن أبي طالب (عليه السلام).

(٢) الدر المنثور ٣ : ٢١٦ ـ للأول أخرج البزار وأبو يعلى والطبراني في الأوسط والبيهقي عن أنس بن مالك قال قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) : والثاني عن أبي سعيد الخدري عنه (صلّى الله عليه وآله وسلم).

(٣) المصدر أخرج الطبراني عن الحسن بن علي (عليهما السلام) قال سمعت جدي رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) يقول :

(٤) المصدر أخرج الطبراني بسند صحيح عن سلمان الفارسي عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) قال : وفيه عنه (صلّى الله عليه وآله وسلم) قال : بشر المدلجين إلى المساجد في الظلم بمنابر من نور يوم القيامة يفزع الناس ولا يفزعون ، وقال (صلّى الله عليه وآله وسلم) : الغدو والرواح إلى المسجد من الجهاد في سبيل الله.

(٥) المصدر أخرج أحمد عن عبد الله بن عمير قال قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله.

فيها هو بأحرى من قضاياه ، حيث القصد من بنيان المسجد أن يسجد فيه دون بنيان هو خراب عن الحضور للصلاة.

وهنا قرن عمارة مساجد الله بما قرن دليلنا أن مساجد الله لا تصلح إلّا للعبادة لا سواها من أشغال الدنيا وكما يروى عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم): «يأتي في آخر الزمان أناس من أمتي يأتون المساجد يقعدون فيها حلقا ذكرهم الدنيا وحب الدنيا ، لا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة» (١).

ولأن ﴿مَساجِدَ اللهِ﴾ هي محال الخضوع والسجود لله فلا تزخرف بما تجلب الأنظار ، وكما يروى عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) قوله : «ما أمرت بتشييد المساجد»(٢).

ولا تعني عمارة المساجد في بنيانها ـ فقط ـ إصلاح ما أشرف منها على خراب ، بل وبأحرى أصل عمارها وهذا فرع عليه تشمله عمارة المسجد.

وهنا ﴿لَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ﴾ قد تعني الخشية في العبادة أنه لا يعبد إلا الله ، حيث العبادة بصورة عامة هي قضية الخشية ، وهي الحالة القلبية الظاهرة في مظاهر القال والفعال ، مهما كانت لها درجات أعلاها ل ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ﴾ (٣٣ : ٣٩).

فخشية الله على ضوء الإيمان بالله تحمل صاحبها على إقام الصلاة لله في بيت الله ، وعلى إيتاء الزكاة وأفضله ـ كذلك ـ بيت الله لمكان

ـ وسلم) : من بنى لله مسجدا بنى الله له بيتا أوسع منه في الجنة ، وفيه عن أنس عنه (صلّى الله عليه وآله وسلم) قال : ابنوا المساجد واتخدوها حمى.

(١) تفسير الفخر الرازي ١٦ : ١٠ عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) :

(٢) المصدر أخرج ابن أبي شيبة عن يزيد بن الأصم قال قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) : وفيه أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أنس قال قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم): إن الله سبحانه يقول : إني لأهم بأهل الأرض عذابا فإذا نظرت إلى عمار بيوتي والمحابين فيّ والمستغفرين بالأسحار صرفت عنهم.

الحشد والحشر العام فيه لعباد الله المحاويج.

﴿فَعَسى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

أو لما يكونوا هؤلاء الأكارم من المهتدين؟ فكيف «عسى»؟ أجل ، إن الإيمان بالله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وخشية الله هي اهتداء إلى الله ، ولكن الاهتداء الجماهيري الجمعي الشامل الكافل لإسعاد الحياة فردية عالية وجمعية غالية ، إنما هو على ضوء تعمير مساجد الله بنيانا وحضورا وكما في رواية الإمام الحسن المجتبى عن جده رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) ، وحتى الاهتداء الفردي هو بحاجة إلى كمال الصلاة والزكاة والخشية ، فليس لهم ـ إذا ـ إلّا رجاء الاهتداء.

ثم اهتداء آخر هو استمراريته بتكافل الجمع الحاشد في بيوت الله ولا سيما في مؤتمرات الحج والعمرة ، ومن ثم حسن العاقبة بذلك الاتصال الجماهيري في تحقيق عمودي الصلاة والزكوة في بيوت الله ، ثم الاهتداء إلى الجنة.

ومن ناحية أخرى قد تنحو «عسى» نحو قطع آمال المشركين عن اهتداءهم دون سبب صالح ، فإن السبب الصالح يوصل إلى الهدى ب «لعل وعسى» فضلا عن غير الصالح فلا «لعل» فيه ولا «عسى».

ف «عسى» هنا عساها تعني بعد الاهتداء الأوّل في مربعه سائر الاهتداء في الدارين التي هي من محاصيل تعميرات بيوت الله من كل الجهات وبكل الإمكانيات ، وفي أعلى قممها ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ حيث ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ﴾ و ﴿هُدىً لِلنَّاسِ﴾ و ﴿مَثابَةً لِلنَّاسِ﴾ فالقيام الإسلامي السامي في ذلك المؤتمر هدى لا بديل عنها وكما فصلناها على ضوء آيات الحج.

ذلك ، وفي نظرة أخرى إلى الآيتين نستنتج أحكاما تالية :

١ تعمير مساجد الله في مثلث البنيان والإصلاح والحضور محرم على الكافرين بالله ، حيث المشرك نجس نحس ، والكافر ـ ككل ـ نجس ، وتطهير البيت فرض ﴿أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ ثم ودخول الكافر مظنة

تلويث المسجد وهو حرام ، وان الكافر جنب أيا كان ، ودخول الجنب في المسجد حرام لا سيما المسجد الحرام إذا كان مسلما فضلا عن الكافر : ﴿وَلا جُنُباً إِلَّا عابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ إذ هم مكلفون بالفروع كما الأصول ، ثم وإقدام الكافر لتعمير مساجد الله تعيير ، كما يوجب منة على المسلمين.

إذا فدخول الكافر مساجد الله لغير عمارة ، بل للاهتداء ، ليس ذلك محظورا ، وفي دوران الأمر بين محظور الجنابة ومحبور الهداية ، لا ريب أن الهداية أولى وأرجح ، بل وفي حظر الكافر المتحري عن الهدى عن دخول مساجد الله حظر عن الاهتداء إلى الله!

ذلك ، وقد تلمح ﴿شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ ان «المشركين» والكافرين في ذلك الحظر لا تشملان من لا يشهد على نفسه بالكفر ، حيث هو في سبيل الاهتداء ليسمع كلام الله في مساجد الله ، فالشهادة على النفس بالكفر هي الاستقرار الصامد على الكفر ، شهادة في القال والفعال مع شهادة الحال.

هذا ، ومن شهادتهم على أنفسهم بالكفر طقوس الكفر التي يعملونها في مساجد الله ، كالطواف عريانا حول البيت مكاء وتصدية وقولهم «لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك» وسائر طقوسهم الكافرة في سائر مساجد الله.

ثم ﴿أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ﴾ ككل وفي مساجد الله ، والأعمال الحابطة بها خابطة ، فيها مس من كرامة مساجد الله ، كمن يصلي في مسجد دبر القبلة أم دون طهارة أماهيه من حبط للصلاة وخبط فيها.

وفي نظرة أخرى إلى الآيتين نقول :

حظر عمارة المساجد ـ ومنها دخولها ـ محصور في ﴿شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ فما هي هذه الشهادة؟ والكافر بصير بنفسه أيا كان!

من شهادتهم على أنفسهم بالكفر حالة الصمود والجمود فيه ، فالكافر

المتحري عن إيمان غير شاهد على نفسه بالكفر ، لا عابرا متحريا في شك مقدس ، فلا حظر عن عمارته المسجد.

ومنها الالتزام في كفرهم بالطقوس الكافرة قالا وأعمالا إلى حال ، فقالة الكفر وأعماله للداخل في مساجد الله إزراء بها وبالمؤمنين بالله.

فأما إذا هو كافر لا يشهد هكذا على نفسه بالكفر ، بل ويعمل عمل الإيمان ضمن المؤمنين لأنه محايد مهما لم يكن متحريا ، فقد يجوز دخوله مساجد الله ، إذ لا ضير فيه ولا مس من كرامة ، وقد يجوز اهتداءه في خضمّ الجماعات الإيمانية بطقوسها.

فالكافر المتغيب كفره تحريا عن إيمان ، أم دون تحر على إيمان ، مسالمة ومحايدة مع أهل الإيمان ، قد يجوز له عمارة مساجد الله ، وأما محظور الجنابة فقد يدخل في دوران الأمر بين الأهم والمهم وما أشبه.

والأصل من محظور عمارة مساجد الله هو الصدّ عن أن يذكر فيها اسم الله ، أو يعارض بذكر اسم غير الله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعى فِي خَرابِها أُولئِكَ ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إِلَّا خائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢ : ١١٤).

ذلك ، وقد تعين «ما كان» هنا وهناك الإخبار إلى الإنشاء والإنشاء إلى الإخبار ، فبالنسبة للعمارة الروحية إخبار ، ولغيرها إنشاء ، و «ما كان» تضرب إلى أعماق الإخبار والإنشاء.

ولأن الأصل في عمارة المسجد الحرام عمارة الإيمان الصالح ، لا فقط عمارة البنيان والعامرون هم غامرون في الكفر ، خراب عن الإيمان ، لذلك تأتي النبهة الثالثة :

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(١٩).

فلقد كانت للمشركين ﴿سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ قاضية عن عمارة الإيمان ـ منقبة يفتخرون بها على المؤمنين بالله واليوم الآخر والمجاهدين في سبيل الله ، فواجههم ذلك التنديد الشديد ، ولكي يعرفوا أن الأصل في عمارة المسجد الحرام هو عمارة الإيمان ، وإمارته على أهل الإيمان ، فمسجد الضرار مسجد في عمارته كسائر المساجد ، ولكنه يهدم ويحرق بأمر الله لأنه كان إرصادا لمن حارب الله ورسوله ، ف ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا الْحُسْنى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ. لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ. أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٩ : ١٠٧ ـ ١١٠).

فالمسجد الحرام أسس على التقوى من أوّل يوم أحق أن تقوم فيه ، ثم مسجد الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) وما أشبه ، ولا مكانة لسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وإمارته للمشركين أمام عمارة الإيمان وإمارته ، وحضور المؤمنين فيه تطبيقا لشعائر الله.

ومهما نزلت الآية ـ بين منازل النزول ـ في عباس وشيبة وعلي (عليه السلام) ترتيبا عمليا بينهم : سقاية الحج وعمارة المسجد الحرام ومن آمن بالله ولكنها طليقة بين الجانبين ، ثم ظاهر المقابلة أن سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كانتا لمن هو يقابل الجانب الآخر مهما كان له إيمان ، فقد قيل إن عليا (عليه السلام) قال للعباس يا عم ألا تهاجر؟ ألا تلحق برسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم)؟ فقال : ألست في أعظم من الهجرة؟ أعمر المسجد الحرام وأسقي حاج بيت الله فنزلت هذه الآية [1].

---

(١) نور الثقلين ٢ : ١٩٤ في مجمع البيان قيل : إن عليّا (عليه السلام) : .. ومثله في الدر .

وهنا «سقاية وعمارة» مصدران تقابلان ب «من آمن»؟ ولا تقابل بين مصدر وفاعل! ، علّ القصد منهما بصورة المصدر هو سيرة الفاعل لهما ، أنهما أصبحا سقاية وعمارة حيث أصبح كيانهما ككل إياهما دون

ـ المنثور ٣ : ٢١٨ عن عبد الله بن عبيد قال قال علي (عليه السلام) : وفيه روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني باسناده عن ابن بريدة عن أبيه قال : بينما شيبة والعباس يتفاخران إذ مر بهما علي بن أبي طالب (عليه السلام) فقال : بماذا تتفاخران؟ فقال العباس : لقد أوتيت من الفضل ما لم يؤت أحد ، سقاية الحاج ، وقال شيبة : أوتيت عمارة المسجد الحرام فقال علي (عليه السلام) : استحييت لكما فقد أوتيت على صغري ما لم تؤتيا ، فقالا : وما أوتيت يا علي؟ فقال : ضربت خراطيمكما بالسيف حتى آمنتما بالله فقام العباس مغضبا يجر ذيله حتى دخل على رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وقال : أما ترى إلى ما استقبلني به علي؟ فقال : ادعوا عليا فدعى له ، فقال : ما دعاك إلى ما استقبلك به عمك ، فقال يا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) صدمته بالحق فمن شاء فليغضب ومن شاء فليرضى فنزل جبرئيل (عليه السلام) وقال : يا محمد ربك يقرؤك السلام ويقول أتل عليهم ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ﴾

وفيه عن تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : قيل لأمير المؤمنين (عليه السلام) يا أمير المؤمنين أخبرنا بأفضل مناقبك ، قال : نعم كنت أنا وعباس وعثمان بن أبي شيبة في المسجد الحرام ، قال عثمان أعطاني رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) الخزانة يعني مفاتيح الكعبة ، وقال العباس : أعطاني رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) السقاية وهي زمزم ولم يعطك شيئا يا علي ، قال : فأنزل الله ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ﴾.

اعتبار لسواهما من منازل الكمال مكانة ، ولكن من ﴿آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ وإن لم يصبح كيانه ككل إياها فهو أفضل من الأولين ، فالإيمان القليل أفضل من كثير السقاية والعمارة وعمارة المسجد الحرام ممن لا يؤمن ، كما وأن الإيمان الأكثر دون سقاية وعمارة هو أفضل من الأقل بكل سقاية وعمارة للمسجد الحرام.

فما أحسنه تعبيرا قاصدا لمثل هذه العناية الأدبية الرقيقة المنبّهة لموقف الإيمان أمام سواه.

ونظيرة الآية في مقابلة الفعل بالفاعل ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (٢ : ١٧٧).

ذلك ف ﴿لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ﴾ : سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كأصل ، ومن آمن بالله كأصل آخر ، وإن كانا من المؤمنين ، حيث الرجاحة دائما هي لأصل الإيمان قبال الكفر ، ولفاضل الإيمان قبال مفضوله دون أية فضيلة أخرى وجاه الإيمان ولواحقه.

ثم ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ مهما كانوا سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ، وهو يهدي المؤمنين وإن لم يسقو الحاج ولم يعمروا المسجد الحرام.

وقد يدل قرن «من آمن» ب «سقاية» على عدم إيمان من نزلت الآية نكاية به [١] ، وكما ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ تؤيده ، أم يعنى معه كامل الإيمان أمام ناقصه تبيينا أن الإيمان بملحقاته هو ـ فقط ـ سند الفضيلة والأفضلية بمراتبه أمام فاقديها.

---

(١) الدر المنثور ٣ : ٢١٨ عن ابن عباس قال قال العباس حين أسر يوم بدر : إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفك العاني فأنزل الله هذه الآية. وعن ابن عباس أن المشركين قالوا : عمارة بيت الله والقيام على السقاية خير من الإيمان والجهاد فذكر الله خير الإيمان به سبحانه البيت والجهاد مع نبيه (صلّى الله عليه وآله وسلم) على عمران المشركين وقيامهم على السقاية.

إذا ف «أجعلتم» تشمل إلى جعل المشركين جعل بسطاء من المؤمنين ، هكذا جعل جاهل قاحل ، وكما يتأيد كلّ بمختلف ملامح الآية وما بعدها.

وقد أصفق الفريقان في روايتهم المتواترة أن الآية نزلت بشأن الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) مثلا عاليا للإيمان والجهاد ، أمام من يفتخر بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ، نذكر منهم عجالة تسعة عشر من الفطاحل كنماذج عن عشرات [1] بكلمة واحدة مشركة بينهم كما في الجمع بين الصحاح الستة من رواية الجمهور : أنها نزلت فيه (عليه السلام) لما افتخر طلحة بن شيبة والعباس فقال طلحة أنا أولى بالبيت لأن المفتاح بيدي ، وقال العباس أنا أولى أنا صاحب السقاية والقائم عليها ، فقال علي (عليه السلام) : أنا أولى الناس إيمانا وأكثرهم جهادا ،

---

(١) كما في ملحقات إحقاق الحق ٣ : ١٢٤ ـ ١٢٧ ، ممن أخرجه الثعلبي في تفسيره كما في العهدة لابن بطريق (٩٨) والواحدي في أسباب النزول (١٨٢) والخازن في تفسيره (٣ : ٥٧) والبغوي في معالم التنزيل المطبوع بهامش تفسير الخازن (٣ : ٥٦) وابن المغازلي في مناقبه وابن الأثير في جامع الأصول (٩ : ٤٧٧) والرازي في تفسيره (١٦ : ١٠) والگنجي في كفاية الطالب (١١٣) والقرطبي في تفسيره (٨ : ٩١) والنيسابوري في تفسيره (١٠ : ٦٠) وابن كثير في تفسيره (٢ : ٢٤١) وابن الصباغ المالكي في فصول المهمة (١٠٦) والسيوطي في الدر المنثور (٣ : ٢١٨ ـ ٢١٩) وفي لباب النقول في أسباب النزول (١١٥) والمير محمد صالح الكشفي الترمذي في مناقب مرتضوي (٤٠) والشبلنجي في نور الأبصار (١٠٥) والشوكاني في فتح القدير (٢ : ٣٠٣) والقندوزي في ينابيع المودة (٩٢).

وفي ملحقات الاحقاق ١٤ : ١٩٤ ـ ١٩٩ مستدرك عما في المجلد (٣) هو : الزمخشري في ربيع الأبرار (٤٨٤) وابن المغازلي في المناقب (١١٧) والثعالبي في ثمار القلوب (٥٤٣) والبغدادي في المنتخب من صحيح البخاري ومسلم (٢١٦) والشافعي في المناقب (١٦١) وابن كثير في تفسيره (٤ : ٣٥٩) والأبشهي في المستطرف (١ : ١٢١) وابن الصباغ في الفصول المهمة (١٠٦) والقنفوري في نزهة المجالس (٢ : ٢٠٩) واليزدي في شرح الديوان (١٧٧) والزرندي في نظم درر السمطين (٨٨) والحمويني في فرائد السمطين (٤٨ و ٤٩) والأمر تسرى في أرجح المطالب (٦٤).

فأنزل الله هذه الآية.

أجل وإنه لا مفاضلة ولا مفاصلة إلّا في مثلث : الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والجهاد في سبيله ، دون سائر المفاضلات والمفاصلات أو المعادلات المزعومة ، وكما تعلمنا كلمة واحدة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾ وترى كيف ترك هنا الإيمان بهذه الرسالة السامية وهي أصل للجهاد في سبيل الله؟

علّه لأن هذه الثلاثة لا تتم إلّا على ضوء هذه الرسالة ، ولا سيما الجهاد في سبيل الله ، حيث الأولان مستفادان من حجة العقل كخطوة أولى ، ولكن سبيل الله فضلا عن الجهاد في سبيله لا تعرف إلا بوسيط الوحي الرسولي ، وكما هو تكملة لوحي العقل الهادي إلى الله واليوم الآخر.

ذلك ، وإذا كانت سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام قضية الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيله ، فهي محبورة محسوبة بحساب الإيمان ، فإنما المقابلة بينهما تعني مجردهما عن الإيمان قبال اللّاإيمان ، أم مصحوبهما بقليل الإيمان أمام كثير الإيمان.

فللإيمان بالله موضوعية ليست لسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام إلّا على ضوء الإيمان قدره ، فلا يقاس تفضيلا أو تعديلا بالإيمان إلا نفس الإيمان وهنا ﴿لا يَسْتَوُونَ﴾ سلب لأفضلية غير الإيمان بأحرى وأولى.

ذلك ولما «أرادوا أن يدعوا السقاية والحجابة قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا تدعوها فإن لكم فيها خيرا» [1] ولقد كان يطلب وهو في المدينة ماء زمزم ليشرب منه [2] وذلك كرامة للمؤمن الساقي والعامر

---

(١) الدر المنثور ٣ : ٢١٩ ـ أخرج أبو الشيخ عن الحسن في قوله : ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ﴾ قال : أرادوا.

(٢) المصدر أخرج عبد الرزاق والأزرقي عن أبي جريج عن ابن أبي حسين قال : كتب رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) إلى سهيل بن عمرو إن جاءك كتابي ليلا فلا تصبحن وإن.

دون سواه :

ويا لزمزم من بركة ورحمة وشفاء لا توجد لغيرها من عيون الأرض كلها ، فطالما وردت عن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) الوصايا بشأنها (١).

و «كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا أراد أن يتحف الرجل

. جاءك نهارا فلا تمسين حتى تبعث إلى بماء من ماء زمزم فملأ له مزادتين وبعث بهما على بعير.

وفيه أخرج الدار قطني عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : خمس من العبادة : النظر إلى المصحف والنظر إلى الكعبة والنظر إلى الوالدين والنظر في زمزم وهي تحط الخطايا والنظر في وجه العالم.

(١) المصدر أخرج البخاري والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) جاء إلى السقاية فاستسقى فقال العباس يا فضل اذهب إلى أمك فأت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بشراب من عندها فقال اسقني فقال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إنهم يجعلون أيديهم فيه فقال اسقني فشرب منه ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها فقال : اعملوا فإنكم على عمل صالح لو لا أن تغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذه وأشار إلى عاتقه ، وفيه أخرج ابن سعد عن علي (عليه السلام) قال قلت للعباس سل لنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ألا نأتيك بماء لم تسمه الأيدي؟ قال : بلى فأسقوني فسقوه ثم أتى زمزم فقال : استقوا لي منها دلوا فأخرجوا منها دلوا فمضمض منه ثم مجه فيه ثم قال : أعيدوه ثم قال : إنكم على عمل صالح ثم قال : لو لا أن تغلبوا عليه لنزلت فنزعت معكم.

وفيه أخرج المستغفري في الطب عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ماء زمزم لما شرب له من شربه لمرض شفاه الله أو جوع أشبعه الله أو لحاجة قضاها الله.

وفيه أخرج الطبراني عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خير ماء على وجه الأرض زمزم فيه طعام من الطعم وشفاء من السقم ، وفيه أخرج الديلمي في مسند الفردوس عن صفية عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ماء زمزم شفاء من كل داء ، وفيه عن ابن عباس قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم.

بتحفة سقاه من ماء زمزم» [١].

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خالِدِينَ فِيها أَبَداً إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٢).

تتمة من المواصفات للمفضّلين على سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ، وهنا ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ﴾ بالنسبة لمن دونهم من المؤمنين حقيقة التفضيل ، ولغير المؤمنين مجارات في التفضيل ، أن لو كانت مجرد السقاية والعمارة فضلا فهؤلاء المؤمنون هم ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ﴾ الذي تسقون حاجّه وتعمّرون بيته ، ففي مثلث المتحملات بين الإيمان وشروطه وغير الإيمان هو أعظم من سواه ، دون مساوات فضلا عن تفضيل اللّاإيمان على الإيمان ، ثم الإيمان الأكمل أفضل من سواه مهما حمل سواه من فضائل متخيلة.

وهنا «رحمة ورضوان» قبل وقبال «جنات» تدل أنهما فوق هذه الجنات ، فهي جنات معرفية «رحمة» لنا منا بفضل الله ، وأخرى روحية من الله فينا «رضوان» ﴿وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٩ : ٧٢) ﴿قُلْ أَأُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَأَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ﴾ (٣ : ١٥).

ذلك ، فهنا «رضوان» بعد «رحمة» هو أفضل مصاديق الرحمة الطليقة ، فالمعرفة هي سبيل الرضوان ، فهو أصل الرحمة وأثافيّها ، وهنا المعرفة للعبودية والعبودية هي سبيل الرضوان ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾. ثم و ﴿خالِدِينَ فِيها﴾ تعم هذه الثلاثة وبقمّتها «رضوان» من الله.

وهنا ﴿نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ هو قضية فضله تعالى ، فليس العذاب ـ إذا ـ

---

(١) المصدر أخرج أبو نعيم عن ابن عباس أن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) :

مقيما لأنه قضية عدله حيث : ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها﴾.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(٢٣).

فإنما الولاية هي ولاية الله بكل أبعادها اللائقة بالله ، ثم وفي سبيل ومرضاته ولاية أولياء الله ، وقضية الإيمان بالله أن ﴿لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ﴾ فولايتهم أولاء انتقاض للإيمان أو انتقاص من الإيمان ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ المنتقضون الإيمان ، أو المنتقصون من الإيمان.

وهنا ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا﴾ تعم إلى كفارهم منافقيهم حيث الاستحباب لا يعني مقولة اللفظ فقط ، بل هو مقولة القلب ثم القالب له مظهر ، فاستحباب الكفر في ثالوثه أم ضلع من أضلاعه استحباب ، مهما كان الجمع أغلظ ، فإنه للإيمان أرفض.

وليس فقط «لا تتخذوا أولياء» بل وحاربوهم على ولاية الله كما تحاربون سائر الكفار دون تمييز ، وكما يروى عن الإمام علي (عليه السلام): «ولقد كنا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نقتل آبائنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا ما يزيدنا ذلك إلا إيمانا وتسليما ومضيا على اللقم وصبرا على مضض الألم وجدا على جهاد العدو» [1].

أجل وفي مسرح الإيمان بآصرة القلب الواعي تتقلب سائر الأواصر من الدم والنسب والحسب ، وتبطل ولاية القرابة في أسرة وسواها ، فلله الولاية الأولى وعلى هامشها ولاية أولياء الله ، قدر ما قدره الله ، بعيدة عن ولاية الله نفسه حيث هي تخصه ربوبية ، كما ولاية الخلق تخصهم عبودية دونما خلط ولا غلط.

﴿قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

---

(١) نهج البلاغة للسيد الشريف الرضي عنه (عليه السلام).

وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾(٢٤).

رغبات ثمان تعرض بمسرح الحب أمام الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فقضية الإيمان هي أن الأحب إلى صاحبه هو الله أصيلا ، ثم الرسول فصيلا لرسالته عن الله ، و ﴿جِهادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ وسيلا وصيلا لمرضاته.

فمخمس «آباءكم ـ أبناءكم ـ إخوانكم ـ أزواجكم ـ عشيرتكم» يحلّق على كافة الصّلات النسبية والسببية أماهيه من صلات حيوية ، فإن «آباءكم» تشمل الوالدين ، بل والأعمام والأخوال والعمات والخالات ، و «أبناءكم» تشمل البنات إلى الأولاد والأحفاد منهما أو أحدهما ، و «أزواجكم» تشمل إلى البعولة الزوجات في مثلثة الزواجات دائمة ومنقطعة وأمة ، ثم «وعشيرتكم» تعم كل الوصائل والفصائل البعيدة نسبيا وسببيا وودّيا.

ومثلث ﴿أَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها ـ وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها ـ وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها﴾ تعم كافة الرغبات المالية ، حاضرة ك ﴿أَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها﴾ ومستحضرة لمستقبل : ﴿تِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها﴾ ثم أمكنة لكم بمن يتصلون بكم ، أم لأموالكم ، أم لتجاراتكم : ﴿وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها﴾.

فقد حلّقت تلك الثمانية على كل الرغبات الحيوية لنا حيث نعيشها ونعيّش بها ، ونحن في وسط بينها أن نبصر إليها دون نفاذ عنها إلى مرضات الله فتعمينا : ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾ أو أن نبصر بها فتبصّرنا فإيمانا بالله وهجرة في الله وجهادا في سبيل الله ، وعلى حد المروي عن الإمام علي (عليه السلام) بشأن الدنيا و «من أبصر بها بصرته ومن أبصر إليها أعمته».

هناك في حقل الولاية المحظورة يذكر فقط «الآباء والإخوان» دون البقية المذكورة هنا ، لأنهما ـ فقط ـ مسرح الولاية والنفاذ في أمور

الإنسان دون الملحقين به العائشين على هامشه ، وهنا في حقل الحب يأتي دور البقية مع الآباء والإخوان.

ولأن الحب الأعلى هو للأغلى فليكن الله ورسوله أحب إلى المؤمن حتى من نفسه فضلا عما سواها ، فحين يقول عمر : والله لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلّا من نفسي ـ يجيبه : «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» (١).

ولأن الحب ليس إلّا نحو الكمال فالمحبوب ـ إذا ـ ليس إلا الكمال بمن يحمله ، فالأحب هو الأكمل ، ففي مثلث حب الإنسان نفسه ، وسواها من خلق ، وربه ، لا ميزان لأصله ولا فصله إلا أصل الكمال وأكمله ، إذا فحب من سوى الله أو ما سواه دونه إلحاد حادّ ، ثم كون غير الله أحب إليك من الله إلحاد وسط بإشراك ، ومن ثم التسوية في الحب بين الله وسواه إشراك خالص ، والتوحيد هو أن يكون الله أحب إليك مما سواه ، ولكلّ دركات ولتوحيد الحب درجات ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (٢ : ١٦٥) قالا وحالا وأعمالا ، والتوحيد الحق في حب الله هو أن لا تحب إلّا إياه ، ثم تحب ممن سواه من يحبه الله فتحبه في حب الله قدره ، وأدنى درجات حب الله هو الرجاحة القلبية لحبه على من سواه ، فالرجاحة العملية لحب من سواه أو ما سواه ضعف في مظهر الإيمان ، كاشفا عن ضعفه في القلب.

ولأن المؤمنين بصورة طليقة تشمل إلى المعصومين العدول والفساق الذين دخل الإيمان في قلوبهم ، والذين أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم ، بل والمنافقين ، فالتنديد هنا موجه أولا إلى الأخيرين ، حيث المنافق يحب غير الله أكثر منه علما وتقصيرا ، والمسلم الساذج قبله يحب هكذا قصورا عن تقصير وجهالة ، ثم إلى فساق المؤمنين حيث الفسق عمليا

---

(١) الدر المنثور ٣ : ٢٢٣ ـ أخرج أحمد والبخاري عن عبد الله بن هشام قال كنا مع رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال : والله فقال (صلّى الله عليه وآله وسلم) : لا يؤمن.

ترجيح لغير الله على الله في المظهر ، كاشفا عن ضعف الإيمان.

ومحور التنديد في مراتب الحب هنا أن يكون غير الله أحب إليك منه ، لا لأن التسوية غير محظورة ، وإنما لعناية مظاهر الحب بين الله وما سواه ، حيث الفسوق عمليا هو مظهر من مظاهر الترجيح لغير الله على الله ، وأما الحب قلبيا فأقل درجاته في حقل الإيمان أقل رجاحة لحب الله على ما سواه ومن ثم درجات إلى حب العصمة وعصمة الحب.

ذلك ف «من الإيمان كون الله ورسوله أحب إلى المرء من سواهما» (١) تقديما لحب الله وعلى ضوءه حب النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) وهكذا يكون «حب النبي من الإيمان» (٢).

ذلك حب الله أصالة وحب رسوله رسالة ، ومن لزامات ثاني الحبين حب الأئمة من أهل بيته (عليهم السلام) وكما يروى عنه متواترا : «عنوان صحيفة المؤمن حب علي»(٣)«حب علي براءة من النار» (٤) و «من مات على حب آل محمد مات شهيدا» (٥) «أساس الإسلام حبي وحب أهل بيتي» (٦).

وهذه الآية تنديدة شديدة مديدة بهؤلاء الذين ظلوا بعد الفتح بمكة

---

(١) مفتاح كنوز السنة نقلا عن بخ ـ ك ٢ ب ٩ و ١٤ ، ك ٧٨ ب ٤٢ ، ك ٨٩ ب ١ ، ك ٩٣ ب ١٠ ، مس ـ ك ١ ح ٦٦ ـ ٦٨ ، ك ٤٥ ح ١٦١ ـ ١٦٥ ، تر ـ ك ٣٨ ب ١٠ ، ك ٣٤ ب ٥٠ ، نس ـ ك ٤٨ ب ٢ ـ ٤ ، حم ـ ثالث ص ١٧٢ و ١٧٤ و ١٩٢ و ٢٠٠ و ٢٠٢ و ٢٠٧ و ٢٠٨ و ٢١٣ و ٢٢٦ و ٢٢٧ و ٢٢٨ و ٢٣٠ و ٢٥٥ و ٢٧٥ و ٢٧٦ و ٢٧٨ و ٢٨٣ و ٢٨٨ ط ـ ح ٢١٣١.

(٢) المصدر نقلا عن بخ ـ ك ٢ ب ٨ ، ك ٨٩ ب ١ ، ك ٩٣ ب ١٠ ، مس ـ ك ١ ح ٦٦ ـ ٧٠ ، تر ـ ك ٣٤ ب ٥٠ ك ٣٨ ب ١٠ ، نس ـ ك ٤٦ ب ٣ ـ ٤ و ١٩ و ٢٠ ، مى ـ ك ٢٠ ب ٢٩ ، حم ـ ثالث ص ١٧٢ و ١٧٤ و ١٧٧ و ١٩٢ و ٢٠٠ و ٢٠٢ و ٢٠٧ و ٢٠٨ و ٢١٣ و ٢٢٦ و ٢٢٧ و ٢٢٨ و ٢٣٠ و ٢٥٥ و ٢٧٥ و ٢٧٦ و ٢٧٨ و ٢٨٣ و ٢٨٨ ، رابع ص ٢٣٣ و ٢٣٦ ، خامس ص ١٧٠ و ٢٣٣ و ٢٣٦ و ٢٩٣ ط ـ ح ٢١٣١.

(٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦). هي متواترة في عشرات من الروايات عن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) كما في ملحقات إحقاق الحق فليراجع.

مصلحية الحفاظ على أموالهم وأهليهم خوف تهدّرهما رغم التهدّر من دينهم واستمرارية السلطة المشركة عليهم.

ذلك ، ثم «لا تجعلن أكثر شغلك بأهلك وولدك ، فإن يكن أهلك وولدك أولياء الله فإن الله لا يضيع أولياءه ، وإن يكونوا أعداء الله فما همك وشغلك بأعداء الله» [١].

وهنا سير تنازلي في الولاية أمام الله ، ألّا تولوا الكافرين من هؤلاء ، ثم لا يكونوا أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله وإن كانوا مؤمنين ، فالآية السابقة للأولى ، والأخرى للأخرى ، توحيدا وطيدا لولاية الله ورسوله وحبه والجهاد في سبيله ، تفضيلا فضيلا له على من سواه من نفس أو نفيس ، فإن كل متعلق دون الله نحيس بخيس.

ثم ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ توعيد بمن يحب غير الله أكثر من الله مهما كان مؤمنا ، فضلا عن حب الكافرين من الأقارب أو تولّيهم فإنهم ـ إذا ـ حيّات وعقارب.

و «أمره» المتوعد هنا يعم أمر الحياة لهم إلى أن يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥ : ٥٤) ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ (٩ : ٣٩).

ومن هؤلاء ـ إلى الذين يأتون في آخر الزمان ـ هم الذين فتح الله بهم مكة المكرمة ، فحين لم يهاجر جماعة من المؤمنين إلى المدينة تحببا إلى أموالهم وأهليهم وتحفظا عليهم فليتربصوا ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ بمن يفتح الله بهم عاصمة الدعوة وأنتم بعد لازقون بها مخلدين إليها لازمين ، رغم كرور الأمر بالهجرة عنها.

وذلك التجرد عن كل آصرة أمام حب الله يطالب به الفرد والجماعة

---

(١) نهج البلاغة (٣٥٢ ح / ٦٣٦ عن الإمام علي (عليه السلام).

المؤمنة ، أن يتصبّغوا بصبغة الله ، فرغم أنه شاقّ حسب الطبيعة البشرية ، ولكنه سهل يسير على المؤمن الذي يخشى الله ، ولا يخشى أحدا إلّا الله.

فالتجرد في الله عن كل آصرة ووسيلة ووصيلة وفصيلة ، عن كل نفس ونفيس ، هو قضية الإيمان الصادق الأمين بالله ورسوله ، فجهاد في سبيله.

الفهرس

التمسيك بالكتاب هو الاصلاح .... ٨ ـ ١٢
الذرية وهي الفطرة في قول فصل ـ العلوم غير الفطرية المتناقضة حتى المنطق فضلاً عن سواه؟
(٦٦) تناقضاً بين المنطقين .... ١٤ ـ ٤٩
آتيناه آياتنا! فانسلخ منها ... كلام حول قصص القرآن .... ٤٩ ـ ٥٧
الأسماء الحسنى؟ .... ٦١ ـ ٦٨
يسألونك عن الساعة ـ ولو كنت أعلم الغيب؟ .... ٧٩ ـ ٨١
آدم وفرية الاشتراك في قول فصل ـ خذ العفو بكل معانيه؟ .... ٨٤ ـ ٩٠
وجوب استماع القرآن والاتصات له؟ .... ١٠٤ ـ ١١١
«سورة الأنفال»
ما هل الأنفال؟ .... ١١٦ ـ ١٢٤
«أخرجك ربك من بيتك»؟ .... ١٢٧ ـ ١٣٢
تلتيكات الحروب الاسلامية في القرآن ـ حديثة النوم؟ وما رميت اذ رميت ..؟ ـ ١٣٣ ـ ١٦٢
حيلولات الله بين المرء وقلبه؟ .... ١٦٦ ـ ١٧٦
مكر كافر ضد النبي (ص) .... ١٩٣ ـ ١٩٧
حياة الرسول والاستغفار يمنعان العذاب؟ .... ٢٠٤ ـ ٢٠٥
الايمان بعد الكفر يغفر؟ .... ٢٠٩ ـ ٢١١
قتال دائب اسلامي حتى .... ٢١١ ـ ٢١٤

آية الخمس في قول فصل فقهي واسع؟........................ ٢١٤ ـ ٢٤٤
«واعدو لهم ما استطعتم ..» تشمل واجب التقدمات الحيوية في مظاهرها كلها ٢٧٩ ـ ٢٧٨
«وان جنحو للسلم ..»؟.. ٢٧٨ ـ ٢٨٣
«ان يكن منكم عشرون ..» منسوخة أم مستمرة حسب الظروف؟ .... ٢٨٥ ـ ٢٩٢
تهافات رسالة آيات من البرامقيين أبي بكر وعلي؟........................ ٣٠٩ ـ ٣٢٢
استجاره المشرك تجير فضلاً عن سواه .... ٣٤٠ ـ ٣٤٥
شروط الأخوة في الدين ـ الثلاثة ؟.. ٣٥٣ ـ ٣٥٤
قتال أئمة الكفر واجب بأسبابه؟ فإنكم لا تُتركون!........................ ٣٥٥ ـ ٣٦٧
أهلية عمران مساجد الله؟ سقاية الحاج والايمان بالله؟........................ ٣٦٨ ـ ٣٨٢
الحب والبغض في الله من أصول الايمان ٣٨٢